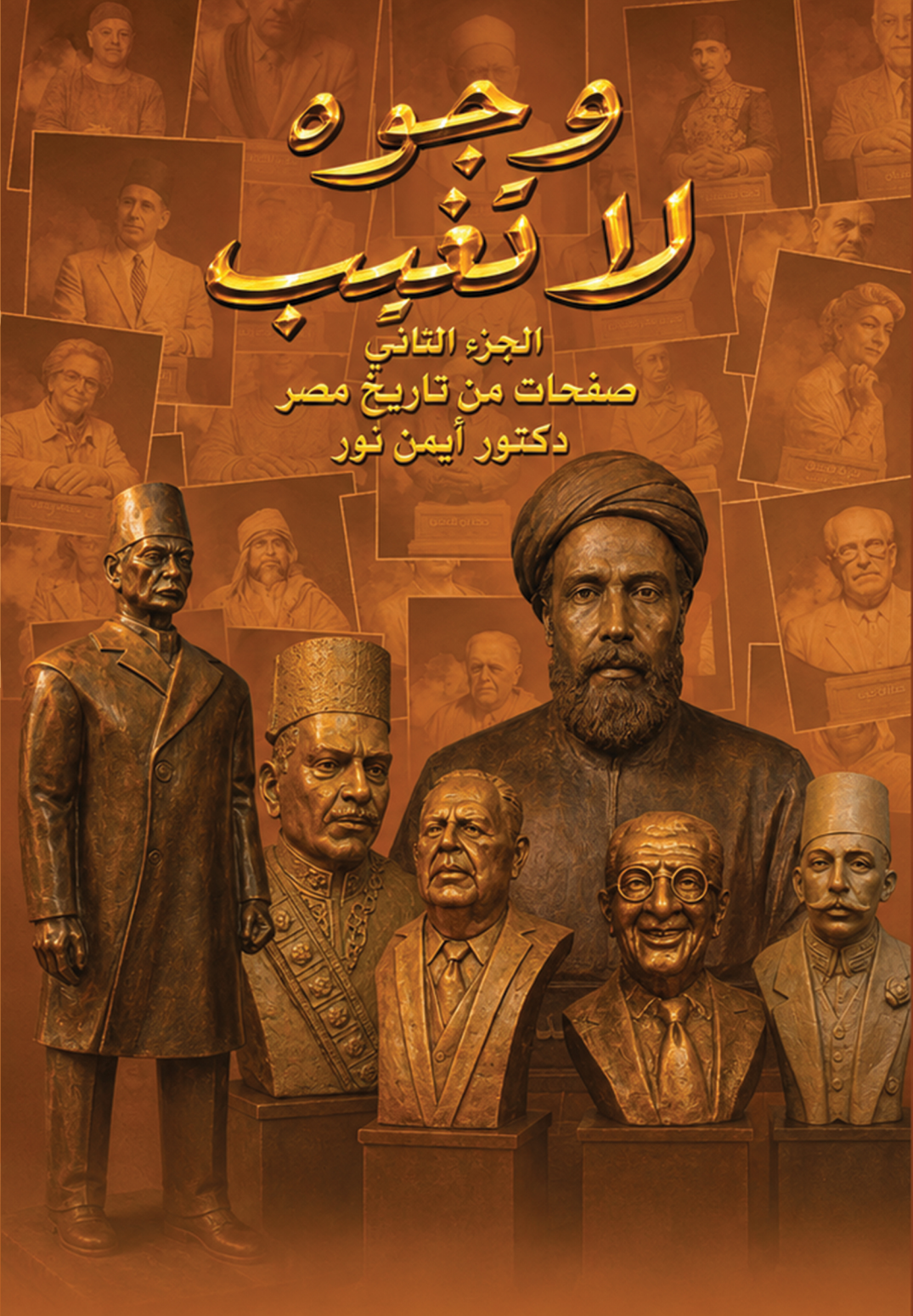
وجوه لا تغيب

الجزء الثاني

صفحات من تاريخ مصر

دكتور أيمن نور



وجوه لا تغيب

صفحات منسية من تاريخ مصر

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٤٧هـ ـ ٢٠٢٦م

وجوه لا تغيب

صفحات منسية من تاريخ مصر

بقلم : د. أيمن نور



(المقدمة)

ليس هذا كتابًا عن الماضي،

بل عن الذين ما زالوا يعيشون فيه...

لأنهم لم يغادروا ضمير هذا الوطن.

في هذه الصفحات لا أبحث عن الأبطال،

بل عن الوجوه التي لم تختفِ رغم أن التاريخ حاول أن يتجاوزها.

وجوهٌ عاشت في الظل،

أو أُبعدت إلى الهامش،

أو نُفيت خارج الجغرافيا،

لكنها بقيت في المعنى.

هذا كتاب عن مصر كما عرفتها:

ليست دولة القرارات،

بل دولة البشر.

ليست تاريخ العروش،

بل تاريخ الكلفة.

بعضهم مات فقيرًا،

بعضهم مات منفيًا،

بعضهم مات وحيدًا،

وبعضهم عاش حتى رأى أفكاره تُشوَّه...

لكنهم جميعًا اشتركوا في شيء واحد:

أنهم أحبّوا هذا الوطن أكثر مما يحتمل.

لم أكتب هذه الصفحات لأُؤرِّخ،

بل لأشهد.

ولم أجمع هذه الوجوه لأُقدّسها،

بل لأفهم لماذا يدفع الشرفاء الثمن دائمًا.

هذا الكتاب محاولة متأخرة للاعتذار

ومحاولة مبكرة للإنصاف.



✳وجوه لا تغيب – أحمد الطيب..
حارس الاعتدال والامام الـ ٥٠ للأزهر✳



في تاريخ مصر رجال لا يمرّون كأسماء في سجل الوظائف، بل كعلامات في ضمير الأمة. رجالٌ حين يذكرهم الناس لا يتذكرون

مناصبهم فقط، بل يتذكرون معنىً أعمق: معنى الحكمة حين تضيق السياسة، ومعنى الاعتدال حين تتكاثر الأصوات المتطرفة.

من هؤلاء القلائل يقف الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، الذي أرى – وما زلت – أنه واحد من أبرز رجال الفكر والتنوير والوسطية في مصر في زماننا.

ليست هذه الكلمات مجاملة عابرة، بل موقف قديم ومعلن. فقد وقفتُ مرارًا – في مقالاتي ومواقفي العامة – إلى جوار الأزهر حين كان صوت الاعتدال يحتاج إلى من يحميه، وإلى جوار الإمام الأكبر حين كان يواجه عواصف السياسة وضجيج الأيديولوجيا بثبات العالم وهدوء الصوفي.

أنتمي فكريًا إلى مدرسة التنوير الأزهرية التي بدأت مع الشيخ حسن العطار، ورفاعه رافع الطهطاوي، وبلغت ذروتها مع الإمام محمد عبده، ثم امتدت في القرن العشرين مع رجال كبار مثل الإمام عبد الحليم محمود.

مدرسةٌ تؤمن أن الدين نورٌ للعقل لا قيدٌ عليه، وأن الإيمان الحقيقي لا يخاف المعرفة، بل يفتح لها الأبواب. وفي تقديري أن أحمد الطيب هو أحد الامتدادات المعاصرة لهذه السلسلة الذهبية من علماء الأزهر.

علاقتي الشخصية بالإمام الأكبر لم تكن يومًا علاقة مجاملة سياسية، بل علاقة تقدير صادق لرجلٍ حافظ على مكانة الأزهر في زمنٍ كانت فيه المؤسسات تتعرض لرياح قاسية. رأيته عن قرب في لحظات كثيرة، وخرجت دائمًا بانطباع واحد: هذا الرجل يحمل في صوته هدوء الصعيد، وفي منطقه عمق الأزهر، وفي روحه شيئًا من صفاء المتصوفة الذين يرون العالم بعين القلب قبل عين السياسة.

في ١٩ مارس ٢٠١٠ تولى الإمام الأكبر مشيخة الأزهر خلفًا للإمام الراحل محمد سيد طنطاوي. يومها كانت الأنظار تتجه إلى المؤسسة الدينية الأهم في العالم الإسلامي، وكانت التساؤلات كثيرة حول من يستطيع أن يقود هذا الصرح العريق في زمن تتقاطع فيه السياسة بالدين، والفكر بالصراع.

وقع الاختيار على الدكتور أحمد محمد أحمد الطيب، ابن القرنة في محافظة الأقصر، العالم الأزهري الذي درس العقيدة والفلسفة، وتدرج في مؤسسات الأزهر حتى أصبح مفتيًا للديار المصرية عام ٢٠٠٢، ثم رئيسًا لجامعة الأزهر، قبل أن يصبح الإمام الخمسين للأزهر الشريف.

لكن سيرة الرجل لا تختصرها المناصب.

ينتمي الإمام الطيب إلى المدرسة الأشعرية في العقيدة، وإلى المذهب المالكي في الفقه، كما يرتبط وجدانه بالروح الصوفية التي تشكل أحد أعمدة التدين المصري، إذ ينتمي إلى الطريقة الخلواتية التي يرأسها شقيقه الشيخ محمد الطيب في صعيد مصر.

ربما لهذا السبب تحديدًا يجمع الرجل بين الصرامة العلمية واللين الروحي؛ بين عقل الفقيه وقلب المتصوف.

على مدى ستة عشر عامًا في مشيخة الأزهر، وقف الإمام الأكبر في محطات كثيرة تحتاج إلى شجاعة العالم لا إلى صخب السياسي.

كان صوته واضحًا في الدفاع عن الوسطية الإسلامية، وعن فكرة أن الإسلام دين رحمة لا أداة صراع. وقف في وجه موجات التطرف التي حاولت احتكار الدين، كما وقف في وجه محاولات تسييس الدين حين حاولت السياسة أن تستخدمه وقودًا لصراعاتها.

كان حضوره في وثيقة الأزهر واحدًا من اللحظات المهمة في تاريخ الفكر السياسي المصري الحديث. تلك الوثيقة التي أكدت مبادئ الدولة الوطنية والديمقراطية وحقوق الإنسان وحرية الاعتقاد، وجدت مني دعمًا صريحًا منذ لحظتها الأولى، لأنني رأيت فيها محاولة جادة لربط القيم الإسلامية بروح الدولة المدنية الحديثة.

يومها ذهبت أبعد من الدعم السياسي، واقترحت أن يتولى الإمام الأكبر شخصيًا رئاسة لجنة إعادة صياغة الدستور، إيمانًا مني بأن الأزهر – في لحظات التحول الكبرى – يمكن أن يكون ميزان الحكمة بين صخب السياسة واندفاع الشارع. كان اقتراحًا لم يُكتب له القبول، لكنه بقي بالنسبة لي تعبيرًا عن قناعة راسخة بأن هذا الرجل يمتلك من الحكمة ما يجعله قادرًا على جمع الفرقاء لا على تأجيج الخلاف.

خلال سنوات مشيخته، برزت مواقف عديدة للإمام الطيب في الشأن العربي والإسلامي. وقف بوضوح ضد العنف باسم الدين، ورفض توظيف الفتاوى لتبرير الصراعات السياسية. كما كان صوته حاضرًا في الدفاع عن قضايا الأمة، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية، وفي الدعوة إلى الحوار بين الأديان والحضارات.

وفي زمنٍ امتلأ فيه العالم الإسلامي بأصوات الصدام، اختار الأزهر في عهده طريق الحوار، فكانت وثيقة الأخوة الإنسانية التي وقعها مع البابا فرنسيس في أبوظبي لحظة رمزية مهمة تؤكد أن الدين يمكن أن يكون جسرًا بين البشر لا جدارًا بينهم.

كثيرون يختلفون في السياسة، وهذا أمر طبيعي. لكن قليلين يختلفون حول قيمة الأزهر نفسه كمنارة علم واعتدال. وفي زمنٍ تتراجع فيه مكانة المؤسسات أحيانًا، نجح الإمام الأكبر في أن يحافظ على هيبة الأزهر بوصفه صوتًا للعلم والاعتدال في العالم الإسلامي.

لذلك أقولها بصدق: إنني ما زلت أرى في أحمد الطيب واحدًا من أهم رموز الاعتدال والتنوير في مصر المعاصرة. رجلٌ جمع بين عمق التراث ووعي العصر، وبين حكمة العالم وصفاء المتصوف.

ربما تختلف الآراء حول كثير من التفاصيل السياسية، لكن تبقى الحقيقة الأهم أن الأزهر في عهده ظل منارة للفكر الوسطي، وصوتًا للعقل في زمنٍ يكثر فيه الضجيج.

مدّ الله في عمر هذا الرجل، وحفظ به الأزهر الشريف، وجعل حكمته ميزانًا يقي الأمة من غلوّ المتطرفين وضيق المتعصبين.

لأن الأمم، مثل البشر، تحتاج أحيانًا إلى رجل هادئ...

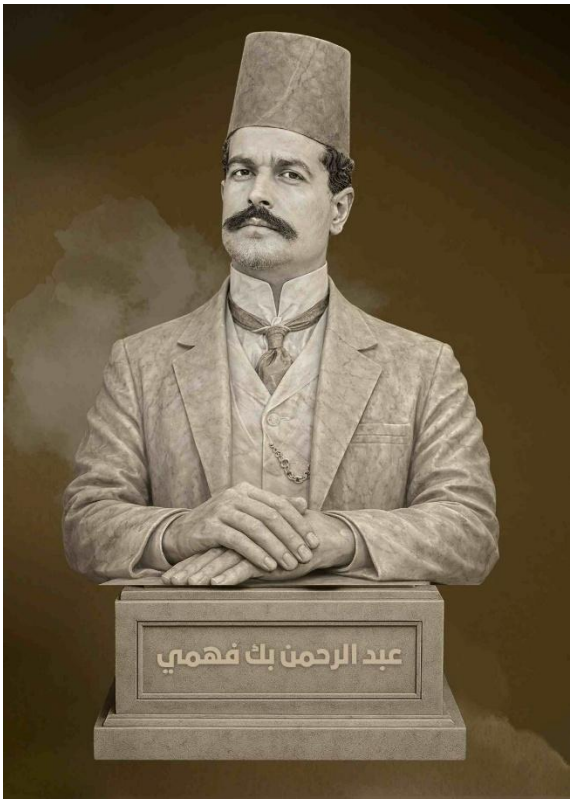
يقف في قلب العاصفة...

ويذكّر الجميع بأن الحكمة لا تصرخ... لكنها تبقى.



✳وجوه لا تغيب– عبد الرحمن بك فهمي✳

✳العقل السري لثورة ١٩١٩...
وثلاثة رجال صنعوا التاريخ وسقطوا منه✳



◆ بعض الرجال يكتبون التاريخ... وبعضهم يكتبه ثم يختفي اسمه من صفحاته

◆ قبل أن تخرج القاهرة إلى الشوارع، كانت المدينة تبدو هادئة على غير عادتها. صباحٌ رمادي من شتاء مارس، عرباتٌ تمضي ببطء في شوارع القاهرة، وباعةٌ يفتحون دكاكينهم على ضوء يومٍ جديد لا يعرف أحد كيف سينتهي.

◆ لكن شيئًا كان يتشكل في الخفاء. خبرٌ صغير بدأ يتسلل بين الأزقة: الإنجليز اعتقلوا سعد زغلول. في البداية ظنه الناس إشاعة، ثم سرعان ما تحول الهمس إلى يقين. خلال ساعات قليلة تغيّر وجه المدينة.

◆ لم تكن تلك اللحظة مجرد خبر سياسي؛ كانت لحظة انكسار في قلب المصريين. كان سعد زغلول بالنسبة لهم رمزًا لحلم الاستقلال، وحين اختفى فجأة خلف أسوار النفي إلى مالطا بدا كأن الاحتلال أراد أن يخطف الأمل نفسه.

◆ لكن ما لم يفهمه الاحتلال أن الأمل لا يُعتقل.

◆ وفي صباح ٩ مارس ١٩١٩ خرج طلاب مدرسة الحقوق أولًا، ثم انضم إليهم طلاب المهندسخانة، وسرعان ما تحولت القاهرة إلى موجة بشرية تتحرك في اتجاه واحد. كانت الهتافات ترتفع كأنها نداء قديم ظل حبيس الصدور طويلًا ثم وجد طريقه إلى الهواء.

◆ لم تكن الثورة قرارًا... كانت اكتشافًا مفاجئًا لقوة الشعب.

◆ في تلك اللحظة التي اشتعل فيها الشارع باسم سعد زغلول، كان هناك رجل آخر يعمل في صمت خلف الستار، رجل لم يكن اسمه يتردد في الهتافات لكنه كان أحد الأعصاب الحقيقية التي حرّكت الثورة: عبد الرحمن بك فهمي.

◆ لم يكن خطيبًا مفوهًا ولا زعيمًا سياسيًا. كان رجل تنظيم، عقلًا دقيقًا يعمل في الظل، يقود شبكة معقدة من الاتصالات السرية التي ربطت بين الشارع المصري وبين القيادات الوطنية في الخارج.

◆ تولّى قيادة الجهاز السري لثورة ١٩١٩. ومن خلال هذا الجهاز انتقلت الرسائل والتعليمات بين القاهرة والمنفيين في الخارج، وانتظمت الحركة الشعبية التي بدت للإنجليز وكأنها انفجار عفوي.

◆ الحقيقة أن ذلك الانفجار كان له عقل يديره... وكان ذلك العقل هو عبد الرحمن بك فهمي.

◆ كان يتلقى توجيهات الزعماء المنفيين، لكنه لم يكن مجرد ناقل للأوامر. كانت لديه سلطة التقدير، يقرأ الشارع المصري لحظة بلحظة، ويقرر ما يجب فعله في الوقت المناسب.

◆ بذلك المعنى كان سعد زغلول قائدًا سياسيًا ورمزًا للثورة، بينما كان عبد الرحمن فهمي قائدها التنظيمي الفعلي في الداخل.

◆ لم يكن هذا الدور مفاجئًا لمن يعرف تاريخ الرجل. فقد بدأ حياته ضابطًا في الجيش المصري، ثم عمل ياورًا لوزير الحربية، وكان معروفًا بمواقفه الوطنية الصلبة.

◆ لم يكن ذلك يرضي سلطات الاحتلال البريطاني. فقررت إبعاده عن الجيش ونقله إلى الشرطة. تنقل مأمورًا بين سمالوط وبني مزار وإمبابة وطنطا، لكنه ظل في كل موقع رجلًا يصعب إخضاعه لإرادة المفتشين الإنجليز.

◆ اصطدامه بالاحتلال كان مسألة وقت. أُبعد عن الخدمة وأُحيل إلى الاستيداع، ثم انتقل إلى العمل الإداري فصار وكيلًا لمديرية

القليوبية، ثم مديرًا لإقليم بني سويف، ثم مديرًا لمديرية الجيزة، قبل أن يصبح وكيلًا لعموم الأوقاف.

◆ وعندما جاءت الثورة، كان مستعدًا لها أكثر مما كان التاريخ مستعدًا لتذكره.

◆ لكن ذاكرة الأمم لا تحتفظ بكل شيء.

◆ بعد انتهاء الثورة وصعود الحركة الوطنية إلى السلطة، أصبح كثير من رجالها وزراء ورؤساء حكومات. أما الرجل الذي قاد جهازها السري، فقد عاد إلى الظل الذي خرج منه.

◆ ولم يكن وحده من دفع ثمن هذا الظل.

◆ في صعيد مصر كان يعيش رجل آخر من رجال الثورة: أسعد مشرفي ابن ديروط. شارك في العمل الثوري ضد الاحتلال، فحكم عليه الإنجليز بالإعدام، ثم خفف الحكم إلى السجن المؤبد.

◆ خرج الرجل من السجن بعد سنوات طويلة، لكنه خرج إلى عالم لم يعد يعرفه. لم يجد عملًا، ولم يجد مكانًا يليق بتاريخ نضاله، فانتهى به المطاف خفيرًا على كوبري المعاهدة قرب ديروط.

◆ يا للمفارقة القاسية: رجل كاد يُعدم لأنه قاوم الاحتلال... ينتهي حارسًا بسيطًا على جسر في أطراف مدينة منسية.

◆ وهناك أيضًا عبد القادر شحاتة، أحد رجال الثورة الذين اعتقلهم الاحتلال. خرج من السجن لكنه خرج أيضًا بوصمة اجتماعية ثقيلة: «رد سجون».

◆ عاش سنوات طويلة بلا عمل، حتى قيل إنه قضى نحو عشرين عامًا من البطالة القسرية.

◆ وعندما أصبح أحمد ماهر باشا رئيسًا للوزراء وعرف بما وصل إليه حال الرجل، تدخل ليمنحه وظيفة في بنك التسليف الزراعي في محاولة متأخرة لإنصاف رجل دفع ثمن الوطنية من عمره.

◆ هذه الحكايات ليست مجرد تفاصيل إنسانية متناثرة في هوامش التاريخ.

◆ إنها تذكير بأن الثورات لا يصنعها الزعماء وحدهم، بل يصنعها آلاف الرجال الذين لا تُكتب أسماؤهم على اللافتات.

◆ في كل ثورة واجهة مضيئة، وخلفها جيش من الوجوه الصامتة. بعضهم يصبح رمزًا، وبعضهم يعود إلى حياته العادية، وبعضهم يختفي من الكتب تمامًا.

◆ لكن التاريخ الحقيقي لا يكتبه الضوء وحده...

التاريخ يكتبه أيضًا الظل.

◆ لذلك حين تمر ذكرى ثورة ١٩١٩ يجب أن نتذكر أن وراء الزعيم سعد زغلول رجالًا صنعوا الثورة بصمت.

◆ رجال مثل عبد الرحمن بك فهمي الذي أدار عقلها السري، و**أسعد مشرفي** الذي دفع ثمنها سجنًا ونسيانًا، و**عبد القادر شحاتة** الذي عاش عمره يحمل جرحها.

◆ هؤلاء لم يكونوا نجوم المنصات...

لكنهم كانوا أعصاب الثورة.

◆ وربما لهذا السبب تحديدًا يجب أن تعود أسماؤهم إلى الضوء.

◆ لأن الأمم التي تنسى رجالها الحقيقيين تفقد جزءًا من ذاكرتها...

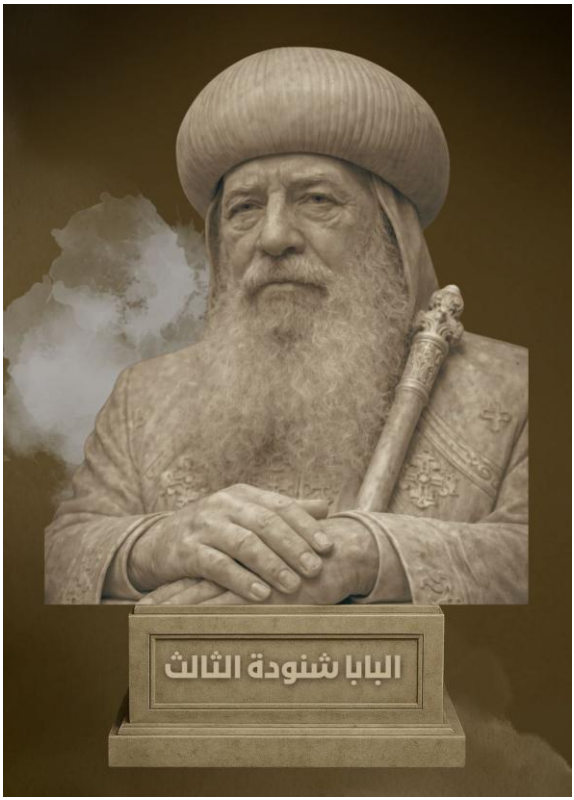
والذاكرة حين تضعف يصبح من السهل تزوير التاريخ.

- حقًا... ما أكثر من أهملهم التاريخ.



وجوه لا تغيب – البابا شنودة الثالث....

☀️ الرجل الذي جمعني فجأة لأول وآخر مرة بـ جمال مبارك والسفير الأمريكي ☀️ !



🔸 مع مرور الذكرى الرابعة عشرة لرحيله، هناك وجوه قليلة في تاريخ مصر استطاعت أن تجمع بين الوقار الروحي، والبصيرة

التاريخية، والذكاء المفرط، والحنكة السياسية، والروح الأدبية، وخفة الظل، في شخصية واحدة.

◆ من بين تلك الوجوه يبرز البابا شنودة الثالث، البطريرك السابع عشر بعد المائة في تاريخ الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، رجلٌ لم يكن مجرد قائد كنسي، بل صفحة كاملة من التاريخ المعاصر.

◆ ذاكرتي الشخصية مع البابا شنودة الثالث تمتد منذ بداية التسعينيات وحتى السنوات الأخيرة قبل رحيله في السابع عشر من مارس عام ٢٠١٢. لقاءات تكررت في مناسبات عديدة، غير أن أغلبها كان في احتفالات السابع من يناير، عيد الميلاد المجيد لدى الأقباط الأرثوذكس، حيث تتحول الكاتدرائية في تلك الليلة إلى فضاء وطني واسع يلتقي فيه المصريون على اختلاف مواقعهم واتجاهاتهم.

◆ لم تكن لقاءات غرفة البابا الخاصة، التي يلتقي فيها ضيوفه قبل النزول إلى قاعة الكنيسة الكبرى، مجرد لقاءات لمجاملات بروتوكولية عابرة، بل كانت لحظات حوار صادق، وأحيانًا ساخن، حول مصر ومستقبلها، وحول العلاقة الدقيقة التي تربط بين الكنيسة والدولة والمجتمع في بلد عريق مثل مصر.

◆ صورة من تلك الذكريات توثقها إحدى الصور المرفقة بهذه السطور، حين زار البابا شنودة الثالث دائرتي الانتخابية في باب الشعرية بدعوة مني. عُقد اللقاء في مدرسة التوفيق القبطية، وكان يديرها آنذاك الأستاذ المناضل جورج إسحاق. لم يكن اللقاء مجرد زيارة رمزية، بل محاولة لفتح مساحة هادئة للحوار في وقت كانت بعض الخلافات تتصاعد داخل المجتمع القبطي.

◆ سنوات التسعينيات شهدت توترات بين الكنيسة وبعض الرموز القبطية المدنية، وفي مقدمتهم المفكر المصري الكبير ميلاد حنا،

إضافة إلى صديقي الأستاذ جورج إسحاق. الاختلافات الصامتة كانت تدور حول دور الكنيسة وحدود العمل المدني، وحول العلاقة بين المؤسسة الدينية والحياة العامة.

◆ البابا شنودة الثالث كان يمتلك قدرة فريدة على إدارة الخلافات دون تنازلات. لم يكن سهلاً، ولا رجل مواجهات صاخبة، بل رجل إدارة محترفة للأزمات. يستمع طويلًا، ثم يتكلم قليلًا، لكن كلماته كانت غالبًا تحسم النقاش لصالحه.

◆ كثيرون لا يتذكرون أن البابا شنودة الثالث بدأ حياته صحفيًا قبل الرهبنة، وكان يكتب في جريدة الجمهورية باسم نظير جيد، وهو اسمه قبل الحياة الرهبانية. تلك الخبرة الصحفية تركت أثرًا واضحًا في لغته وثقافته وأسلوبه في الإقناع والتعبير، فضلًا عن أنه كان شاعرًا مبدعًا يحفظ الشعر ويكتبه قبل أن يكون بطريركًا وقائدًا كنسيًا.

◆ تكوينه العلمي كان له أيضًا أثر بالغ في رؤيته للأحداث. فقد تخرج في كلية الآداب – جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة لاحقًا) قسم التاريخ عام ١٩٤٧. دراسة التاريخ لم تكن بالنسبة إليه مجرد تخصص جامعي، بل نافذة لفهم مصر في تحولات قرن كامل.

◆ ذلك الشغف بالتاريخ جعله شديد الاهتمام بسيرة أحد أعظم بطاركة الكنيسة القبطية في العصر الحديث، وهو الأنبا كيرلس الخامس، الذي شارك في ثورتين وتعرض للنفي من البلاد بقرار من الخديوي. فقد شارك في ثورة عرابي، وكان يحضر بعض اجتماعات أحمد عرابي مع الأعيان، كما شهد أيضًا أجواء ثورة

١٩١٩، وجلس على الكرسي المرقسي في زمن كانت مصر تعيش فيه تحولات سياسية عميقة.

◆ أزمة كبيرة نشبت في زمن الأنبا كيرلس الخامس حول المجلس الملي، وهو مجلس مدني أُنشئ لإدارة شؤون الأوقاف والتعليم القبطي. سبب الأزمة كان دعم رئيس الوزراء آنذاك بطرس غالي باشا لفكرة توسيع دور المجلس، باعتبارها خطوة إصلاحية تمنح الأقباط دورًا مدنيًا أوسع في إدارة شؤونهم.

◆ غير أن الأنبا كيرلس الخامس رأى في ذلك مساسًا بسلطة الكنيسة الروحية، واعتبر أن تدخل المجلس الملي في شؤون الكنيسة يهدد استقلالها. تصاعد الخلاف بينه وبين السلطة السياسية حتى صدر قرار بنفيه خارج البلاد.

◆ الأزمة تحولت إلى قضية رأي عام داخل المجتمع المصري، وانقسم الأقباط أنفسهم بين مؤيد لـ المجلس الملي ومناصر لسلطة البطريرك.

◆ حل الأزمة جاء لاحقًا عندما تولى رياض باشا رئاسة الحكومة، حيث لعب دورًا مهمًا في تهدئة الخلاف وإعادة الأنبا كيرلس الخامس إلى موقعه ومكانته، في واحدة من أبرز وقائع العلاقة بين الكنيسة والدولة في تاريخ مصر الحديث.

◆ البابا شنودة الثالث كان يستحضر تلك الواقعة التاريخية كثيرًا، وربما وجد فيها صدى لتجربته الشخصية مع السلطة السياسية في عصر مختلف.

◆ عام ١٩٨١ شهدت مصر واحدة من أكثر اللحظات توترًا في العلاقة بين الكنيسة والدولة، عندما قرر الرئيس أنور السادات

فرض الإقامة الجبرية على البابا شنودة الثالث في دير الأنبا بيشوي ضمن قرارات سبتمبر الشهيرة.

◆ سنوات الإقامة في الدير لم تضعف مكانته داخل المجتمع القبطي، بل زادت من حضوره وتأثيره. وعندما عاد إلى كرسيه البابوي عام ١٩٨٥ بقرار من الرئيس حسني مبارك، كانت الكنيسة قد خرجت من تلك الأزمة أكثر تماسكًا.

◆ التاريخ هنا يكاد يعيد نفسه بطريقة مختلفة؛ صراع حول حدود السلطة بين الكنيسة وبعض النخب المدنية، وصدام مع الدولة حول موقع المؤسسة الدينية في المجال العام.

◆ كيرلس الخامس واجه المجلس الملي والسلطة الخديوية، وشنودة الثالث واجه توترات مع بعض الرموز القبطية المدنية ومع السلطة السياسية في لحظات مختلفة.

◆ شخصية البابا شنودة الثالث كانت مزيجًا نادرًا من الروحانية والثقافة والحكمة السياسية. شاعر، مفكر، معلم، ومصري خفيف الظل يعرف متى وأين يقول النكتة الموحية دون إخلال بالوقار. امتلك كاريزما نادرة لقائد يعرف أن إدارة الكنيسة في مصر ليست شأنًا دينيًا خالصًا، بل مسؤولية وطنية ترتبط بتاريخ البلاد وتوازناتها.

◆ الصورة الثانية المرفقة بهذه السطور التُقطت في إحدى احتفالات عيد الميلاد في السابع من يناير، حيث جمعتني به لحظة حديث ودي في القاعة الكبرى للاحتفال، بعد أن فوجئت يومها بوضع الكرسي الخاص بي في القاعة إلى جوار كرسي جمال مبارك على يميني وكرسي فرانك ويزنر، السفير الأمريكي، على يساري.

فقلت للبابا وأنا أصافحه مازحًا:

هذا كمين يا قداسة البابا!

فرد ضاحكًا:

كمين لك أم لهم؟

◆ تلك اللحظات البسيطة تختزن في ذاكرتي ما لا تختزنه صفحات طويلة من التاريخ.

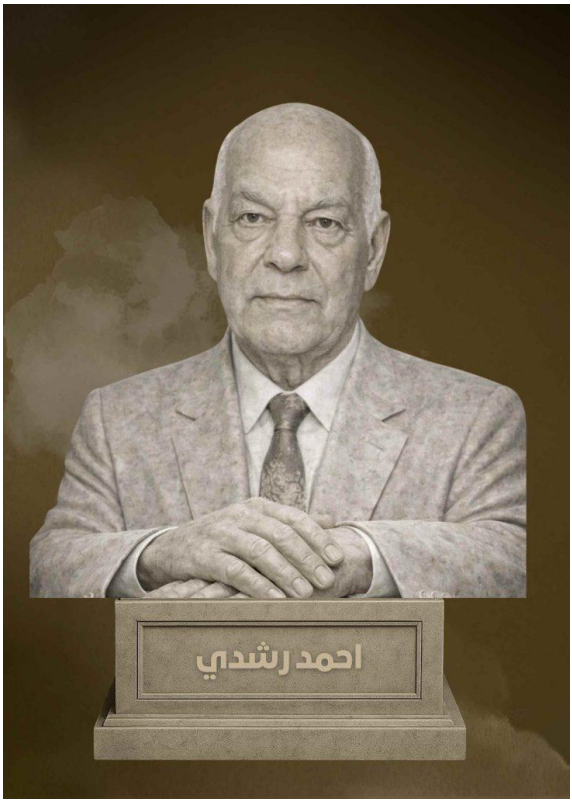
◆ سنوات كثيرة مضت منذ تلك اللقاءات، غير أن الذاكرة ما زالت تحتفظ بصورة رجل يجلس بهدوء، يستمع أكثر مما يتكلم، وحين يتكلم تبدو عباراته كأنها خلاصة تاريخ طويل.

◆ رحيل البابا شنودة الثالث في السابع عشر من مارس عام ٢٠١٢ لم يكن مجرد نهاية حياة بطريرك للكنيسة القبطية الأرثوذكسية، بل نهاية فصل مهم من فصول العلاقة بين الكنيسة والمجتمع والدولة في مصر الحديثة.

◆ بعض الوجوه تغيب عن الحياة لكنها تبقى حاضرة في الذاكرة الوطنية. البابا شنودة الثالث كان واحدًا من تلك الوجوه التي لا تغيب.

✳️وجوه لا تغيب – أحمد رشدي

من «باي باي رشدي» إلى وزير داخلية الشعب ✳️



🔸 حين أكتب اليوم عن أحمد رشدي لا أستعيد مجرد سيرة وزير داخلية، بل أستعيد أيضًا ذكرى شخصية كنت شاهدًا عليها بنفسي. في عام ١٩٨٦ كنت أعمل صحفيًا ورئيس قسم في جريدة الوفد في زمن رئاسة تحرير أستاذي الكبير مصطفى شردي. يومها كنت أتابع

عن قرب ملف وزارة الداخلية، وكان ذلك أحد الملفات التي بدأت عبرها خطواتي الأولى في الصحافة السياسية.

◆ من بين التحقيقات التي نشرتها آنذاك مقال اعتبره بعض الزملاء بداية حقيقية لمسيرتي الصحفية. كان عن حادثة وقعت في فوه بمحافظة كفر الشيخ، حين قُتل مواطن أثناء احتجازه داخل مركز الشرطة بعد تعرضه للتعذيب، على يد رئيس مباحث المركز مصطفى السنهوري، بحجة أنه متهم بتعاطي المخدرات.

◆ سافرت إلى المدينة التي كانت يومها شبه محاصرة أمنيًا، وكان الغضب الشعبي يملأ شوارعها. كانت رحلة صحفية صعبة ومحفوفة بالمخاطر، رافقتني فيها الزميلة العزيزة حنان البدري.

◆ خلال تلك الزيارة تمكنت من التقاط صورة صادمة لرئيس المباحث نفسه جالسًا في غُرزة يدخن الحشيش، وإلى جواره معاون مباحث المركز. المفارقة كانت فادحة: الضابط الذي اتهم مواطنًا بتعاطي المخدرات حتى الموت ظهر هو نفسه متلبسًا بالفعل ذاته.

◆ نشرت التحقيق والصورة في جريدة الوفد. توقعت، كما توقع كثيرون، أن تصدر وزارة الداخلية بيانًا سريعًا لتكذيب ما نشرناه. كان ذلك هو الأسلوب المعتاد في تلك السنوات.

◆ لكن المفاجأة أن الوزارة في عهد أحمد رشدي لم تفعل ذلك. لم تنكر الواقعة، بل اعترفت بها وتعاملت معها باعتبارها خطأ يستوجب المحاسبة.

◆ يومها تملكني شعور قوي بأن وزير الداخلية في تلك اللحظة ليس رجلًا تقليديًا في منصبه. شعرت أن هناك شخصًا مختلفًا يقود هذه الوزارة. ومنذ ذلك الوقت بدأت أتابع أخبارها عن قرب أكبر.

◆ في العام نفسه ١٩٨٦ بدأت تتردد شائعة خطيرة عن مد فترة خدمة المجندين في قوات الأمن المركزي من ثلاث سنوات إلى أربع. انتشر الخبر داخل المعسكرات كالنار في الهشيم، وتصاعد التوتر بين الجنود.

◆ بلغني أن الوزير أحمد رشدي سيتوجه إلى معسكرات الأمن المركزي على طريق مصر – الإسكندرية الصحراوي لمتابعة الموقف. تحركت مع الزميل العزيز لطفي عبد اللطيف إلى هناك لمتابعة ما يجري.

◆ وصلنا إلى المنطقة المقابلة لفندق مينا هاوس. كانت الحركة الأمنية كثيفة. لمحنا اللواء سعد الملاحي مدير أمن الجيزة يسير إلى جوار الوزير.

◆ لم تمض دقائق حتى تغير المشهد فجأة. اندفع جنود الأمن المركزي نحو شارع الهرم في حالة غضب عارم. تصاعدت الأحداث بسرعة غير متوقعة.

◆ استقل الوزير سيارته وغادر المكان، بينما بقينا نحن نتابع ما يحدث. فجأة وجدنا أنفسنا وسط الجنود الغاضبين.

◆ كان لديهم غضب خاص تجاه الصحفيين، لأنهم اعتقدوا أن الصحافة هي التي نشرت خبر مد خدمتهم. اضطررنا لإخفاء هويتنا الصحفية حتى لا نتعرض للاعتداء.

◆ لكن تلك اللحظات نفسها منحتنا فرصة نادرة لرؤية التفاصيل من قلب الحدث. كنا شهودًا على اللحظات الأولى لأحداث انتهت بعد أيام قليلة بخروج أحمد رشدي من وزارة الداخلية.

◆ بعد مرور ما يقرب من أربعين عامًا على تلك الواقعة ما زلت أستعيدها باعتبارها شهادة شخصية من زمن مختلف. ومع مرور السنوات ازداد يقيني بأن تلك الأحداث لم تكن بريئة بالكامل، بل جاءت في سياق سياسي انتهى بإبعاد وزير دخل في مواجهة مباشرة مع قوى كثيرة.

◆ لفهم ظاهرة أحمد رشدي يجب العودة إلى معركته الأشهر: الحرب على مافيا المخدرات في مصر.

◆ في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات كانت تجارة الحشيش قد انتشرت على نحو غير مسبوق. ظهرت مناطق كاملة أصبحت معروفة بأنها مراكز رئيسية لتلك التجارة.

◆ كانت الباطنية أشهر تلك المناطق. حي فقير في قلب القاهرة القديمة، لكنه تحول لسنوات إلى عاصمة غير معلنة لتجارة المخدرات في مصر.

◆ حين قرر أحمد رشدي اقتحام الباطنية لم يكن ذلك مجرد إجراء أمني. كان إعلانًا بأن الدولة استعادت سيادتها على منطقة تحولت إلى شبه دولة داخل الدولة.

◆ امتدت الحملات بعد ذلك إلى مناطق أخرى مثل الجيارة و**دار السلام**، حيث كانت شبكات تجارة المخدرات قد رسخت نفوذها.

◆ رد فعل أباطرة الكيف كان كاشفًا. عندما غادر أحمد رشدي الوزارة ظهر في الأسواق نوع من الحشيش أطلقوا عليه ساخرين اسم «باي باي رشدي»، في تعبير واضح عن فرحتهم برحيل الوزير الذي ضيق عليهم الخناق.

◆ لم تقتصر إنجازاته على هذا الملف. خاض أيضًا محاولة جادة لإصلاح المرور في القاهرة، ونجح لفترة قصيرة في فرض قدر من الانضباط لم تشهده العاصمة منذ سنوات طويلة.

◆ كما نجح في عملية أمنية معقدة عُرفت باسم عملية البكوش، عندما أحبطت الأجهزة المصرية محاولة لاغتيال عبدالحميد البكوش رئيس وزراء ليبيا الأسبق المقيم في القاهرة، عبر خطة خداع أمني انتهت بظهور البكوش حيًا في مؤتمر صحفي عالمي.

◆ تلك النجاحات صنعت شعبية غير مسبوقة لوزير داخلية في مصر. أصبح اسمه يتردد في الشارع باعتباره «وزير داخلية الشعب».

◆ لكن السياسة كثيرًا ما تكون قاسية مع من يخرجون عن المألوف. نجاح الرجل صنع له خصومًا بقدر ما صنع له مؤيدين.

◆ جاءت أحداث الأمن المركزي ١٩٨٦ لتكون لحظة النهاية لتجربته في الوزارة.

◆ رحل أحمد رشدي عن الدنيا في ٤ يوليو ٢٠١٣، لكن اسمه بقي حيًا في ذاكرة المصريين.

◆ لأن بعض المناصب يمر أصحابها بها مرورًا عابرًا...

أما بعض الرجال فيتركون فيها أثرًا لا يمحوه الزمن.

◆ بعد عرض مسلسل مناعة في رمضان ٢٠٢٦ وجدت نفسي أطرح سؤالًا بسيطًا ومؤلمًا في آن واحد: أين أحمد رشدي في هذه الحكاية؟

◆ رجل خاض حربًا ضد إمبراطوريات المخدرات، وواجه شبكات نفوذ، ومرّ بتجارب سياسية وأمنية درامية داخل مصر وخارجها...

أليس هو الأجدر بأن تتحول قصته إلى عمل درامي يخلّد تلك المرحلة؟

- أم أننا – كما يحدث كثيرًا – نُقدم للأجيال القادمة الروايات الأسهل... ونترك القصص الحقيقية التي صنعت التاريخ؟

وهكذا يبقى أحمد رشدي واحدًا من الوجوه التي لا تغيب.



وجوه لا تغيب.. – علوي حافظ

☀️ نائب الدرب الاحمر وفارس البرلمان ☀️



◆ ذاكرة السياسة لا تحفظ الخطب فقط، بل تحفظ الوجوه. بعض الوجوه تمرّ في حياة الأمم كأنها ظلال عابرة، وبعضها يظل حاضرًا في الضمير العام حتى بعد أن يغيب الجسد. حين أستعيد اسم علوي حافظ لا أستحضره بوصفه نائبًا سابقًا أو رقمًا في سجل الحياة النيابية

المصرية، بل أستعيد إنسانًا عرفته عن قرب في سنواته الأخيرة، وجمعتني به علاقة إنسانية دافئة، تجاوزت حدود السياسة واختلاف الأعمار.

◆ كنت أزوره أحيانًا في منزله الهادئ في المنيل، ذلك البيت المطل على نهر النيل، حيث كانت الجلسات تمتد طويلًا بين حكايات السياسة وذكريات البرلمان ومواقف الحياة. هناك تعرّفت أكثر إلى الرجل الذي لم يكن مجرد نائب صاخب في قاعة المجلس، بل إنسانًا بسيطًا في حياته اليومية، شديد الاعتزاز بتاريخ طويل من المواجهة السياسية. العلاقة التي جمعتنا في إطار حزب الوفد لم تكن علاقة تنظيمية باردة، بل تحولت إلى صداقة صادقة رغم فارق السن، صداقة امتدت بمحبة إلى أسرته الكريمة، وإلى زوجته الفاضلة التي رحلت في السنوات الأخيرة تاركة في الذاكرة أثرًا طيبًا ودفئًا إنسانيًا لا يُنسى.

◆ تلك الصداقة لم تتوقف عند حدود البيت والأسرة، بل امتدت إلى مكانٍ كان يحتل مساحة خاصة في قلبه: الدرب الأحمر. لم تكن هذه الدائرة مجرد عنوان انتخابي في أوراق البرلمان، بل كانت عالمه الحقيقي. كان يحب أهلها كما يحب المرء بيته القديم، وكان أهلها يبادلونه الحب نفسه. علاقة لا تقوم على خطاب سياسي، بل على شعور متبادل بأن الرجل واحدٌ منهم، يعرف شوارعهم وأزقتهم وأحلامهم الصغيرة. كان علوي حافظ يعشق الدرب الأحمر... وكانت الدرب الأحمر تعشقه.

◆ في السياسة المصرية أسماء كثيرة مرت تحت قبة البرلمان، لكن قلة منها تركت أثرًا حقيقيًا في معنى الرقابة البرلمانية. كان علوي حافظ واحدًا من هؤلاء القلائل. ثلاثون عامًا قضاها نائبًا عن الدرب

الأحمر و**الباطنية**، وفي تلك السنوات الطويلة صنع لنفسه سمعة نائبٍ لا يكتفي بالتصفيق ولا يجيد الصمت حين يجب الكلام.

◆ الخامس من مارس ١٩٩٠ بقي أحد أهم التواريخ في مسيرته السياسية. في ذلك اليوم وقف الرجل تحت قبة مجلس الشعب ليقدم استجوابًا أصبح مع مرور الزمن من أطول وأخطر الاستجوابات في تاريخ الحياة النيابية المصرية. لم يكن استجوابًا عابرًا، بل ملفًا ضخمًا من الوثائق والوقائع التي قال إنها تكشف شبكات فساد تحيط بصفقات نقل السلاح الأمريكي إلى مصر، وتكشف كيف يمكن أن تتحول القروض العسكرية إلى باب واسع للعمولات والسمسرة.

◆ لم يكن حديثه مجرد اتهام سياسي، بل استند – بحسب ما عرضه – إلى وثائق ومحاضر مناقشات في الكونجرس الأمريكي و**مجلس الشيوخ الأمريكي**، وإلى وقائع محاكمات في الولايات المتحدة، كشفت – وفق روايته – عن تورط شركات وهمية في نقل السلاح، وعن شبكة من المصالح بين بعض رجال الأعمال ومسؤولين في الداخل وشركاء في الخارج.

◆ الاسم الذي تكرر كثيرًا في ذلك الاستجواب كان اسم رجل الأعمال حسين سالم، الذي قال النائب إنه كان أحد المستفيدين من تلك الصفقات عبر شركات شحن وهمية، أبرزها شركة أتسكو التي تغير اسمها لاحقًا إلى الفور وينجز. ووفق ما أورده الاستجواب، فقد حققت هذه الشبكات أرباحًا ضخمة من نقل شحنات السلاح الممولة من المعونة الأمريكية.

◆ في روايته البرلمانية تحدث علوي حافظ عن أرباح قُدرت بنحو ٧٣ مليون دولار، وعن قضية نظرتها محكمة في فيرجينيا بالولايات المتحدة، وعن اعترافات قدمها المتهم الرئيسي مقابل تخفيف

العقوبة ورد جزء من الأموال. كما أشار إلى ما سماه "المظروف الأصفر" الذي أرسلته السلطات الأمريكية إلى وزارة العدل المصرية ويضم أسماء مسؤولين كبار ورد ذكرهم في التحقيقات.

◆ غير أن أخطر ما طرحه في ذلك الاستجواب لم يكن فقط ملف صفقات السلاح، بل الربط الذي أصر عليه بين تلك الصفقات وبين مصرع وزير الدفاع الأسبق المشير أحمد بدوي وعدد من كبار ضباط القوات المسلحة في حادث الطائرة الشهير عام ١٩٨١. لم يقدم ذلك بوصفه حكمًا قضائيًا، بل بوصفه شبهة سياسية خطيرة تستحق إعادة التحقيق.

◆ العلاقة بين علوي حافظ و**أحمد بدوي** لم تكن علاقة سياسية عادية. كانا زميلين في السلاح، وصديقين مقربين. لذلك جاء حديثه عن تلك الواقعة مشحونًا بقدر كبير من الألم الشخصي، قبل أن يكون موقفًا سياسيًا.

◆ الجلسة التي استمرت نحو ٢٢٠ دقيقة كانت واحدة من أكثر جلسات البرلمان توترًا في تلك المرحلة. رئيس المجلس رفعت المحجوب، ورئيس الوزراء عاطف صدقي، وعدد من قيادات الأغلبية البرلمانية، سعوا إلى منع ذكر أسماء المتورطين داخل القاعة. وفي نهاية النقاش وافقت الأغلبية على حذف الأسماء من مضبطة الجلسة.

◆ انتهت الجلسة من دون تشكيل لجنة تقصي حقائق كما طلب النائب، ومن دون فتح تحقيق برلماني واسع في الوقائع التي عرضها. ثم اختفى الاستجواب تدريجيًا من المجال العام، كأن الجلسة التي استمرت ساعات طويلة لم تحدث قط.

◆ ما بقي بعد ذلك لم يكن قرارًا برلمانيًا ولا تقرير لجنة تحقيق، بل ذكرى موقف. موقف نائب آمن أن البرلمان ليس غرفة صمت،

وأن النائب الحقيقي لا يقف تحت القبة ليزين المشهد، بل ليكشف ما يجب كشفه.

◆ السياسة في مصر مرت بمراحل كثيرة، لكن اللحظات التي يعلو فيها صوت الرقابة الحقيقية تبقى دائمًا علامات مضيئة في تاريخها. لأن البرلمانات لا تُقاس بعدد المقاعد، بل بقدرتها على مساءلة السلطة حين يجب السؤال.

◆ حين أستعيد اليوم صورة علوي حافظ لا أراه في قاعة البرلمان فقط، بل أراه جالسًا في شرفة بيته في المنيل، يطل على النيل، يتحدث بحماسة عن مصر، وعن السياسة، وعن ذلك الحلم القديم بدولة عادلة لا يخاف فيها نائب من الكلام، ولا يخاف فيها الوطن من الحقيقة.

◆ تمر السنوات، وتتغير الأسماء، لكن بعض الوجوه تظل حاضرة في الذاكرة الوطنية. لأن التاريخ الحقيقي لا يكتبه المنتصرون فقط... بل يكتبه أيضًا أولئك الذين امتلكوا شجاعة السؤال.

وهكذا يبقى علوي حافظ واحدًا من الوجوه التي لا تغيب.



وجوه نسائية لا تغيب – سميرة موسى

عالمة الذرة... موعدٌ مع الوطن لم يكتمل



◆ في الثالث من مارس وُلدت سميرة موسى، وكأن القدر اختار لها موعدًا ثابتًا مع الذاكرة. تمرّ اليوم الذكرى التاسعة بعد المئة لميلاد عالمةٍ آمنت أن العلم ليس ترفًا، بل قوةٌ تحمي الأوطان وتُحرّر العقول.

◆ ابنة محافظة الغربية، المولودة عام ١٩١٧، لم تكن مجرد طالبة متفوقة في كلية العلوم بجامعة القاهرة، بل كانت مشروع فكرةٍ مبكرة: أن تمتلك مصر سرّ الذرة، وأن يتحول العلم إلى درعٍ لا إلى قنبلة. صعدت مدارج الجامعة لتصبح أول معيدة في الكلية، في زمنٍ لم يكن يفتح أبوابه بسهولة أمام النساء.

◆ سافرت في بعثةٍ إلى بريطانيا، درست الإشعاع النووي، وأنجزت رسالتها للدكتوراه في الأشعة السينية وتأثيرها على المواد المختلفة خلال عامين فقط، ثم أمضت عامًا ثالثًا في أبحاثٍ متصلة، خرجت منها بمعادلاتٍ مهمة في الفيزياء النووية. لم تكن تطارد لقبًا، بل كانت تطارد حلمًا.

◆ ذاع صيتها خارج الحدود، وتلقت دعوةً علمية إلى الولايات المتحدة. عام ١٩٥١ حطّت رحالها هناك، وأتيحت لها فرصة العمل في معامل جامعة سان لويس. عُرضت عليها الإقامة، ومستقبلٌ مريح في بلدٍ يفتح ذراعيه للعقول النابهة، لكنها كانت تردّد أن مكانها الطبيعي بين طلابها في مصر.

◆ أغسطس ١٩٥٢. كاليفورنيا. طريقٌ جبلي مرتفع. دعوة لزيارة معامل نووية في ضواحي المدينة. سيارة نقل تظهر فجأة، تصطدم بسيارتها، تدفعها إلى وادٍ سحيق. السائق يقفز ويختفي. يُقيد الحادث ضد مجهول، وتُغلق الأوراق، ويبقى السؤال مفتوحًا.

◆ سبعون عامًا مرّت، ولم تُكشف الحقيقة كاملة. في عالم الجريمة يُقال إن لا جريمة كاملة، لكن التاريخ يحتفظ بملفاتٍ لا تُفتح، وأسماءٍ تُطوى تحت بند "حادث عرضي". كانت سميرة موسى قد أعلنت قبل سفرها أنها تريد أن يصبح علاج السرطان بالذرة رخيصًا

كعلاج "الأسبرين"، وأن تُسخّر الطاقة النووية للسلام لا للدمار. أفكارٌ كهذه لا تمرّ أحيانًا بلا ثمن.

◆ لم تكن باحثةً في مختبرٍ معزول، بل عقلًا عربيًا يطرق أبواب المستقبل. كانت ترى في الذرة علمًا يمكن أن يغيّر موازين القوى، وأن يمنح الشعوب المستضعفة قدرةً على الوقوف. ربما لهذا بقي موتها لغزًا، وبقي اسمها شاهدًا على زمنٍ كانت فيه الأحلام أكبر من الإمكانات.

◆ رحلت في الخامسة والثلاثين من عمرها، قبل أن تعود إلى مدرجاتها في جامعة القاهرة، وقبل أن ترى مشروعها النووي المصري يولد. رحلت، لكن الفكرة لم تمت. كل فتاةٍ تدخل معملًا، وكل باحثةٍ ترفع رأسها في وجه التحدي، تحمل في ملامحها شيئًا من سميرة.

◆ الثالث من مارس ليس تاريخ ميلادٍ فقط، بل تذكير بأن العقول قد تُغتال، لكن أثرها لا يُمحى. تبقى سميرة موسى وجهًا لا يغيب، لأن الوطن الذي حلمت به ما زال يحتاج إلى علمٍ شجاع، وإلى نساءٍ يكتبن أسماءهن في معادلات الضوء لا في هوامش الحوادث.



وجوه "قانونية" لا تغيب – أحمد كمال أبو المجد

✳صاحب مقولة «السلطة المطلقة مفسدة مطلقة»
وكتاب «حوار لا مواجهة»✳



◆ أحيانًا لا يكون العدل نصًا في كتاب، بل رجلًا يمشي بين الناس.

اسم أحمد كمال أبو المجد كان كذلك؛

لا يُستدعى بوصفه وزيرًا سابقًا، ولا قاضيًا دوليًا،

بل بوصفه ضميرًا حاول أن يبقى في المنتصف

حين كان الجميع يركضون إلى الحواف.

◆ لم أجلس إليه في مدرجات الجامعة،

لكنني جلست إليه في دهاليز السياسة.

رأيته في لحظات احتدام،

يتكلم كأن اللغة عنده ميزان،

لا سيفًا.

بلاغته لم تكن زخرفًا،

بل هندسة عقل يعرف أن الفكرة إذا خرجت غاضبة

فقدت نصف عدالتها.

◆ آخر لقاء بيننا كان يوم ٤ ديسمبر ٢٠١٢.

طاولة صغيرة،

أزمة كبيرة.

الإعلان الدستوري الذي أصدرته الرئاسة

أشعل البلاد.

جلسنا قرابة عشر ساعات:

محمد سليم العوا،

محمد محسوب،

ثروت بدوي،

سعد الكتاتني،

وأحمد كمال أبو المجد.

كنت أرى الإلغاء ضرورة،

وكان هو يرى أن التعديل قد يحقق الغاية ذاتها.

لم يكن الخلاف عنده صراعًا،

بل اجتهادًا.

- وُلد عام ١٩٣٠،

وتخرج في كلية الحقوق جامعة القاهرة عام ١٩٥٠،

ثم حصل على دبلوم القانون العام ١٩٥١،

ودبلوم الشريعة الإسلامية ١٩٥٢،

ثم دكتوراه القانون العام ١٩٥٨.

سافر إلى جامعة ميشيغن،

فعاد بماجستير في القانون المقارن عام ١٩٥٩،

وكأن الرجل أراد أن يعرف القانون من الداخل

ومن خارجه.

- بدأ ناصريًا،

وكان من مؤسسي منظمة الشباب،

ومن عناصر التنظيم الطليعي،

ثم تحوّل بفكره نحو قراءة إسلامية معاصرة.

لم يكن انتقاله انقلابًا،

بل تطورًا.

كان يبحث دائمًا عن صيغة

لا تُقصي العقل ولا تُقصي النص.

- تولى وزارة الإعلام والشباب،

في زمن عبد الناصر ثم السادات ثم مبارك،

لكنه لم يتحول يومًا إلى موظف سلطة تقليدي.

ظل القانون عنده قيمة،

لا وظيفة.

- شغل منصب قاضٍ ورئيس للمحكمة الإدارية للبنك الدولي بواشنطن

من ١٩٨٠ حتى ٢٠٠٢،

وأستاذًا للقانون العام بجامعة القاهرة،

ومحاميًا أمام محكمة النقض ومجلس الدولة والمحكمة الدستورية العليا.

كان يعرف نصوص الدساتير كما يعرف أنفاسه.

- تولى عضويات متعددة:

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر،

المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن،

أكاديمية المملكة المغربية،

المنظمة العربية لحقوق الإنسان،

ومفوض شؤون حوار الحضارات بالجامعة العربية.

لم يكن حضورًا بروتوكوليًا،

بل عقلًا يسعى للمواءمة.

- كتبه لم تكن مرافعات،

بل رؤى:

»الرقابة على دستورية القوانين في الولايات المتحدة ومصر « (١٩٦٠)،

»الرقابة القضائية على أعمال الإدارة(١٩٦٤) «،

»دراسات في المجتمع العربي(١٩٦٢) «،

»حوار لا مواجهة(١٩٨٨) «،

»رؤية إسلامية معاصرة.(١٩٩١) «

كان يؤمن بأن الحوار أعمق من الاشتباك،

وأن الإصلاح لا يولد من القطيعة.

- قال عبارته التي ستظل عنوانًا لمسيرته:

»السلطة المطلقة مفسدة مطلقة.«

لم تكن جملة إنشائية،

بل خلاصة تجربة.

كان يرى أن الدولة إن لم تُقيد نفسها بالقانون

أكلت أبناءها،

وأن الإصلاح يبدأ من داخل السلطة

قبل أن يُطلب من خارجها.

◆ انتقد بشجاعة سياسات ما بعد ١١ سبتمبر،
وحذّر من توظيف الخوف لتبرير الهيمنة،
ومن غياب مشروع إصلاحي عربي مستقل.
لم يكن مع واشنطن،
ولا ضدها شعاريًا،
بل مع مصلحة بلده أولًا.

◆ رئاسته للمجلس المصري للدراسات الاقتصادية،
وعلاقته بمكتب رجل الأعمال طاهر حلمي،
أثارت جدلًا،
لكنه كان يرى في الحوار الاقتصادي ضرورة،
لا تبعية.

◆ لم يكن ثوريًا بالصوت العالي،
ولا محافظًا بالجمود.
كان إصلاحيًا وسطيًا،
يحاول أن يُبقي الجسر قائمًا
بين النص والواقع.

◆ رحل في ٣ أبريل ٢٠١٩،
بعد رحلة امتدت تسعة عقود،
ترك فيها سؤالًا مفتوحًا:
هل يستطيع العقل أن ينتصر في زمن الانقسام؟

◆ وجوه قانونية لا تغيب...

لأن بعض الرجال لا يصرخون،

لكنهم يتركون في القانون أثرًا

يصعب محوه.

ولأن الوسطية حين تكون عن اقتناع،

تصير شجاعة لا تقل عن المواجهة.



وجوه لا تغيب – زكي بدر

✳العسكري الأسود... في ذكراه✳



- بعض الأسماء لا تُذكر همسًا.

تُستدعى كما تُستدعى العواصف.

اسم زكي بدر واحدٌ من تلك الأسماء التي لا تمر في الذاكرة بلا صوت.

ذكرى ميلاده في ٢٨ فبراير ١٩٢٦ ليست مناسبة شخصية،

بل نافذة على زمنٍ كانت فيه القبضة الأمنية أقوى من الكلمات،

وكانت الوزارة ساحة اشتباك لا مكتب إدارة.

- بدأت معرفتي به قبل الوزارة بسنوات،

حين كان مديرًا لأمن الدقهلية،

يسكن مقابل منزلنا بشارع بوتاري في حي توريل بالمنصورة،

ومديرية الأمن تواجه بيتنا على الضفة الأخرى.

كان المشهد يومها أقرب إلى مفارقة:

رجل الأمن في مواجهة بيت السياسة.

- في المجالس الاجتماعية بدا ودودًا،

رغم انفلات لسانه وعباراته الخشنة.

كان يشير أحيانًا إلى صلة نسب بعيدة تربط عائلته في المنوفية بعائلة والدتي.

أما ابنه محمد زكي بدر فكان زميلي في المدرسة الثانوية،

هادئًا على عكس صورة الأب التي ستكبر لاحقًا في المشهد العام.

- انتقل محافظًا إلى أسيوط،

وهناك بدأت الخيوط تتشابك.

وصلتني معلومات عن واقعة تخص الضابط ممدوح كدواني

وتفتيش سيارته والعثور على مواد قيل إنها تخص سائقه،

ثم عن تضييقٍ تعرّض له الرجل بعد ذلك.

بدأت أكتب،

وبدأ التوتر.

- بعد أحداث الأمن المركزي،

خرج أحمد رشدي من الوزارة،

وجاء زكي بدر وزيرًا للداخلية في فبراير ١٩٨٦.

منذ تلك اللحظة تغيّر الإيقاع.

تحولت الداخلية إلى مسرحٍ للردع،

وصار الرجل عنوان مرحلة كاملة.

- نشرتُ في جريدة الوفد تحقيقات عن التعذيب في السجون المصرية.

لم يكن الأمر كتابةً فقط،

بل مواجهة.

تفتيش للبيت في القاهرة،

محاولات اعتداء،

أخطرها الواقعة أسفل مكتب الأستاذ مختار نوح

النائب البرلماني وقتها،

حين كنت ذاهبًا لتسليمه مستندات نشرت معظمها في سلسلة

»لاظوغلي جيت«

التي كشفت عمليات تجسس على أحزاب المعارضة

وبعض الشخصيات العامة

بل وبعض الوزراء في الحكومة نفسها.

- حادثة الطالبية لم تكن أقل قسوة.

ذهبت للقاء أحد الخارجين من السجون،

كان يعمل في دار الزهراء للنشر المملوكة للراحل أحمد رائف،

وتعرض لاعتداء.

بدا أن الحقيقة تُستقبل بالعصي لا بالحجج.

- عودة من السودان بعد لقاء الصادق المهدي

قبل انقلاب عمر البشير،

أعقبها توقيف في مطار القاهرة لساعات طويلة.

تحقيقات أجراها الضابط حازم حمادي

واللواء مدحت من أمن الدولة،

وتسجيلات خضعت لمونتاج بدائي.

استُخدمت دقائق منها في مجلس الشعب،

لتنتهي الجلسة بصفعة وجهها الراحل طلعت رسلان

إلى وزير الداخلية.

- في أيامه الأخيرة بالوزارة،

أصدر قرارًا بمصادرة كتاب كنت أعده بعنوان «العسكري الأسود».

لم يكن الوصف مبالغة،

بل قراءة لمرحلة.

- مسيرته الرسمية بدأت في الصعيد،

حين كُلِّف بإنهاء ما جرى في مديرية أمن أسيوط بعد اغتيال أنور السادات

واحتلال الجماعات الإسلامية للمديرية.

تحت إشراف النبوي إسماعيل

تم تكليفه بالحسم،

وألقي القبض على قيادات مثل عاصم عبد الماجد وعصام دربالة.

رآه أنصاره رجل حسم،

ورآه خصومه عنوان قسوة.

- خطابه في مجلس الشعب ظل مادة تداول.

جلسة مؤتمر «المعهد الدبلوماسي» كانت لحظة فاصلة،

حين تجاوز بانتقاداته حتى بعض رجال الدولة المقربين من حسني مبارك،

فصدر قرار إقالته في يناير ١٩٩٠،

وجاء محمد عبد الحليم موسى خلفًا له.

- لقاء أخير جمعنا في ٧ يناير ١٩٩٥ بغرفة البابا شنودة الثالث،

بحضور الأستاذ ياسين سراج الدين.

رفع يدي قائلاً:

»الواد ده راجل ونجح بدراعه«،

ثم أشار إلى مرافقي بعبارة أخرى.

لحظة كشفت وجهًا آخر للرجل،

أقل حدّة،

وأكثر اعترافًا بالخصومة.

◆ رحل زكي بدر في ٤ أبريل ١٩٩٧.

خرج من الدنيا كما دخلها:

صاخبًا،

مثيرًا للجدل،

ومحمّلاً بتاريخ لا يُختصر في جملة.

◆ العسكري الأسود لم يكن شخصًا فقط،

بل مرحلة.

مرحلة تطرح سؤالًا أكبر من الرجل نفسه:

هل يمكن للدولة أن تحمي نفسها بلا أن تفقد إنسانيتها؟

◆ وجوه لا تغيب...

بعضها يلهم،

وبعضها يحذّر،

وبعضها يتركنا

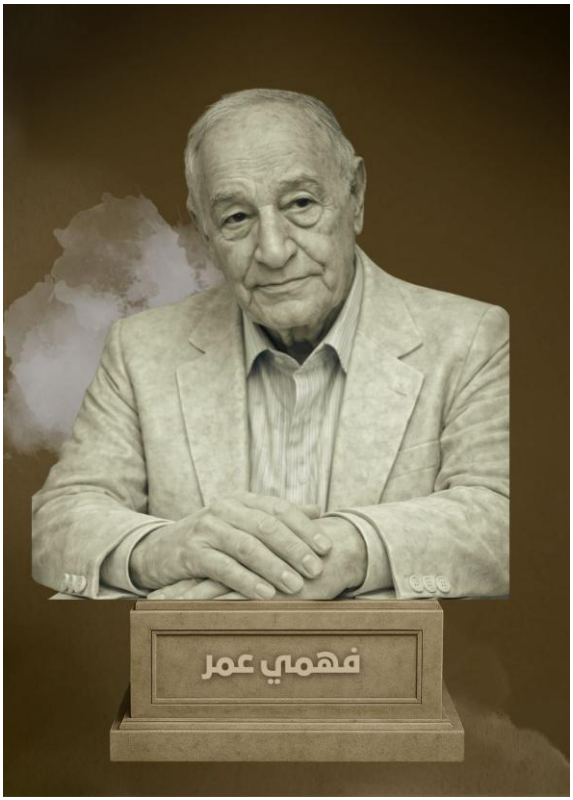
نتأمل الثمن

حين تتقدم القبضة

على الحكمة.

✳وجوه لا تغيب – فهمي عمر✳

زمالة البرلمان ١٩٩٥... صوتٌ لا يُنسى



◆ زاملته في برلمان ١٩٩٥، وكنت كلما أنصتُّ إليه شعرت أنني أستمع إلى مقطعٍ شجيّ من صوت أم كلثوم. لم يكن الأمر تشبيهًا عابرًا، بل إحساسًا حقيقيًا؛ عذوبةٌ في الأداء، دفءٌ في العبارة، حنانٌ يسبق الفكرة، ولطفٌ يكسو الموقف. كان يتكلم فيهدأ المكان،

وتختلف الآراء ثم تتصافح الكلمات في صوته قبل أن تصل إلى آذاننا.

◆ وجوهٌ لا تغيب لأن أثرها لا يُختصر في صورة، بل يمتد كصوتٍ يسكن الذاكرة. رحل الأستاذ فهمي عمر، وتوارى الجسد، لكن بقيت في الأذن نبرةُ وقارٍ كانت تُذكّرنا أن للكلمة شرفًا، وأن الميكروفون أمانة.

◆ ولد عام ١٩٢٨ في أسيوط، كان صعيديًا أصيلاً؛ صلابةٌ في المبدأ، ورقّةٌ في المعشر، وحياءٌ لا يمنع من قول الحق. لم يعرف الصخب طريقًا إليه، ولم يحتج إلى استعراضٍ ليُثبت حضوره. كان يؤمن أن الجملة الهادئة أبلغ من الخطبة المدوية، وأن الإقناع يُولد من الصدق لا من الضجيج.

حتى أننا عروضنا عليه أن يتقدم لرئاسة لجنة الثقافة والاعلام في برلمان لكنه أعتذر مكتفياً بوكالة اللجنة.

◆ في إذاعة القرآن الكريم، كان صوته ينساب بطمأنينة العارف، لا يخطئ المخارج ولا يستعجل المعاني. علّم أجيالًا أن اللغة بيتٌ إن أُهمل سقفه تساقطت جدرانه، وأن احترام المستمع يبدأ باحترام الحرف. لم يكن «شيخ الإذاعيين» ومؤسس الإعلام الرياضي، لقبًا رسميًا بقدر ما كان مقامًا استحقه بعِشرةٍ طويلة مع الكلمة.

◆ داخل ماسبيرو، كان أبًا مهنيًا قبل أن يكون مسؤولًا إداريًا. يفتح الباب للنصيحة، ويغلقه في وجه الاستسهال. يعرف أن الإعلام رسالةٌ قبل أن يكون مهنة، وأن من يطلب الضوء بلا استحقاق يحترق به.

◆ في قاعة البرلمان عام ١٩٩٥، رأيت فيه رجل الدولة الهادئ. كان يدخل مبتسمًا، يسأل عن أحوال الزملاء، ثم يجلس منصتًا كما لو كان طالب علم. وعندما يتحدث، تنخفض الأصوات من تلقاء نفسها. كنا نختلف سياسيًا أحيانًا، لكننا لم نختلف يومًا على نقائه.

◆ برلمان عام ٢٠٠٠ حمل أحداثًا مؤسفة في دائرته الانتخابية، فغاب عنا، وحُرمنا من شرف استمرار زمالته. لم يكن الغياب هروبًا، بل اختيارًا كريمًا لرجلٍ آثر العزلة على الضجيج. ومع تقدّم العمر، توارى عن الأضواء السياسية والإعلامية، كما لو أنه أراد أن يترك أثره يتكلم بدلاً منه.

◆ في السنوات الأخيرة، قلّ ظهوره، لكن أثره لم يقلّ. كلما سمعت صوتًا إذاعيًا متقنًا، تذكرت مدرسته. كلما رأيت إعلاميًا يحترم لغته، أدركت أن البذرة التي زرعها ما زالت تُثمر.

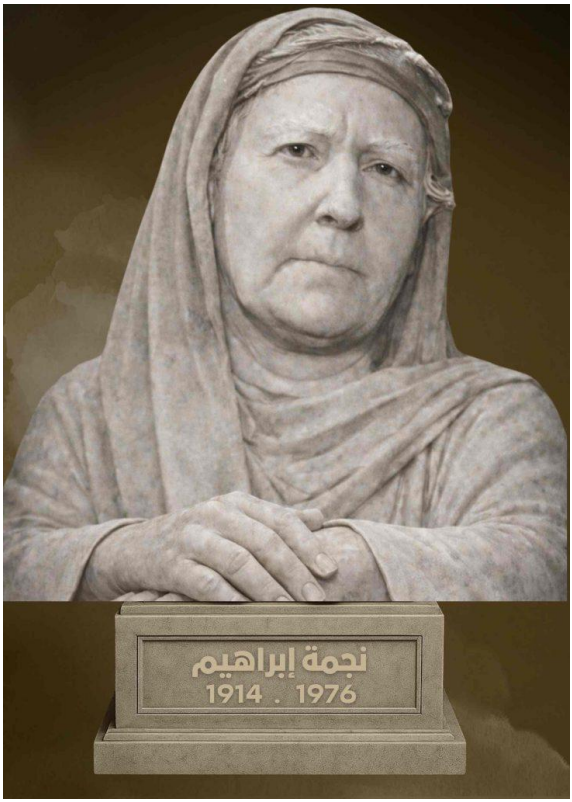
◆ فهمي عمر لم يكن مجرد صوتٍ جميل، بل ضميرًا مهنيًا يمشي بين الناس. كان مدرسةً في التواضع، ومرآةً لصفاء القلب، ونموذجًا لصعيديٍّ جمع بين صرامة الحق ودفء الإنسانية.

◆ اليوم نودّعه، لكن الوجوه التي لا تغيب لا تُوارى في التراب، بل تسكن في طبقات الصوت، وفي ذاكرة المكان. رحم الله الأستاذ فهمي عمر... فقد علّمنا أن الصوت إذا صدق بقي، وأن الكلمة إذا خرجت من القلب عاشت بعد صاحبها.



وجوه لا تغيب – نجمة إبراهيم

☀️ الممثلة اليهودية التي اختارت مصر ☀️



🔸 لم تكن نجمة إبراهيم مجرّد ممثلة أتقنت أدوار الشر، بل كانت حكاية روحٍ اختارت طريقها حين تفرّعت الدروب، وامرأةً كتبت اسمها في سجل الوطن لا في فهرس الطوائف. ولدت في ٢٥ فبراير عام

١٩١٤، باسم بوليني أوديون، لأسرة يهودية مصرية، قبل أن يصوغها الفنّ وتعيد هي صياغة نفسها.

◆ طفلةٌ لم تكمل دراستها في مدرسة الليسيه، لكنها أكملت درسًا أكبر في مسرح الحياة. انجذبت إلى الخشبة باكرًا، وغنّت ورقصت في الفرق المسرحية، بصوتٍ قيل عنه إنه قويّ، وبإحساسٍ كان يسبق الكلمات إلى القلوب. كانت تغنّي المونولوج، وتضحك، ثم تعود إلى غرفتها محمّلةً بأسئلة العمر.

◆ أزمة الثلاثينيات الاقتصادية لم تُغلق أبواب المصارف وحدها، بل أغلقت أبواب المسارح أيضًا. انحسر الضوء، واضطرت نجمة إلى ترك الفنّ، لا هزيمةً بل انتظارًا. حملت قلمًا بدل الميكروفون، وعملت صحفية في مجلة «اللطائف المصورة» التي كان يديرها أسكندر مكاريوس، وهناك تعرّفت إلى قدرٍ جديد.

◆ قصة حبٍّ نشأت بينها وبين زميلٍ مسلم. طلب الزواج، واشترط الإسلام. لم تتردّد طويلًا. اعتنقت الإسلام عام ١٩٣٢، وعمرها ثمانية عشر عامًا. غير أن الزواج لم يكتمل، وانفصل الطريقان، وبقي الإيمان. لم يكن القرار نزوة عاطفية، بل تحوّلًا داخليًا تمسّكت به، وحفظت القرآن، وأقامت ندواتٍ أسبوعية للحديث عن الدين، حتى لُقّبت بـ«المتصوّفة».

◆ أربعينيات القرن الماضي أعادتها إلى الفنّ، لكن بوجهٍ آخر. برعت في أدوار الشرّ حتى ظنّها البعض شريرةً في حياتها. كانت تُرعب المشاهدين على الشاشة، ثم تمتنع عن مشاهدة أفلامها لأن قلبها الرقيق لا يحتمل قسوة الدور. كم من مرةٍ اختبأت خلف ستار المسرح، تبتسم لطفلٍ خاف منها!

◆ تزوّجت من عبد الحميد حمدي، ثم افترقا، قبل أن ترتبط بالفنان والملحّن عباس يونس، الذي صار رفيق دربها وملقّن أدوارها، وشريك ضعفها وقوّتها. وحين خانها البصر، لم يخنها هو؛ كان يقرأ لها السيناريو، ويصحبها إلى البروفات، لتظل واقفةً أمام الضوء وإن أظلمت العين.

◆ مفارقةٌ موجعة في العائلة: شقيقتها راقية إبراهيم اختارت طريقًا آخر، واتُّهمت بالعمل لصالح إسرائيل، بينما نجمة كانت تخصّص إيراد مسرحياتها لتسليح الجيش المصري، وترفض مغادرة مصر حين هاجرت عائلتها. هنا لم يكن الاختلاف في الدين، بل في الانتماء.

◆ عام ١٩٦٤ نالت وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، ثم منحها الرئيس أنور السادات وسام الاستحقاق عام ١٩٧٥ ومعاشًا استثنائيًا تقديرًا لعطائها. قبل ذلك، قرر الرئيس جمال عبد الناصر علاجها على نفقة الدولة عام ١٩٦٥ في إسبانيا حين كاد البصر أن ينسحب من حياتها. عادت مبصرة، لكن الجسد كان قد بدأ رحلته مع المرض.

◆ شلّ أبعدها عن الأضواء ثلاثة عشر عامًا، حتى رحلت في ٤ يونيو ١٩٧٦. رحلت نجمة، وبقي الاسم. بقيت الحكاية عن امرأةٍ ولدت يهودية، وعاشت مسلمة، وماتت مصرية.

◆ نجمة إبراهيم لم تكن درسًا في التحوّل الديني بقدر ما كانت درسًا في المعنى: أن الوطن ليس بطاقة هوية، بل موقف. وأن الفنّ قد يصنع وجهًا على الشاشة، لكن الحياة وحدها تصنع الوجه الذي لا يغيب.

✳وجوه نسائية لا تغيب:

يسرية لوزة✳



◆ ليست كل سيدةٍ تُقاس بما يحيط بها من ثروة،

ولا كل "هانم" تُختصر في لقب.

بعض النساء يصنعن المعنى في الظل،

ويتركن في الضوء أثرًا لا يزول.

◆ عرفت السيدة يسرية لوزة في صيف عام ١٩٩٥،

يوم صدر قرار تعيينها ضمن العشرة الذين يختارهم رئيس الجمهورية لعضوية البرلمان.

لم تكن بيننا معرفة سابقة،

ولم أكن أعلم أنها زوجة رجل الأعمال الكبير أنسي ساويرس،

ولا والدة المهندس نجيب ساويرس وشقيقيه.

الاسم العائلي لم يكن هو ما استوقفني،

بل الجدية الصارمة،

والإصرار على أن تمارس دورها النيابي

بروح المنتخب لا المعين.

◆ في أول مؤتمر برلماني دولي شاركت فيه،

كلّفتها الشعبة البرلمانية المصرية بحضور وتمثيل مصر في لجنة النساء البرلمانيات،

كما أُسندت إلي لجنة حقوق البرلمانيين،

ولجنة المدن الكبرى،

وبعد ان تأكدت من عدم تعارض مواعيد.

الجيم المستندة الي مع موعد مع موعد.

لجنة في النساء البرلمانيات طلبت مني ان احضر محلها في الاجتماع الاول للجنه النساء البرلمانيات ممثلا لمصر حين تبيّن أن أول اجتماع للجنة النساء البرلمانيات

سيُعقد في السابع من يناير ١٩٩٦،

وهو يوم عيد الميلاد المجيد،

وهو ما يقتضي بالضرورة حضورها مراسم العيد على ان تلحق بنا في اليوم التالي في بروكسل..

- دخلت القاعة الكبري في موعد انعقاد اللجنة لأبحث عن لافتة مصر.

وكانت القاعة تعجّ بممثلات من كل دول وقارات العالم.

جلست أمام الاسم،

فوجدت نفسي وسط بحرٍ من النساء،

الجلسة كانت برئاسة السيدة "نجمة" رئيسة البرلمان الهندي،

التي أصبحت لاحقًا رئيسة للاتحاد البرلماني الدولي.

- عندما طُلب مني نجمه إلقاء الكلمة،

صعدت المنصة وسط دهشة الحاضرات.

وفي مستهل حديثي قلت:

"أحضر اليوم نيابةً عن زميلتي يسرية لوزة،

التي أرادت أن يكون صوت المرأة المصرية

بلسان رجل مصري،

تأكيدًا لفكرة أن المساواة ليست شعارًا،

بل ممارسة".

فضجت القاعة بالتصفيق

فلم تكن تلك العبارات الاستهلالية مجرد جملة بروتوكولية،

بل تعبيرا عن قناعة مشتركة بيني وبين السيدة يسرية لوزة. التي جمع بيني وبينها احترام متبادل،

ومواقف وقضايا مشتركة،

أبرزها ملف العشوائيات،

وخاصة منطقة الدويقة.

حيث كانت معنية بتطويرها،

وتصطدم أحيانًا بمسؤولين،

منهم الدكتور عبد الرحيم شحاته محافظ القاهرة آنذاك بسبب تمسكها بمواقفها.

وصلابتها في الدفاع عن سكان المناطق المهمشة

فاجأت كثيرين،

خاصة أولئك الذين اختزلوها

في صورة "حرم الملياردير."

- حكايتها مع أنسي ساويرس بدأت عام ١٩٥٢،

زواج صالونات تحوّل إلى شراكة عمر.

عاشت معه سنوات التأميم والغربة في ليبيا،

حين خرج من مصر بلا ممتلكات تقريبًا.

هناك، كانت الزوجة والأم والسند،

تربي ثلاثة أبناء

صاروا لاحقًا من كبار رجال الأعمال في العالم العربي.

- غير أن ثروتها الحقيقية لم تكن في الأرقام.

اختارت أن تنزل إلى "حي الزبالين" في القاهرة،
لا بدافع فضول اجتماعي،
بل بروح مشروع.
أسست مبادرات لإعادة تدوير المخلفات،
وحولت ما كان يُسمى "ذهبًا متسخًا"
إلى مورد إنتاجي.
كانت تأخذ أبناءها إلى هناك،
ليتعلموا درسًا بسيطًا:
النعمة مسؤولية.

- العمل الخيري عندها لم يكن حملة علاقات عامة.

في جامعة المنصورة،
ساهمت في تمويل مئات عمليات زراعة الكبد،
لمرضى من مختلف الخلفيات.
دعمت علاج آلاف المصابين بفيروس سي،
وأنشأت مشروعات إطعام للفقراء
لا تسأل عن دينٍ أو هوية.

- لم تفرّق يومًا بين مسلم ومسيحي،

ولا بين غني وفقير.
الإنسان هو العنوان.

- في البرلمان،

كانت دقيقة في حضورها،

حريصة على ملفاتها،

لا تتأخر عن جلسة،

ولا تكتفي بدور رمزي.

مارست النيابة العامة

كما لو أنها جاءت عبر صندوق انتخاب.

◆ السياسة لم تُفسد روحها،

والثروة لم تعزلها عن الناس.

بقيت بعينٍ على الأرض،

وأخرى على السماء،

توازن بين النجاح المادي

والواجب الأخلاقي.

خاتمة

◆ يسرية لوزة ليست فقط زوجة مؤسس إمبراطورية اقتصادية،

ولا والدة رجال أعمال كبار.

هي امرأةٌ فهمت مبكرًا

أن القيمة الحقيقية للمال

في أثره.

◆ في زمنٍ تُقاس فيه المكانة بما يُملك،

اختارت أن تُقاس بما تعطي.

وهكذا تستقر في الذاكرة

لا كاسمٍ في شجرة عائلة،

بل كوجهٍ نسائي

يستحق أن يُكتب

في سجلّ

وجوهٍ لا تغيب.



وجوه لا تغيب – الملك سعود

23 ☀️ فبراير/الملك الذي رحل وبقي ☀️



🔸 بعض الرجال لا يُقاس حضورهم بطول سنوات الحكم، بل بعمق الأثر الذي يتركونه.

ففي الثالث والعشرين من فبراير ١٩٦٩،

رحل الملك سعود بن عبد العزيز،

لا كاسم في سجل الملوك،

بل كفصلٍ كامل من فصول التحول العربي والإسلامي في منتصف القرن العشرين.

- وُلد في ١٥ يناير ١٩٠٢ في الكويت،

في عامٍ كانت فيه رياح التأسيس تهبّ على الجزيرة العربية.

كان أبوه الملك عبد العزيز قد استعاد الرياض،

والتاريخ يُكتب على وقع الخيول والبنادق،

فنشأ الطفل سعود في قلب معركة دولةٍ تتشكل،

لا في ظل قصرٍ مستقر.

- حفظ القرآن وهو في الثالثة عشرة،

وتعلّم القراءة مبكرًا،

لكن المدرسة الأولى كانت الميدان.

فروسية، سباحة، قيادة،

ثم مشاركة فعلية في الحملات العسكرية،

وكانت حملة حائل عام ١٩٢١ إحدى أولى محطاته في طريق السياسة والحرب.

- لم يكن مجرد ابنٍ لملك،

بل شريكًا في صناعة الدولة.

عُيّن نائبًا لأمير الرياض،

ثم نائبًا للملك في نجد عام ١٩٢٨،

وفي ١١ مايو ١٩٣٣ صدر مرسوم بتعيينه أول ولي للعهد في المملكة،

ليكون أول من يُلقّب بلقب «صاحب السمو الملكي».

◆ وحين توفي الملك عبدالعزيز في ٩ نوفمبر ١٩٥٣،

انتقلت البيعة إلى سعود.

في ١١ نوفمبر صدر المرسوم،

وبويع من الأسرة والعلماء والمواطنين،

ليبدأ عهدٌ جديد في دولةٍ خرجت لتوها من طور التأسيس إلى طور البناء.

◆ الملك سعود لم يرَ في الحكم امتدادًا للسلطة فقط،

بل امتدادًا للعلم.

نشر التعليم في البلاد،

أسس المدارس،

وافتتح عام ١٩٥٧ جامعة الملك سعود في الرياض،

أول جامعة في الجزيرة العربية.

ثم معهد الإدارة العامة عام ١٩٦٠،

والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عام ١٩٦١،

ورابطة العالم الإسلامي في مكة.

كان يؤمن أن بناء الإنسان يسبق بناء الحجر.

◆ شارك في المؤتمرات العربية والإسلامية،

وحمل رؤيةً تتقاطع فيها الهوية الإسلامية مع البعد العربي،

في زمنٍ كانت فيه المنطقة تعيد تعريف نفسها بين الاستقلال والتحالفات الجديدة.

كان يرى أن المملكة جزء من أمة،

وأن دورها يتجاوز حدود الجغرافيا.

- غير أن السياسة لا تسير دائمًا على وتيرة واحدة.

شهد عهده تحديات مالية وإدارية،

واختلافات داخل الأسرة الحاكمة،

انتهت بعزله عام ١٩٦٤،

ليكون الملك السعودي الوحيد الذي انتهى حكمه بقرار من أسرته، لا بوفاة.

تلك صفحةٌ مؤلمة في سيرته،

لكنها جزء من الحقيقة.

- خرج من الحكم،

لكنه لم يخرج من الذاكرة.

تنقل بين عدد من البلدان حتى استقر به المقام في اليونان،

حيث توفي في ٢٣ فبراير ١٩٦٩.

نُقل جثمانه إلى مكة،

وصُلّي عليه في المسجد الحرام،

ثم دُفن في مقبرة العود بالرياض،

كأن الرحلة عادت إلى بدايتها.

- ترك أبناءً وأحفادًا،

حملوا كثيرًا من ملامحه الإنسانية؛

الكرم، والانفتاح،

والإيمان بأن الدولة لا تقوم إلا على تعليم شعبها وصون هويتها.

◆ وجوه لا تغيب...

لأن التاريخ لا يُختزل في نهاية حكم،

ولا يُلغى بقرار عزل.

يبقى من الرجل ما زرعه من مؤسسات،

وما فتحه من أبواب للعلم،

وما رسمه من ملامح في زمنٍ كان يتشكّل.

الذكرى ليست استعادة اسم،

بل استعادة معنى:

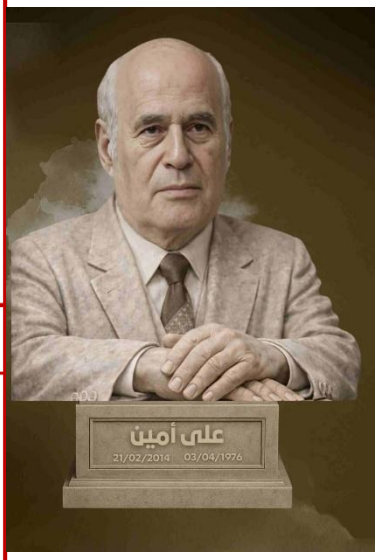
أن الملكية ليست مجرد تاج،

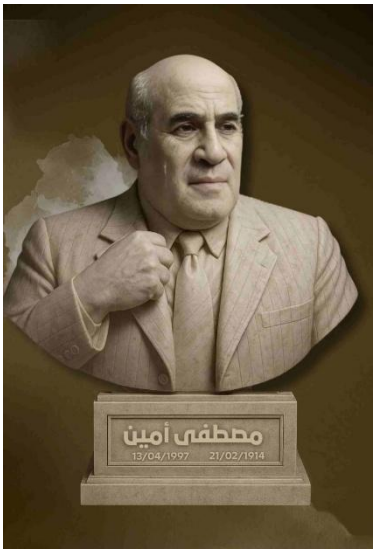
بل مسؤولية أمام الله والتاريخ والناس.



وجوه لا تغيب: التوأمان.

١١٢ عامًا على ميلاد العملاقين





ليس كل ميلاد حدثًا بيولوجيًا...

بعض المواليد تأتي لتغيّر تاريخ، وتُعيد تعريف ضمير.

في الحادي والعشرين من فبراير ١٩١٤،

لم تولد روحان فقط،

بل وُلدت مدرسة كاملة في بلاط صاحبة الجلالة.

مدرسة تقول إن الصحافة ليست حرفة،

بل شجاعة.

وأن الكلمة إن لم تُدافع عن الإنسان،

فلا تستحق أن تُكتب.

بيت الميلاد لم يكن بيتًا عاديًا.

بيت سعد زغلول، بيت الأمة.

الأم ابنة أخته، والطفلان تربّيا في حضن صفية زغلول،

فتعلّما مبكرًا أن الوطن لا يُحكى عنه من بعيد،

بل يُعاش في تفاصيل اليوم،

وفي غضب الشارع،

وفي دمعة أم.

الطفولة عند مصطفى أمين وعلي أمين لم تكن لعبًا عابرًا.

أصدرا مجلة وهما في الثامنة،

ثم «التلميذ» عام ١٩٢٨،

فأُغلقت لأنهما كتبا ما لا يُحب أن يُكتب.

منذ ذلك العمر المبكر،

كانا يعرفان أن الحرية لا تُمنح،

بل تُنتزع.

تفرّق المسار قليلًا ليزداد عمقًا.

علي أمين إلى إنجلترا،

مهندسًا يرى في البناء معنى النظام.

مصطفى أمين إلى جامعة جورج تاون،
دارسًا للعلوم السياسية بمرتبة الشرف عام ١٩٣٨،
يحمل عقلًا يرى أن السياسة قصة بشر قبل أن تكون حسابات.
عادا إلى القاهرة لا ليبحثا عن مقعد،
بل ليصنعا منصة.
عام ١٩٤٤ خرجت أخبار اليوم إلى النور،
فكانت جريدة تمشي بين الناس،
لا من فوقهم.
اشترى التوأمان «آخر ساعة» عام ١٩٤٦،
واكتملت المدرسة:
خبر حي،
وقصة تمشي على قدمين،
ولغة بسيطة تشبه الناس.
لم تكن الصحافة عندهما سلطة على القارئ،
بل جسرًا إليه.
»فكرة» لم تكن عمودًا يوميًا،
بل نافذة يطل منها قلب على قلب.
في «ليلة القدر» عام ١٩٥٤،
لم يسأل مصطفى أمين عن السياسة،
بل عن أمنية طفل.

هكذا فهم الصحافة:

أن تنصت قبل أن تكتب.

»عيد الأم« لم يولد في وزارة،

بل في سؤال كتبه علي أمين:

»لماذا لا يكون للأم يوم؟«

فصار الربيع موعدًا للامتنان،

وصار المقال عيدًا.

لم تكن حياتهما خطًا مستقيمًا.

سُجن مصطفى،

واتُّهم،

وعاش سنوات خلف القضبان.

كتب «سنة أولى سجن»

ثم «سنة ثانية»

ثم «سنة ثالثة»

ثم «سنة رابعة».

كنت أقرأ تلك الصفحات في سنوات اعتقالي،

فأجد نفسي بين السطور.

لو بدّلت التاريخ وبعض الأسماء،

لصارت تلك الكتب «أوراق من مذكراتي».

دين الظلم واحد،

كما أن دين الحرية واحد.

إذا كان أستاذي في السياسة هو فؤاد سراج الدين،

فأستاذي الأول في الصحافة هو مصطفى أمين.

مدرسة القصة الإنسانية،

والرؤية الليبرالية الخالصة.

كنت — وربما من سوء حظي الجميل—

من الدفعة الأخيرة في تلك المدرسة العريقة.

لمست الرجل،

وقرأتني في كلماته،

وشرفت أن يكتب عني،

وأن يقطع مقالته ليقول كلمة حق.

التوأمان لم يكونا متشابهين في الشكل فقط،

بل في الإيمان.

إيمان بأن القلم لا يخون،

وأن الصحفي لا ينحني إلا للحقيقة.

كانا يعرفان أن الجريدة ليست ورقًا،

بل مسؤولية،

وأن كل عنوان يمكن أن يكون حياة أو موتًا.

في ٢٨ مارس ١٩٧٦،

كتب علي أمين:

»الذي يحبني لا يبكي... كل ابتسامة فوق شفاه هي قبلة على جبيني«.

ورحل.

ثم لحقه مصطفى أمين في ١٤ أبريل ١٩٩٧.

افترق الجسدان،

لكن المدرسة بقيت.

الربيع صار موعدهما الدائم،

كأن العطاء لا يعرف موسمًا غيره.

مئة واثنا عشر عامًا مرّت،

والصحافة المصرية ما زالت تبحث عن نبضهما.

في زمنٍ صار فيه الخبر سلعة،

والرأي صفقة،

يبقى اسماهما علامة فارقة:

الإنسان أولًا،

والحرية دائمًا.

وجوه لا تغيب...

لأن بعض الأسماء لا تُحفر في الحجر،

بل في الضمير.

ولأن من كتب بدم القلب،

لا يُمحى بالحبر.

ولأن الصحافة — حين تكون حبًا—

تصير حياةً كاملة،

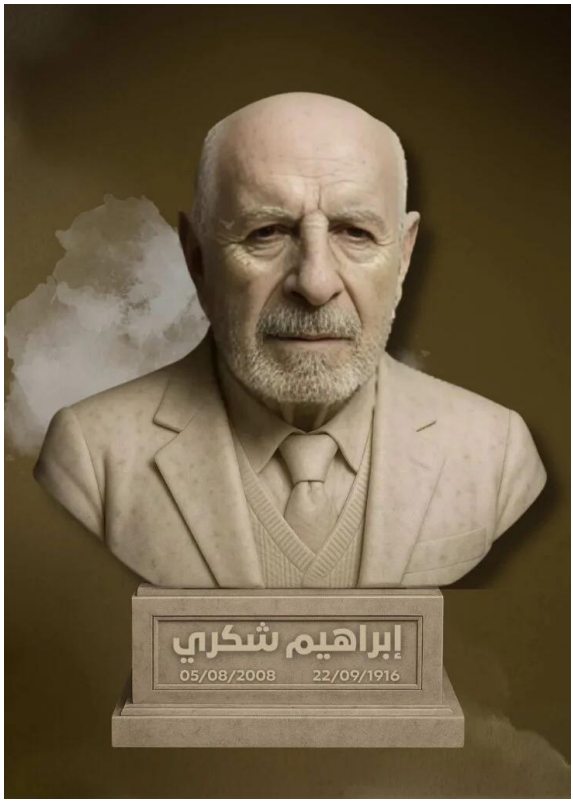
وتبقى...

حتى بعد أن يسكت الصوت.



وجوه لا تغيب – إبراهيم شكري

ثمانون عامًا على مظاهرات ٢١ فبراير ١٩٤٦



◆ بعض الرجال لا يولدون مرةً واحدة.

يولدون أولًا من رحم الأمهات،

ثم يولدون ثانيةً من رحم الميدان.

هكذا وُلد إبراهيم شكري سياسيًا،

طالبًا خرج يهتف بالجلاء،

فأصابته يد العدوان، وسقط بين الجموع،

ثم نهض حيًّا... ليحمل منذ ذلك اليوم لقب «الشهيد الحيّ».

◆ صباح الحادي والعشرين من فبراير لم يكن يومًا عابرًا في دفاتر القاهرة.

كان لحظة انكشاف بين جيلٍ يريد وطنًا كاملًا،

واحتلالٍ يراوغ بالوعود والمعاهدات.

طلاب جامعة فؤاد الأول اتجهوا إلى ميدان الإسماعيلية — الذي سيُعرف لاحقًا باسم ميدان التحرير —

يحملون الهتاف بدل السلاح،

والأمل بدل الخوف.

◆ المدرعات البريطانية لم تُحسن قراءة الهتاف.

الرصاص تقدّم على التفاهم،

والمدرعة حاولت أن تسحق ما لم تستطع إخضاعه.

ثلاثة وعشرون شهيدًا سقطوا،

وأكثر من مائة جريح،

وكان بين المصابين الطالب الشاب إبراهيم شكري.

◆ نجا الجسد،

لكن الروح لم تعد كما كانت.

خرج من الميدان لا كطالبٍ يعود إلى محاضراته،

بل كرجلٍ أدرك أن السياسة ليست منصبًا،

بل امتحان موقف.

◆ لقب «الشهيد الحيّ» لم يكن تعبيرًا إنشائيًا،

بل خلاصة تجربة جيلٍ رأى الموت قريبًا من عينيه،

ثم قرر أن يواصل السير.

الجرح لم يتحول إلى ضغينة،

بل إلى وعيٍ بأن الاستقلال لا يُهدى... بل يُنتزع.

◆ السنوات قادته من الميدان إلى قبة البرلمان.

تدرّج حتى صار وزيرًا للزراعة في حكومة سابقة،

ثم رئيسًا لـ حزب العمل،

لكن الطالب الذي واجه المدرعة ظل ساكنًا في داخله.

المنصب لم يُبدّل المبدأ،

بل كان امتدادًا لذلك الصوت الأول الذي هتف بالجلاء.

◆ مدرسة فبراير لم تكن صفحة تاريخ،

بل معملًا لتكوين الرجال.

خرج منها من حملوا الوجع كبوصلة،

وجعلوا من التجربة التزامًا طويل النفس.

إبراهيم شكري واحد من أبرز تلك الوجوه؛

وجهٌ لم ينكسر تحت عجلات الحديد،

بل اشتدّ عوده بها.

◆ تعاقبت الحكومات،

وتبدلت الشعارات،

لكن معنى ٢١ فبراير بقي ثابتًا:

الكرامة تُصنع في الشارع قبل أن تُصادق عليها النصوص.

الطالب الذي يُصاب اليوم

قد يصبح وزيرًا غدًا،

لكن ذاكرة الرصاصة لا تغادره.

◆ وجوه لا تغيب...

لأن بعض الألقاب تُولد من الدم،

ولا تمحوها السنوات.

»الشهيد الحيّ« لم يكن لقبًا لرجلٍ واحد،

بل شهادة لجيلٍ كامل

آمن أن الوطن يستحق الألم...

ليستحق الحياة.

وجوه لا تغيب – سرّ خليل أغا

حاول قتلي منذ ٣٥ عامًا... وهنّأني أمس بـ رمضان



◆ بعض الحكايات لا تبدأ برصاصة، بل بجرس هاتف.

مكالمة جاءتني في أول أيام رمضان، تحمل تهنئة هادئة، وصوتًا أعرفه ولا أعرفه.

صوت الرجل الذي حاول قتلي منذ خمسة وثلاثين عامًا...

ثم عاد ليقول: كل عام وأنت بخير.

◆ الذاكرة لا تموت، لكنها أحيانًا تبتسم.

خمسة وثلاثون عامًا وأنا أحفظ ملامحه في ظلال العمر؛

رجل لم أره بعدها، ولم أذكر اسمه في التحقيقات،

كأنني تركت الاسم معلقًا في الهواء،

حتى عاد إليّ عبر شاشة «فيس تايم» يشكرني... ويهنئني.

◆ المشهد الأول كان قرب مدرسة خليل أغا في باب الشعرية.

مدرسة عتيقة، أكبر مدارس الحي، وأعرقها.

لم تكن لجنة اقتراع فحسب، بل مسرحًا لامتحانٍ مبكر:

السياسة ليست خطابًا، بل احتمال رصاصة.

◆ يوم ٤ ديسمبر ١٩٩٥، رصاصة طائشة اخترقت زجاج سيارتي،

لامست جانبي الأيسر، واستقرت في كتابٍ بجواري عنوانه «الوفد والعمال».

لحظة خاطفة كغمامة سوداء،

لكنني اخترت ألا أجعلها إعصارًا.

◆ تسامحت.

لم أُفسد فرحة الفوز، ولم أفتح باب ثأرٍ بين أنصاري وأنصار منافسَيّ (صبحي الجندي وصبحي وهدان).

أخفيت الوصف، ولم أكن أعرف اسمه الأول حتى تلك المكالمة المتأخرة.

قال لي: شكرًا لأنك لم تذكرني... ورمضان كريم.

◆ العمر كان ثلاثين عامًا،

والطريق ما يزال يتشكل.

لكن القدر أعاد المشهد بعد عقدٍ كامل،

لا رصاصة طائشة هذه المرة،

بل خطة محكمة، وبقرارٍ رسمي.

◆ ليلة ٢٤ مايو ٢٠٠٥، قبل أربعين يومًا من انتخابات الرئاسة،

وقبل استفتاء تعديل المادتين ٧٦ و٧٧،

جلست في مقر جريدة الغد بشارع بولس حنا في الدقي،

أكتب وأراجع، والمدينة نائمة.

◆ دخل رجل.

لم يطلب موعدًا، ولم يبدُ عابرًا.

قال بصوت منخفض: أنا قناص بالعمليات الخاصة، ومكلّف بقتلك.

غدًا ستُفتعل مشاجرة عند دخولك لجنة خليل أغا،

وسأطلق النار وسط الفوضى.

◆ غادر سريعًا كما جاء، وبقي اسمه مجهولًا بالنسبة لي.

ظلّ وجهه عابرًا في ذاكرتي بلا تعريف،

حتى كنت في المعتقل عام ٢٠٠٨،

فإذا بصورته تخرج إليّ من صفحات الجرائد مرفقةً بخبر اتهامه في جريمة قتل شهيرة.

هناك فقط عرفت الاسم الذي ظلّ ناقصًا في الحكاية،

وعرفت أن الرجل الذي حذّرني كان هو نفسه الذي ساقه القدر إلى مصيرٍ آخر.

◆ بقي السؤال يطرقني:

من هو خليل أغا الذي يتكرر اسمه كلما اقترب الخطر؟

◆ في سياق هذا البحث، طلبتُ يومًا من الدكتور محمد إبراهيم سليمان — وزير الإسكان الأسبق وأحد خريجي مدرسة خليل أغا — أن يتبنى ترميم المدرسة عبر المقاولون العرب، لا من أجل الطلاء، بل ليبقى الاسم حيًا كما كان. استجاب الرجل بحماس، وتحمّل نفقات الترميم من ماله الخاص.

وسألته صراحة: من هو خليل أغا؟

لكن الإجابة لم تكن واضحة ولا شافية،

كأن الاسم أكبر من سيرةٍ مختصرة،

وأعمق من حكاية تُروى على عجل.

◆ البحث قادني إلى اسم خليل أفندي أغا، رجل البلاط في عهد الخديوي إسماعيل،

رجلٌ كان ظله يمتد من أروقة القصر إلى دهاليز القرار.

◆ كان خليل أغا هو مربي الخديوي إسماعيل،

رجلًا يرتدي الصمت كما يرتدي السلطة،

ويترك في كل خطوة أثرًا على بلاط التاريخ.

◆ لم يكتفِ خليل أغا بالبلاط،

بل أسس في ديسمبر ١٨٦٩ مدرسةً للأيتام والفقراء،
حيث كان القرآن يُقرأ كأنه عهد،
والنحو يُكتب كأنه دستور،
والخط العربي يُرسم كأنه مصير.
أوقف جزءًا من ثروته للمعرفة،
كأنه أراد أن يترك خلفه قصرًا من الحروف،
بدلًا من قصرٍ من الحجارة.

- المفارقة موجعة:

اسمٌ ارتبط بالبلاط،
يصبح بعد قرنٍ شاهدًا على محاولة اغتيالٍ عند بوابة مدرسة.
مدرسةٌ أسسها رجلٌ للتعليم،
تصير مسرحًا للرصاص.

- تهنئة الأمس لم تُسعدني وحدها،

بل أعادت لي يقينًا قديمًا:
أن الرصاصة قد تتحول إلى مصافحة،
وأن الخصومة قد تنتهي بكلمة «سامحني»،
وأن التاريخ لا يُغلق صفحاته إلا حين نتعلم منه.

- وجوه لا تغيب...

لأن بعض الأسماء تظل قائمةً فوق اللافتات،
وبعض القصص تظل مفتوحةً فوق الذاكرة،

وبين خليل أغا ورمضان
تعلّمت أن التسامح
أقوى من الرصاص.



وجوه لا تغيب – فؤاد محيي الدين

١٠٠سنه علي ميلاد رئيس الوزراء الذي قتله مبارك ...



◆ بعض الرحيل يجيء همسًا، وبعضه يأتي كسقوط مفاجئ على ورقة لم تكتمل، وعلى قرار لم يُكتب، وعلى قلب لم يمهله القدر سوى دقائق. هكذا رحل أحمد فؤاد محيي الدين، رئيس الوزراء الذي

لم تُمهله السياسة، ولم ينتظر هو أن يُقال. رحل قبل أن يُعلَن رحيله، كأن الحياة أغلقت ملفه بنفسها.

◆ في السادس عشر من فبراير ١٩٢٦، وُلد أحمد فؤاد محيي الدين في قرى القليوبية، حيث الأفق مفتوح على تعب الفلاحين، وحيث الصعود يبدأ من الصبر. كان الفتى محبًا للعلم، فأصبح الطبيب الذي يرى أن الطب ليس فقط في الجسد، بل في المجتمع.

◆ حصل على بكالوريوس الطب عام ١٩٤٩، لكن شغفه بالمعرفة قاده أبعد. واصل دراساته في الاقتصاد والسياسة، وحصل على دكتوراه في الأشعة عام ١٩٥٣. كان عقله طبيبًا في المهنة، واقتصاديًا في الرؤية، وسياسيًا في الإدارة.

◆ دخل العمل النقابي، فصار أمينًا عامًا لنقابة الأطباء لعشر سنوات (١٩٥٦–١٩٦٦)، ثم محافظًا للشرقية في الثانية والأربعين. خطى خطواته وكأن الإدارة مزيج من تشخيص المجتمع وعلاجه.

◆ في عام ١٩٨٢، اختاره حسني مبارك رئيسًا للوزراء. جاء الرجل في مطلع عهد ما زال يترنّح بعد اغتيال السادات،

ومعه ملفات دولة تحاول أن تقف على قدميها. لم يكن صاخبًا، بل كان هادئًا كما هي عادة الأطباء، يقرأ الأعراض قبل أن يصف الدواء.

◆ كان الرجل جالسًا على مكتبه في الخامس من يونيو ١٩٨٤، حين جاءه نبأ إقالته. لم يتحرك. بقي في مكانه، كأن المكتب صار جزءًا من قدره. دقائق قليلة،

ثم صمت القلب قبل أن يغادر الكرسي.

◆ قال عنه مبارك لاحقًا إنه واحدٌ من أفضل ثلاثة وزراء عمل معهم. لكن الشهادة لم تكن مهمة.

المهم أن الرجل مات قبل أن يُقال،

وكأن القدر أراد أن يحفظ له كرامة الختام.

◆ وجوه لا تغيب...

لأن من يموت على مكتبه يترك أسئلة أكبر من السياسة،

ولأن من قتله التعب لم يقتله الفشل،

بل ترك وراءه حكاية رجلٍ

لم يخن واجبه...

حتى اللحظة الأخيرة.



وجوه لا تغيب – مصطفى كامل ١

رحيل الزعيم الشاب... حين يسبق العمرُ الزمن



- العاشر من فبراير لا يمرّ عاديًا في تاريخ الوطنية المصرية.

هو اليوم الذي غاب فيه جسد شاب، وبقيت روحه تقود أمة.

رحل مصطفى كامل عام ١٩٠٨، ولم يكن قد تجاوز الرابعة والثلاثين،

كأن القدر أراد أن يختصر العمر ليُكثّف الأثر.

◆ لم يكن مصطفى كامل خطيبًا فقط، ولا صحفيًا عابرًا،

بل فكرة تمشي على قدمين،

وصوتًا يعرف أن الكلمة حين تصدق

تصير سلاحًا لا يصدأ.

◆ وُلد في ١٤ أغسطس ١٨٧٤،

لأبٍ عسكري، علي محمد،

رزقه الله بابنه وهو في الستين،

فنشأ الطفل وكأن عليه أن يعجّل الزمن،

وأن يحمل عبئًا أكبر من عمره.

◆ التعليم كان بوابته الأولى إلى الحرية.

أتمّ المرحلة الابتدائية،

ثم التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية،

وهناك لم ينتظر أن يتخرج ليقول رأيه.

أسّس جماعة أدبية وطنية،

وكان يخطب في زملائه،

كأن المنبر ناداه قبل أن يناديه المنصب.

◆ حصل على الثانوية وهو في السادسة عشرة،

ثم التحق بمدرسة الحقوق عام ١٨٩١،

المدرسة التي كانت—في ذلك الزمن—

مصنعًا للعقول والخطباء معًا.

أتقن الفرنسية،

وصقل لسانه،

وتنقّل بين الجمعيات الوطنية،

فتكوّنت وطنيته بالاحتكاك لا بالتلقين.

- في تلك السنوات،

تعرف على رموز فكر وأدب،

منهم إسماعيل صبري،

وخليل مطران،

وبشارة تكلا مؤسس جريدة الأهرام،

الذي فتح له صفحات صحيفته،

ثم نُشرت مقالاته في جريدة المؤيد،

فتحوّل القلم إلى منصة نضال.

- عام ١٨٩٣ سافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق،

وهناك لم يكتفِ بالمدرجات،

بل دخل صالونات الفكر،

وتعرّف إلى رجال الثقافة،

وتعلّم كيف تُدار المعارك في عقر دار الخصم.

- عودته إلى مصر كانت بداية الصدام الحقيقي.

هجوم الصحافة البريطانية عليه زاد شهرته،
وجعل اسمه يتردد خارج الحدود.
وحين وقعت حادثة دنشواي،
كان صوته في أوروبا وبريطانيا
أعلى من الرصاص،
يدافع عن كرامة الفلاح المصري،
ويفضح وحشية الاحتلال.

- العلاقة مع الخديوي عباس حلمي الثاني

جاءت في سياق صراع مبكر مع اللورد كرومر.
التقى الهدفان:
حاكم يريد أن يستعيد هامش السيادة،
وزعيم شاب يعرف أن الاستقلال لا يُستجدى.

- عام ١٩٠٠ أصدر جريدة اللواء اليومية،

لتكون منبر الحزب قبل أن يكون للحزب اسم.
ثم أسّس الحزب الوطني،
واضعًا برنامجًا لا يهادن الاحتلال،
ولا يساوم على الكرامة.

- أقواله لم تكن شعارات،

بل خلاصة تجربة مبكرة مع الحياة:
»لو لم أكن مصريًا لوددت أن أكون مصريًا«،

»لا معنى لليأس مع الحياة، ولا معنى للحياة مع اليأس«،

»الأمة التي لا تأكل مما تزرع ولا تلبس مما تصنع

محكوم عليها بالتبعية والفناء.«

كلمات كُتبت لتُحفظ،

لا لتُزيّن الجدران.

- المرض داهم الجسد،

لكن الفكرة كانت قد سبقت الضعف.

رحل مصطفى كامل في ١٠ فبراير ١٩٠٨،

شابًا،

مكتمل الرسالة،

كأن العمر لم يكن شرطًا للنضج.

- بعد الرحيل،

لم تنطفئ الراية.

انتقلت إلى رفيقه وتلميذه محمد فريد،

لتستمر المعركة،

ويستمر السؤال.

- وجوه لا تغيب...

لأن بعض الزعماء

لا يقاسون بعدد السنوات،

بل بعدد القلوب التي أيقظوها.

ولأن مصطفى كامل

رحل مبكرًا،

لكنه ترك وطنًا

يتعلّم كيف يحلم.



وجوه لا تغيب – سعد الدين الشاذلي

القائد الذي انتصر... ودفع ثمن الحقيقة



◆ لا تمرّ العاشر من فبراير عاديًا في ذاكرة هذا الوطن.
إنه اليوم الذي غاب فيه رجلٌ لم يكن عابرًا في تاريخ مصر،
رجلٌ انتصر في الميدان،

وخسر في السياسة،

ودفع ثمن الصدق كاملًا،

ثم رحل في صمتٍ يليق بالكبار.

◆ في ١٠ فبراير ٢٠١١، أسدل الستار على حياة الفريق سعد الدين الشاذلي،

رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية الأسبق،

وأحد أكثر العقول العسكرية العربية لمعانًا،

وأكثرها إزعاجًا للسلطة حين اختلط النصر بالحسابات.

◆ وُلد الشاذلي في ١ أبريل ١٩٢٢،

في قرية شبراتنا بمركز بسيون في محافظة الغربية،

في بيتٍ ريفيّ يعرف معنى الانضباط قبل أن يعرف معنى الوجاهة.

الطريق إلى المدرسة كان طويلًا،

ست كيلومترات يقطعها الطفل يوميًا،

كأن الجغرافيا كانت تُعدّه مبكرًا لفهم المسافة بين الحلم والواقع.

◆ انتقلت الأسرة إلى القاهرة وهو في الحادية عشرة،

فأكمل تعليمه الإعدادي والثانوي هناك،

ودخل العسكرية لا بوصفها مهنة،

بل بوصفها مدرسة عقل،

يتعلم فيها كيف تُدار المعارك قبل أن تُطلق الرصاصات.

◆ في مسيرته، لم يكن مجرد ضابط صاعد،

بل عقلًا تنظيميًا استثنائيًا.

أسّس وقاد أول فرقة مظلات في الجيش المصري،
ثم شقّ طريقه حتى صار رئيس أركان حرب القوات المسلحة
في الفترة من ١٦ مايو ١٩٧١ حتى ١٣ ديسمبر ١٩٧٣،
وهي السنوات الأخطر في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي.

◆ في أكتوبر ١٩٧٣،
كان الشاذلي هو العقل المدبّر لخطة العبور،
وصاحب التصور الذي كسر أسطورة خط بارليف،
وأعاد للجيش المصري ثقته بنفسه،
وللأمة العربية قدرتها على الحلم.

◆ لكن الحرب لا تنتهي دائمًا بانتهاء القتال.
داخل غرفة القرار،
نشب الخلاف مع الرئيس أنور السادات،
خلافٌ حول إدارة المعركة بعد العبور،
وحول ما عُرف لاحقًا بـ ثغرة الدفرسوار.
اختار الشاذلي أن يقول رأيه،
واختار النظام أن يضعه خارج الصورة.

◆ قدّم استقالته من رئاسة الأركان،
ثم عُيّن سفيرًا لمصر في بريطانيا،
ثم في البرتغال،
وكأن الانتصار في الميدان يُكافأ بالابتعاد عن مركز القرار.

◆ كان الشاذلي القائد الوحيد من قادة حرب أكتوبر
الذي لم يُكرَّم،
وتجاهلته احتفاليات النصر،
ليس لأنه لم ينتصر،
بل لأنه رفض أن يُعيد كتابة الرواية
بما يرضي السياسة.

◆ في كتابه «مذكرات حرب أكتوبر»،
فتح الملفات،
وكتب ما رآه حقًا،
لا ما طُلب منه أن يراه.
الصدق هنا لم يكن فضيلة فقط،
بل تهمة.

◆ أعلن معارضته الصريحة لاتفاقيات كامب ديفيد،
واستقال من منصبه،
وغادر مصر إلى الجزائر طالبًا اللجوء السياسي،
في مشهد نادر لقائد انتصر ثم اختار المنفى
على أن يصمت.

◆ عاد إلى مصر عام ١٩٩٣،
رغم صدور حكم عسكري ضده،
نال عفوًا شاملًا،

وعاش بعيدًا عن الأضواء،

كأن الوطن قرر أن يحتفظ بانتصاره

وينسى صانعه.

- رحل الشاذلي قبل أيام قليلة من انفجار ثورة يناير،

كأن القدر لم يُرد له أن يرى المشهد الذي كان ينتظره،

مشهد شعبٍ يستعيد صوته،

بعد سنوات من تغييب الحقيقة.

- وجوه لا تغيب...

لأن بعض القادة لا تُقاس قيمتهم بالأوسمة،

بل بما قالوه حين كان الصمت أسهل.

ولأن النصر الحقيقي

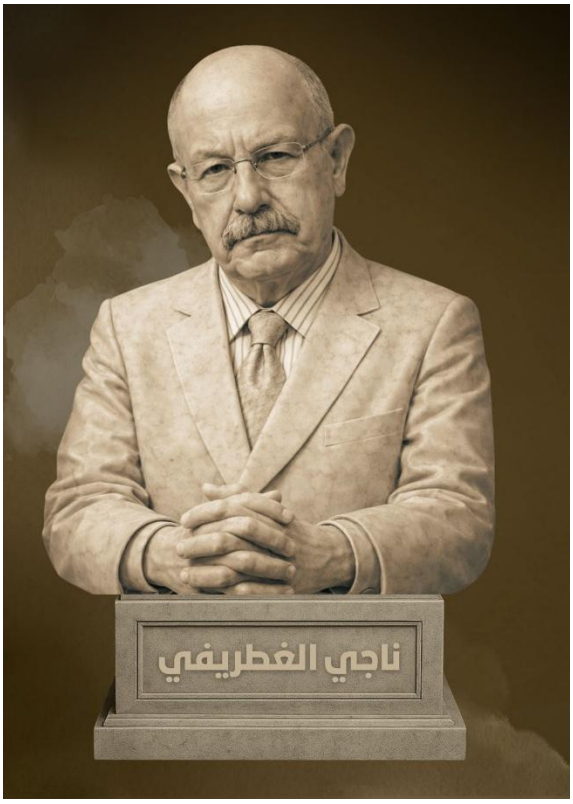
هو أن تنتصر في الحرب

ولا تخسر نفسك بعدها.



وجوه لا تغيب – ناجي الغطريفي

وداعاً السفير المقاتل...الأخ والصديق



◆ رحمك الله رحمةً تليق بنقائك، وغفر لك، وجعل مثواك سكينةً لا تعب بعدها.

هذا ليس مقالًا، بل صلاة مكتوبة.

وليس وداعًا عابرًا، بل بكاء أخٍ على أخٍ أكبر، وصديقٍ علّمنا أن الرجولة لا تصرخ، وأن الكرامة تمشي على أطرافها كي لا تجرح أحدًا.

◆ اليوم يثقل القلب، وتنكسر الجملة قبل أن تُكتب.

اليوم نودّع ناجي الغطريفي،

الرجل الذي لم يغادرنا حقًّا، لأن المواقف إذا سكنت القلوب لا تُشيَّع،

ولأن السيرة إذا استقرّت في الضمير لا تموت.

◆ في زمنٍ ازدحمت فيه الوجوه المتبدّلة،

كان ناجي علامة ثابتة على طريق الوطن.

سفيرًا للدولة حين كان الصمت حكمة،

وسفيرًا للحق حين صار الكلام فريضة.

لم يبدّل موقفه يومًا،

بل بدّل لغته فقط،

من بروتوكول الدبلوماسية الهادئة

إلى نبرة الحرية التي لا تُهين ولا تُساوم.

◆ عرفته في الخارجية رجلًا يعرف متى يُصغي،

ثم عرفته أكثر حين اختار أن يضع مقاعد البروتوكول خلفه،

ويجلس في الصفوف الأمامية للنضال الحزبي.

لم يخلع بدلته الدبلوماسية،

بل ألبسها قلبًا واسعًا للحلم،

وعقلًا راجحًا لإدارة الخلاف،

فصار نموذجًا نادرًا للمقاتل المهذّب.

◆ تدرّج في السلك الدبلوماسي،

ومثّل مصر في عواصم بعيدة،

ثم عاد ليُمثّلها أمام ضميرها.

انضم إلى حزب الغد مؤمنًا بأن خدمة الوطن لا تنتهي عند باب الوزارة،

وأن السياسة، إن خلت من الشرف، صارت عبئًا لا رسالة.

◆ حين اعتُقلتُ،

حمل عبء الحزب في أصعب لحظاته.

قاد الصفوف بهدوءٍ يُربك العاصفة،

وحراسةٍ للمعنى لا للمنصب.

كان الأب الحنون الذي لا يترك البيت بلا نور،

حتى في الليالي التي طال فيها الحصار.

◆ لا يغيب عن ذاكرتي يوم الخامس من مايو ٢٠٠٥ في كفر صقر.

حلمٌ بدأ بنشيد، وانتهى بدم.

حوصِرنا وسقط الجرحى،

وكان ناجي الغطريفي في المقدّمة.

نزف، ورفض الإسعاف قبل أن يطمئن على الآخرين.

ابتسم ودمه يلوّن قميصه الأبيض،

فعرفت أن الوطنية لا تحتاج بدلةً لتكون شرفًا،

بل تحتاج رجلًا يؤمن بها.

- بعد تلك الليلة،

لم يعد في عيوننا سفيرًا سابقًا،

بل أخًا أكبر في الميدان،

مقاتلًا ناعم الحضور، صلب الجوهر.

لياقة الحوار عنده لم تُلغِ شجاعة الموقف،

وابتسامته كانت تعرف متى تظهر ومتى تختفي احترامًا للألم.

- ظلّ رفيقًا لكل معاركنا،

وساهم في تأسيس حزب غد الثورة،

ثم واصل دعم الفكرة حيثما وجدها،

حتى حين انضم لاحقًا إلى حزب الدستور.

كان يثبت في كل مرة أن الليبرالية ليست بطاقة عضوية،

بل ضميرًا حيًّا يتنقّل حيث يوجد الحق.

- لم أره يومًا غاضبًا،

لكن الظلم كان يوجعه.

وكان من القلّة التي تُحوّل الغضب إلى فعلٍ نبيل،

لا إلى خصومةٍ شخصية.

علّمني أن الهدوء ليس ضعفًا،

وأن التسامح لا يُلغي الشجاعة،

وأن أقوى الناس من يحسن النُّبل في لحظة الغضب.

◆ اليوم نفتقدك يا صديقي،

يا أخي الأكبر،

يا من كنت تسندنا دون ضجيج،

وتدلّنا دون وصاية.

نفتقد حضورك الصامت،

وكلمتك القليلة التي كانت تُغني عن خطب طويلة.

◆ سلامٌ عليك يا ناجي الغطريفي.

سلامٌ على السفير الذي ظلّ سفيرًا لقيمه لا لمناصبه.

سلامٌ على من جعل الدبلوماسية مدرسة كرامة،

والسياسة واجب ضمير،

والصداقة عهدًا لا ينقضه الموت.

◆ وجوه لا تغيب...

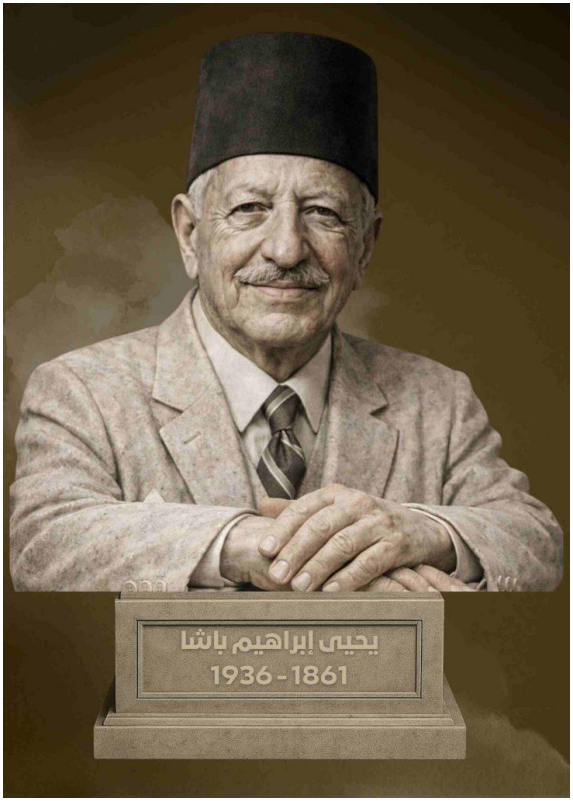
لأن الفراق لا يمحو الأثر.

ولأن الأخ الأكبر يرحل جسدًا،

ويبقى سندًا في القلب.



وجوه لا تغيب . يحيى باشا إبراهيم.
سقطت الحكومة. ورئيسها. ونجح الصندوق



زمنٍ كان الصندوق فيه أعلى من الكرسي، وكانت الورقة الانتخابية أقوى من النفوذ، والمال السياسي، في هذا الوقت وقف يحيى باشا إبراهيم أمام امتحان نادر:

أن تُدار الانتخابات وهو رئيس للوزارة،

ووزير للداخلية،

ورئيس للجنة الانتخابات...

ثم تقبل السلطة الهزيمة كاملة،

حزبًا ورئيسًا.

لم تكن الهزيمة حادثًا عابرًا، بل شهادة عصر.

شهادة تقول إن السياسة، حين تُدار بضمير، تقبل حكم الناس حتى لو جاء قاسيًا على أصحاب الحكم.

عام ١٩٢٤ دخلت مصر واحدة من أنصع لحظاتها الانتخابية.

تنافست أربعة أحزاب:

حزب الاتحاد (حزب الحكومة والملك) برئاسة يحيى باشا إبراهيم،

وحزب الوفد،

والأحرار الدستوريون،

والحزب الوطني.

كانت المعركة مفتوحة،

وكان الحكم للصندوق.

النتيجة جاءت قاطعة:

حزب الوفد حصد ١٨٨ مقعدًا،

بينما لم يحصد حزب الحكومة سوى ١٧ مقعدًا.

لم تكن الأرقام تخص أشخاصًا،

بل عبّرت عن ميزان قوى حاسم

بين إرادة الناس وسلطة الحكم.

المفارقة الأعمق، والأكثر دلالة، أن الهزيمة لم تتوقف عند الحزب، بل طالت رئيس الحكومة نفسه.

يحيى باشا إبراهيم

سقط في دائرته الانتخابية،

في مواجهة محمد مرعي،

أفندي بسيط،

لا يحمل لقب باشا،

ولا يسنده جهاز،

ولا تحمله سلطة.

لم تُلغَ النتيجة، ولم يُعاد الاقتراع، ولم تُستدعَ الداخلية لتغيير المسار، رغم أن وزيرها هو الخاسر.

سقط رئيس الوزراء،

وسقط وزير الداخلية،

وسقط رئيس لجنة الانتخابات...

وبقيت النزاهة واقفة.

محمد مرعي، الذي هزم يحيى باشا إبراهيم في الصندوق، لم يكن اسمًا عابرًا في سجل الانتخابات.

بل صار لاحقًا صفحة ممتدة في التاريخ السياسي المصري،

بوصفه والد المهندس سيد مرعي

الذي أصبح فيما بعد رئيسًا لمجلس الشعب

في عهد الرئيس أنور السادات.

هكذا، يربط الصندوق بين أجيال،

ويصنع السياسة من الناس،

لا من الألقاب.

تلك اللحظة أعادت تعريف السلطة:

ليست من يجلس،

بل من يُنتخب.

وليست من يُمسك بالمفاتيح،

بل من يحترم القاعدة.

بعد إعلان النتائج، لم يُبحث عن مخارج ملتوية.

كلّف الملك فؤاد

الزعيم سعد باشا زغلول

بتشكيل الحكومة،

فجاءت وزارة الشعب.

اسمها لم يكن شعارًا،

بل ترجمة مباشرة لإرادة الناخبين.

في ذلك الزمن، كانت الحكومات تُولد من الصندوق، لا من المكاتب المغلقة.

وكانت الخسارة تُقبل

كما تُقبل الحقيقة،

وكان السقوط جزءًا من اللعبة الديمقراطية

لا ذريعة لإعدامها.

لم يكن يحيى باشا إبراهيم قدّيسًا، ولا كان عصره بلا صراع، لكن موقفه هذا بقي علامة لا تُمحى.

أن يُشرف ويخسر،

وأن يسقط حزبه ويسقط هو شخصيًا،

في تاريخ الحياة النيابية المصرية.

السياسة آنذاك لم تكن خالية من الخلاف، لكنها كانت مشبعة بقاعدة ذهبية:

من يخسر يسلّم،

ومن يفوز يُكلَّف.

اليوم، حين نتأمل خرائط التزوير عبر عصور لاحقة، وحين نرى كيف تحوّلت الانتخابات إلى طقس بلا روح، تعود هذه الحكاية كمرآة محرجة.

مرآة تسألنا:

كيف تحوّل الصندوق من حَكَم

إلى شاهد؟

وكيف صار النفوذ أعلى من الصوت؟

وكيف نُسيت لحظة

سقطت فيها الحكومة،

وسقط رئيسها،

وبقيت الديمقراطية واقفة؟

وجوه لا تغيب...

لأن التاريخ لا ينسى

حين انتصر الصندوق على الكرسي،

وحين قبلت السلطة الهزيمة،

فربحت المعنى.



وجوه لا تغيب – أحمد حسنين باشا

بعد ٨٠ سنة من قتل الرجل الخطير...
الذي تزوّج سرًا أمّ الملك؟



◆ تسعةُ فبراير لا يمرّ عاديًا في ذاكرة التاريخ، لأن بعض الرجال يولدون ليُربكوا المشهد، ثم يرحلون تاركين أسئلة أكثر مما يتركون إجابات. كان أحمد حسنين باشا واحدًا من هؤلاء؛ رجلًا جمع بين المغامرة والسياسة، وبين البلاط والصحراء، وبين القلب والسلطة.

◆ وُلد عام ١٨٨٩ لأبٍ أزهري مقرّب من دوائر الحكم، فتشكّلت شخصيته مبكرًا على تماسٍ نادر بين المعرفة والسلطة. الدراسة في أكسفورد لم تصنعه وحدها، بل صقلته، وأعادته إلى القاهرة بعينٍ ترى أبعد من المكاتب وأعمق من البروتوكول.

◆ بدأت الخدمة العامة هادئة في وزارة الداخلية، ثم اشتعلت حين أُوكلت إليه ملفات الحدود الغربية والتفاوض مع إيطاليا. النجاح هناك فتح له أبواب القصر، فصار أمينًا أول للملك فؤاد الأول، ثم مستشارًا مقرّبًا، ورائدًا لوليّ العهد الملك فاروق في رحلته الدراسية إلى لندن عام ١٩٣٥.

◆ الصحراء لم تكن هواية، بل قدرًا. عام ١٩٢٠ قاد رحلة استكشافية جريئة برفقة السيدة الإنجليزية روزيتا نوريس، ليكشف للعالم واحات العوينات وأركنو في الصحراء الغربية المصرية والليبية. منحت الاكتشافات الرجل الميدالية الذهبية للجمعية الجغرافية العالمية، ولقب رحّالة عظيم من الجمعية البريطانية.

◆ كانت الرياضة وجهًا آخر للمغامرة. الشيش لم يكن لعبة، بل انضباطًا ومواجهة. تمثيل العرب الوحيد في دورة استكهولم ١٩١٢، ورئاسة الفريق المصري في أوليمبياد بروكسل ١٩٢٠، ثم رئاسة النادي الأهلي ونادي السلاح الملكي؛ مسارٌ يقول إن الجسد عنده امتدادٌ للفكرة.

◆ جاءت الكتابة توثيقًا لا استعراضًا. صدر كتاب «الواحات المفقودة» بالإنجليزية عام ١٩٢٥ ثم بالعربية، نصٌّ شعريّ التوثيق سبق زمنه. قصيدة أحمد شوقي التي مجّدته رحّالةً ومغامرًا لم تكن مديحًا عابرًا، بل قراءة لروحٍ تمشي إلى المجهول بثقة.

◆ كان القصر مسرحًا آخر. الزواج من لطيفة سرّي ابنة الأميرة شويكار، ثم العلاقة السرية بالملكة نازلي، أمّ الملك فاروق، جعلا الرجل في قلب عاصفة من الشائعات والسياسة معًا. علاقة ظلّت تُلاحقه، وتُضاعف حساسية موقعه في ميزان القوى داخل البلاط.

◆ جعلته رئاسة الديوان الملكي للملك فاروق لاعبًا مركزيًا. نفوذٌ يهدّئ أحيانًا ويصعّد حين يلزم. مواقف حاسمة—من بينها الوقوف ضد ضغوط السفير البريطاني لامبسون—وضعت الرجل في قلب صراع لا يرحم.

◆ جاء التاسع من فبراير ١٩٤٦ ممطرًا على كوبري قصر النيل. اصطدام سيارة مسرعة أنهى حياة أحمد حسنين باشا. بدا الحادث عرضيًا، لكن الظلال لم تغب. شُبهات طافت حول البلاط، وحول خصوم دوليين، وحول رجل صار أثقل من أن يُترك.

◆ لم يُغلق الرحيل الملف. بقيت السيرة مفتوحة بين من يراه مغامرًا عبقريًا، ومن يراه سياسيًا خطيرًا، ومن يراه الاثنتين معًا. حمل أبناؤه هشام وطارق وجيدة ونازلي الاسم، لكن الأسئلة حملت الزمن.

◆ وجوه لا تغيب...

رجالٌ يمشون على الحافة بين الاكتشاف والسلطة،

فإذا سقطوا، سقطوا وهم واقفون.

ثمانون عامًا مرّت،

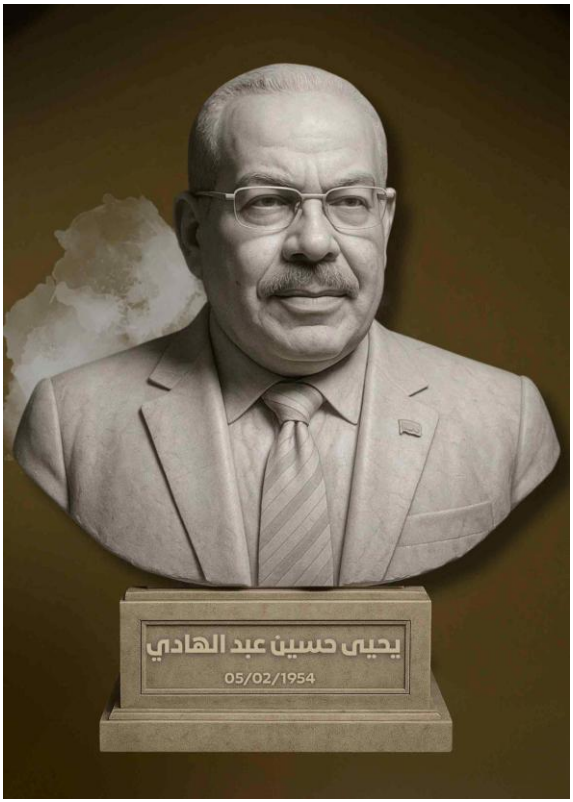
والحكاية ما زالت تقول

إن التاريخ لا يُنهيه حادث،

بل يطيله الغموض.

✳وجوه لا تغيب – يحيى حسين عبد الهادي✳

بلوغ الخامسة والسبعين خلف القضبان



◆ اليوم، بلوغه الخامسة والسبعين لا يأتي كرقم في دفتر العمر، بل كصدى لضوءٍ يصرّ على أن يبدّد العتمة.

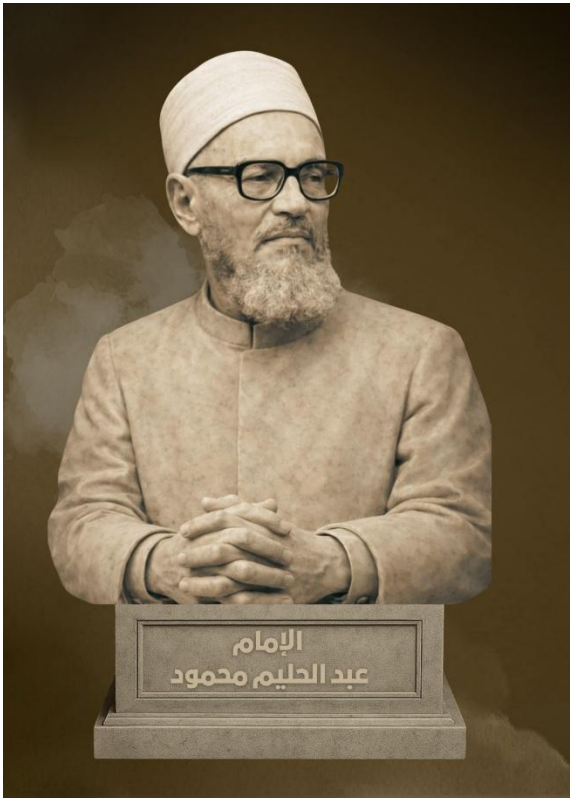
- خمسة وسبعون عامًا من الصلابة، وخمسة وسبعون عامًا من كلفة الكلمة.
- قلبٌ خضع لمشرط الجراحة، وجسدٌ أنهكته سنوات الاعتقال، لكنه ما زال يحمل من شجاعة المقاتل ما يُربك السجّان.
- اسم يحيى حسين عبد الهادي ليس مجرد عنوان في تاريخ المعارضة، بل هو خريطة وطنٍ أراد أن يبقى ملكًا للناس.
- مهندس اعتاد أن يقرأ الخرائط كما تُخفى، لا كما تُرسم، وأن يسمّي الفساد باسمه حتى لو دفع ثمن التسمية.
- حين تحوّلت الخصخصة إلى غطاء لبيع الأصول، كان يحيى حسين من أوّل من قال: «لا لبيع مصر».
- كتب عن عمر أفندي، وعن مصانع الشعب، وعن أن المال العام هو كرامة عامة.
- لم يكن صوتًا غاضبًا، بل حسابًا دقيقًا، فكان الرد إقصاءً ثم قيودًا.
- في معركة التوريث، لم يتردّد.
- كتب أن توريث الحكم خيانة لفكرة الجمهورية.
- قال إن مصر ليست عزبة، وإن الشعب ليس رعية.
- لم تكن كلماته مجرد رأي، بل كانت صوتًا حقيقيًا وسط ضجيج المجاملة.
- تكرّرت الاعتقالات، وتوالت التحقيقات، ولم تنكسر الإرادة.
- بعد ٢٠١١ ظنّ البعض أن الزمن تغيّر، لكن الدولة التي لا تُحاسَب لا تُبدّل سلوكها.

- عاد إلى الكتابة، فعادت القيود.
- اعتقال ٢٠١٩ لم يكن بسبب عنف، بل بسبب رأي.
- الجسد تعب، والقلب خضع لمشرط الجراحة، لكن العقل بقي حرًا.
- وجوه لا تغيب...
- لأن بعض الأعياد لا تحتمل النسيان.
- ولأن العمر حين يُسرَق خلف القضبان، يُديننا أكثر مما يُدين صاحبه.
- ولأن الشجاعة، حين تكبر في العمر، تُصبح أمانة في أعناقنا.



وجوه لا تغيب عبد الحليم محمود

الإمام الذي لم أره وهو يزورني يوميًا



◆ غير واحدٍ سألني: لماذا تمثال الشيخ عبد الحليم محمود هو أطول وأضخم تمثال في معرض «الشرق – وجوه لا تغيب»؟

لهذا قررت أن أكتب عنه؛ لأن القامة كانت أكبر من الصورة، ولأن الحقيقة كانت أثقل من الحجر، ولأن الرجل—في زمنٍ شحيح القامات—كان أكبر من أن يُختزل في تمثال عادي.

◆ لم أشرف يومًا بلقاء الشيخ عبد الحليم محمود وجهًا لوجه، لكنه كان يزورني في محبسي خمس مرات في اليوم. في سنوات اعتقالي، كلما قرأت الفاتحة في الصلاة ووصلت إلى "غير المغضوب عليهم ولا الضالين"، كانت صورته تقفز أمامي. كنت أراه في الصمت، في الصفاء، في السكينة التي كنت أبحث عنها بين جدران الزنزانة.

◆ وُلد الشيخ عبد الحليم محمود في ١٢ مايو ١٩١٠ بقرية أبو أحمد بمحافظة الشرقية. خرج من الريف حاملًا صفاء الأرض، ولم يفارقه هذا الصفاء وهو يعبر الجامعات واللغات والمناصب، حتى انتهى إلى قمة المؤسسة الدينية في مصر.

◆ حفظ القرآن صغيرًا، وتعلّم في الأزهر، ثم شدّ الرحال إلى فرنسا. هناك نال الدكتوراه من جامعة السوربون، ودرس الفلسفة والتصوف وعلوم الأديان، متقنًا اللغة الفرنسية ومطلعًا على التراث الغربي من داخله لا من هوامشه. أدرك مبكرًا أن الحوار مع العالم لا يكون بالصراخ، بل بالمعرفة.

◆ عاد إلى مصر عالمًا لا منبهرًا، ومتصوفًا لا منغلقًا. جمع بين العقل والقلب، بين النص والذوق، بين الشريعة والحقيقة. لم يرَ التصوف هروبًا من الواقع، بل ترقية للأخلاق في قلب الواقع.

◆ كان قلبه مثل زهرة صوفية تتفتح على أنغام السماء، وكان عقله نورًا يسعى في فضاء الفكر. كان الشيخ عبد الحليم محمود

حكيماً يرى أن الحقيقة نهر، وأن كل قطرة معرفة هي زاد في طريق السالك إلى الحق.

◆ تدرّج في المناصب العلمية حتى صار شيخًا للأزهر في ٢٧ مارس ١٩٧٣، وبقي في المشيخة حتى وفاته في ١٧ أكتوبر ١٩٧٨. خمس سنوات فقط، لكنها كانت كافية ليعيد للأزهر هيبته العلمية، ويمنحه صوتًا عالميًا هادئًا، محترمًا، نافذًا.

◆ في عهده عاد الأزهر إلى دوره الطبيعي: مرجعية علمية، لا أداة سياسية. أعاد الاعتبار للتصوف السني، وفتح أبواب الحوار مع الكنائس والجامعات العالمية، وأكّد أن الإسلام لا يخاف من المعرفة

 ألّف كتبًا أصبحت مراجع لا غنى عنها، مثل «قضية التصوف: المنقذ من الضلال»، و«المدرسة الشاذلية»، و«الإسلام والعقل». كتب عن الغزالي والحلاج وابن عربي، لا بوصفهم أساطير، بل عقولًا قلقة تبحث عن الله في الإنسان.

◆ لكن قيمة عبد الحليم محمود الحقيقية لا تُختصر في الكتب ولا في المنصب، بل في السلوك. كان زاهدًا بالفعل، لا بالخطاب. وهنا تبرز الحكاية التي تكشف جوهر الرجل.

◆ باع ميراثه من الأرض—أرض الطين في قريته—ليشتري بيتًا يأوي إليه مع زوجته وأبنائه بدل شقة الإيجار في الزيتون. أخذ المال ونزل به إلى القاهرة. وقبل أن يصل بيته، مرّ على صديقٍ مريض في المستشفى.

◆ هناك التقى أحد تلاميذه. سأله الشيخ: «مالك يا ابني؟»

قال التلميذ: «أبويا مريض ومحتاج عملية فورًا ومصاريفها كبيرة... ادعيله يا مولانا».

◆ دمعت عينا الشيخ. لم يكتفِ بالدعاء. فتح حقيبته وأخرج كل المال الذي باع به الأرض، وأعطاه للتلميذ. عاد إلى بيته كما خرج منه: بلا بيتٍ جديد، لكن بقلبٍ عامر بنور اليقين.

◆ ظلّ الشيخ عبد الحليم محمود مقيمًا في شقته بالإيجار في الزيتون حتى وفاته. رفض شقة من هيئة الأوقاف، ورفض الإقامة في مسكنٍ على نفقة الأزهر وهو شيخُه. كان يرى أن ما يُؤخذ باسم الدين لا بد أن يكون للدين وحده، لا للذات.

◆ لم يكن فقيرًا، لكنه اختار أن يتاجر مع الله. لم يكن عاجزًا عن الامتياز، لكنه آثر العدل. وهنا تتجلى الصوفية في أبهى صورها: فعلٌ أخلاقيّ، لا طقسًا.

◆ لذلك لم يكن غريبًا أن يكون أطول تمثال في معرض «وجوه لا تغيب» مخصصًا له. فالطول هنا ليس طول الحجر، بل طول القامة: قامةٌ علمية وإنسانية وصوفية تتجاوز الزمن.

◆ كان عبد الحليم محمود شيخًا يفهم السياسة دون أن يتورّط فيها، ويخاطب العالم دون أن يذوب فيه، ويعلّم الناس أن الدين لا يُقاس بحدة الصوت، بل بعمق الرحمة.

◆ رحل في أكتوبر ١٩٧٨، وترك وراءه فراغًا أخلاقيًا أكثر منه إداريًا. رحل شيخ الأزهر، وبقيت القدوة.

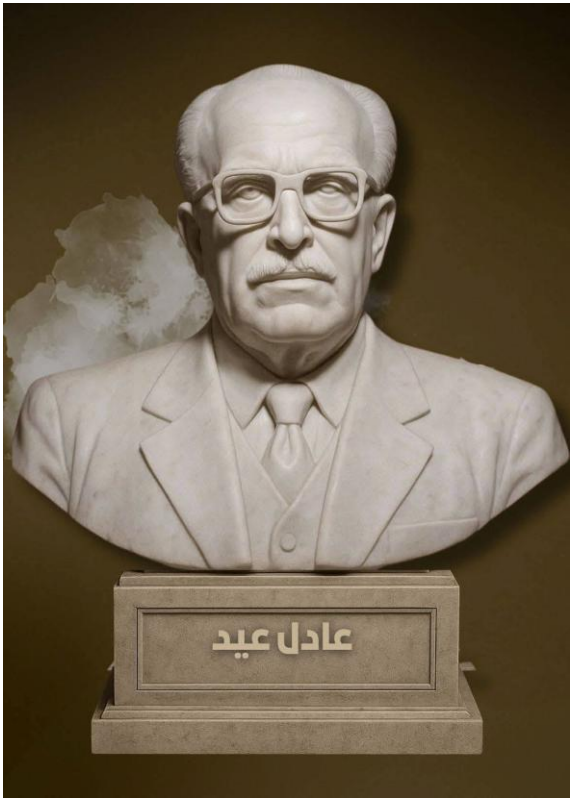
◆ وجوه لا تغيب...

لأن بعض الرجال لا يُذكرون بما امتلكوا، بل بما تخلّوا عنه.

ولأن من باع الطين ليشتري رضا الله، لا يموت...

بل يُقيم في الضمائر إمامًا إلى الأبد

وجوه لا تغيب الأستاذ عادل عيد في ذكراه العشرين... زميل مدرسة الأخلاق



- في مثل هذه الأيام، قبل عشرين عامًا، رحل الأستاذ عادل عيد.

لم يرحل كنائبٍ سابق، ولا كقاضٍ خرج من منصته، بل رحل كمدرسة أخلاقية كاملة مرّت من تحت قبة البرلمان، وتركت أثرها، ثم مضت في هدوء يليق بالكبار.

◆ لا أستعيده اليوم من باب الحنين، بل من باب الحاجة. الحاجة إلى نموذجٍ نادر، أثبت أن المعارضة يمكن أن تكون مؤلمة دون أن تكون فظة، وأن الكلمة حين تخرج نظيفة، تصيب أكثر من ألف صرخة.

◆ كان الأستاذ عادل عيد قاضيًا في ستينيات القرن الماضي، حتى جاءت مذبحة القضاء، فأُخرج من المنصة لا لأنه أخطأ، بل لأنه استقلّ. خرج من القضاء كما يخرج الأحرار: مرفوع الرأس، مستقيم السيرة.

◆ منذ ١٩٧٠، ارتدى روب المحاماة لا بوصفه مهنة، بل رسالة. صار من كبار المحامين المشهود لهم بالكفاءة والنزاهة وعفة اللسان، حتى في أشد لحظات الخصومة. معارضًا شرسًا، نعم، لكنه كان مهذبًا حدّ الصرامة.

◆ عرفته الأجيال نائبًا برلمانيًا عن باب شرق الإسكندرية، المدينة التي أحبها ومثّلها كما تُمثَّل المدن العريقة: بلا ضجيج، وبلا مزايدة. نائبًا يحظى باحترام خصومه قبل أنصاره، حتى إن بعض من خالفوه الرأي كانوا يعودون إليه طلبًا للمشورة القانونية.

◆ في عهد السادات، كان من أوائل من دفعوا ثمن المعارضة الصريحة. اعتُقل في قرارات سبتمبر ١٩٨١، ولم يبدّل موقفه، ولم يراجع لغته، ولم يتاجر باعتقاله. ظلّ ثابتًا، كأن السجن محطة عابرة في طريق أطول.

◆ رفض الوزارة حين عُرضت عليه. اختار البقاء تحت القبة، قريبًا من الناس، بعيدًا عن إغراء السلطة. كانت السياسة عنده تكليفًا لا تشريفًا، وموقعًا للمساءلة لا للامتياز.

◆ من أشهر مواقفه البرلمانية استجوابه التاريخي للشيخ محمد متولي الشعراوي حول ملف الفساد في هيئة الأوقاف. لم يكن الاستجواب هجومًا على شخص، بل دفاعًا عن فكرة المحاسبة، حين قال عبارته التي بقيت شاهدًا:

»السكوت عن الحق يا مولانا... جريمة«!

◆ وكان من أوائل من تقدّموا بإجراء رقابي ضد ممارسات جمال مبارك داخل البرلمان، متسائلًا بوضوح قانوني: بأي صفة يمارس السلطة من لا موقع له ولا مسؤولية يُسأل عنها؟

سؤالٌ سبق زمنه... ودفع صاحبه ثمن السبق.

◆ حاول البعض إلصاقه بتنظيم جماعة الإخوان المسلمين، لكن الوقائع كذّبت الادعاء. دفع التنظيم مرشحين ضده أكثر من مرة في دائرته، ما كشف زيف الاتهام. كان الرجل صاحب رؤية إسلامية مستنيرة، وممارسة مدنية ديمقراطية مستقلة عن أي تنظيم أو أيديولوجيا.

◆ بيني وبينه، لم تكن العلاقة سياسية فقط، بل تكوينية.

من الأسرار التي لم أكشف عنها كثيرًا، أن كتابه «المضابط تتكلم» كان أول تماس مباشر لي مع الحياة البرلمانية. وجدته يومًا على مكتب والدي الراحل عبد العزيز نور، فقرأته شابًا، رئيسًا لاتحاد طلاب المدارس الثانوية على مستوى الجمهورية.

◆ في هذا الكتاب، رأيت البرلمان كما يجب أن يكون. رأيت اسمي محتملًا بين السطور، ورأيت المضابط وهي تتكلم فعلًا، لا بالضجيج، بل بصوت الحق. وكان هذا الصوت هو الصوت الوحيد الذي قبله الأستاذ عادل عيد لنفسه، ولم يقبل بديلاً عنه.

◆ كانت بينه وبين والدي زمالة مهنية وبرلمانية قائمة على الاحترام والتقدير. ثم جاء القدر، فتشرفتُ أنا أيضًا بهذه الزمالة، مهنيًا وبرلمانيًا، لألحق بزمانه، وأتتلمذ—من قريب—على مدرسة الأخلاق التي مثّلها تحت القبة.

◆ أول لقاء وجهاً لوجه بيننا كان في مؤتمرات اتحاد المحامين العرب؛ مرة في الكويت، وأخرى في المغرب. كان اللقاء بين أسرتين متحابتين. بقدر ما كان والدي يحب الأستاذ عادل عيد ويحترمه، كانت أمي ترى في هبة عيد ابنةً لها، وفي زوجته أختًا قريبة.

◆ تعلمت من الأستاذ عادل عيد أن المعارضة ليست صياحًا، ولا تجاوزًا في اللفظ. أدبه الجمّ لم يمنعه يومًا من أن يكون الصوت الأكثر إيلامًا للسلطة، في زمن السادات، ثم في زمن مبارك.

◆ في عام ٢٠٠٠، عشية بدء فصل تشريعي جديد، قررنا خوض معركة رئاسة المجلس ووكالته. حين عرض عليّ أن أخوضها في مواجهة الدكتور فتحي سرور والدكتورة آمال عثمان، علّقت موافقتي على عرض الأمر أولًا على الأستاذ عادل عيد. قلت له: إن قبلتَ، فأنا خلفك. اعتذر، فمضيت.

◆ في ٢٠٠٥، حين اعتُقلت من داخل البرلمان، لم يتردد. قرر أن يكون محامي الدفاع عني. وفي الجلسة الأولى، حين شعر بانحياز المحكمة لأسباب سياسية، خلع روب المحاماة وألقاه في وجه القاضي عادل عبد السلام جمعة، احتجاجًا على ما رآه مخالفةً للقانون

والدستور. موقفٌ لا يُدرّس في كليات الحقوق، لكنه يُكتب في سجل الشرف.

◆ حتى خصومه احترموه. في سنوات مرضه الأخيرة، اتصل به الرئيس الأسبق محمد حسني مبارك ليطمئن عليه. لم تكن مجاملة، بل اعترافًا بمكانة رجلٍ لا يُشترى.

◆ تجمعنا مقابر المنارة بالإسكندرية. هناك ترقد والدتي الراحلة معتصمة محمد محمود حسنين، وإلى جوارها جدي. هناك أيضًا يرقد الأستاذ عادل عيد، وبالقرب منه خالد سعيد.

ومنذ رحيله قبل عشرين عامًا، لم أزر مقابر المنارة إلا ومررت عليه، قرأت له الفاتحة، وسلّمت على روحه الطاهرة، ودعوت له بما يستحق.

◆ عاش الأستاذ عادل عيد حرًّا، ومات شريفًا. لم يترك ثروة، لكنه ترك معيارًا. ولم يخلّف حزبًا، لكنه خلّف ضميرًا.

◆ وجوه لا تغيب...

لأن بعض الرجال لا يُقاسون بعدد المقاعد،

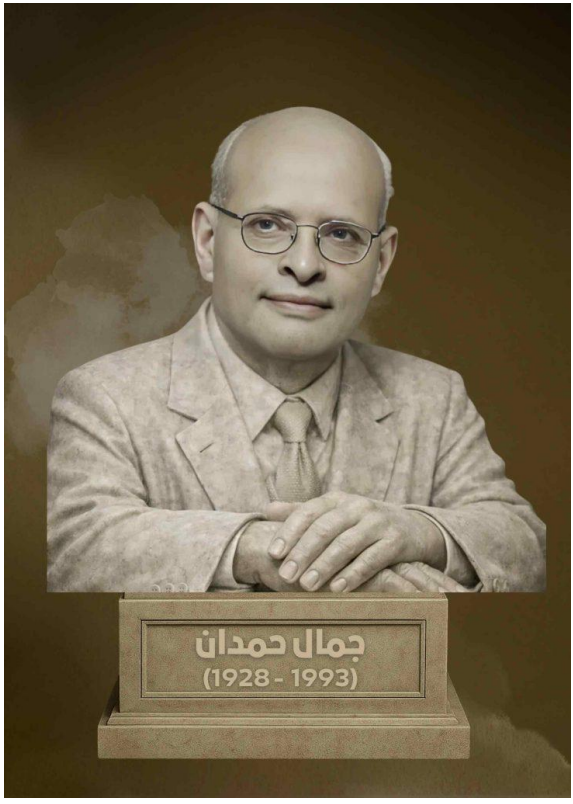
بل بثبات الموقف.

ولأن السياسة، حين تفقد أخلاقها،

تبحث طويلًا عن أمثال الأستاذ عادل عيد...

ولا تجدهم بسهولة.

وجوه لا تغيب في الذكرى٩٧ لمولده ...
من قتل جمال حمدان ؟



لا يموت العاشقون لمصر ميتةً عادية.

يموتون غالبًا غرباء عن وطنهم،

محاطين بالأسئلة، وملفوفين بالصمت،

كأن الوطن والحقيقة التي أحبوها أكثر مما ينبغي تنتقم منهم.

في الذكرى السابعة والتسعين لميلاده، يعود جمال حمدان

لا بوصفه عالم جغرافيا،

بل بوصفه ضمير مكان

قرأ مصر كما تُقرأ الروح،

ودفع ثمن القراءة حتى آخر العمر.

وُلد جمال حمدان في ٤ فبراير ١٩٢٨ بقرية ناي، مركز قليوب.

كان أبوه مدرسًا للغة العربية،

فكبر الصبي بين الكلمة والمعنى،

وبين الخريطة والجملة.

تعلّم مبكرًا أن اللغة لا تصف العالم فقط،

بل تفضحه.

التحق بمدرسة التوفيقية بشبرا،

وحصل على التوجيهية عام ١٩٤٣،

ثم دخل كلية الآداب – قسم الجغرافيا بجامعة القاهرة.

لم يتعامل مع الجغرافيا بوصفها خطوطًا وحدودًا،

بل بوصفها تاريخًا يمشي على الأرض.

عُيّن معيدًا بالكلية،

ثم أُوفد في بعثة إلى بريطانيا،

حيث نال الدكتوراه من جامعة ريدنج عام ١٩٥٣

عن أطروحة بعنوان:

»سكان وسط الدلتا قديمًا وحديثًا.«

هناك، في قلب الغرب،

بدأ يفهم كيف تُدار المعرفة كسلطة.

عاد إلى جامعة القاهرة، وأصدر كتبًا لافتة:

جغرافيا المدن،

المظاهر الجغرافية لمدينة الخرطوم،

دراسات عن العالم العربي،

نال بها جائزة الدولة التشجيعية.

لكن هذه كانت مجرد تمهيد.

الكتاب الذي سيغيّر كل شيء جاء لاحقًا:

»شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان.«

أربعة أجزاء،

ليست جغرافيا فقط،

بل تاريخ وحضارة وسياسة واستعمار ومستقبل.

قرأ فيه مصر منذ الفراعنة،

حتى صارت—في تحليله—

أكبر مستعمرة في التاريخ.

كتب بعلم العالم،

وبلغة الأديب،

وبجرأة من لا يخشى العزلة.
في كتابه «أنثروبولوجيا اليهود»،
فجّر واحدة من أخطر القنابل الفكرية،
حين فضح أكذوبة أن يهود فلسطين
هم أحفاد بني إسرائيل القدماء،
مبيّنًا بالأدلة التاريخية والأنثروبولوجيا
أن الغالبية تنتمي إلى أصول أخرى.
كانت هذه معركة بلا سلاح،
لكنها أخطر من الرصاص.
خاض جمال حمدان معركته الفكرية
بالتوازي مع عبد الوهاب المسيري،
الأول يفكك الصهيونية من المكان،
والثاني من الفكرة.
وتنبّأ مبكرًا بانهيار الاتحاد السوفيتي،
وبأن الغرب سيصنع عدوًا جديدًا:
العالم الإسلامي،
وسيستعين في مواجهته
حتى بأعدائه القدامى.
لكن المجتمع لا يغفر دائمًا لمن يرى أبعد منه.
حين تقدّم للحصول على درجة أستاذ مساعد،

تم تجاوزُه لصالح من هو أقل منه علمًا ومدة.

لم يحتج،

لم يساوم،

قدّم استقالته،

واختار العزلة.

فرض على نفسه عزلةً كاملة،

حتى عن أسرته.

وأعلن—بمرارة العارف—

أنه لن يخرج من عزلته

حتى ينصلح حال المجتمع،

وهو يعلم أنه لن ينصلح.

عاش سنواته الأخيرة

وحيدًا في شقته بـ الدقي،

يكتب،

ويحذف،

ويعيد الصياغة،

كأن الزمن نفسه لا يرضيه.

وكان يكتب—بحسب المقربين—

كتبًا أخطر مما نُشر.

جاءت النهاية مأساوية كما الحياة.

في إبريل ١٩٩٣،

تلقت المطافئ بلاغًا بحريق في شقة.

وجدوا جمال حمدان محروقًا.

لم يمت اختناقًا بالغاز،

ولا كانت الحروق كافية للوفاة،

وفق تقرير الدكتور يوسف الجندي مفتش صحة الجيزة.

الأكثر غموضًا

اختفاء مسودات كتب كاملة،

أهمها ما كان يكتبه عن

اليهودية والصهيونية،

رغم أن النار لم تمسّ أوراقه الأخرى.

اختفت المسودات،

وبقي السؤال.

قال أمين هويدي رئيس المخابرات الأسبق

إن لديه ما يثبت أن الموساد

هو من اغتال جمال حمدان.

وقال محمد حسنين هيكل:

»جمال بطل القرن العشرين...

خجول في الحياة،

نمر على الورق،

ولن يموت موتة طبيعية«.

هكذا انتهت الحكاية،

أو هكذا توقفت.

عاش جمال حمدان

كما عاش كل من أحب الحقيقة أكثر من اللازم:

مُحاصرًا،

مُساء فهمه،

ومدفوعًا إلى الهامش.

وجوه لا تغيب...

لأن بعض العقول

لا يُحتمل وجودها طويلًا.

ولأن من يقرأ الأوطان بعمق،

يدفع ثمن القراءة وحده.

رحم الله جمال حمدان،

العاشق الذي

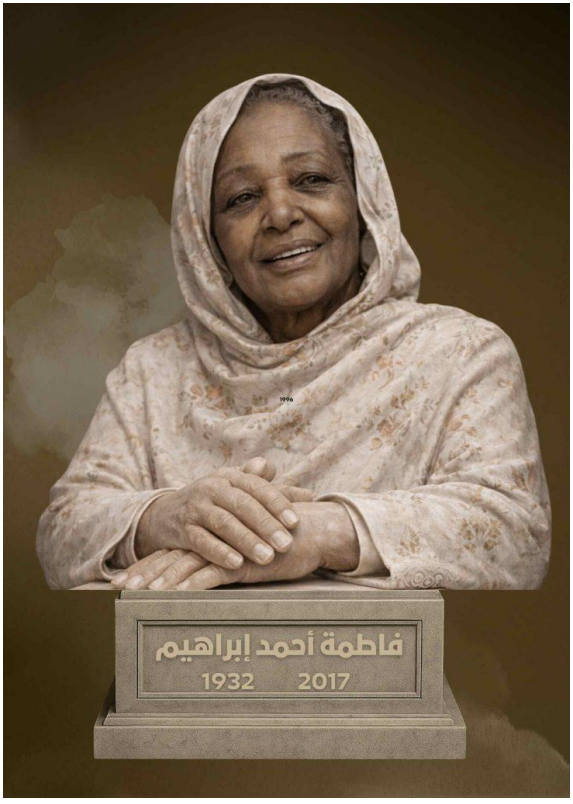
لم يمت جغرافيًا...

بل قُتل لأن الخريطة

كانت أصدق من الرواية.

وجوه نسائية لا تغيب

فاطمة أحمد إبراهيم... العدل يُمتحن



كان العدل عندها كلمةً تُختبَر قبل أن تُقال، وموقفًا يُدفَع ثمنه قبل أن يُصفَّق له. لم تُحبّ الشعارات لأنها تعرف هشاشتها، ولم تثق في الوعود لأنها ترى كيف تُسحب عند أول منعطف. كانت فاطمة أحمد

إبراهيم تعرف منذ البدايات أن العدل، إذا لم يُعاش، يتحوّل إلى ديكور سياسي جميل بلا روح.

وُلدت فاطمة أحمد إبراهيم عام ١٩٣٣ في أم درمان، مدينةٍ تُربّي أبناءها على البساطة الصلبة، وتعلّمهم أن الكرامة لا تحتاج زخرفة. في بيتٍ سودانيٍّ تقليدي، تعلّمت أن المرأة — وإن بدت بعيدة عن القرار — هي التي تدفع ثمنه أولًا. هناك تشكّل وعيها المبكر بأن قضية المرأة ليست هامشًا، بل ميزان صدق لكل حديث عن التحرّر.

مع سنوات التشكّل، كان السودان يتهيّأ للخروج من الاستعمار، والأسئلة الكبرى تتزاحم: الاستقلال، الهوية، العدالة الاجتماعية. داخل هذا الزحام، رأت فاطمة أن التحرّر الذي يُقصي النساء ليس تحريرًا كاملًا، وأن الوطن الذي يُبقي نصفه في الظل يعيش بنصف طاقته مهما علا صوته.

دخلت مجال التعليم، فانفتح وعيها على الفجوة بين ما يُقال وما يُمارس. رأت نساءً يعملن ويكافحن، ثم يُطلب منهنّ الصمت حين يُتخذ القرار. لم تقبل هذا التناقض، فاختارت العمل المنظّم، وأسّست مع رفيقاتها الاتحاد النسائي السوداني عام ١٩٥٢، واضعةً هدفًا واضحًا: نقل المرأة من موقع الرعاية إلى موقع الشراكة.

لم تكن مطالب الاتحاد ترفًا، بل كانت تمسّ الحياة اليومية: التعليم، العمل، الحقوق المدنية، والكرامة الإنسانية. قيل لها إن السياسة "للرجال"، وإن الوقت "غير مناسب". كانت ترى في هذه العبارات ذريعة أبدية لإبقاء الظلم، فاختارت أن تقول "الآن" حين قيل لها "ليس الآن."

جاء عام ١٩٦٥ فدخلت فاطمة التاريخ بوصفها أول امرأة تُنتخب عضوًا في البرلمان السوداني. لم تدخل القبة لتكون صورة، بل لتكون

صوتًا. حملت ملفات وأسئلة وقوانين، وتحدّثت عن العمال والفقراء والنساء بلغة الحجة والقانون، لا بلغة الاستعطاف. وجودها هناك كان صدمة هادئة، لكنها عميقة.

في حياتها الخاصة، لم تكن السياسة بعيدة. تزوّجت من النقابي البارز الشفيع أحمد الشيخ، وكانت العلاقة شراكة نضال قبل أن تكون شراكة بيت. غير أن السياسة — حين تنقلب — لا تميّز بين العام والخاص. في عام ١٩٧١، وبعد فشل انقلاب سياسي، أُعدم الشفيع، فانفتح جرحٌ لا يُغلق بسهولة.

لم تُحوّل فاطمة الفاجعة إلى خطاب، ولم تتّخذ الحزن سلّمًا للظهور. واجهت الخسارة بصمتٍ صلب، وواصلت الطريق، كأنها تقول إن العدل الذي طالبت به في البرلمان يُطالَب به الآن في حياتها الشخصية. كان الاستمرار أصعب من الانهيار، لكنه كان الخيار الوحيد المنسجم مع ما آمنت به.

تعاقبت الانقلابات في السودان، وتبدّلت الوجوه، وبقيت فاطمة على خطٍّ واحد: الدفاع عن الحريات، وحقوق النساء، وكرامة العمل النقابي. تعرّضت للملاحقة والسجن والمنع من السفر. وفي عام ١٩٩٠، اضطرت إلى المنفى، لا لأنها هُزمت، بل لأن البقاء صار مستحيلًا دون تنازل.

المنفى ليس مكانًا، بل حالة اقتلاع. في لندن، واصلت فاطمة عملها، تكتب وتنظّم وتذكّر بأن القضايا لا تنتهي عند الحدود. كانت تعرف أن الغياب القسري لا يلغي الحضور المعنوي، وأن الفكرة — إذا كانت عادلة — تجد طريقها ولو من بعيد.

عادت إلى السودان في سنواتها الأخيرة، وقد أثقلها المرض وأتعبتها المسافة. لم تعد تلك الشابة التي تقتحم البرلمان، لكنها بقيت المرأة

التي لا تُساوم على المعنى. رحلت عام ٢٠١٧، بهدوءٍ يشبه طريقتها في العيش، بلا ضجيج، وبلا ادّعاء بطولة.

لم تحبّ لقب "رمز"، لأن الرمز قد يُريح الآخرين من واجبهم. كانت تريد فعلًا مستمرًا، وعدلًا يُمارَس، لا صورة تُعلّق. بهذا الفهم بدت صارمة أحيانًا، لكنها كانت تعرف أن الليونة الزائدة تُفرغ الفكرة من مضمونها.

ليست كل البطولات لحظات خاطفة، وبعضها مسارات طويلة تُختبَر فيها القناعة مرة بعد مرة. وفاطمة أحمد إبراهيم كانت واحدة من اللواتي عشن العدل امتحانًا يوميًا، ودفعن ثمن النجاح والإخفاق معًا، دون أن يتخلّين عن الفكرة.

هكذا بقيت فاطمة أحمد إبراهيم وجهًا لا يغيب، لا لأنها وصلت إلى نهاية الطريق، بل لأنها ظلّت تمشي فيه حتى آخر القدرة، تاركةً لنا سؤالًا مفتوحًا: هل يمكن للعدل أن يكون ممارسة، لا شعارًا.



وجوه مرّوا ولم يمرّوا..
عنتر "الشاويش" الذي قتلته

ايقاع بيادته كان يدق على ممرّ زنزانتي الضيّق، يعرف الطريق وحده. خطوات على البلاط البارد، مفاتيح تصطكّ في يد عنتر وقت الاغلاق، وصمتٌ يتدلّى من السقف كستارة ثقيلة لا يجرؤ أحد على سحبها.

◆ في مزرعة طره، عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧، لم تكن الحكايات تُروى بصوت عالٍ.

كانت تُكتب على الوجوه، وتُمحى بسرعة، ثم تعود لتظهر في اللحظة التي يظن فيها الجميع أنها انتهت.

عنتر جاء من قرية في الفيوم، يحمل في صدره قلبًا متعبًا، وفي عينيه فضولًا هادئًا، خمسينيّ العمر، بسيط الهيئة، يمشي كما يمشي أهل القرى حين يدخلون مدينة لا تشبههم، بخطوة محسوبة ونظرة حذرة.

لم يكن من أهل الشعارات ولا من حفظة الخطب.

كان يعرف شيئًا واحدًا فقط: أن الإنسان حين يرى غيره محاصرًا، يشعر أن الحصار يضيق عليه هو أيضًا.

الأوامر كانت واضحة، لا لبس فيها ولا مسافة للتأويل.

لا ورقة تخرج، ولا ورقة تدخل.

كأن الكلمة أخطر من القيد، وكأن السطر يستطيع أن يعبر من بين القضبان، سألني يومًا، بصوت لا يريد إحراجًا ولا إثارة.

لماذا كل هذا الخوف من الورق؟

قلت: أكتب لأهلي، فيمنعون الرسالة كما يُمنع الزائر من الوصول إلى باب البيت، ابتسم ابتسامة قصيرة، ثم قال ما يشبه العرض وما يشبه العهد.

أوصلها أنا.

قالها كما يقول الفلاح إنه سيعبر الترعة في العتمة، لأنه يعرف الضفة الأخرى.

رفضت، لا لأنني لا أثق به، بل لأنني كنت أثق بالخطر.

لكن الإصرار كان أقوى من النصيحة، والنية كانت تمشي أمامه ولا تلتفت.

في لحظة مترددة، سلّمته ورقة واحدة.

وضعها في جيبه الخلفي، وحفظ عنوان منزلي كما يُحفظ اسم طريق قد يعود إليه يومًا، ثم مضى مع آخر الضوء.

لم يبتعد كثيرًا.

أُوقف، ضُرب، اقتيد.

الأسئلة جاءت بعد الألم، والتحقيق جاء بعد الكدمات.

ستة أشهر في السجن العسكري بمنطقة الدراسة.

قلب مريض في مكان لا يعرف التمهّل، وجسد بسيط في مواجهة ثقل لا يُقاس بالأيام.

توقف القلب فجأة، كأن النبض قرر أن ينسحب من مشهد لم يعد يحتمل البقاء فيه، خرجت وبحثت عن اسرته في الفيوم.

سألت البيوت، والوجوه، والطرقات، لم أصل إلى قبره او أسرته ولم أجد عنوانًا لهما، وبقي الاسم معلقًا في رأسي كجملة لم تكتمل. وشعور بالذنب لا يحتمل، تمرّ السنوات وتبقى اللحظة والصورة في ذهني كما هي.

جيب خلفي،

ورقة مطوية،

وخطوة خرجت

ولم تعد.

ليس كل من مرّ يترك أثرًا على الأرض.

بعضهم يتركه في القلب،

حيث لا تُعلّق الصور

ولا تُرفع اللافتات.

سلامٌ على عنتر.

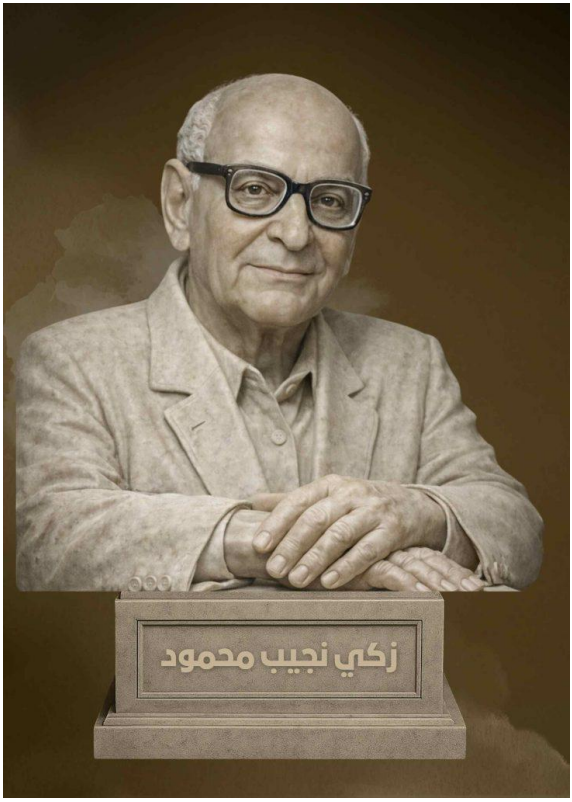
الرجل الذي ظنّ أن المهمة بسيطة،

فاكتشف أن الوقوف إلى جانب إنسان قد يكون أثقل وأخطر من أي وظيفة،

وأبعد من الطريق

بين طره والفيوم.

وجوه لا تغيب – زكي نجيب محمود
العقل الذي أنزل الفلسفة إلى الشارع



في مثل هذا اليوم، ١ فبراير ١٩٠٥، لم يولد فيلسوف بالمعنى الأكاديمي الضيق، بل وُلد جسر. جسرٌ بين الفلسفة والحياة، بين السؤال والخبز اليومي، بين أعقد الأفكار وأبسط العقول. وُلد رجل

سيُتعب الفلاسفة لأنه أخرج الفلسفة من أبراجها، ويُربك الأدباء لأنه حمّل اللغة أكثر مما اعتادت أن تحمله من معنى.

لم يكن زكي نجيب محمود فيلسوفًا يكتب للنخبة، ولا أديبًا يغازل الذائقة، بل عقلًا قرر أن ينزل بالفكر إلى الشارع، وأن يجعل الفلسفة صالحة للاستعمال الإنساني اليومي. كان يؤمن أن الفكرة إن لم تُعش، تموت، وإن لم تُفهم، تتحول إلى عبء.

وُلد في قرية ميت الخولي عبد الله، مركز الزرقا بمحافظة دمياط. من الريف الذي يعرف معنى البساطة، خرج عقل شديد التعقيد، لكنه لم يتعالَ يومًا على جذوره. تعلّم في المدارس المصرية، وتخرّج في جامعاتها، وبدأ التدريس حتى عام ١٩٤٣، قبل أن يسافر إلى إنجلترا في بعثة علمية.

في جامعة لندن، حصل على الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٤٧. هناك، في قلب الغرب، تعرّف على الفلسفة الوضعية والمنطق العلمي، لكنه لم يبتلعها كما هي. عاد بها إلى القاهرة لا ليكرّرها، بل ليُحاورها، ويُعيد صوغها بما يناسب عقلًا عربيًا يبحث عن نظام لا عن تبعية.

تدرّج في المواقع الأكاديمية حتى صار أستاذًا بقسم الفلسفة بكلية الآداب – جامعة القاهرة. لكنه لم يكتفِ بالجامعة. كان يشعر أن القاعات تضيق بالفكرة إذا لم تخرج إلى الناس. لذلك تعددت أدواره:

مستشارًا ثقافيًا،

عضوًا بالمجلس القومي للثقافة،

أستاذًا للفلسفة بجامعة الكويت لخمسة أعوام متصلة،

وأستاذًا زائرًا بجامعة كولومبيا في الولايات المتحدة.

في ١٩٦٥، أوكلت إليه وزارة الثقافة—في عهد الوزير محمد عبد القادر حاتم—مهمة تأسيس مجلة فكرية رصينة. فأنشأ مجلة "الفكر المعاصر"، وترأس تحريرها، ودعا كبار المفكرين للكتابة فيها. لم تكن مجلة نخب مغلقة، بل مساحة حوار حقيقي بين التيارات الفكرية المختلفة.

كتب فيها مقالًا شهريًا ثابتًا بعنوان «تيارات فلسفية»، كأنه كان يرسم خريطة ذهنية للقارئ العربي، لا ليقوده، بل ليمنحه أدوات السير بنفسه. كان يشرح، لا يفرض. يفتح الأسئلة، لا يُغلقها.

وفي ١٩٧٣، بدأ مقاله الأسبوعي في جريدة الأهرام كل ثلاثاء. مقالٌ انتظرته العقول قبل العيون. بلغ من تأثيره أن خمس صحف عربية كانت تعيد نشره في اليوم نفسه. لم يكن ذلك شيوعًا صحفيًا، بل عطشًا فكريًا.

كتب في الفلسفة والمنطق، لكنه كتب أيضًا عن الحياة الثقافية، وعن أزمة العقل العربي، وعن العلاقة بين التراث والمعاصرة. كانت كتبه—مثل تجديد الفكر العربي والمعقول واللامعقول في تراثنا الفكري—محاولات شجاعة لتفكيك الموروث دون هدمه، وبناء الحديث دون استلاب.

لم يكن متمردًا على التراث، ولا أسيرًا له. كان يحاول أن يُقيم عقدًا جديدًا بين العقل والنص، بين الإيمان والعلم، بين الماضي والمستقبل. ولهذا، اختلف معه كثيرون، لكنهم لم يستطيعوا تجاهله.

نال جائزة الدولة التقديرية، تكريمًا لعقلٍ خدم الثقافة المصرية والعربية دون أن يطلب سلطة أو جمهورًا. تسلّمها في احتفال مهيب، لكنها لم تغيّر من تواضعه شيئًا. كان يعرف أن التكريم الحقيقي هو أن تبقى الفكرة حيّة.

في ٨ سبتمبر ١٩٩٣، رحل زكي نجيب محمود. رحل الجسد، وبقي السؤال. بقي ذلك الصوت الهادئ الذي يقول لك: فكّر... لا تردّد. افهم... لا تقلّد. اجعل للعقل مكانًا في حياتك، كما تجعل للقلب مكانًا.

وجوه لا تغيب...

لأن بعض الرجال لا يكتبون كتبًا،

بل يكتبون عقولًا.

ولأن الفلسفة،

حين تُقال بلغة الناس،

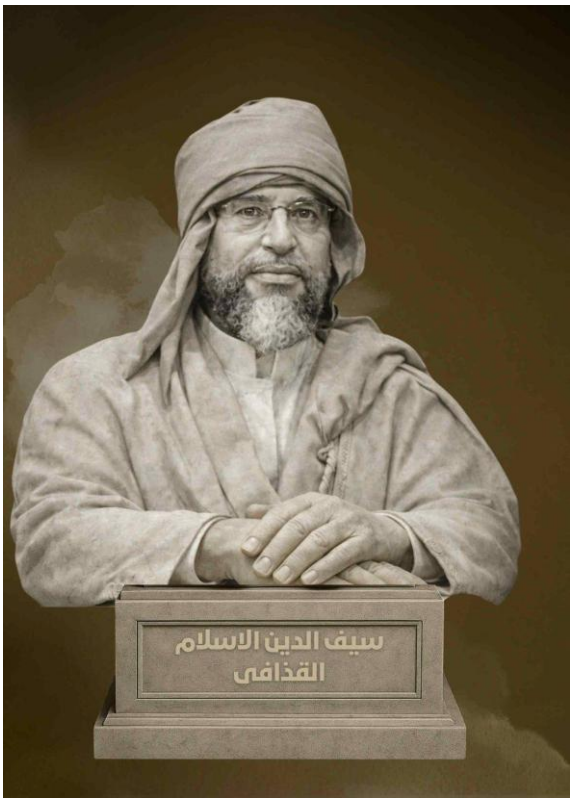
تصير حياة...

لا درسًا في الهامش.



وجوه لا تغيب . سيف الإسلام القذافي.

رجل عاش بوجهين



لا تُقاس الشخصيات بالأخبار العاجلة، ولا تُختزل في لقطةٍ واحدة، مهما كانت صاخبة. بعض الأسماء تُولد لتبقى معلّقة بين صورتين، لا تستقر في إحداهما، ولا تُمحى في الأخرى. اسم سيف الإسلام

القذافي واحد من تلك الأسماء التي لم تعرف طريقًا مستقيمًا، لأنها وُلدت في زمنٍ أعوج.

وُلد عام ١٩٧٢ في بيتٍ لا يسمح للابن أن يكون عاديًا، ولا يترك له رفاهية الاختيار الكامل. كان الاسم ثقيلًا قبل أن يتكوّن المعنى، وكانت العائلة دولةً، وكانت الدولة قدرًا. ومع ذلك، حاول الابن أن يرسم لنفسه مسارًا مختلفًا، أو على الأقل أقل حدّة.

درس الهندسة المعمارية في جامعة الفاتح، ثم مضى إلى لندن سكول أوف إيكونوميكس، حيث بدا—لبرهة—أن المشروع ليس وراثة سلطة، بل محاولة تحديث. لغة جديدة، خطاب أكثر نعومة، وإشارات إلى انفتاحٍ طال انتظاره. في تلك المرحلة، لم يكن مجرد نجل الزعيم، بل واجهة نظامٍ يريد أن يبدو أقل صلابة.

قبل ٢٠١١، لعب دورًا محوريًا في ملفات شائكة، أبرزها لوكربي. قاد مسارات تسوية معقّدة، وانتزع اعترافات أعادت ليبيا إلى المشهد الدولي بعد عزلة خانقة. كان الجسر الذي عبرت عليه الدولة من الحصار إلى نافذة قصيرة من الضوء. لم يكن ذلك قليلًا، ولم يكن بلا ثمن.

غير أن الجسور تُختبر حين تهبّ العواصف. ومع اندلاع ٢٠١١، انقلبت الصورة رأسًا على عقب. تلاشت لغة الدبلوماسية، وحضرت مفردات البقاء. تحوّل الرجل من وسيطٍ دولي بربطة عنق إلى مدافعٍ شرس بزيّ الصحراء. لم يكن هذا التحول اختيارًا ناعمًا، بل ارتدادًا قاسيًا فرضته لحظة انهيار شامل.

بعد سقوط النظام، لم تُغلق الحكاية، بل دخلت منطقة رمادية طويلة. اعتقال، ملاحقات، أحكام تتبدّل، ومسارات قانونية تتقاطع ولا

تنتهي. ظلّ الاسم حاضرًا بالغياب، لا هو داخل المشهد بالكامل، ولا هو خارجه. كأن السياسة قررت أن تُبقيه معلّقًا، ورقةً بلا مكان ثابت.

في ٢٠١٧، خرج إلى الضوء بموجب عفو عام، لكن الضوء لم يكن كافيًا. بقي متواريًا، تحيط به الأسئلة أكثر مما تحيط به الإجابات. لم يعد الابن الذي يُمثّل النظام، ولم يصبح بعدُ السياسي الذي يستطيع أن يبدأ من الصفر.

ثم جاءت محاولة ٢٠٢١. قدّم أوراق ترشحه للرئاسة، لا بوصفه عودة شخص، بل اختبار ذاكرة وطن. أربكت الخطوة الحسابات، وعمّقت الانقسام، وانتهت بتأجيل الانتخابات. لم تُحسم المسألة، وبقي السؤال معلّقًا: هل يمكن لليبيا أن تتجاوز ماضيها دون أن تتصالح معه؟

هنا، تتكاثر الروايات، ويعلو الضجيج. لكن الحكاية الأعمق لا تُكتب بخبرٍ عاجل، ولا تُحسم بعنوان. إنها حكاية رجل عاش بين صورتين: رسّامٍ يلوّن الصحراء بفكرة دولة، ومقاتلٍ تشدّه الرمال إلى معركة بقاء. بين الصورتين ظلّ القلب الليبي يبحث عن شكلٍ آمن للدولة.

لا نُثبت رواية، ولا ننفي أخرى. لا نحسم، ولا نُجامل. نترك القصة مفتوحة، كما تُركت ليبيا نفسها مفتوحة على احتمالات لا تنتهي، وعلى زمنٍ لم يستقر بعد. بعض القصص لا تُغلق لأنها لم تُفهم كاملة.

وجوه لا تغيب...

لأن الغياب أحيانًا طريقة أخرى للحضور.

ولأن الأسماء التي تعيش بين صورتين

تُعلّمنا أن السياسة ليست نهاية الحكاية،

بل فصلًا منها...

وأن الفصول المفتوحة

هي الأخطر،

والأصدق.



✳وجوه لا تغيب–منى مكرم عبيد✳



◆ ليست الذاكرة دفترَ حضورٍ

ولا الأسماءُ علاماتِ مرور.

الذاكرةُ ميزانُ المعنى،

تحتفظ بما يُشبهنا،

وتُقصي ما يمرّ بلا أثر.

◆ هكذا جاءت منى مكرم عبيد

إلى حياتي العامة والإنسانية معًا؛

خطوةً هادئة،

وصوتًا موزونًا،

وحضورًا يفرض احترامه

من غير استعجال.

◆ عرفتها في منتصف الثمانينيات، بين دهاليز حزب الوفد،

حيث كانت السياسة حوارَ عقول،

لا صخبَ منصّات.

شدّني الاسم أولًا،

اسمٌ يفتح في الوعي بابًا واسعًا

على سيرة مكرم عبيد.

◆ مكرم عبيد لم يكن لقبًا عائليًا،

بل مدرسةً كاملة؛

دستورٌ يُفهم،

وبرلمانٌ يُحترم،

وسياسةٌ تُقاس بالأخلاق

قبل المواقع.

◆ حملت منى الاسم

كما تُحمل الأمانة:

لا اتكاءً،

ولا استثمارًا،

بل اجتهادًا مستقلًا

يضيف ولا يكتفي بالامتداد.

◆ مع الوقت،

تراجع الاسم إلى الخلف،

وتقدّم الإنسان.

وراء الوقار الأكاديمي

والمسافة المحسوبة،

ظهر قلبٌ رقيق،

وعقلٌ رحب،

ونفسٌ نقية

تعرف معنى الانضباط

من غير قسوة.

◆ في قاعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة،

لم تكن أستاذةً تُلقّن،

بل معلمةً تفتح نوافذ.

ربطت النص بالناس،

والدستور بالحياة،

وجعلت السؤال

بدايةَ حرية.

◆ البرلمان كان امتحانًا للمبدأ.

دخلته بنبرةٍ ليبرالية واضحة،

تحرس الدستور،

وتدافع عن المواطنة،

وتفهم أن المعارضة

مسؤولية وطنية

لا زينة خطاب.

◆ الوفد كان اختيارًا واعيًا،

لا حنينًا مستعارًا.

وحين تبدّلت اللحظات،

بقي الثابت واحدًا:

دولة قانون،

ومجتمع مدني،

وحرية رأي

لا تُستأذن.

◆ عام ٢٠٠٠،

ومع بداية تأسيس حزب الغد،

لم أسِر وحدي.

كانت إلى جواري،

أستاذتي وأختي الكبرى،
أول سكرتير عام للحزب،
تعمل بصمتٍ منتج،
وجهْدٍ لا ينتظر تصفيقًا.

◆ ليلة دمياط ما زالت حاضرة.

طريقٌ طويل،
سيارة واحدة،
وحديثٌ امتزج فيه
القلق الإنساني
بحدس السياسة.
رأيت صلابة الموقف
تجاور دفءَ الأمومة.
كان ذلك آخر حديث
قبل الاعتقال،
وقبل أن يدخل الصمت القسري
حياتي لسنوات.

◆ طوال تلك السنوات،

لم تغب منى عن الذاكرة.
حضرت كمعلمة،
وكقيمة وطنية،

وكاسمٍ لم ينل
نصيبه العادل
من الإنصاف العام.

- خبرتها جعلتها جسرًا
بين الفكرة وتطبيقها.
شاركت في حواراتٍ وطنية،
وقدّمت رؤى
تعيد الاعتبار
للعقل المؤسسي،
وتربط الإصلاح
بالإرادة الشعبية
لا بالأوامر الفوقية.

- المرأة عندها كفاءة
قبل أي توصيف.
دافعت عن تمكينٍ حقيقي
يمر عبر التعليم والعمل
والحقوق المتساوية،
ورفضت تحويل الحضور النسائي
إلى ديكور سياسي.

- الإعلام والفكر العام

ساحتان للاتزان.

لا ركض خلف منابر سهلة،

ولا مجاملة لاستقطاب.

قولٌ بقدر الحاجة،

وفي التوقيت الذي يخدم

الحقيقة وحدها.

◆ السياسة قد تُباعد أحيانًا،

لكن العلاقات التي تُبنى

على الاحترام

لا تهتز.

ظلّت المحبة الإنسانية ثابتة،

لأن ما جمعنا

كان أعمق من المواقع.

◆ ليست منى مكرم عبيد

صورةً تُعلّق،

ولا تمثالًا يُصاغ.

هي سطرٌ حيّ

في كتاب هذا الوطن،

يمتد من مدرسة مكرم عبيد

إلى معارك الليبرالية المصرية

المعاصرة.

- يبقى الوجه

لأن أثره صادق،

وتبقى السيرة

لأنها كُتبت بالضمير.

وهكذا تحفظ الذاكرة

ما يستحق البقاء.



وجوه لا تغيب ... عمار الشريعي



تشابه صوتي بصوته...

واحتل قلبي حبه

غواصًا ماهرًا في بحر النغم،

يعرف أين يضع قدمه،

وأين يترك للصمت أن يقول ما تعجز عنه الآلات.

سنوات طويلة، في زمن ما قبل الهواتف المحمولة والشاشات الذكية، كان الصوت وحده هو بطاقة التعارف. كنتُ إذا اتصلت هاتفيًا بأحد الكبار، يبادلني التحية قائلًا: أهلًا يا عمار.

لم يكن خطأً فرديًا، بل أمرًا متكررًا بسبب تشابهٍ في نبرة الصوت عبر أسلاك التليفون.

لم أكن قد التقيته بعد،

لكن الأقدار كانت تُهيّئ لقاءً من بابٍ جانبي...

باب سيارة.

في منتصف الثمانينيات، أعلنتُ في الأهرام عن بيع سيارة فورد موستنج. وكان مكتبي يومها في واحد شارع أمريكا اللاتينية، أعلى حلواني لابوار، وأمام السفارة البريطانية.

رنّ الهاتف، الموضوع في الإعلان، وكان على الطرف الآخر صوتٌ أعرفه دون أن أعرف صاحبه. سأل عن السيارة، تفاصيلها، حالتها. انتبهت للتشابه، وسألته ضاحكًا: هل حضرتك الفنان الكبير عمار الشريعي؟

فردّ بسؤالٍ: وهل أنت أيمن نور؟

ضحكنا.

اكتشفنا أن ما يحدث معي يحدث معه أيضًا.

كان البعض يقول له: أهلًا يا أيمن،

كما كانوا يقولون لي: أهلًا يا عمار.

التقينا بسبب السيارة،

لكن تكررت اللقاءات. كانت لقاءات قليلة في عددها،

لكنها عميقة في أثرها في نفسي.

كنت في كل مرة أكتشف أن التشابه لم يكن في الصوت فقط،

بل في شيء أعمق:

الإنسانية الهادئة، التي لا تستعرض نفسها.

عمار كان كتلة موهبة، نعم،

لكن الأهم أنه كان كتلة إنسانية.

يحب الناس دون شروط،

ويحب الفن دون تعالٍ،

ويتحدث عن الموسيقى

كمن يتحدث عن صديق عزيز.

ألحانه لم تكن مجرد موسيقى تصويرية،

بل ذاكرة جمعية لأمة أُصيبت في ذاكرتها.

من «رأفت الهجان» حيث صار اللحن وطنًا سريًا،

إلى «ليالي الحلمية» حيث تحوّل النغم إلى سيرة شعب،

إلى «الراية البيضا»، و«زيزينيا»، و«المال والبنون»،

كانت موسيقاه تقول ما تعجز الشخصيات عن قوله.

كل مصري يعرف هذا الإحساس:

يسمع لحنًا لعمار الشريعي،

فتشعر أنك عدت إلى بيتك،

حتى لو كنت بعيدًا.

لكنه لم يكن أسير النوستالجيا،

ولا حبيس الأستوديو.

في ثورة يناير، لحظات فارقة حين اختلط الضجيج بالحقيقة،

وارتفعت فيها أصوات التحريض على المتظاهرين أعلى من صوت العقل،

خرج صوت عمار الشريعي هادئًا، واضحًا، منحازًا للإنسان.

في مداخلته الهاتفية،

طالب فقط بما هو أبسط وأصعب معًا:

أن يتوقف الهجوم على المتظاهرين،

أن تتوقف حملات التشويه،

أن يُترك الميدان لأصحابه...

لأحلامهم، وأملهم.

كان بإمكانه أن يصمت،

وكان بإمكانه أن يختبئ كغيره،

لكنه اختار الطريق الأصعب:

أن يثبت أن الفن لا يُقيّد صاحبه،

ولا يُلغي الموقف،

وأن الإنسان أكبر من أي أغنية.

نزل إلى ميدان التحرير.

لم يتاجر بالثورة،

ولم يرفع شعارات،

بل وقف حيث يقف القلب لا الحسابات،

وحيث تُختبر الشجاعة بعيدًا عن الأضواء.

وقف ضد التحريض،

وضد الظلم،

وضد تحويل الشباب إلى أعداء في وطنهم.

رحل عنّا بجسده،

وبقيت الذاكرة:

لن ننساك يا عمار.

لن ننسى نغمتك وهي تقول «لا»

حين كان الصمت مريحًا،

ولن ننسى موقفك

حين كان الموقف ثمنه غاليًا.

شكرًا لأنك اخترت الناس.

شكرًا لأنك، حين عزفت، عزفت للحرية.

وشكرًا لأن اسمك، مثل موسيقاك،

باقٍ في الوجدان،

يمشي بيننا،

ولا يغيب.

وجوه لا تغيب...

لأن بعض الأصوات لا تُسمَع بالأذن،

بل بالقلب.

ولأن النغمة،

إذا خرجت من ضمير،

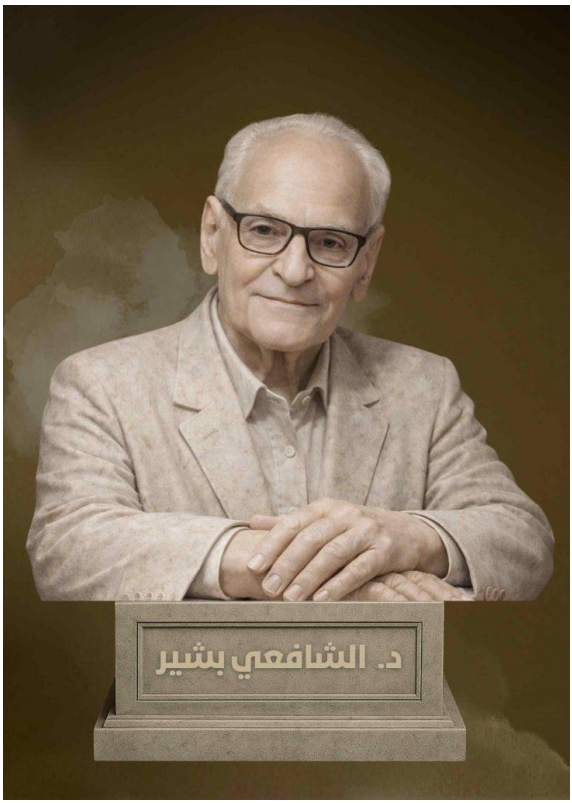
تظلّ تمشي بيننا

حتى بعد أن يسكت العازف.



وجوه لا تغيب ... الدكتور الشافعي بشير

شجاعة العِلم حين يصبح موقفا



ليس كل من امتلك المعرفة امتلك الشجاعة، وليس كل من رفع صوته قال الحقيقة. هناك من اختار طريقًا أصعب: أن يجعل من العِلم موقفًا، ومن الصمت شجاعة، ومن الاتساق الأخلاقي لغة لا تحتاج إلى ترجمة. الشافعي بشير كان من هذه القلّة.

لم يدخل المجال العام من بوابة السياسة، بل من بابها الأصعب: باب العقل. عرفته عالمًا قبل أن أعرفه صاحب رأي، ومعلّمًا قبل أن أعرفه ناقدًا. كان يرى أن الفكرة إذا لم تُختبَر أخلاقيًا، لا تستحق أن تُقال، وأن المعرفة التي لا تحمي الإنسان قد تنقلب عليه.

في زمنٍ ازدحمت فيه المنابر بالخطابة، اختار نبرة هادئة لا تستجدي التصفيق. لم يُغره الحضور الدائم، ولم يرهقه الغياب المؤقّت. كان يعرف أن الفكرة الجيدة لا تحتاج إلى ميكروفون عالٍ، وأن الكلمة الصادقة تعيش أطول حين تُقال في وقتها، لا حين تُستدعى للاستعراض.

تعلّمنا منه أن العِلم ليس حيادًا. وأن الوقوف على مسافة واحدة من الظلم والعدل ليس إنصافًا، بل تخلٍّ مقنّع. لذلك، حين كان يتكلم، كان كلامه محسوبًا بميزان دقيق: لا يُخاصم المجتمع باسم التنوير، ولا يُهادن السلطة باسم الواقعية.

كان شديد الانحياز للإنسان، لا للشعارات. يرى أن الإصلاح الحقيقي يبدأ من بناء الوعي، لا من كسر الناس. وأن السياسة حين تُدار بعقلٍ بلا أخلاق، تُنتج عنفًا ناعمًا أشد فتكًا من القسوة الصريحة.

لم يكن من هواة الاشتباك اليومي، لكنه لم يكن بعيدًا عن المعنى. يعرف متى يقترب، ومتى يبتعد، ومتى يترك للصمت أن يؤدي دوره الكامل. ذلك الصمت لم يكن عجزًا، بل اختيارًا واعيًا في لحظات كان الكلام فيها رخيصًا.

في علاقته بالأجيال الجديدة، لم يكن أستاذ منصة، بل معلّم مسار. يفتح الأسئلة ولا يُغلقها، يوسّع الأفق ولا يفرض الخاتمة. كان يؤمن أن دور المعلّم ليس أن يورّث اليقين، بل أن يعلّم الشكّ النبيل.

وحين احتدمت الاستقطابات، واشتدّ الاستسهال، وباتت الحقيقة ضحية السرعة، ظلّ وفيًّا لبطء العِلم. لا يساوم على الدقة، ولا يُخفّف المعنى ليُرضي جمهورًا عابرًا. كان يرى أن الشعبية التي تُشترى بالتبسيط المُخلّ تُفقر العقول.

لم يتعامل مع الدولة بوصفها خصمًا دائمًا، ولا مع المجتمع بوصفه قاصرًا. كان يطلب من الأولى أن تتعقّل، ومن الثاني أن يفكّر. تلك المسافة الذكية هي التي حفظت له احترام المختلفين قبل المتفقين.

في حضوره، لا تجد استعلاءً معرفيًا، ولا وصاية أخلاقية. تجد هدوءًا يُشبه الثقة، ونبرة تُطمئن السائل قبل أن تُقنعه. كان يعرف أن الحقيقة إذا قيلت بقسوة، انكسرت، وإذا قيلت بحنان، عاشت.

لم يسعَ إلى منصب، ولم يطلب وجاهة. ترك أثره في العقول لا في الكراسي. بعض الرجال يملئون المقاعد، وقليلون يملئون المعنى. وكان الشافعي بشير من الصنف الثاني.

حين تراجعت القيم في المجال العام، لم يتحوّل إلى واعظ، ولم ينزلق إلى السخرية. بقي حيث يجب أن يكون: في المنتصف الأخلاقي، حيث تُصان الفكرة من التسييس، ويُصان الإنسان من التشييء.

هذه ليست سيرة علمية، ولا شهادة تقدير، بل قراءة في مسار رجلٍ آمن أن العِلم إذا انفصل عن الضمير صار عبئًا، وأن الصمت إذا اختير في اللحظة الصحيحة يصبح أبلغ من خطاب.

وجوه لا تغيب...

لأن بعض العقول لم تلمع في العناوين،

لكنها أنارت الطريق.

ولأن الصمت، حين يكون معرفة،

يصير شجاعةً كاملة.



وجوه نسائية لا تغيب ...

جميلة بوحيرد... الجسد وطنًا



كان الجسد عندها خريطةً مكتوبة بالألم، لا تُقرأ بالحبر بل بالذاكرة. كل أثرٍ فيه شهادة، وكل صمتٍ مقاومة مؤجَّلة. لم تكن جميلة بوحيرد تبحث عن بطولة، لكنها وُضعت في امتحانٍ لا يسمح بالحياد،

امتحانٍ يطالب الإنسان أن يختار بين أن يحيا منقوصًا أو يقف كاملًا مهما كان الثمن.

وُلدت جميلة بوحيرد عام ١٩٣٥ في الجزائر، في زمنٍ كان الاستعمار فيه لا يكتفي بالأرض، بل يسعى إلى إعادة تشكيل الوعي. الطفولة هناك لم تكن مرحلة لعب، بل تدريبًا مبكرًا على الخوف، وعلى التمييز، وعلى الإحساس بأن الاسم واللغة والجسد قد تتحوّل إلى تهمة.

دخلت المدارس الفرنسية وتعلّمت بلغة الآخر، فكان الوعي يتشكّل على مفارقة قاسية: معرفة تُقدَّم بلسانٍ لا يشبهك، وتاريخ يُروى من زاويةٍ لا تراك. من هذا التناقض خرج السؤال الأول الذي لن يفارقها: لماذا ندرس تاريخهم ونصمت عن تاريخنا؟ ولماذا يُطلب منا أن نكون "مؤدّبين" أكثر مما يُطلب منا أن نكون أحرارًا؟

حين اندلعت ثورة التحرير عام ١٩٥٤، لم تحتج جميلة إلى خطابةٍ طويلة لتحدّد موقعها. كان القرار داخليًا، صامتًا، حاسمًا. لم تكن خطيبة ولا منظّرة، بل فتاة عادية في ملامحها، استثنائية في استعدادها للتضحية. انضمّت إلى صفوف المقاومة، وأدّت أدوارًا تبدو صغيرة في ظاهرها، لكنها خطيرة في معناها.

نقلت الرسائل، راقبت التحركات، عبرت الشوارع وهي تعرف أن كل خطوة قد تكون الأخيرة. الخوف كان حاضرًا، لكنه لم يكن القائد. كانت تعرف أن الشجاعة ليست غياب الخوف، بل القدرة على السير معه دون أن يحكم القرار.

في عام ١٩٥٧ جاء الاعتقال، ودخلت الحكاية منعطفها الأكثر قسوة. لم يكن السجن نهاية الدور، بل بدايته الوحشية. تعرّضت لتعذيبٍ جسدي ونفسي شديد: صعق بالكهرباء، ضرب، إهانات،

ومحاولات كسرٍ منهجي للإرادة. الهدف كان واضحًا: انتزاع الاعتراف، وتحويل الجسد المقاوم إلى رسالة ترهيب.

لكن ما لم يفهمه الجلادون أن الجسد، حين يصبح ساحة وطن، يكتسب معنى آخر. لم تكن جميلة صخرةً بلا إحساس؛ كانت تتألم وتخاف وتنهار لحظات، ثم تعود لتتمسّك بخيطٍ رفيع اسمه الكرامة. ذلك الخيط — لا الأسطورة — هو ما أنقذها من السقوط الكامل.

صدر حكم الإعدام، فخرج الاسم من الزنزانة إلى العالم. تحرّكت حملات تضامن، وكتب مفكّرون وصحفيون عن قضيتها، وصار الجسد المعذّب عنوانًا لضميرٍ عالمي. تحت هذا الضغط، خُفِّف الحكم، وبقيت جميلة في السجن حتى نالت الجزائر استقلالها عام ١٩٦٢.

خرجت من السجن بجسدٍ مُنهك وروحٍ محمّلة بما لا يُقال. خرجت إلى وطنٍ حرّ، لكن الحرية لا تمسح الندوب. هنا تبدأ حكاية أخرى، أقل ضجيجًا وأكثر قسوة: حكاية ما بعد البطولة، حين يتحوّل الرمز إلى صورة، والصورة إلى قيد جديد.

بعد الاستقلال، وُضعت جميلة تحت أضواء لا ترحم. كان يُطلب منها أن تظلّ ثابتة في الصورة، وأن تؤدي دور الرمز بلا تردّد. لكنها كانت تريد أن تعيش إنسانة، لا ملصقًا. اختارت الابتعاد عن الأضواء، لا هروبًا، بل حفاظًا على المعنى من الاستهلاك.

تزوّجت من جاك فيرجيس الذي دافع عنها في محاكم الاستعمار، فأثار القرار جدلًا واسعًا. لم تكن الحكاية خيانة للذاكرة، بل محاولة حياة بعد حرب. غير أن الأبيض والأسود كانا أسهل على العيون من فهم الرمادي الإنساني.

الفارق بين بطولة الزنزانة وقسوة ما بعدها أن الأولى عدوّها واضح، والثانية عدوّها ملتبس. في الزنزانة تعرف من يواجهك؛ بعد التحرير تُواجه الصورة والتوقّع والذاكرة. هذا الامتحان هو الأثقل، وهو ما اجتازته جميلة بلا ادّعاء.

لم تكن جميلة بوحيرد قدّيسة ولا تطلب ذلك. كانت امرأة عاشت أقصى ما يمكن للجسد أن يحتمله، ثم حاولت أن تعيش بعده. وفي هذه المحاولة وحدها بطولة أخرى: بطولة الصمت حين يكون الكلام استهلاكًا، وبطولة الابتعاد حين يكون القرب تشييئًا.

بعض الأجساد تتحوّل إلى أوطان حين تُهان، وبعض الأوطان تحتاج إلى أجسادٍ تقول "لا" كي تبقى. وجميلة بوحيرد كانت واحدة من هؤلاء اللواتي حملن الوطن في الجسد، ثم حاولن أن يحملن الجسد بعد أن هدأت المعركة.

هكذا بقيت جميلة بوحيرد وجهًا لا يغيب، لا لأنها صمدت تحت التعذيب فقط، بل لأنها حافظت على إنسانيتها بعد أن انتهى التصفيق، وتركت للذاكرة أن تكون عادلة بقدر ما تستطيع.



✳وجوه لا تغيب: عباس الطرابيلي..
كنتُ مساعدًا له وأدخلته قفص المحكمة✳



تمرّ في حياة الصحفي وجوه كثيرة؛ بعضها يمرّ كعنوان عابر في أرشيف الذاكرة، وبعضها يبقى كمدينة كاملة لا تغادر القلب. في مهنةٍ تعلّمنا أن الكلمات قد تكون جسورًا، وقد تتحول أحيانًا إلى جراح،

يبقى السؤال الأصعب: كيف نتذكر من اختلفنا معهم؟ وكيف نكتب عنهم بعد أن يغيبوا؟

في ذكرى مرور خمسة أعوام على رحيل الكاتب والصحفي الكبير عباس الطرابيلي، يعود إلى ذاكرتي وجهٌ بشوش، وضحكة واسعة، وصوتٌ دمياطي يعرف كيف يحكي عن الحياة كما يعرف كيف يكتب عنها. رحل في ١٢ مارس ٢٠٢١، لكن صورته ما تزال حاضرة في ذاكرة جيلٍ كامل من الصحفيين الذين تشكّل وعيهم في زمن كانت فيه الصحافة مدرسة قبل أن تكون مهنة.

وُلد عباس الطرابيلي في ١١ يناير ١٩٣٦ بمحافظة دمياط، المدينة التي تعلّم فيها المصريون مبكرًا كيف يربطون بين الكلمة والعمل، بين الحرفة والكرامة. حمل معه من تلك المدينة شيئًا من روحها: بساطة الناس، وحساب التاجر، وحكمة البحر.

دخل عالم الصحافة من بوابة مدرسة مصطفى أمين وعلي أمين في مؤسسة أخبار اليوم، حيث كانت الصحافة آنذاك ورشة كبيرة يتعلم فيها الصحفي كيف يرى الشارع، لا كيف يكتب عنه فقط. هناك تفتحت موهبته، وتعلّم أن المقال ليس مجرد رأي، بل نافذة يطل منها الناس على حياتهم.

شارك لاحقًا في تأسيس جريدة الاتحاد في الإمارات، ثم عاد إلى القاهرة ليكون من الرعيل الأول لمؤسسي جريدة الوفد. كانت تلك التجربة الصحفية الجديدة بداية زمنٍ مختلف في الصحافة الحزبية المصرية، زمنٍ كان يبحث فيه القلم عن مساحة حرية في ظل واقع سياسي شديد التعقيد.

هناك، في مطلع الثمانينيات، بدأت قصتي معه. كان ذلك عام ١٩٨٤، عام ولادة تجربة «الوفد» الصحفية. جاء فريقٌ كامل من

الصحفيين الكبار مع الأستاذ مصطفى شردي، يضم الراحلين جمال بدوي وجلال عبد الفتاح وعباس الطرابيلي. انضم إليهم لاحقًا محمد عبد القدوس وسعيد عبد الخالق ومجدي مهنا وفؤاد فواز، ثم جاء جيلٌ أصغر تشرفت أن أكون واحدًا منه، ضمّ مجدي سرحان ومحمد الشربيني وعبد النبي عبد الستار وحنان البدري وجمال يونس وغيرهم من شباب الصحفيين الذين تشكّلت تجربتهم في تلك المدرسة الصحفية الفريدة.

كانت غرفة التحرير صغيرة، لكن الحلم كان واسعًا. تعلمنا هناك أن الصحافة ليست مجرد خبر، بل حياة كاملة تُكتب كل صباح. تدرجت في العمل حتى أصبحت رئيسًا للقسم السياسي ثم مديرًا لمركز دراسات الوفد، قبل أن يُسند إليّ موقع مساعد مدير التحرير، وكان مدير التحرير آنذاك الأستاذ عباس الطرابيلي.

كان رجلاً لطيف المعشر، يحب الحياة كما يحب الكتابة عنها. يعشق الطهي والسفر، ويكتب عنهما بروحٍ قريبة من الناس. لم يكن سياسيًا صداميًا مثل مصطفى شردي، ولم يكن مؤرخًا غارقًا في الوثائق مثل جمال بدوي، لكنه كان يملك شيئًا آخر: قلمًا يعرف كيف يلمس حياة الناس اليومية. كان وجهه الأحمر الدمياطي يشع بالحيوية، وضحكته الكبيرة لا تغادر المكان. يعرف ما يشغل الناس: الطعام، والمال، والحياة البسيطة التي تبدو عادية لكنها في الحقيقة جوهر المجتمع.

بيننا نشأت علاقة ودودة استمرت سنوات. علاقة زمالة ومودة لم تعكر صفوها إلا لحظة سياسية صعبة. حين صدر قرار مفاجئ من الدكتور نعمان جمعة (فور توليه رئاسة الحزب) بإقصائي من موقعي في الصحيفة والحزب، بل ومن عضوية الحزب نفسها. كان قرارًا هزّ

الوسط الصحفي، واعتبره كثيرون جريمة سياسية بحق التجربة الوفدية. والحقيقة ان من كان وراء هذا القرار بإقصائي لإفساح المجال لنفسه كان هو من قام لاحقا بإقصاء نعمان جمعه نفسه.

في تلك اللحظة المضطربة، كتب عباس الطرابيلي مقالات دفاعًا عن القرار، ووردت فيها اتهامات لم أجد لها أساسًا في الواقع. ربما بتأثير من دوائر كانت تدير المشهد من خلف ستار نعمان جمعة. وصلت الأمور إلى لحظة لم أكن أتمنى أن أصل إليها، فتقدمت ببلاغ إلى النائب العام، وأُحيلت القضية إلى المحكمة، وفي أول جلسة صدر قرار القاضي بإدخال عباس الطرابيلي القفص بين المتهمين.

لا أنسى تلك اللحظة. لم أشعر بالانتصار، بل بالحزن. بدا المشهد كله أكبر من خلاف صحفي. تدخل الصديق والزميل المحامي حسين حلمي للوساطة، وتنازلت فورًا عن الدعوى مقابل اعتذار. لا أذكر الآن إن كان الاعتذار نُشر أم لا، لكن ما أعرفه أن القضية انتهت في الأوراق... وبقي شيء من الأسف في القلب. بقي لدي شعور خفي بالذنب، لأن العلاقات الإنسانية لا تُقاس بنصوص القوانين، بل بما يبقى في الذاكرة.

بعد سنوات، استمر عباس الطرابيلي في الكتابة، وأصبح رئيس تحرير جريدة الوفد في فترات مختلفة، وكتب أعمدة يومية في المصري اليوم والوفد. ترك خلفه عشرات الكتب التي أعادت قراءة تاريخ المدن والشوارع المصرية، مثل «أحياء القاهرة المحروسة» و«شوارع لها تاريخ» و«مائة عام مع إعلام صاحبة الجلالة». كانت تلك الكتب محاولة لإعادة اكتشاف الذاكرة المصرية، لا من خلال الأحداث الكبرى فقط، بل من خلال التفاصيل الصغيرة التي تصنع روح المكان.

في ١٢ مارس ٢٠٢١، غادر عباس الطرابيلي الدنيا عن عمر يناهز خمسةً وثمانين عامًا. رحل بهدوء يشبه طريقته في الحياة والكتابة. يومها شعرت بحزن مضاعف: حزن الفقد، وحزن الكلمات التي لم تُقل. لم أتمكن من الاعتذار له، ولم أشارك في جنازته.

بعض الوجوه نختلف معها في الحياة، لكننا نكتشف بعد الرحيل أن الذاكرة لا تحفظ الخلافات بقدر ما تحفظ الملامح الإنسانية. هكذا يبقى عباس الطرابيلي واحدًا من الوجوه التي لا تغيب؛ لأن الصحافة ليست فقط ما يُكتب في الصفحات، بل ما يبقى من البشر بعد أن تُطوى الصفحات... وتبقى الوجوه.



وجوه نسائية لا تغيب. لطيفة الزيات... الأدب والمقاومة



كانت الكتابة عندها تشبه الوقوف في مهبّ الريح؛ لا ترفع راية، ولا تختبئ خلف جدار، لكنها تعرف أن الصمت في لحظة القهر مشاركة غير معلنة. لم تكن لطيفة الزيات تبحث عن بطولة، لكنها

وجدت نفسها في قلب معركةٍ لم تخترها، معركةٍ بين العقل والسلطة، وبين الإنسان والخوف، وبين الكلمة وما يُراد لها أن تكونه.

وُلدت لطيفة الزيات عام ١٩٢٣ في القاهرة، في مدينةٍ كانت السياسة فيها تُتعلَّم في الشوارع قبل أن تُدرَّس في الكتب. نشأت في بيتٍ يعرف قيمة التعليم، لكن الواقع من حولها كان يُحمّل المرأة دائمًا عبئًا إضافيًا: أن تكون واعية دون أن تُربك، ومثقفة دون أن تُزعج.

منذ سنواتها الأولى، أدركت لطيفة أن المعرفة ليست محايدة، وأن القراءة قد تكون بداية طريقٍ شائك. كانت ترى الاحتلال حاضرًا في تفاصيل الحياة، وتسمع أحاديث الاستقلال، وتلاحظ أن السياسة لا تسكن البرلمان فقط، بل تسكن البيوت، والقلوب، والخوف اليومي. هذا الوعي المبكر جعلها تنظر إلى الأدب لا بوصفه ترفًا، بل بوصفه أداة فهم ومساءلة.

حين دخلت الجامعة، لم تكن قاعات الدرس معزولة عن الشارع. الحركة الطلابية كانت مشتعلة، والأسئلة الكبرى تُطرح بلا إذن. هناك، انخرطت لطيفة في العمل العام، وانحازت إلى فكرة العدالة الاجتماعية، لا من باب الرومانسية الثورية، بل من باب الإحساس بأن الظلم إذا لم يُسمَّ باسمه تمدّد حتى صار طبيعيًا.

كان هذا الاختيار مكلفًا. في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، لم يكن النشاط السياسي طريقًا آمنًا، خصوصًا لامرأة. تعرّضت لطيفة الزيات للاعتقال، وعرفت السجن لا بوصفه حدثًا عابرًا، بل تجربة تُعيد تشكيل الإنسان من الداخل. السجن لم يكسرها، لكنه أزال عنها أي وهم بأن الطريق سهل، أو أن النضال بلا ثمن.

خرجت من السجن وهي أكثر صمتًا، وأكثر عمقًا. لم تعد ترى السياسة في الشعارات وحدها، بل في التفاصيل اليومية، في قدرة

الإنسان على أن يحافظ على كرامته وسط القهر. هنا، بدأ الأدب يأخذ موقعه المركزي في حياتها، لا كملاذٍ هروبي، بل كساحة أخرى للمواجهة.

كانت ترى أن اللافتة السياسية تُحرّك اللحظة، لكن الرواية تُحرّك الذاكرة. وأن الأدب — إذا صيغ بصدق — قد يصل إلى أماكن لا تصلها الخطب. بهذا الفهم، كتبت لطيفة الزيات أعمالها، لا لتُرضي أيديولوجيا، بل لتُمسك بتجربة إنسانية معقّدة، مليئة بالتردّد والخسارة والأسئلة.

في عام ١٩٦٠، نشرت روايتها الأشهر «الباب المفتوح»، التي لم تكن مجرد عمل أدبي، بل شهادة جيلٍ كامل. بطلتها لم تكن امرأة مثالية، بل امرأة تبحث عن ذاتها وسط عالمٍ يضع لها أبوابًا كثيرة، ثم يطلب منها أن تختار بسرعة. في هذا التردّد، وفي هذا القلق، رأى كثيرون أنفسهم.

لم تكتب لطيفة الزيات عن التحرّر بوصفه قفزة واحدة، بل بوصفه سلسلة محاولات، بعضها ينجح، وبعضها ينكسر. كانت تعرف أن الحرية لا تأتي دفعة واحدة، وأن الأبواب المفتوحة قد تُغلق فجأة إذا لم يُحسن العابرون العبور.

في حياتها الشخصية، عاشت لطيفة تناقضًا دائمًا بين الالتزام العام والحاجة الإنسانية للسكينة. تزوّجت، وجرّبت الحياة الزوجية، لكنها لم تجد فيها دائمًا الملاذ الذي يبحث عنه الإنسان. لم ترَ في الزواج خلاصًا ولا قيدًا مطلقًا، بل علاقة تُقاس بميزان العدالة والاحترام، لا بالمسميات.

عملت في التدريس والنقد، وأسهمت في صياغة خطاب أدبي يرى في النص فعلًا اجتماعيًا. رفضت فكرة "الفن للفن"، كما رفضت

تحويل الأدب إلى منشور سياسي مباشر. كانت تؤمن بالمنطقة الصعبة بين الاثنين، حيث يكون النص جميلًا، لكنه مسكون بالواقع.

جاءت هزيمة ١٩٦٧ فكانت صدمة وجودية لجيلها كله. أعادت لطيفة النظر في كثير من القناعات، وكتبت بجرأة عن الأوهام التي سقطت، وعن الحاجة إلى مراجعة الذات قبل مراجعة الخصم. لم تكن الهزيمة عندها نهاية، بل لحظة كشفٍ مؤلمة، لا بد من المرور بها.

في كتاباتها اللاحقة، واجهت نفسها بلا تجميل. كتبت عن السجن، وعن الخسارات، وعن التعب الذي لا يظهر في الصور. لم تدّعِ البطولة، ولم تتبرأ من أخطائها. كانت ترى أن الصدق مع الذات شرطٌ لأي كتابة حقيقية.

رحلت لطيفة الزيات عام ١٩٩٦، بعد عمرٍ طويل من التجربة والكتابة والمراجعة. لم تُقدَّم كأيقونة سياسية، ولا كرمزٍ نسويّ جاهز، لكنها تركت أثرًا أعمق من الرموز: تركت نصوصًا تُذكّرنا بأن المقاومة ليست دائمًا في الشارع، وأن الأدب قد يكون ساحة نضال لا تقل قسوة.

ليست كل المعارك صاخبة، وليست كل الانتصارات مرئية. بعض النساء يغيّرن التاريخ لأنهنّ كتبن بصدق، وتركْن للأدب أن يقول ما عجزت السياسة عن قوله.

هكذا بقيت لطيفة الزيات وجهًا لا يغيب، لا لأنها رفعت راية، بل لأنها فتحت بابًا، وتركت لمن يأتي بعدها أن يختار: هل يعبر، أم يظلّ واقفًا أمامه.

وجوه لا تغيب ...

الحب الأول – حب الطفولة والمراهقة

لا يبدأ الحبّ الأوّل من القلب، بل من الذاكرة...
من تلك المساحة الرقيقة التي تسبق الوعي،
حين لا نعرف لماذا نحب، ولا نملك شجاعة السؤال.
يأتي كنسمةٍ خجولة في صدر طفل،
كارتباكٍ جميل لا اسم له،
كدهشةٍ لا تطلب تفسيرًا.
لا يشبه ما نعرفه لاحقًا من علاقات،
ولا يطلب وعدًا أو نهاية
هو فقط يمرّ...
ليعلّم القلب كيف يخفق
ثم يتركه وحيدًا مع الدرس.
الحبّ الأوّل لا يرفع صوته،
ولا يطالب بشيء
لكنه يزرع في الداخل بذرة
لا تموت،
حتى إن تغيّرت الفصول،
وتبدّلت الوجوه

وصار العمر أثقل.

لم يأتِ الحبّ الأوّل كنصٍّ محفوظ في كتاب القراءة، ولا كدرسٍ يُملى على السبورة، بل تسلّل كدعاءٍ خافت في قلب طفل لم يكن يعرف من الحياة سوى أن الأشياء الجميلة لا تشرح نفسها. كان حبًّا بلا أسماء، بلا وعود، بلا لغة واضحة، كأن القلب تعلّم النبض قبل أن يتعلّم الكلام.

كانت من بورسعيد، من أسرةٍ مهجَّرة بعد نكسة ٦٧، تحمل في عينيها حكاية مدينة خرجت من البحر لتسكن الغياب. جاءت مع أهلها إلى حيٍّ مجاور لنا في المنصورة، فصارت الجيرة قدرًا، وصار الصمت لغةً مشتركة.

كنا نلتقي كل صيف في جمصة، نصنع من الرمل قصورًا، ومن الصمت اعترافات. لم نقل شيئًا... لكن كل شيء كان يُقال.

كنت أصغر منها عمرًا بساعات، لكنها كانت أكبر من أي فتاة عرفتها. لم تكن فقط أول من حرّك قلبي في الطفولة، بل أول من علّمني أن الحب لا يُقال... بل يُرتَجَف.

كان إحساسًا ينمو في الصدر بلا إذن، ويقيم دون أن يطلب إقامة. واستمر هذا الشعور حتى لحظة سفري إلى بريطانيا، وتحديدًا إلى ميلفيلد سكول. ثم جاءت عودتها هي وأسرتها إلى بورسعيد بعد إعادة افتتاح قناة السويس... فكانت تلك النهاية التي لم نكتبها، ولا ودّعناها، فقط تركناها تمشي بعيدًا مثل حلمٍ استيقظ قبل اكتماله.

مرّت السنوات، وكما يعود البحر كل صيف إلى شاطئه، عاد شعور آخر إلى القلب في المصيف ذاته... جمصة.

هذه المرة كان أكثر وضوحًا، أقل براءة، لكنه لا يزال ناعمًا. فتاة من عائلة برلمانية كبيرة، تسكن بجوارنا في الفيلا رقم ١١. كنا زميلين في السنة الأولى الثانوية، نتقاسم المقاعد والأسئلة الصغيرة، ونخبئ المشاعر كما يُخفى السرّ الثمين.

وحين أصبحتُ رئيسًا لاتحاد طلاب الجمهورية، التحقت هي بالتجربة ذاتها. كأن الطريق اختار أن يجمعنا مرة أخرى. كانت بيننا مشاعر متفتّحة، نمت في تربة من الثقة والمودّة. تبادلنا الرسائل بخجلٍ منمّق، وبدفء يشبه دفء جمصة بعد الغروب، حين يهدأ البحر ويصير الصمت صديقًا.

نضجت الحكاية، وكادت أن تُتوَّج بموافقة الأهل، لولا أن السياسة — كعادتها — لا تطرق الأبواب بل تكسرها. كتبت بيانًا في اتحاد طلاب الجمهورية أدنتُ فيه استقبال السادات لشاه إيران بعد ثورة شعبه. بيان كُتب على آلة كاتبة قديمة، لكن صداه كان أعلى مما توقعت. اعتُبر إهانةً للرئيس، وكانت النتيجة اعتقالي لأيام.

تلك الأيام القليلة كانت كافية لإطفاء كل شيء. كانت أسرة الفتاة تمرّ بأزمة سياسية بالفعل، بعد اعتقال قريب لهم في أحداث الحرم المكي. صار وجودي في حياتها وقتها حبًّا... ملحًا على جرحٍ مفتوح.

الملح لا يُنسى طعمه، لكنه لا يُحتمل فوق الجرح. انسحبتُ بصمت، دون خصام، ودون تفسير. لم نغلق الباب... تركناه مواربًا للألم. فقط انتهت الحكاية.

في الزنزانة، اكتشفت أنني لا أفتقد الحرية بقدر ما أفتقد الحبيبة. كتبت في دفتري:

»لم يكن القيد هو المؤلم... بل الفقد، حين يأتي من تحبّك أكثر خوفًا عليك من حبك له«.

أدركت وقتها أن السجن ليس دائمًا أربعة جدران، بل قد يكون انسحابًا بلا وداع، أو زمنًا يختار أن يكسر ما لا يريد له الاكتمال.

بين حبٍّ عاش ومات في صمت الطفولة، واعتقالٍ جاء كمطرٍ مفاجئ فوق جناحين مراهقين صغيرين... كانت تلك السنوات تنحتني ببطء. لم تكن مطرقة، بل أظافر الوقت، تخدش الروح لتعلّمها الصبر، وتوسّع القلب ليحتمل ما سيأتي.

لم تبدأ رحلتي الإنسانية من قاعة محاضرات جامعية، بل من فيلا تطل على بحر جمصة، ومن بيان مطبوع بحبرٍ خائف، ومن فتاة قالت لي ذات مساء:

»دعنا نحلم أولًا... ثم نقرر«.

من أول تحدٍّ، وأول خسارة، وأول انتصار صغير على النفس... بدأت حكايتي مع العاطفة، ومع السياسة، ومع الحياة التي لا تفصل القلب عن الموقف.

لا ينتهي الحبّ الأوّل،

هو فقط يتوارى.

يتخفّى في تفاصيل صغيرة:

في بحرٍ بعيد،

في رائحة صيفٍ قديم،

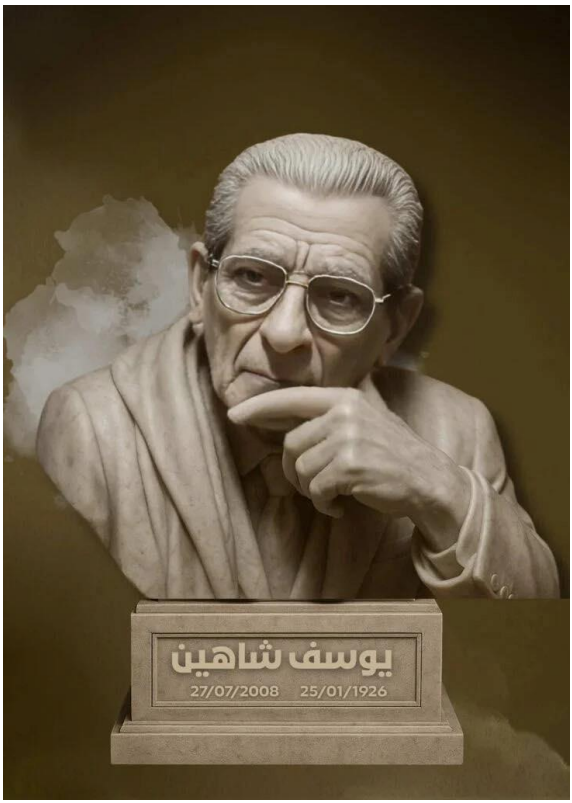
في جملةٍ لم نكملها،

وفي وداعٍ لم نقله.

نمضي في الحياة،
نحبّ أكثر،
ونخسر أكثر،
لكن ذلك الحبّ الأوّل
يبقى المقياس الصامت،
الذي نقيس به كل ما يأتي بعده،
دون أن نعترف.
هو ليس حكايةً نرويها،
بل أثرٌ نحمله.
ليس شخصًا غاب،
بل زمنًا لم يعد.
وجوه لا تغيب...
لأن بعض الأحبّة
لا يعيشون في الواقع،
بل في الوجدان.
ولأن الحبّ الأوّل
لا يشيخ...
هو فقط يصمت،
ويترك القلب يتذكّر

وجوه لا تغيب...

يوسف شاهين: ١٠٠ سنة



في الخامس والعشرين من يناير، لا يعود التاريخ وحده إلى الواجهة، بل تعود الأسئلة التي لا تشيخ. مئة عام مرّت على ميلاد يوسف شاهين؛ الرجل الذي لم يصنع أفلامًا بقدر ما صنع مرايا، رأينا

فيها وجوهنا كما هي، لا كما نحبّ أن نراها. يومٌ مصريّ بامتياز، يلتقي فيه الفن بالسياسة، والحرية بالقلق، والسينما بالشارع.

لم يكن يوسف شاهين مخرجًا يسكن الكاميرا، بل كانت الكاميرا تسكنه. اختار منذ بداياته أن يكون مزعجًا للحقيقة الكسولة، وأن يوقظ الأسئلة النائمة، وأن يضع المشاهد في موضع الشريك لا المتفرّج. كان يرى أن الفن الذي لا يُربك، لا يُنقذ، وأن الصورة التي لا تُقلق ضميرها تتحوّل إلى زينة.

في أفلامه، لم يكن البطل واحدًا، بل كانت مصر هي البطل المتحوّل: مرة عاشقة، ومرة غاضبة، ومرة خائفة، ومرة جريئة إلى حدّ التهوّر. لم يُهادن ذائقة عامة، ولم يطلب تصفيقًا سريعًا. كان يعرف أن التصفيق السريع يشيخ سريعًا، وأن الجرح الصادق يعيش أطول.

السينما عنده لم تكن حكاية تُروى، بل موقف يُتَّخذ. كان شديد الانحياز للإنسان، حتى حين يختلف معه، شديد القسوة على الكذب، حتى حين يأتي في ثوب الفضيلة. لذلك اصطدم بالجميع: بالسلطة حين ضاقت، وبالمعارضة حين كسلت، وبالجمهور حين طلب الطمأنينة بدل الحقيقة.

في مطلع الثمانينيات، طرقتُ باب مكتبه في شارع شامبليون. لم أكن أمتلك أكثر من حلم صغير، ومصروف طالب في السادسة عشرة. لم يكن يوسف شاهين بالنسبة لي مخرجًا فقط، بل أسطورة يصعب الاقتراب منها. جئتُه رئيسًا لاتحاد طلاب جامعة المنصورة، لأطلب أفلامه لإقامة أسبوعٍ لها في الجامعة.

كان الدكتور كمال أحمد، رئيس الجامعة وقتها، قد رفض أن تتحمّل ميزانية الاتحاد تكاليف المشروع. فقررت أن أموّله من جيبي... أو

بالأصح من مصروفي. حين جلست أمام شاهين، باغتني بسؤاله المباشر:

»مين هيدفع إيجار الأفلام؟ وماكينات العرض؟«

قلتُ بثقة لا تخلو من سذاجة: «من مصروفي».

انفجر ضاحكًا، ثم صرخ بحدّته المحببة:

»مصروفك لربع قرن ما يعوّضش تمن ماكينة عرض لو اتحطّمت«!

تهيّأتُ للانسحاب، فأوقفني بسؤال ساخر:

»كم واحد منكم هييجي يشوف أفلامي؟«

قلت: «آلاف».

ردّ بسخريته المعهودة:

»إنت فاكرني كروديا؟«!

قلت له جملة لم أخطط لها:

»لا... فاكرِك فنان.

وإحنا في أمسّ الحاجة لأفلامك، لأنها بتحرّض على التفكير.«

صمت لحظة، ثم صرخ:

»يا جابي! يا سيف«!

ودخل فورًا جابي خوري وسيف عبد الرحمن.

قال لهما:

»خدوه من هنا... وما يطلعش من المكتب إلا لما تزوّدوه بكل اللي يحتاجه: أفلام، ماكينات عرض، أفيشات قديمة... وكل شيء، وبلا مقابل.«

يوم الافتتاح، فوجئت بيوسف شاهين يحضر بنفسه، ومعه رجاء حسين، وسيف عبد الرحمن، ومحمد منير، وآخرون من نجوم أفلامه التي ستُعرض طوال الأسبوع. وقف مذهولًا أمام مدرج الدكتور بدراوي الذي غصّ بآلاف الطلبة. قال لي هامسًا:

»ده جمهور ما شُفتوش في حياتي.«

تردّد قبل أن يصعد المنصّة، ثم سألهم بصوته المرتجف الصادق:

»إنتوا بجد جايين علشان أفلامي؟«

جاءه التصفيق عاصفةً من التأكيد.

ابتسم وقال:

»يبقى لازم أسيب السينما... وأؤسس بيكم حزب سياسي للشباب«!

بعد العرض، جلسنا على العشاء. ضحك وقال لي:

»كنت حاخسر كتير لو خدت مصروفك لربع قرن!

الحزب اللي شُفته النهاردة أغلى بكتير.«

بعد أربعة وأربعين عامًا، لا يزال دين يوسف شاهين في عنقي. لم يأخذ مصروفي، لكنه منحني مفاتيح وعي مختلف، وفهمًا أعمق لمعنى الفن، وأهمية أن يُفكّك الإنسان قيوده الذاتية، وأن ينقل بعضًا من حياته للناس بحلوها ومرّها. وكما قال لي يومًا:

»ما حدّش هيتكلم عني أصدق من لساني.«

علّمني شاهين أن أكبر رأس مال للفنان — أو السياسي — هو الناس. وأن امتلاء القاعات حبًّا لك يعني أنك مدين: بفكرة، بثمن، بتكلفة لا بد أن تُدفع.

دفعتُ هذا الثمن راضيًا: سجنًا واعتقالًا، ونفيًا أكثر من مرة. كانت علاقتي بيوسف شاهين ممتدة، لم تنقطع إلا حين اعتُقلت عقب انتخابات ٢٠٠٥. مات يوسف شاهين وأنا خلف القضبان. لم أودّعه، لكنني أكتب له الآن رسالة متأخرة.

شاهين لم يكن فقط مخرجًا. كان ثائرًا، ومدرسة تمرّد لا تخجل من الصدام، ولا تهرب من المواجهة. كان يدرك أن للسينما رسالة، وللحلم ثمنًا. لا أظن أن خياله السينمائي — مهما حلّق — كان سيتنبأ بأن ثمن ذلك «الحزب» الذي حرّضني عليه سيكون سنوات من السجن. لكنه علّمنا، بفنه، أن نؤمن بما نفعل، حتى وإن دفعنا العمر كاملًا ثمنًا لفكرة.

وجوه لا تغيب...

لأن بعض الفنانين لم يصنعوا أفلامًا،

بل صنعوا وعيًا.

ولأن الكاميرا، حين تُمسك بالحقيقة،

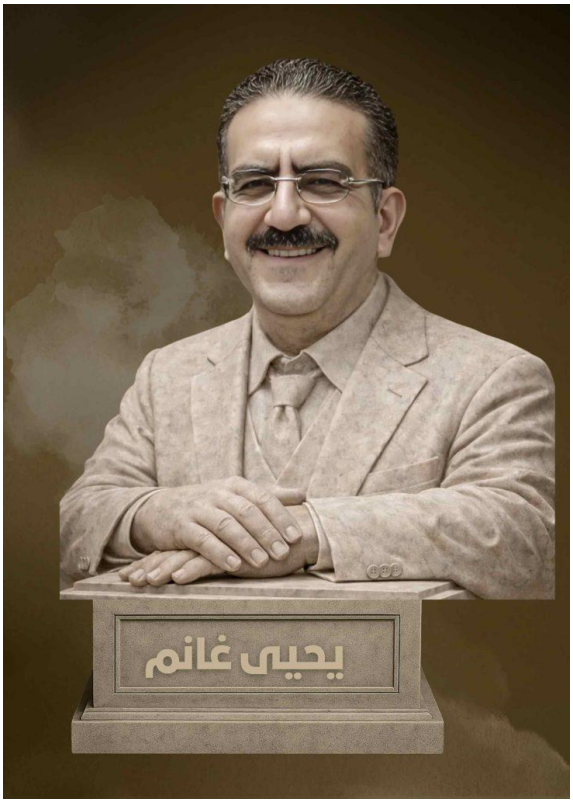
تصير وطنًا كاملًا...

ولا تغيب.



وجوه لا تغيب ... يحيى غانم

حين يسبق الإنسان المهنة... وتسبق الأخلاق العنوان



لا تُقاس الصحافة بالمناصب، ولا تُختزل في عدد الصفحات أو ساعات البث. الصحافة، في معناها الأعمق، اختبار أخلاقي طويل النفس؛ إما أن تنجو فيه الحقيقة، أو يغرق صاحبها في ضجيج اللحظة. في زمنٍ صارت فيه العناوين أسرع من الفهم، والضوء أسبق

من المعنى، يبرز اسم يحيى غانم بوصفه وجهًا لا يغيب، لأنه اختار أن يكون شاهدًا لا شاهد زور، وأن يجعل من الإنسان بوصلته الأولى.

في هذه اللحظة بالذات، حين نبحث عن معنى المهنة بعيدًا عن الاستعراض، نفهم لماذا ظلّ يحيى غانم حاضرًا حتى وهو بعيد. لم يطلب الضوء، ولم يتوسّل المنصّة، بل ترك للحقيقة أن تُعرّف به. جعل من السؤال فعلًا أخلاقيًا، ومن الميدان مدرسة، ومن الصمت المدروس شجاعة لا عجزًا.

عرفته منذ ١٩٨٧، حين جمعنا العمل في الوفد؛ صحيفة كانت بيتًا للفكرة قبل أن تكون مطبعة للحروف. يومها، لم يكن يحيى يبحث عن توقيعٍ لافت، ولا عن صورةٍ في الصفحة الأولى، بل عن قصةٍ مكتملة، وعن زاويةٍ لا تراها العين المتعجلة. كان حضوره هادئًا، لكن أثره ثابت، كمن يعرف أن المصداقية تُبنى ببطء، ولا تُشترى بالعجلة.

ثم اتّسع المدار، ولم تقلّ خبرته عن اتّساع المكان؛ انتقل إلى الأهرام، حيث انفتح أمامه العالم بكل قسوته وتعقيده. هناك اشتغل مراسلاً حربيًا وسياسيًا في ساحاتٍ متعدّدة: من البوسنة وكرواتيا إلى أفغانستان، مرورًا بمناطق نزاع أخرى في آسيا وأفريقيا. لم تكن تقاريره سجلات اشتباكٍ فحسب، بل شهادات إنسانية تُقرأ في العيون قبل الكلمات.

في ميادين النار، حيث يتحوّل العالم إلى خط تماس مفتوح، كان يحيى غانم يكتب عن التفاصيل التي تُهمَل عادةً: وجع الأسر، صمت الأطفال بين أصوات المدافع، والذاكرة الإنسانية التي لا تمحوها الخرائط. هذه ليست صحافة سريعة ولا موجزة، بل صحافة تعرف أن الخبر الذي لا يرى الإنسان يُصاب بالعمى.

لم يكن يسأل: من انتصر؟ بقدر ما كان يسأل: من دُفع ثمنًا؟ لذلك جاءت كتاباته باردة الأعصاب، ساخنة المعنى، بعيدة عن الإثارة، قريبة من الحقيقة. في جنوب أفريقيا تحديدًا، عاش التحوّلات الكبرى عن قرب؛ تعلّم كيف تُدار الدول الخارجة من الجراح، وكيف تتعايش الذاكرة مع السياسة، وكيف تُبنى المصالحة دون دفن الحقيقة.

هذا المسار المهني لم يمرّ دون اعتراف. نال جائزة "رجل العام" من نقابة الأطباء المصريين عام ١٩٩٥ تقديرًا لتغطيته الإنسانية للحرب في البوسنة، حيث انتصر للإنسان قبل الحدث. كما نال جائزة أفضل مراسل استقصائي أجنبي عام ٢٠٠٢ عن تغطيته المعمّقة للحرب في الكونغو الديمقراطية؛ جوائز لم تكن أوسمة بقدر ما كانت شهادات ثقة في وضوح الرؤية وعمق الفهم.

وبعد ثورة يناير، تولّى رئاسة مجلس إدارة دار الهلال؛ تلك المؤسسة العريقة التي تأسست في مطلع القرن العشرين، وشكّلت وجدان الثقافة والصحافة المصرية عبر مطبوعاتها المتعددة. دخلها لا بوصفه إداريًا باردًا، بل حارسًا للهوية الصحفية، مدركًا أن تجديد المؤسسة لا يكون بقطع الجذور، بل بإحياء المعنى الذي قامت عليه.

وفي أبريل ٢٠١٣، حين طُرحت عليّ فكرة تشكيل حكومة ائتلافية متعددة الاتجاهات، وطلب مني محمد مرسي التفكير في أسماء قادرة على إدارة ملفات معقّدة، كان اقتراحي ليحيى غانم وزيرًا للشؤون الأفريقية اقتراح كفاءة لا صداقة. أفريقيا ليست ملفًا هامشيًا لمصر، بل عمقها الاستراتيجي الذي نعرف عنه —للأسف— أقل مما ينبغي.

رشّحته لأنني أعرف أنه من القلّة التي تفهم أفريقيا كما هي: قارة مليئة بنقاط قوة غير مستثمرة، ونقاط ضعف لا تُدار بالشعارات، وشبكات مصالح لا يفكّ شفراتها إلا من عاشها ميدانًا وربطها بالتاريخ

والاقتصاد السياسي للصراع. يعرف أن أفريقيا لا تُدار بالخرائط وحدها، بل بمعرفة البشر والذاكرة والموارد وموازين القوى.

لم تمضِ الأمور في هذا الاتجاه. تعرّض يحيى غانم لقضية ملفّقة على صلة بملف "التمويل الأجنبي"، وهي تهمة طالما استُخدمت لإرهاق المهنيين المستقلين. غادر بعدها مصر، لا فرارًا من الحقيقة، بل حفاظًا على كرامة المهنة وعلى حياة صحفية لا تُختزل في محاضر الاتهام.

في سنواته الأخيرة، يعمل في الجزيرة، حيث قدّم واحدًا من أنضج أنماط الصحافة الدولية العربية. حواراته وانفراداته مع قادة أمريكيين وأفارقة لم تكن سباقًا على العنوان، بل تفكيكًا هادئًا للسياسات، وربطًا ذكيًا بين القرار وتأثيره على الشعوب. أسئلة تعرف ماذا تريد، ومسافة تحترم الضيف دون أن تتنازل عن الحقيقة.

ومع كل هذا المسار، يبقى الإنسان الذي أعرفه: لطيف، متواضع، رقيق الطبع، شديد الاحترام، عفيف السيرة. عزوبته اختيارٌ لا نقص، وهدوؤه ثقة لا برود. لا يعرف قيمته الحقيقية إلا من خبروا الميدان، وميّزوا بين الشجاعة والتهوّر، وبين الظهور والحضور.

لم يكن من صُنّاع الضجيج، ولا من أسرى "الترند". كان يرى أن الخبر إن لم يُضف معرفة لا يستحق النشر، وأن السؤال إن لم يكن أخلاقيًا صار فخًا. لذلك بقي اسمه حاضرًا في دوائر الاحتراف، حتى إن غاب عن العناوين.

في زمنٍ صار فيه كثيرون أسرى الاستقطاب، حافظ على استقلاله المهني. لم يُخاصم السلطة ليُصفّق له جمهور، ولم يُهادنها ليضمن سلامة الطريق. اختار المسافة الأصعب: أن تبقى محترمًا أمام نفسك قبل الآخرين.

وجوه لا تغيب...

لأن بعض الرجال لم يمرّوا في المهنة مرور العابرين،

بل تركوا فيها أثر أقدامهم،

ثم مضوا دون أن يلتفتوا خلفهم.

ولأن بعض الصحفيين لم يكتبوا عن العالم من وراء الزجاج،

بل لمسوه بأيديهم،

واحتملوا برد الحروب وحرّ الأسئلة،

وعادوا بالكلمة نظيفة

كما خرجوا بها من ضمائرهم.

ولأن الإنسان، حين يسبق المهنة،

وحين تتقدّم الأخلاق على العنوان،

لا يحتاج إلى منصّةٍ تُعرّفه،

ولا إلى ضوءٍ يُنقذه من النسيان.

يبقى أثره حيًّا في الذاكرة،

وتبقى شهادته قائمة،

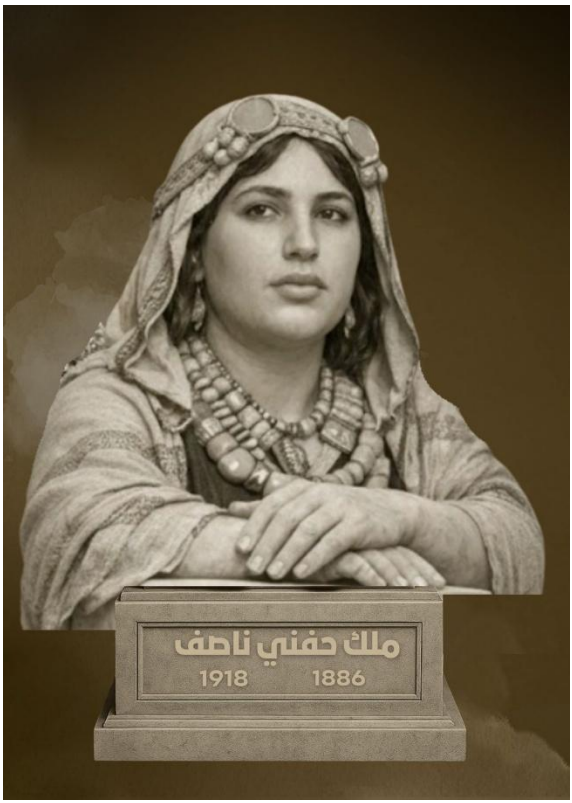
حتى لو غاب عن المشهد،

فإن الحقيقة التي عاش لها

تظلّ تمشي وحدها...

ولا تغيب.

وجوه لا تغيب ... ملك حفني ناصف...
الحكمة والبادية



لم تكن الكلمات عندها تركض، بل تمشي بثبات من يعرف أن الطريق طويل، وأن الفكرة إذا استعجلت كسرت صاحبها قبل أن تصل.

كانت تكتب كما تُمسك الكفّ الجرح: بحذر، وبوعيٍ أن الألم إن لم يُفهم قد يتحوّل إلى غضب أعمى. لم تكن ملك حفني ناصف امرأة صدام، لكنها لم تكن امرأة تراجع أيضًا، بل عقلًا يُدير الإصلاح بميزانٍ دقيق.

وُلدت ملك حفني ناصف عام ١٨٨٦ في القاهرة، في بيتٍ يعرف قيمة اللغة ويؤمن بالعلم.

كان والدها حفني ناصف شاعرًا ومربّيًا، فتح لابنته باب المعرفة مبكرًا، غير أن المعرفة نفسها لم تكن ضمانًا لحرية المرأة. تعلّمت منذ الصغر أن المجتمع قد يحتفي بتعليم المرأة، لكنه يتردّد طويلًا قبل أن يحتمل رأيها.

نشأت في زمن نهضة فكرية حذرة، حيث تُفتح المدارس وتُغلق العقول في آن.

كانت الصحف تُكتب، والصالونات تُقام، لكن المرأة ظلّت غالبًا موضوعًا للنقاش لا طرفًا فيه. في هذا الفراغ بين القول والفعل، تشكّل وعي ملك حفني ناصف، وبدأ سؤالها الكبير: كيف نُصلح دون أن نكسر، وكيف نغيّر دون أن نُقصي؟

دخلت مجال التعليم، فصارت من أوائل الفتيات اللاتي عملن معلمات.

رأت في المدرسة ساحة تغيير، لكنها اكتشفت سريعًا أن التعليم — إن لم يُصاحبه تغيير في الذهنيات — يعيد إنتاج القيد ذاته بصورة أكثر تهذيبًا. كانت ترى الفتيات يتعلّمن، ثم يُعاد إدخالهنّ إلى دائرة الطاعة والانتظار.

في عام ١٩٠٧، تزوّجت وانتقلت إلى الفيوم، وهناك اصطدمت بواقعٍ أشد قسوة مما كانت تتصوّر.

في الريف والبادية، رأت ملك حفني ناصف أوضاع النساء عارية من الزخرفة: زواج مبكر، حرمان من التعليم، صحة مهملة، وعادات تُدار باسم الدين وهي بعيدة عن روحه. كانت الصدمة موجعة، لكنها كانت كاشفة.

من هذه التجربة خرج اسم «باحثة البادية»، لا بوصفه لقبًا أدبيًا، بل موقفًا معرفيًا.

لم تكن ترى الإصلاح فكرة تُستورد جاهزة من المدينة إلى الريف، بل عملية تُصاغ من داخل الواقع، وباللغة التي يفهمها الناس. لذلك جاءت كتاباتها هادئة، عقلانية، بعيدة عن التحدّي الفجّ، لكنها شديدة العمق.

كتبت عن تعليم البنات بوصفه ضرورة أخلاقية واجتماعية، لا ترفًا حداثيًا.

كتبت عن الزواج باعتباره علاقة إنسانية تحتاج عدلًا ورحمة، لا عقدًا مقدسًا لا يُمسّ. وكتبت عن التقاليد بوصفها جزءًا من منظومة أوسع تحتاج إصلاحًا متدرّجًا، لا كسرًا فجائيًا يخلّف ضحايا أكثر مما يصنع منجزات.

شاركت في المؤتمر المصري الأول عام ١٩١١، وقدّمت رؤية إصلاحية شاملة لقضايا المرأة.

طالبت بتنظيم الطلاق، وتقييد تعدد الزوجات، وتحسين أوضاع التعليم والصحة، وربط حقوق المرأة بكرامتها الإنسانية. لم تُقدّم أفكارها بلغة صدامية، بل بلغة تستند إلى العقل والدين والمصلحة العامة معًا.

في حياتها الخاصة، عاشت ملك حفني ناصف تناقضًا مؤلمًا.

امرأة واعية، ناقدة، لكنها زوجة تعيش قيود مجتمعها. لم تُعلن تمرّدًا علنيًا، لكنها سجّلت أوجاعها في الكتابة. كانت تعرف أن الإصلاح الذي لا يراعي الواقع قد يتحوّل إلى قسوة جديدة، وأن الحكمة أحيانًا أن تُقال الفكرة في الوقت الذي يحتملها الناس.

اتُّهمت بالمحافظة حينًا، وبالجرأة الزائدة حينًا آخر.

لكنها كانت ترى نفسها في منطقة وسطى صعبة، منطقة تحاول أن تُنقذ الفكرة من التطرف، وأن تُنقذ المجتمع من الانقسام. لم تكن تريد أن تنتصر على مجتمعها، بل أن تُقنعه.

لم تعش ملك حفني ناصف طويلًا.

رحلت عام ١٩١٨ وهي في الثانية والثلاثين من عمرها، قبل أن ترى ثمار أفكارها، وقبل أن تكتمل معاركها. كان رحيلها المبكر خسارة لعقلٍ كان يمكن أن يضيف الكثير لو امتد به العمر.

ومع ذلك، تركت أثرًا يتجاوز السنوات.

تركت نموذجًا لامرأة فكّرت من داخل مجتمعها، لا من خارجه، وناقدت من موقع المحبة، لا من موقع القطيعة. تركت أسئلة لا تزال حيّة: كيف نُصلح دون أن نكسر؟ وكيف نغيّر دون أن نُقصي؟

ليست كل الثورات صاخبة، وليست كل الحكمة صمتًا.

بعض النساء يغيّرن مجرى التاريخ لأنهنّ عرفن متى يتكلمن، ومتى يصمتن، ومتى يتركن الفكرة تنضج قبل أن تُقال.

هكذا بقيت ملك حفني ناصف وجهًا لا يغيب، لا لأنها رفعت راية، بل لأنها حملت عقلًا موزونًا، وقلبًا حريصًا، وتركت للإصلاح أن يمشي على قدمين ثابتتين.

وجوه لا تغيب ... السيد البدوي

١. ✳السياسة على مهلٍ... لا تفقد إنسانيتها✳



هناك أسماءٍ صنعت المعنى قبل تصنع المكانة،

لا يأتي الامتداد التاريخي صدفة. فبعض الرجال لا يُذكرون لأنهم فقط تصدّروا المشهد،

بل لأنهم حافظوا على توازنه حين اختلّ، وعلى هدوئه حين علا الضجيج.

ففي لحظةٍ تتبدّل فيها اللغة السياسية، وتتحول فيها المفردات، الي ارقام وحسابات، وتحويلات وتمويل اشتراكات

يظهر من يذكّرك بأن السياسة يمكن أن تكون أقل صخبًا وأكثر إنسانية واخلاقية.

غليون سيجار الباشا، ليس سببا كافيا، للانتماء لهذه المدرسة

مدرسة فؤاد باشا، لم تكن محض دخان في هواء غرفة، بل أخلاقًا وقيما تملأ المكان.

رجالًا يعرفون قيمة الصمت بقدر ما يعرفون خطورة الكلمة والوعد.

من هذه المدرسة خرجت أسماء لم تتعامل مع السياسة بوصفها ساحة غلبة وسوق مال، بل مساحة مسؤولية. والدكتور السيد البدوي واحد من أبناء هذا المسار، لا بالوراثة، بل بالاختيار.

في زمنٍ تُقاس فيه السياسة بحدة المواقف، الناقدة المنافسين،

يظلّ هناك من يصرّ على قياسها بقربها من الناس الحقيقيين.

لا يتقدّم الصفوف ليُقدم نفسه للسلطة، ولا يتأخر ليُحسب عليه الغياب.

يمشي بينهم، يسمع أكثر مما يتكلم، ويعرف أن الثقة لا تُنتزع بالمال، ولا تصطنع بزيارة مكاتب المسؤولين بل تُبنى ببطء السنوات وتراكم الخبرات.

هذه السطور، ليست عن موقع، ولا عن لحظة عابرة،

بل عن طبعٍ إنساني بقي حاضرًا وسط تقلّبات السياسة.

عن رجلٍ لم يُخاصم المجتمع باسم الحداثة، ولم يُخاصم الدولة باسم التدين،

بل حاول أن يُمسك بالخيط الرفيع الذي يحفظ التوازن دون أن ينقطع.

عرفتُ السيد البدوي منذ ان كانت سكرتير عام الوفد في الغربية وكنت في ذات الوقت سكرتير عامل وفد في القاهرة

عرفت هذا الرجل الودود الخلوق المهذب بلا افتعال،

قبل أن أعرف عناوين الصراع التي أحاطت باسمه لاحقًا.

عرفته ودودًا بطبعه، عذبًا في فطرته، قريبًا من الناس بلا ادّعاء، حاضرًا بينهم دون حواجز.

يكبرني ببضع سنوات، لكنه من جيلي؛

جيلٍ تشكّل على قيم ليبرالية متصالحة مع المجتمع والدين،

ومنحازة بالفطرة للأكثر فقرًا والأقرب وجعًا.

في مدرسة الوفد التاريخية، لا تُقاس الرجولة بعدد الخطب،

بل بقدرة صاحبها على الإنصات.

والسيد البدوي من هؤلاء الذين يُجيدون الإصغاء أكثر مما يُجيدون ضجيج شراء الأصوات.

يعرف أن السياسة حين ترفع صوتها كثيرًا، تفقد معناها، وحين تخفضه لتسمع، تكسب قلوب الصادقين.

لم يكن دخوله الحياة العامة قفزةً على سلّم السلطة،

بل مسارًا تراكميًا، عرف فيه التنظيم والعمل العام وإدارة الخلاف دون كسره.

تعلّم من مدرسة فؤاد سراج الدين أن الوفد ليس حزبًا فقط، بل ذاكرة وطن،

وأن من يتحمّل مسؤوليته لا بد أن يحمل عبئه الأخلاقي قبل أن يحمل اسمه.

لم يرَ في الليبرالية خصومة مع الدين، ولا في التدين خصومة مع الدولة المدنية.

كان يؤمن—ولا يزال—بأن المجتمع المصري لا يُدار بالاستقطاب، بل بالتوازن؛

توازن يحفظ للناس إيمانهم، ويصون للدولة قانونها،

ويمنح الفقراء انحيازًا حقيقيًا لا شعارًا.

في لحظات الشدة داخل الوفد، كان حضوره مهدّئًا لا مؤجِّجًا.

لا يتغذّى على الخلاف، ولا يصنع لنفسه مجدًا من انقسام الآخرين. كما فعل بعض السابقين.

يعرف أن الأحزاب تموت حين تتحوّل إلى ساحات تصفية،

وتعيش حين تبقى بيوتًا للاختلاف المحترم.

وحين ابتعدت السياسة عن الوفديين، لم يبتعد هو عنهم.

ظلّ قريبًا من القاعدة، حاضرًا في التفاصيل الصغيرة التي تصنع الثقة.

لا يهوى الكاميرات، ولا يتقن المناورات والمؤامرات، لكنه يتقن ما هو أصعب وهو:

أن يبقى إنسانًا، لحما ودما، وسط محيط من البلاستيك الملون.

لم يكن من الذين يبدّلون ملامحهم كلما تبدّل المشهد.

في زمنٍ أغرى كثيرين بالتخلّي عن أنفسهم، ظلّ متمسكًا بطبعه.

وربما كان هذا هو الامتحان الأصعب في السياسة: أن تبقى كما أنت،

لا كما يريدك المنصب.

السياسة، كما تعلّمناها في تلك المدرسة القديمة، ليست سباقًا ماليا، بل مسؤولية أخلاقية.

ليست صراعًا دائمًا، بل قدرة على إدارة التناقض دون كسره.

والسيد البدوي من القلّة التي فهمت هذا المعنى.

في حضوره، لا تجد خطابة زائدة، ولا حكمه مصطنعة.

تجد هدوءًا يُشبه الطمأنينة، ونبرة تعرف أن الكلمات الصادقة لا تحتاج إلى صوتٍ عالٍ.

وحين تشتدّ اللحظة، لا يختفي. وحين تهدأ، لا يدّعي البطولة.

يمشي بخطى ثابتة، يعرف أن السياسة التي تفقد إنسانيتها

تفقد سبب وجودها.

هذه ليست شهادة تزكية، ولا موقف لحظة،

بل قراءة في مسار رجلٍ حاول أن يحافظ على التوازن في زمنٍ اختلّت فيه الموازين،

وأن يبقى قريبًا من الناس دون أن يتاجر بقربه منهم.

وجوه لا تغيب...

لأن بعض الوجوه لا تُخلَّد بصخب المال، بل بالثبات.

ولا تُذكر لأنها صرخت،

بل لأنها (بقيت) وفقا لرؤية

زميلنا أحمد سميح ،

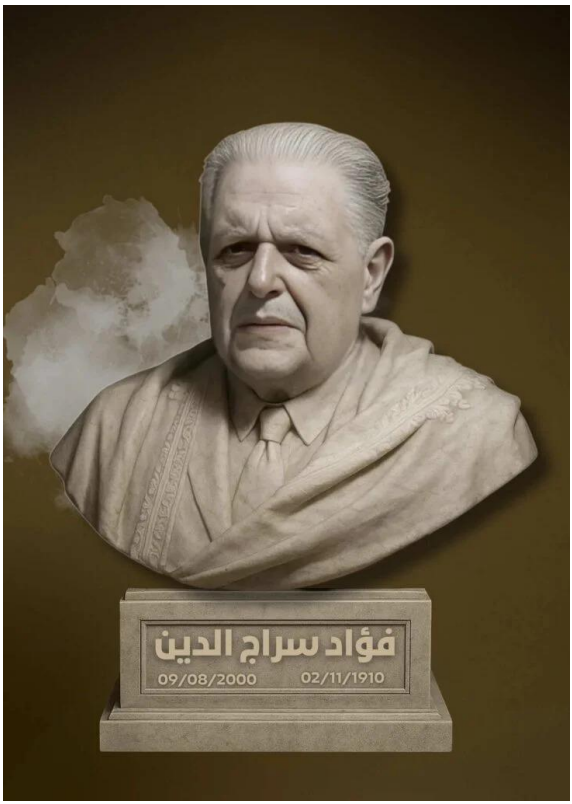
في فلسفة البقاء

حين يكون (البقاء)

غير ممكنا.



وجوه لا تغيب ... فؤاد سراج الدين



كل يوم أدخل فيه إلى متحف «وجوه لا تغيب» في جمعية الشرق للثقافة، أُلقي على تمثاله الذي يتصدر المتحف تحية حب واحترام وامتنانًا لما تعلّمته من هذا الرجل العظيم.

وفي كل ٢٥ يناير، يعود السؤال قديمًا وجارحًا: كيف نحتفل بعيدٍ صُنع بضمير رجل، ثم نمضي كأن اسمه لم يكن؟ كيف نرفع

الشعارات، وننسى من أعاد للشرطة معناها الوطني، وربطها بالكرامة لا بالخوف، وبالوطن لا بالسلطة؟ في ذكرى عيد الشرطة، لا أجد مدخلًا أصدق من استدعاء دولة الأخلاق، كما جسّدها فؤاد باشا سراج الدين.

لا تُبنى الدول بالقوانين وحدها، ولا تحفظها الهتافات. ما يصنع بقاءها حقًّا هو ضميرٌ يقف في اللحظة الصعبة، ويختار الكرامة حين يكون ثمنها السجن، ويختار الصمت النبيل حين يكون الكلام تجارة. في تاريخ مصر، قلّة من الرجال جسّدوا هذا المعنى كما جسّده فؤاد سراج الدين.

لم يكن سياسيًّا عابرًا في زمنٍ صاخب، ولا موظفًا كبيرًا في دولةٍ مرتبكة، بل كان فكرةً تمشي على قدمين. فكرة ترى السلطة أمانة، وترى الأمن عقدًا أخلاقيًّا بين الدولة والمجتمع، لا عصًا تُرفع فوق الرؤوس.

دخل الحياة العامة مبكرًا، لا بدافع الطموح الشخصي، بل بإحساسٍ داخلي بأن السياسة مسؤولية قبل أن تكون موقعًا. في الوفد رأى بيت الأمة، لا سلّم الترقي. وحين اشتد الصراع، لم يبدّل جلده، ولم يتلوّن بحسب الريح.

عرف معنى الخلاف، لكنه لم يعرف الخيانة. كان قادرًا على الاختلاف دون أن يحرق الجسور، وعلى المواجهة دون أن يُفلس أخلاقيًّا. ظلّ وفيًّا لفكرة الدولة المدنية الدستورية حتى حين صار هذا الوفاء مكلفًا.

حين تولّى وزارة الداخلية، كان ذلك في واحدة من أدق مراحل التاريخ المصري. لم يتعامل مع الوزارة بوصفها غرفة عمليات ضد

الخصوم، بل بوصفها ضمانةً للناس. آمن أن الأمن الذي لا تحميه العدالة يتحوّل سريعًا إلى عبء على الوطن.

رفض أن تكون الشرطة أداة قمع، وأصرّ أن تكون درعًا للوطن في مواجهة الاحتلال. لم يُغره توسيع الصلاحيات، ولم يُغوِه منطق «اليد الغليظة». كان يعرف أن القوة التي لا يضبطها القانون ترتدّ على صاحبها.

واجه القصر حين لزم الأمر، وواجه الاحتلال حين وجب، وواجه رفاق الطريق حين انحرفوا. لم يكن صداميًّا بطبعه، لكنه لم يكن مساومًا. يعرف متى يصمت، ومتى يتكلم، ومتى يدفع الثمن كاملًا دون ضجيج.

وحين جاءت لحظة الاعتقال والمصادرة، لم يتعامل معها بوصفها نهاية، بل اختبارًا. خرج من السجن أكثر ثباتًا، وأقل ضغينة. لم يُشهر جراحه، ولم يحوّل ألمه إلى خطاب انتقام. كان يرى أن الدولة التي تُسجن أبناءها ستحتاج يومًا لمن يعفو عنها.

في علاقته بالناس، لم يكن نخبويًّا ولا متعاليًا. كان قريبًا من البسطاء، مفهومًا لديهم بلا ادّعاء. لم يتاجر بالشعبوية، ولم يخف من الشعبية. تركها تأتي إن جاءت، وتذهب إن ذهبت.

ظلّ حضوره ممتدًّا حتى حين غاب عن المواقع. بعض الرجال يُقصَون من المشهد، لكنهم لا يُقصَون من المعنى. يظلّون مرجعًا أخلاقيًّا، يُستدعى حين تختلط البوصلة.

لم يكن فؤاد باشا رجل لحظة، بل رجل مسار. عاش طويلًا، لكنه عاش أوضح. لم تُغره الألقاب، ولم تُغره الصفقات، ولم تُغره لحظة

الانتصار السريع. كان يعرف أن ما يبقى ليس ما نأخذه من الدولة، بل ما نتركه فيها.

وهنا أصل إلى ما هو أبعد من السياسة. علاقتي بفؤاد باشا سراج الدين لم تكن علاقة تلميذ بأستاذ عابر، ولا سياسيًّا بزعيم تاريخي، بل علاقة ابنٍ بأبٍ روحي. عشتُ إلى جواره ما يقرب من عقدين من العمر، دخلتُ خلالها مدرسة سياسية وأخلاقية لم أجد لها نظيرًا في كتب السياسة، ولا في قاعات البرلمان، ولا في سنوات الصحافة.

كان أبًا حنونًا قبل أن يكون زعيمًا، ومدرسةً رفيعة المستوى قبل أن يكون رمزًا. تعلّمت منه أن السياسة أخلاق قبل أن تكون حسابات، وأن الكرامة لا تُجزّأ، وأن الخصومة لا تُبرّر الكذب، وأن السلطة اختبار يومي للضمير.

تعلّمت منه أكثر مما تعلّمت من كل سنوات النيابة والبرلمان والصحافة مجتمعة. تعلّمت كيف يقول الرجل «لا» دون أن يصرخ، وكيف يدفع الثمن دون أن يتسوّل التعاطف، وكيف يترك أثره دون أن يطالب باعتراف.

كان يؤمن أن الدولة التي تُدار بلا أخلاق، تُدار ضد نفسها. وأن الحرية لا تُختزل في الشعارات، بل تُقاس بكيفية استخدام السلطة لأدواتها، وفي مقدمتها الشرطة.

في ٢٥ يناير، ذكرى عيد الشرطة، تتجدّد المفارقة المؤلمة. عيدٌ صنعه فؤاد سراج الدين بضميره، حين أعاد للشرطة معناها الوطني، ثم مرّت السنوات وكأن اسمه لم يكن.

في هذا اليوم تحديدًا، لا أجد تحية أصدق من أن تُوجَّه إلى الرجل الذي ربط الشرطة والوطن برباط الشرف. ورفض أن تكون الأولى

عصًا في يد السلطة، وأصرّ أن تكون حارسًا للناس في مواجهة الاحتلال.

تجاهلت الاحتفالات اسمه، وتجاوزت سيرته، وكأن الذاكرة الرسمية قررت أن تفصل العيد عن صانعه. لكن التاريخ لا ينسى، وإن صمتت المنصّات.

تحية للرجل في عيدٍ صنعه بضميره، ولم يُكرَّم فيه كما يليق بمن جعل الشرطة يومًا عنوانًا للكرامة لا للخوف.

تحية لمن علّمنا أن تقبيل الأيادي ليس دليل الإخلاص. وأن الانحناء لا يصنع وطنًا، وأن الرأس المرفوع — حتى وهو يتعثّر — أصدق من ألف انحناءة متقنة.

وجوه لا تغيب...

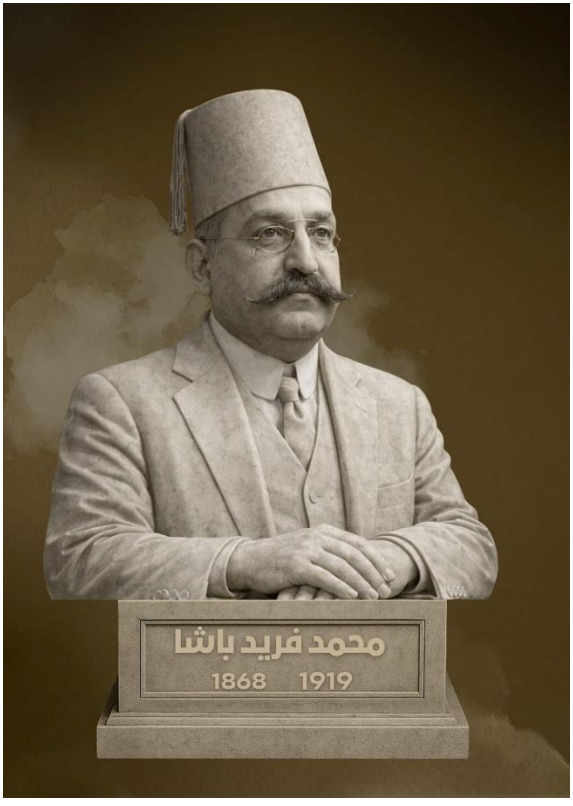
لأن الدولة، حين تفقد أخلاقها، تبحث طويلًا عمّن يُعيدها.

وحين تجده، يكون قد دفع الثمن مسبقًا.



وجوه لا تغيب ... محمد فريد

وفاء تاجر أنقذ كرامة مصر



◆ في ذكراه أهدي هذه السطور

لرجلٍ، عاش فريدًا في اختياره،

ومات وحيدًا لأن الوطن لم يحتمل نفقات نقل جثمانه الطاهر

حتى تكفل بالأمر خليل عفيفي التاجر الشرقاوي البسيط الذي باع كل ممتلكاته وسافر الى برلين ليحضر جثمان الزعيم وهكذا تاجر بسيط أنقذ كرامة مصر.

◆ لا تكون الذكرى احتفالًا دائمًا، أحيانًا تكون محاكمةً صامتة للزمن. في سيرة محمد فريد لا نبحث عن بطولةٍ تقليدية، بل عن ثمنٍ دُفع كاملًا، وعن وطنٍ أحبه رجل حتى آخر نَفَسه، ثم تركه يموت بعيدًا عنه.

◆ وُلد محمد فريد في القاهرة يوم ٢٠ يناير ١٨٦٨، في بيتٍ يملك المال والنفوذ، لكنه اختار منذ البداية أن ينفق الاثنين معًا في معركةٍ واحدة: الاستقلال. كان يدرك أن خلاص مصر آنذاك يتلخص في مطلبين لا ثالث لهما: الجلاء والدستور، وأن أي التفاف حولهما ليس إلا تأجيلًا للهزيمة.

◆ لم يكن رجل خطابةٍ فقط، ولا زعيم مناسبات. كان صاحب مشروعٍ طويل النفس، رأى أن تحرير الأرض يبدأ بتحرير العقل. لذلك جعل من التعليم سلاحه الأول، فأنشأ مدارس ليلية في الأحياء الشعبية، لتعليم الفقراء وكبار السن الأميين مجانًا، واستقدم للتدريس رفاقه من رجال الحزب الوطني، ومحامين وأطباء آمنوا بأن الوعي أخطر على الاحتلال من الرصاص.

◆ انتشرت تلك المدارس من القاهرة إلى الأقاليم، وراكمت وعيًا سيظهر أثره لاحقًا في ثورة ١٩١٩، وما تلاها من تحولات. لم يكن فريد ينتظر لحظة الانفجار، بل كان يصنع شروطها بهدوء.

◆ لم يتوقف عند التعليم. كان أول من وضع لبنة الحركة النقابية في مصر، فأسس أول نقابة للعمال عام ١٩٠٩، وعلّم المصريين أن الغضب إن لم يُنظم، يضيع، وأن النضال بلا بنية لا يصمد.

◆ ومع التنظيم، صاغ تصورًا مكتوبًا لشكل الدستور الذي يحلم به المصريون، دستور يُفرض على الاحتلال بإرادة الشعب، لا منحة تُلقى من أعلى. هكذا أصبح شوكةً في حلق الاحتلال الإنجليزي، وصداعًا دائمًا للحكم العثماني في مصر، الذي رآه شريكًا في إدامة الخضوع.

◆ لم يكن محمد فريد رجل الداخل وحده، بل أدرك مبكرًا قيمة النضال من الخارج. خرج إلى أوروبا لا منفيًا، بل مناضلًا اختار أن يجعل من العواصم الأجنبية ساحات مواجهة. كتب وخطب ونظم المؤتمرات، وسعى لوضع القضية المصرية على طاولة العالم.

◆ في باريس، أنفق من ماله الخاص ليُعدّ مؤتمرًا دوليًا للمسألة المصرية، ودعا كبار معارضي الاستعمار من سياسيين ونواب وزعماء. لم يكن وراءه جهاز دولة، كان هو الدولة، يحملها في حقيبة، ويعرضها على ضمير العالم.

◆ ومع اتساع النشاط، بدأت الضائقة المالية تخنقه. أنفق ثروته كاملة، وباع ممتلكاته قطعةً قطعة، حتى صار فقيرًا بالمعنى الحرفي للكلمة. لم يكن الفقر طارئًا عليه، بل ثمنًا دفعه كاملًا دون شكوى.

◆ حين كتب مقدمة ديوان «أثر الشعر في تربية الأمم»، لم يكتب أدبًا، بل بيانًا سياسيًا. فضح استبداد حكومة الفرد، وكيف قتلت الشعر الحماسي، وأفرغت خطب المساجد من معناها، وحوّلت الزهد إلى كسل والعمل إلى انتظار. كانت الكلمات أقوى من أن تُحتمل.

◆ حُوكم بسبب تلك المقدمة. نصحه محبوه بعدم العودة إلى مصر، فالسجن ينتظره. لكنه تلقّى رسالة من ابنته فريدة، رسالة اختصرت معنى الوطنية في سطر واحد:

»لنفرض أنهم يحكمون عليك كما حكموا على الشيخ عبد العزيز جاويش، فذلك أشرف من أن يُقال إنكم هربتم.«

◆ عاد. حُكم عليه بالسجن ستة أشهر، قضاها كاملة، وخرج كما دخل: أكثر صلابة، أقل خوفًا. واصل المطالبة بالجلاء والدستور، حتى قررت الحكومة الموالية للاحتلال التخلص منه نهائيًا.

◆ عاد المنفى، لكن هذه المرة بلا مال، وبلا رفاق، وبلا سند. عاش أيامه الأخيرة في برلين وحيدًا، مريضًا، فقيرًا، بعيدًا عن تراب مصر الذي أحبه ولم يُبادله الحب. وتوفي في عام ١٩١٩، في عام الثورة التي مهّد لها، ولم يشهدها.

◆ حتى موته كان قاسيًا. لم تجد أسرته مالًا كافيًا لنقل جثمانه إلى مصر. هنا ظهر وجه آخر من وجوه الوفاء: التاجر خليل عفيفي من الزقازيق، باع ما يملك، وسافر إلى برلين، وأعاد جثمان محمد فريد ليدفن في أرض الوطن. وفاء فردي أنقذ كرامة أمة.

◆ يقف تمثال فريد اليوم في عابدين، تطل عليه الشمس كل صباح، كأنها تعتذر متأخرة. تمثال لرجل أحب وطنه حتى الموت، ولم يحصد سوى الأشواك، لكنه ترك لنا درسًا لا يصدأ.

◆ وجوه لا تغيب...

لأن بعض الرجال لا يموتون في المنفى،

بل يموت المنفى فيهم،

ويبقى الوطن مدينًا لهم،

ولو طال الصمت.

وجوه لا تغيب .. مصطفى كامل٢

☀️ النضال من وراء الحدود ☀️



🔸 لم يكن المنفى دائمًا قسرًا، ولم يكن البُعد دائمًا هروبًا. أحيانًا يكون الابتعاد اختيارًا واعيًا، ورهانًا محسوبًا، وسلاحًا أكثر مضاءً من البقاء في قلب العاصفة. هكذا فهم مصطفى كامل معادلة النضال،

فاختار أن يجعل من الخارج ساحة مواجهة، ومن المسافة جسرًا يصل الداخل بالعالم، لا قطيعة تفصله عنه.

◆ لم يُنفَ مصطفى كامل عن مصر، لكنه خرج منها وهو يعرف لماذا يخرج، وإلى أين يتجه، ومتى يعود. أدرك أن الاحتلال لا يُواجَه بالسلاح وحده، ولا بالهتاف فقط، بل بكشف صورته أمام الرأي العام العالمي، وبنقل وجع الداخل إلى ضمير الخارج. كان يرى أن الكلمة حين تعبر الحدود، تُربك الإمبراطوريات أكثر مما تفعل البنادق.

◆ وُلد مصطفى كامل في ١٤ أغسطس ١٨٧٤، في زمنٍ كانت فيه مصر تتعلّم القهر على يد الاحتلال، وتتعلّم في الوقت نفسه كيف تقول «لا». منذ شبابه المبكر، بدا واضحًا أن الرجل لا يرضى بدور الشاهد، ولا يكتفي بالوقوف في الصف، بل يبحث عن الموقع الذي يؤلم خصمه أكثر ويخدم قضيته أصدق.

◆ خرج إلى أوروبا شابًا، لا سائحًا ولا طالب وجاهة، بل حامل قضية. في باريس ولندن، كتب وخطب، ونسج علاقات، وتعلّم كيف تُدار المعارك الكبرى خارج ميادين القتال. الصحافة الأجنبية كانت منبره، والرأي العام الغربي كان هدفه، وسمعة الاحتلال كانت ساحة الاشتباك.

◆ لم يكن الخارج عنده بديلًا عن الداخل، بل امتدادًا له. كان يعرف تفاصيل القرى كما يعرف عناوين الصحف الأوروبية. يكتب عن مصر بلغات العالم، لكنه يسمع نبضها من الفلاحين والطلبة والعمال. مزج بين بحر الداخل ونهر الخارج في مزيج وطني نادر، لا يطغى فيه أحدهما على الآخر.

◆ في هذا السياق، جاءت دنشواي لتكشف جوهر هذا الخيار. في ١٣ يونيو ١٩٠٦، تحوّلت قرية هادئة في المنوفية إلى مسرحٍ لمأساة كاملة: موسم حصاد، ضباط إنجليز يصطادون الحمام، رصاصة تصيب امرأة وتُشعل نار الجرن، غضبٌ يتصاعد، وفوضى يولد منها الدم.

◆ تصاعدت الأحداث سريعًا. ضابط إنجليزي يفرّ عدْوًا، يسقط متأثرًا بضربة شمس، وفلاح أعزل يُقتل وهو يقدّم الماء لضابطٍ ساقط. مشهدان متقابلان، لكن العدالة حين دخلت على الخط رأت بعين واحدة.

◆ أُنشئت محكمة مخصوصة، وصدر الحكم في ٢٧ يونيو ١٩٠٦: إعدامات، أشغال شاقة، سجون طويلة، وجلد علني. وفي ٢٨ يونيو ١٩٠٦ نُفّذت الأحكام بطريقة أرادت أن تكون درسًا في الإذلال قبل أن تكون عقابًا: مشانق منصوبة، سياط مرفوعة، نساء يصرخن، وأجساد تُجلد تحت شمس القرية. أراد الاحتلال أن يُغلق الملف بالرعب.

◆ كان مصطفى كامل بعيدًا عن المكان، لكنه لم يكن بعيدًا عن الحدث. من الخارج، كتب وخاطب الصحافة الأوروبية، موجّهًا خطابه إلى الضمير العالمي. لم يطلب شفقة، ولم يلتمس عطفًا، بل فضح الجريمة وسمّاها باسمها، ووضع الاحتلال أمام مرآة أخلاقية قاسية.

◆ خرجت دنشواي من حدود القرية إلى عواصم القرار. تردّد صداها في الصحافة الأوروبية، ودخلت قاعات البرلمان البريطاني. من الخارج، صنع مصطفى كامل ما لم يكن ممكنًا من الداخل وحده: تحويل المأساة المحلية إلى قضية دولية.

◆ لم يكتفِ بالضغط الخارجي. عاد ليربط الخارج بالداخل. دعا المصريين إلى تقديم العرائض إلى الخديو عباس حلمي الثاني للمطالبة بالعفو عن المسجونين، لا نسيانًا للدم، بل اعترافًا بأن العقوبة تجاوزت حدود العدالة.

◆ استجاب الناس. كُتبت ١٤٨ عريضة، حملت توقيع ١٢٦٧٠ مصريًا. رقم لم يكن تفصيلًا إداريًا، بل إعلانًا عن تحوّل الوعي الشعبي إلى فعل منظم. الداخل تحرّك، والخارج ظلّ يراقب ويضغط.

◆ ارتدّ الصدى مرة أخرى إلى لندن. طالب نواب أحرار بالإفراج عن المسجونين، وأُقيل المندوب السامي البريطاني في إبريل ١٩٠٧. لم يكن ذلك انتصارًا كاملًا، لكنه كان شرخًا واضحًا في جدار الغطرسة.

◆ تقرّر تنفيذ العفو يوم ٨ يناير ١٩٠٨، عيد جلوس الخديوي، لكن خشية المظاهرات دفعت إلى الإفراج عن المسجونين في ٧ يناير ١٩٠٨. خرج تسعة فلاحين من السجون المختلفة—من الدلتا، وأبو زعبل، وليمان طرة—لا بوصفهم منتصرين، بل شهودًا على أن الضغط حين يُحسن توجيهه يُجدي.

◆ كان مصطفى كامل قد أمضى فترات غير قصيرة في الأستانة، مستثمرًا علاقاته الطيبة في الدولة العثمانية آنذاك، وموقعها السياسي، ليحمي القضية المصرية من العزلة الدولية. لم يكن ولاؤه للخلافة هروبًا من الوطنية، بل قراءة دقيقة لميزان القوى في لحظة تاريخية محددة.

◆ هكذا صار نضاله شبكةً لا خطًا مستقيمًا: مقال في باريس، خطاب في لندن، عريضة في القاهرة، حديث في الأستانة، وصدى

في عواصم أوروبا. لم يفصل بين الداخل والخارج، بل جعلهما يتغذيان من بعضهما، ويصنعان ضغطًا مركّبًا على الاحتلال.

◆ لم يعش مصطفى كامل طويلًا. توفي في ١٠ فبراير ١٩٠٨، بعد أسابيع قليلة من الإفراج عن مسجوني دنشواي، كأن جسده انتظر اكتمال الدائرة ثم انصرف. لم يرَ الاستقلال، لكنه رأى الطريق إليه وقد اتّسع.

◆ لم يكن زعيم منفى، ولا خطيب سفر. كان رجلًا أدرك أن الوطن أحيانًا يُناضَل له من وراء الحدود أكثر مما يُناضَل له من القرب، وأن الصوت إذا وصل إلى العالم عاد أقوى إلى الداخل.

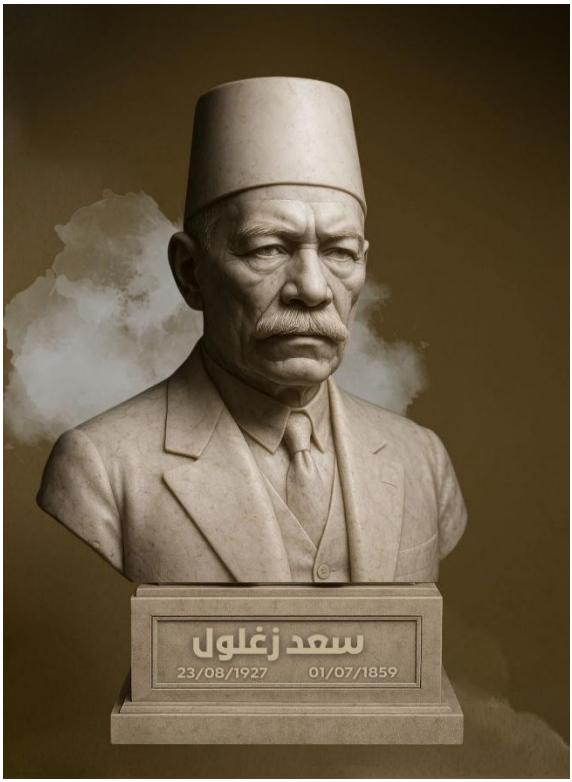
◆ وجوه لا تغيب...

لأن بعض الرجال لا يبتعدون عن أوطانهم حين يخرجون منها، بل يحملونها معهم، ويعيدونها إلينا أوضح، أعلى، وأقرب.



وجوه لا تغيب – سعد زغلول

☀️ ٢٨يناير وأزمات الحكومة الجديدة ☀️



🔸 لم يبدأ المشهد من قاعة البرلمان،

بل من الشارع. من أصواتٍ ما زالت ساخنة بنداءات الثورة، ومن وجوهٍ عادت لتوّها من المنافي والسجون وتحمل على ملامحها غبار الطريق.

◆ في صباح الثامن والعشرين من يناير ١٩٢٤، كانت مصر تجرّب للمرة الأولى أن ترى نفسها في المرآة: حكومة تشبه الناس، لا تُشبه القصر.

◆ بعد نجاح الثورة وعودة الزعيم من المنفى، وبعد اكتساحٍ برلماني لم تعرفه البلاد من قبل

قرر سعد زغلول أن يكسر التقليد الأثقل: ألا تكون الحكومة حكرًا على البشوات وحدهم. أرادها حكومة أفندية وبكوات، وجوهًا خرجت من المدارس والمكاتب، لا من صالونات الألقاب. سمّاها سعد ببساطة: وزارة الشعب.

◆ جاء التكليف الملكي في ذلك اليوم، ٢٨يناير وتشكّلت الوزارة على نحو غير مسبوق. ليتصدّرها الأفندية والبكوات قبل أن يأتي ذكر البشوات:

}مصطفى النحاس بك وزيرًا للمواصلات،

مرقص حنا بك وزيرًا للأشغال العمومية،

واصف بطرس غالي أفندي وزيرًا للخارجية،

محمد نجيب الغرابلي أفندي وزيرًا للحقانية{

ثم جاءت الأسماء التي اعتادت القصور سماعها: محمد سعيد باشا للمعارف، توفيق نسيم باشا للمالية، أحمد مظلوم باشا للأوقاف، محمد فتح الله بركات باشا للزراعة، حسن حسيب باشا للحربية والبحرية. وعلى رأس الجميع، سعد باشا رئيسًا للوزارة ووزيرًا للداخلية.

◆ كان ترتيب الأسماء رسالة قبل أن يكون إجراءً. لأول مرة، يتقدّم الأفندي والبك على الباشا، وتدخل الطبقة الوسطى قلب الحكم

لا بوصفها زينة، بل بوصفها شريكًا. حكومة تُربك البروتوكول لأنها تشبه الشارع.

◆ في يوم افتتاح البرلمان، انفجرت ثلاث أزمات، بدت في ظاهرها تفاصيل صغيرة، لكنها في جوهرها كانت صدامًا بين زمنين.

◆ الأزمة الأولى جاءت من عالم الزوجات. اشترطت الملكة نازلي أن ترتدي زوجات الوزراء «اليشمك». شرطٌ بروتوكولي في لغة القصر، لكنه بدا غريبًا على بنات الشعب اللواتي لم يعرفن هذا الزي يومًا. بعضهن تعلّمن، وبعضهن تردّدن، لكن زوجة فتح الله بركات باشا قالت كلمتها الواضحة: «أنا فلاحة... عشت فلاحة وأموت فلاحة»، وفضّلت الغياب على التنكّر.

◆ الأزمة الثانية كانت داخل صفوف الوزراء. «التشريفة الكبرى» بدلتها السوداء وسيوفها النحاسية وأوسمتها الثقيلة أربكت القادمين الجدد. وشاح بالمقلوب، سيف على الجهة الخطأ، وسام في غير موضعه. مشهد كاد أن يتحول إلى سخرية، لولا أن أنقذه الوزراء القدامى بتعديلات سريعة خلف الأبواب المغلقة.

◆ أما الأزمة الثالثة، فكانت الأخطر، لأنها لم تمسّ الملبس، بل الكرامة. لاحظ الملك أن بعض الوزراء قبلوا يده، بينما اكتفى الوزراء الوفديون بالانحناء والمصافحة. تجهم وجه القصر، واعتقد الملك أن وراء ذلك توجيهًا مقصودًا من سعد.

◆ استُدعي أحد الوزراء، ونُقل الغضب، وقيل إن رؤساء الحكومات ووزراء مصر كانوا يقبلون يد الملك منذ جلوسه على العرش، وأن من رُقّوا من أفندية وبكوات إلى باشوات لا يليق بهم «قلّة الأدب». كان المنطق قديمًا، واللغة أقدم.

◆ جاء ردّ سعد هادئًا، حاسمًا، ومفتوحًا على التاريخ. قال إنه لم يصدر تعليمات بعدم تقبيل يد الملك، وإنه شخصيًا لم يفعل ذلك لا في عهد الخديوي عباس ولا في عهد السلطان حسين كامل. الكرامة، في نظره، لا تُفرض، ولا تُشترى بالألقاب.

◆ ثم ألقى بالجملة التي تجاوزت اللحظة إلى المعنى: إذا كان الملك يرى أن الألقاب ثمن للطاعة، فلا مانع من تجريد الوزراء منها، بل هو مستعد لاقتراح تقليد دستوري يجعل الوزراء بلا ألقاب ما داموا أعضاء في البرلمان.

◆ وختم حديثه بما صار خلاصة مرحلة كاملة: تقبيل الأيادي ليس دليل الإخلاص.

◆ لم تعمّر حكومة الشعب طويلًا، لكن أثرها كان أعمق من عمرها. لأنها لم تدخل الحكم فقط، بل دخلت التاريخ بوصفها أول محاولة حقيقية لكسر احتكار البشوات، وإدخال الناس إلى قلب الدولة.

◆ كانت حكومة أخطأت في التشريفة، وتعثّرت في البروتوكول، لكنها أصابت جوهر الفكرة: أن الاحترام لا يُقاس بمدى الانحناء، وأن الإخلاص لا يُختبر عند الأبواب، بل في المواقف.

◆ وجوه لا تغيب...

لأن بعض الحكومات، وإن رحلت سريعًا، تترك وراءها ميزانًا جديدًا.

ولأن الرأس المرفوع، حتى وهو يتعثّر، أصدق من ألف انحناءة متقنة.

✳وجوه نسائية لا تغيب...
روز اليوسف... قرن من الإزعاج✳



كان الضوء يعرفها قبل أن تعرفه. تقف على الخشبة فتتعلم، دون أن تدري، كيف تُواجه جمهورًا لا يرحم، وكيف تُصدّق الكلمة قبل أن تُقال. في تلك المسافة بين الستار والجمهور، تشكّل وعيها الأول: أن

الحقيقة إن لم تُؤدَّ بإخلاص انكشفت، وأن الجرأة لا تعني الصراخ بل القدرة على الوقوف ثابتة حين تتبدّل الوجوه.

وُلدت روز اليوسف عام ١٨٩٨ في طرابلس الشام، وجاءت إلى القاهرة طفلة تحمل يتمًا مبكرًا، ويقينًا مبكرًا بأن الاعتماد على النفس ليس خيارًا. القاهرة لم تكن مدينة رحيمة، لكنها كانت مدينة الفرص لمن يعرف كيف يقتحمها. اقتحمتها روز أولًا بالفن، لا بالسياسة.

في المسرح تعلّمت أن الكلمة إذا لم تُصدَّق سقطت، وأن الجمهور يرى ما وراء الأداء. لعبت أدوارًا كثيرة، ونجحت، وصار اسمها مألوفًا. غير أن الخشبة — مهما اتسعت — بدأت تضيق. الرقابة كانت تُبدّل النصوص، والسياسة كانت تتسلّل إلى كل حوار. فهمت روز أن المعركة ليست في التمثيل، بل في من يكتب النص، ومن يملك حق نشره.

حين تركت المسرح واتجهت إلى الصحافة، بدا القرار جنونيًا في نظر كثيرين. ممثلة ناجحة تتخلى عن الأضواء لتدخل دهاليز الحبر والورق؟ لكنها كانت تعرف أن الضوء الحقيقي ليس دائمًا أمام الكاميرا، وأن السلطة تُدار في الكواليس أكثر مما تُدار على الخشبة.

أسست مجلتها «روز اليوسف» عام ١٩٢٥، ولم تختبئ خلف اسم مستعار. وضعت اسمها في الواجهة، كأنها تُعلن تحمّل المسؤولية كاملة. منذ العدد الأول، كانت المجلة مختلفة: سخرية لاذعة، كاريكاتير ذكي، ومقالات قصيرة تضرب الهدف دون مواربة. لم تكن ترفع شعارًا، لكنها كانت تُربك.

السخرية كانت سلاحها الأثير. لم تؤمن بالخطب الثقيلة، بل بالضحكة التي تكشف التناقض. كانت تعرف أن الضحك — حين

يكون واعيًا — يهزّ الهيبة أكثر مما يفعل الغضب. ولهذا لم ترتح لها السلطة، ولا اطمأن إليها القصر، ولا غفرت لها الجرأة.

تعرّضت المجلة للمصادرة مرارًا، وأُغلقت أكثر من مرة. وفي كل مرة كانت تعود، باسمٍ جديد أو بروحٍ أشد عنادًا. لم تكن ترى في الإغلاق هزيمة، بل اعترافًا غير معلن بفعالية ما تفعل. كانت تعرف أن الكلمة التي لا تُزعج لا تُغيّر.

في حياتها الخاصة، لم تكن روز أقل صدامًا. تزوّجت من زكي طليمات، وكانت العلاقة بين شخصيتين قويتين لا بد أن تشهد توترًا. لم تستمر الزيجة، لكن التجربة تركت أثرها: فهمت روز أن الاستقلال ليس ترفًا، وأن المرأة التي تُدير مشروعًا عامًا لا يمكن أن تُدار في الخاص بسهولة.

أنجبت إحسان عبد القدوس، وربّته في بيتٍ لا يعرف الصمت. بيتٌ تمتلئ جدرانه بالصحف، والنقاشات، والأسئلة. لم تُلقنه أفكارها، لكنها علّمته أن السؤال حق، وأن الكلمة مسؤولية. كان هذا الإرث هو أثمن ما تركته له.

سياسيًا، لم تنتمِ روز إلى حزبٍ بالمعنى التنظيمي الضيق، لكنها انحازت إلى فكرة الوطن الحر. اصطدمت بالقصر، وانتقدت الحكومات، وساندت الحركة الوطنية حينًا، واختلفت معها حينًا آخر. لم تكن ولاءاتها عمياء؛ كانت ترى أن الصحافة لا تُبايع، بل تراقب.

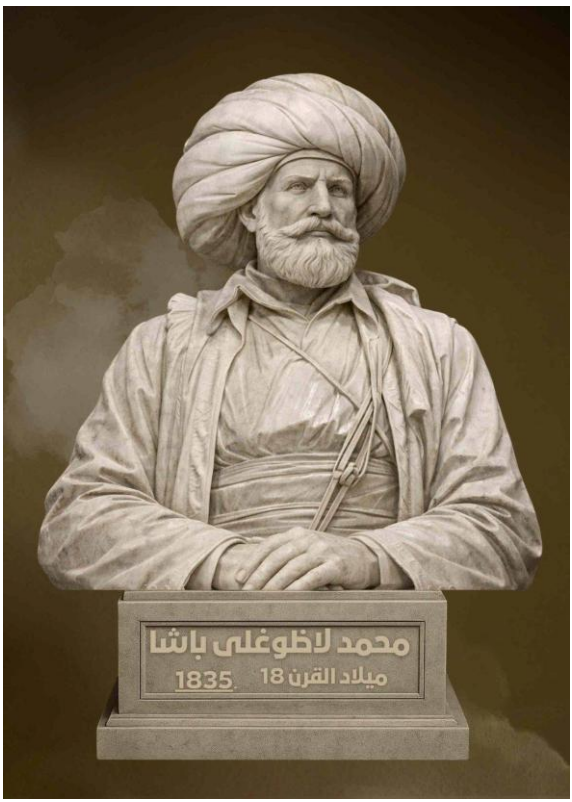
مع تقدّم العمر، زاد التعب، لكن المجلة بقيت مدرسة. خرج منها صحفيون كبار، وتشكّلت فيها مدرسة السخرية السياسية الحديثة في مصر. كانت روز تعرف أن المؤسسات أقوى من الأفراد، وأن الأثر الحقيقي هو ما يبقى بعد الرحيل.

رحلت روز اليوسف عام ١٩٥٨، بهدوءٍ لا يشبه ضجيج معاركها. لم ترحل المجلة، ولم يرحل الأسلوب. بقي الاسم، وبقي الدرس: أن الجرأة — حين تقترن بالذكاء — تصنع أثرًا يتجاوز صاحبته.

ليست كل البطولات مسلحة، ولا كل المواجهات مباشرة. بعض النساء يخترعن سلاحهنّ، ويخضن المعركة بلغته. وروز اليوسف كانت واحدة من هؤلاء اللواتي حوّلن المسرح إلى سياسة، والضحك إلى موقف، والكلمة إلى قوة لا تُستهان بها.

هكذا بقيت روز اليوسف وجهًا لا يغيب، لا لأنها واجهت وحدها، بل لأنها علّمت أجيالًا كيف تُواجه دون أن تفقد روحها.

✳وجوه لا تغيب – لاظوغلي...
أول رئيس مخابرات في مصر✳



ليست كل الدول تُبنى بالقرارات المعلنة، ولا تُحمى بالخطابات وحدها. بعض الدول تولد وتستقر لأن هناك من فهم مبكرًا أن الحكم لا يقوم بالسيف فقط، بل بالمعلومة، وبالقدرة على رؤية الخطر قبل أن يرفع رأسه. في بدايات مصر الحديثة، كان هناك رجل أدرك هذه

الحقيقة قبل أن تُعرف كلمة «مخابرات» نفسها، وكان اسمه محمد لاظوغلي.

جاء لاظوغلي إلى مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ضمن القوات العثمانية التي أشرفت على خروج الحملة الفرنسية عام ١٨٠١. ومثل محمد علي باشا، لم يغادر البلاد بعد انتهاء المهمة. لكن الرجلين، وإن تشابها في الصرامة وحدة النظرة، افترقا في الموقع. محمد علي صار رأس الدولة، ولاظوغلي صار عقلها الأمني.

بعد فشل حملة فريزر البريطانية في رشيد عام ١٨٠٧، لمع نجم لاظوغلي سريعًا. تولّى منصب «أمين الوالي»، ثم أُسندت إليه المالية المصرية عام ١٨٠٨، في لحظة كانت الدولة الوليدة فيها مهددة من الداخل بقدر ما كانت محاصرة من الخارج.

ارتبط اسمه لاحقًا بمذبحة القلعة عام ١٨١١، الحدث الذي أنهى وجود المماليك سياسيًا وعسكريًا. غير أن التركيز على الدم وحده يحجب الصورة الأوسع: لاظوغلي كان يرى أن الدولة لا تتحمل ازدواج القوة، وأن الخطر إذا لم يُستأصل من جذوره، عاد أضعافًا.

بعد ذلك، تولّى منصب ناظر الجهادية لما يقارب خمسة عشر عامًا، وبقي خلالها الرجل الأقوى نفوذًا في إدارة أمن البلاد. كان اسمه وحده كافيًا لبث الرهبة، لأن الدولة حينها كانت تعرف من يحرسها، وكيف.

غير أن أخطر ما في سيرة لاظوغلي لم يكن في المناصب، بل في ما أنشأه بصمت: أول جهاز استخبارات داخلي منظم في مصر، يتبع الحاكم مباشرة، دون إعلان أو لوائح مكتوبة.

أنشأ شبكة من المخبرين ينتشرون بين الناس، في الأسواق والمقاهي والبيوت، يلتقطون الأخبار قبل أن تتحول إلى تمرّد. لم تكن هناك قيادة معلنة ولا تسلسل مكشوف.

كانت الآلية عبقرية في بساطتها: تُسلَّم الأخبار إلى سيدة بسيطة في منطقة السيدة زينب. تجمع الرسائل، وتحملها بنفسها إلى لاظوغلي. لا أسماء، لا أوراق رسمية، ولا خيوط يمكن تتبعها. جهاز كامل يعمل تحت جلد المجتمع.

بهذا الأسلوب، حمى لاظوغلي شبكته من الانكشاف، وحمى الدولة من المفاجآت. لم يكن الأمن عنده قمعًا أعمى، بل معرفة سابقة. ومن يملك المعرفة، يملك القدرة على الإجهاض المبكر للمخاطر.

تجلّى هذا الدور حين غادر محمد علي إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين. في غيابه، دُبّرت مؤامرة خطيرة اشتركت فيها فلول المماليك، وفرقة ألبانية منشقة، وبدعم عثماني، لقتل عائلة الباشا والاستيلاء على الحكم.

كان رأس المؤامرة لطيف باشا، أحد المقرّبين من محمد علي، والذي بلغ به الطموح أن طلب الزواج من ابنته. غير أن لاظوغلي لم يطمئن إليه قط. كانت شبكته تراقبه، وخطته مكشوفة قبل أن تكتمل.

دبر لاظوغلي حيلة أمنية بارعة. أوحى للمتآمرين بأنه يستعد للانقلاب على عائلة الباشا، فغيّروا هدفهم وقرروا اغتياله هو أولًا. هنا انكشفوا جميعًا.

سُحقت المؤامرة بلا رحمة، وكان لطيف باشا أول الضحايا. وحين عاد محمد علي إلى القاهرة، كانت الدولة قد نُقذت لا بخطبة، بل بمعلومة.

المدهش أن لاظوغلي بقي بلا سيرة ذاتية مكتملة. لا تاريخ دقيق لميلاده أو وفاته. حتى تمثاله لم يُبنَ على صورة حقيقية؛ إذ استعان النحات الفرنسي جاك مار بسقّاءٍ يشبه ملامحه ليصوغ التمثال. رجل عاش في الظل... وبقي فيه.

ذكره الجبرتي أربع مرات فقط في «عجائب الآثار»، دائمًا في سياق الأحداث، لا بوصفه بطلًا. لعل السبب أنه أحب الدولة أكثر من نفسه، ولم يهتم بتخليد اسمه بقدر اهتمامه بتأدية دوره.

ولم يكن اهتمامي بلاظوغلي وليد هذه السطور. الاسم يرافقني منذ أكثر من ربع قرن، منذ بدأت كتابة سلسلة مقالات في جريدة الوفد عن التنصّت والتجسّس على المعارضة المصرية، بل وعلى وزراء مصريين أنفسهم، من قبل بعض الأجهزة الأمنية.

اخترتُ يومها عنوانًا صارخًا: «لاظوغلي جيت». لم يكن مجازًا، بل توصيفًا لحالة. لاظوغلي تحوّل، في المخيال الأمني، من رجل تاريخي إلى رمزٍ لكل ما يُدار في الظل.

نُشرت السلسلة مشفوعة بمستندات. وكان الحصول عليها ونشرها في ذلك الزمن مخاطرة حقيقية. بعض تلك الوثائق، أو حتى مجرد ذكرها، ما زال — حتى اليوم — عقدةً لدى أجهزة لا تؤمن بأن الزمن يُسقط الحسابات.

ربما تغيّرت الوجوه، لكن بعض الأجهزة لا تنسى من كشف مرة، ولا تسامح من سمّى الأشياء بأسمائها. لذلك ظلّ لاظوغلي بالنسبة

لي أكثر من باشا في كتب التاريخ؛ ظلّ عنوانًا لعقلٍ أمني يرى المعرفة خطرًا، والصحافة تهديدًا.

لهذا عدتُ اليوم إلى لاظوغلي التاريخي، لا للزينة، بل للبحث عن الجذر: متى بدأ الخلط بين حماية الدولة ومراقبة المجتمع؟ بين الأمن والمعرفة؟ بين الوقاية والسيطرة؟

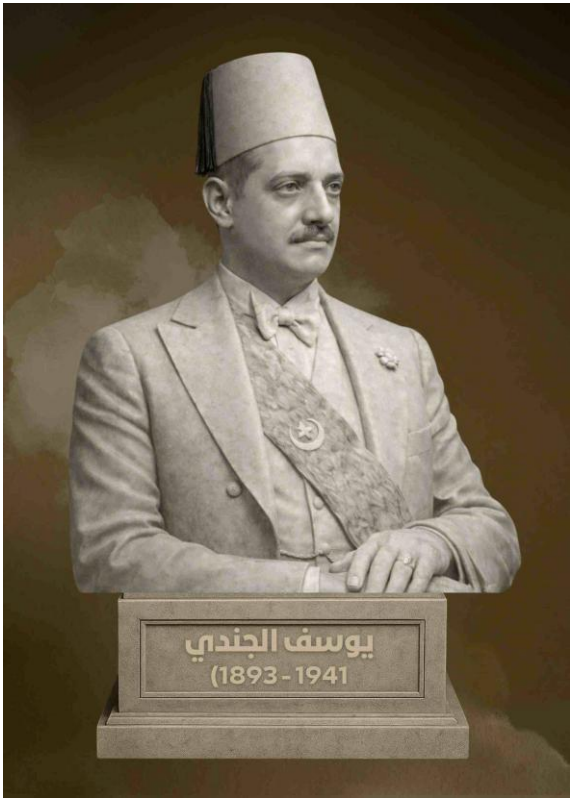
الحقيقة التي لا تقبل الجدل أن محمد علي لم يكن ليستقر دون لاظوغلي، وأن لاظوغلي لم يكن ليصنع أثره دون محمد علي. ومعًا، وضعا الأساس الصلب لمصر الحديثة، بكل ما فيها من قوة وتناقض.

وجوه لا تغيب...

لأن بعض الرجال لا تُكتب أسماؤهم على أبواب المؤسسات، بل تُكتب في صميم فكرتها.



✳وجوه لا تغيب... يوسف الجندي...
رئيسُ جمهوريةٍ في زمنِ الملكيّة✳



ليست كلّ الجمهوريات مولودةً في القصور، ولا كلّ الرؤساء خرجوا من صناديق السلطة. بعض الجمهوريات وُلدت من الغضب، من العرق، من كرامةٍ جُرحت فرفضت أن تنكسر. وبعض الرؤساء لم يحملوا أختام الدولة، بل حملوا وجدان الناس، ومضوا أمامهم خطوةً

حين تردّد الآخرون. في تاريخ مصر لحظات سبقت زمنها، كأنها خرجت من المستقبل لتذكّر الحاضر بما كان ممكنًا... وبما ما زال ممكنًا.

قبل أن تُكتب كلمة «جمهورية» في الدساتير، وقبل أن تسقط الملكية بسنوات طويلة، خرجت من قلب الريف المصري تجربة تقول إن الشعب حين يملك وعيه، يملك قراره. لم تأتِ من القاهرة، ولا من شرفات السياسة، بل من مدينةٍ قرّرت أن تكون أكبر من حدودها، وأوسع من جغرافيتها. هناك، في زفتى، وُلدت جمهورية بلا اعتراف دولي، لكنها حازت اعتراف التاريخ.

في تلك اللحظة الفاصلة من عام ١٩١٩، لم يكن السؤال: من يحكم مصر؟ بل: من يملك الحق في أن يقول «نحن هنا»؟ كان الاحتلال البريطاني يظن أن السيطرة على العاصمة تعني السيطرة على البلاد، فجاءه الرد من مدينة صغيرة أعلنت العصيان، لا بالفوضى، بل بالتنظيم، ولا بالصوت العالي، بل بالفعل المحسوب.

في قلب هذه اللحظة وقف يوسف الجندي، لا بوصفه زعيمًا يبحث عن مجد، بل مواطنًا أدرك أن الوطنية ليست انتظارًا لزعيم، بل استعدادًا لتحمّل المسؤولية حين يغيب الزعيم. لم يتقدّم الصفوف بخطبة، بل بخطة. لم يرفع شعارًا، بل رفع مدينة بأكملها إلى مستوى الفكرة.

هكذا، ومن قلب الريف، خرجت أول جمهورية مصرية حقيقية في زمن الملكية. لم تدم طويلًا، لكنها قالت ما لم تستطع أن تقوله الخطب ولا العرائض ولا الوفود. قالت إن المصريين قادرون على الحكم حين يثقون بأنفسهم، وإن الاستقلال يبدأ حين يجرؤ الناس على تخيّله.

ومن هنا تبدأ الحكاية... حكاية رجلٍ صار رئيسًا بلا كرسي، وجمهوريةٍ قامت بلا دستور، لكنها بقيت في الذاكرة أطول من أنظمة كاملة.

في عام ١٩١٩، حين كانت البلاد تغلي بثورةٍ تبحث عن ذاتها، أدرك يوسف الجندي أن الوطنية ليست خطبةً تُلقى، بل تنظيمٌ يُدار. لم ينتظر إشارة من العاصمة، ولم يطلب مباركة من سلطة، بل جمع أهل مدينته، ورتّب الصفوف، وأعلن أن الاحتلال ليس قدرًا أبديًا.

هكذا قامت جمهورية زفتى. لم تكن جمهوريةً مكتوبة بالحبر، بل محفورة بالفعل. سيطر الأهالي على مركز الشرطة، أمسكوا بالتلغراف، أداروا السكة الحديد، ورفعوا راية مصر في وجه الإمبراطورية البريطانية. لحظة قصيرة في الزمن، لكنها طويلة في الذاكرة.

لم يكن يوسف الجندي حالمًا ساذجًا، ولا مغامرًا بلا حساب. كان يعرف أن الاحتلال لا يرحم من يكشف ضعفه، وأن المبادرات الشعبية تُربك أكثر مما تُغضب. ومع ذلك، مضى في طريقه، لأن بعض الطرق لا تُقاس بفرص النجاح، بل بضرورة السير فيها.

في القاهرة، كان سعد زغلول يقود ثورة الأمة، وكانت أفكاره عن الشرعية الشعبية تجد صداها في مدنٍ مثل زفتى. لم تكن العلاقة بين يوسف الجندي والوفد علاقة تنظيمٍ صارم، بل علاقة روح وفكرة. الوفد كان لسان الثورة، وزفتى كانت صوتها الشعبي حين اشتدّ الخناق.

سعد زغلول، الذي آمن بأن الأمة هي مصدر السلطات، رأى في التجارب الشعبية مثل جمهورية زفتى دليلًا على أن المصريين قادرون على إدارة شؤونهم حين يُرفع عنهم القيد. كانت زفتى شهادةً حيّة على

أن الثورة ليست حكرًا على النخب، وأن الريف قد يسبق المدن في إدراك المعنى.

لم تعمّر الجمهورية طويلًا. عاد الاحتلال، وعادت الإدارة الرسمية، وسقط الشكل وبقي الجوهر. بقيت التجربة تقول إن مصر جرّبت الجمهورية مبكرًا، لا كنظام حكم، بل ككرامة جماعية، وكفعل مقاومة منظم.

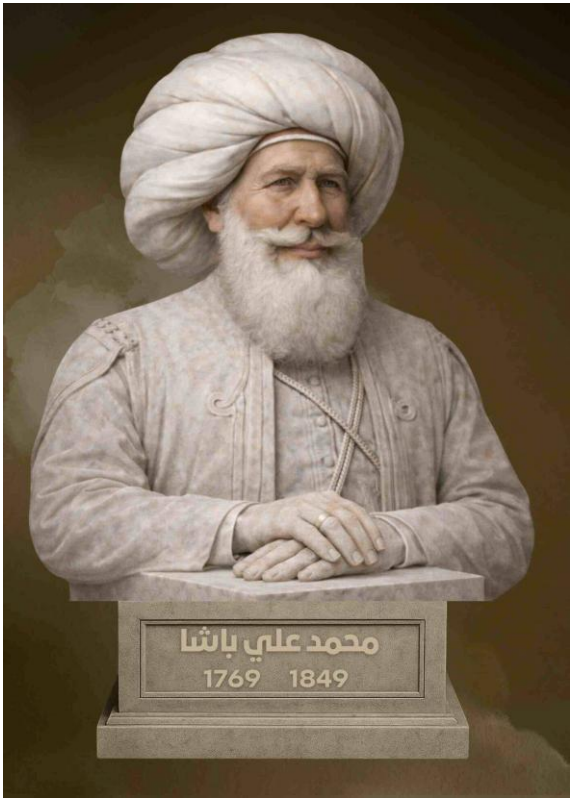
عاش يوسف الجندي بعد ذلك سنواته في صمتٍ ثقيل. لم يُكافأ بما يليق بالمبادرة، ولم يُصنع له تمثال في الميادين. حمل معاناته الإنسانية بعيدًا عن الأضواء، وظل وفيًّا للفكرة التي آمن بها حتى رحيله في عام ١٩٤١، قبل أن يرى مصر تغيّر شكل الحكم، لكنه رأى ما هو أعمق: وعي الناس.

اليوم، يحمل اسمه شارع في زفتى وآخر في القاهرة، ومجسمٌ لصورته في معرض «وجوه لا تغيب» بجمعية الشرق للثقافة في إسطنبول، لكن كثيرين يمرّون دون أن يعرفوا الحكاية. لا يعرفون أن هذا الاسم كان يومًا عنوانًا لجمهورية خرجت من قلب الريف، ووقفت في وجه إمبراطورية، وكتبت سطرًا مبكرًا في كتاب الحرية.

وجوه لا تغيب... لأن بعض الرجال لا يحتاجون إلى قصرٍ ليصنعوا دولة، ولا إلى تاجٍ ليصيروا رؤساء. يكفيهم أن يقولوا «لا» في اللحظة الصحيحة، فتتّسع المدينة، ويضيق الاحتلال، ويولد الحلم من جديد.

✳وجوه لا تغيب...

هل كان آخر الفراعنة اسمه محمد علي؟✳



ذلك الرجل لم يكن عاديًا، وتلك اللحظة لم تكن عابرة.

عام ١٨٣٢ لم يسقط اسم، بل سقط زمن.

ولم تُفتح عكّا فقط، بل فُتحت معها شهية الإمبراطورية، وسقطت آخر الأوهام عن حدود القوة وحدود التجرؤ.

حين لفّ عبد الله باشا المنديل حول عنقه، لم يكن يستعد للاستسلام وحده، بل كان يستعد لمغادرة المشهد.

ركوعه لم يكتمل.

إبراهيم باشا رفعه سريعًا، لا شفقة، بل فهمًا لمعنى الغلبة.

قال له ما معناه: لستَ مخطئًا لأنك قاتلتني، نحن أبناء سيف واحد، لكنك أخطأت حين ظننت أنك تستطيع الاقتراب من محمد علي.

ستة أشهر كاملة، والمدينة محاصَرة.

ستة أشهر من الجوع والانتظار والغرور.

عبد الله باشا كان يراهن على الأسوار، وعلى تاريخٍ قال له إن عكّا لا تُكسر.

قال بثقة من لم يختبر لحظة السقوط: إذا عجز نابليون بونابرت، فكيف يقدر محمد علي؟

لم يدرك أن محمد علي لم يكن يقلّد أحدًا، بل كان يكتب نسخته الخاصة من الحكم.

لم تكن عكّا هي الهدف وحدها.

الشام كانت الامتداد الطبيعي لحلم أكبر.

طرق تجارة تُهرّب، جمارك تُكسر، وفلاحون مصريون يعبرون الحدود هربًا من الضرائب والسخرة والتجنيد.

ستة آلاف فلاح خرجوا من الشرقية، بحثًا عن هواءٍ أقل قسوة.

محمد علي لم يرَ في ذلك هجرة، بل كسرًا لهيبة الدولة.

طالب بإعادتهم.

جاءه الرد باردًا، متعاليًا: الأرض مفتوحة، والرعايا أحرار.

تلك الجملة وحدها كانت إعلان حرب.

قال محمد علي ما معناه: سأعيدهم جميعًا... ومعهم من آواهم.

منذ تلك اللحظة، لم يعد الخلاف إداريًا.

صار صراع سيادة.

السلطان أعلن الحرب.

اللعنات صُبّت.

الفتاوى أُطلقت.

أُبيحت الدماء، وكُفّرت القاهرة.

لكن المدافع لا ترتجف أمام الفتاوى، والجيوش لا تنسحب بسبب خطب.

فجر يومٍ طويل، ومع أول شمس، صدر الأمر بالهجوم.

القتال استمر حتى المساء.

وحين غربت الشمس، كانت عكّا قد سقطت.

الجيش المصري دفع ثمنًا فادحًا، لكن المدينة فُتحت، والرسالة وصلت:

الوالي الذي خرج من عباءة السلطان، صار أقوى من العباءة نفسها.

داخل المدينة، لم يكن الانهيار عسكريًا فقط.

السكان أنفسهم ضغطوا على عبد الله باشا ليسلّم.

الهزائم الكبرى تبدأ حين ينهار الإيمان قبل الأسوار.

ليلًا، جلس المنتصر والمهزوم في خيمة خارج المدينة.

حديث رجال يعرفون أن اللعبة انتهت.

قال إبراهيم له: ستنام الليلة هادئًا.

ردّ عليه عبدالله بمرارة من اكتشف الحقيقة متأخرًا: لا تكلّمني كضعيف... خطئي أني وثقت بمن لا شرف له، ولو عرفت ما أعرفه الآن، ما كنت بين يديك.

لم يُهَن عبد الله.

أُرسل مع نسائه وأهله إلى الإسكندرية.

وقف لاحقًا بين يدي محمد علي، قبّل طرف ثوبه، وقال جملة تُغلق كل شيء:

ليكن عفوك عفو ملك... لا عفو وزير.

ذهب إلى الحجاز.

ومات هناك.

وبقي السؤال.

هل كان محمد علي آخر الفراعنة؟

ربما لم يحمل التاج، ولم يُنقش اسمه على المعابد،

لكنه حكم بعقل فرعون،

وبطموح إمبراطور،

وبلا أوهام عن حدود القوة.

الاسم لا يهم.

ما يهم أن الرجل الذي أُلقي غيره في البحر،

بقي هو...

وجهًا لا يغيب.



وجوه لا تغيب... دُرية شفيق...
حين اصطدم الحلم بالجدار



كانت تمشي كأن الوقت يطاردها، وكأن كل دقيقة مؤجلة هي خسارة لا تُحتمل. في خطوتها استعجال امرأة تعرف أن بعض الحقوق لا تنتظر نضج المجتمع، وأن الحلم إذا طال انتظاره قد يتحوّل إلى

ذكرى. لم تكن دُرية شفيق امرأة صبر طويل، بل امرأة توقيت، ترى أن اللحظة إن لم تُمسك من يدها تفلت إلى الأبد.

وُلدت دُرية شفيق عام ١٩٠٨ في طنطا، في زمنٍ كانت فيه مصر تتقلّب بين تقاليد راسخة وأفكار جديدة تحاول أن تجد موطئ قدم. نشأت في بيتٍ متعلّم، فصار التعليم عندها هوية قبل أن يكون وسيلة. منذ البدايات، شعرت أن المعرفة إن لم تتحوّل إلى فعل عام تصبح حبيسة الرأس، وأن المرأة المتعلّمة إذا صمتت خانت ما تعلّمته.

شدّت دُرية رحالها إلى باريس، وهناك، في قلب أوروبا، تعلّمت درسًا قاسيًا: الحرية لا تُهدى، بل تُنتزع. رأت كيف تُدار المجتمعات الحديثة، وكيف تُنتزع الحقوق بالصدام حين يفشل الحوار. عادت إلى مصر محمّلة بمعرفة لا تعرف التهدئة، وبطموح لا يقبل الحلول الوسط.

منذ عودتها، رفضت دُرية فكرة التدرّج البطيء التي كانت تطمئن المجتمع أكثر مما تُنصف المرأة. كانت ترى أن بعض الحقوق، وعلى رأسها الحق السياسي، لا يحتمل المساومة. عبارة "ليس الآن" كانت في نظرها أداة دفن مؤجّل، تُستخدم لإطالة عمر الظلم لا لتنظيم التغيير.

أسست مجلة «بنت النيل»، وجعلت منها منبرًا صريحًا لا يوارب. كتبت عن حق المرأة في الانتخاب والترشّح، وعن ضرورة مشاركتها الكاملة في الشأن العام، دون أن تختبئ خلف لغة ملطّفة. كانت تعرف أن الوضوح يُغضب، لكنه يُحرّك، وأن الغضب — أحيانًا — ثمن لا بدّ منه.

بلغت المواجهة ذروتها عام ١٩٥١، حين قادت دُرية شفيق مظاهرة نسائية واقتحمت البرلمان مطالبة بحقوق النساء السياسية. كان المشهد

صادمًا: نساء يقفن تحت قبة السلطة لا للفرجة، بل للاحتجاج. في تلك اللحظة، تحوّلت دُرية إلى رمز للجرأة، وإلى خصمٍ مباشر في نظر من يخشون كسر السقف دفعة واحدة.

لم تكن حياتها الخاصة أقل توتّرًا من حياتها العامة. تزوّجت وأنجبت، وحاولت أن تصنع توازنًا بين الأمومة والنضال. كانت تعرف أن المجتمع يقبل المرأة الأم أكثر مما يقبل المرأة المناضلة، لكنها رفضت أن تختار بين الدورين. هذا الرفض جعل حياتها ساحة شدّ دائم بين واجبين لا يريد المجتمع أن يجتمعا.

بعد ثورة ١٩٥٢، ظنّت دُرية أن اللحظة التاريخية قد جاءت. رحّبت بالتغيير، وانتظرت أن تتحوّل الشعارات إلى حقوق ملموسة. وحين أُقرّ للمرأة حق الانتخاب عام ١٩٥٦، بدا كأن جزءًا من حلمها قد تحقّق. لكنها لم تتوقف، لأن الحلم عندها لم يكن قانونًا واحدًا، بل مشاركة كاملة لا تُجزّأ.

هنا جاء الاصطدام الثاني، والأقسى. الصوت الذي يُرحَّب به في لحظة الثورة قد يُعدّ مزعجًا بعدها. فُرضت على دُرية الإقامة الجبرية، وأُغلقت مجلتها، وحُوصرت في بيتها. لم يكن السجن هذه المرة زنزانة، بل عزلة قسرية بلا قضبان، أشد قسوة لأنها بلا عدوّ واضح.

العزلة امتحانٌ لا ينجو منه أصحاب الأرواح القلقة بسهولة. امرأة اعتادت المواجهة وجدت نفسها وحيدة أمام صمتٍ طويل. السؤال الذي لاحقها لم يكن سياسيًا فقط، بل إنسانيًا: هل كان الصدام يستحق هذا الثمن؟ لم تتراجع عن قناعاتها، لكنها بدأت تدفع من صحتها وطمأنينتها.

في سنواتها الأخيرة، عاشت دُرية شفيق انكسارًا داخليًا مؤلمًا. لم تُحوّل الألم إلى خطاب، ولم تطلب شفقة. رحلت عام ١٩٧٥، تاركةً

وراءها تجربة شديدة التعقيد، لا تصلح للتمجيد الساذج ولا للإدانة السهلة.

قصة دُرية شفيق ليست حكاية انتصار مكتمل، بل حكاية حلمٍ اصطدم بجدار الواقع. حلمٌ كشف أن الشجاعة وحدها لا تكفي، وأن المجتمع قد يخاف من التغيير حتى وهو يطالب به. ومع ذلك، تبقى تجربتها علامة فارقة، لأنها دفعت حدود الممكن إلى أبعد مما كان مسموحًا.

ليست كل البطولات نهايات سعيدة، وبعضها مسارات مفتوحة على الخسارة. ودُرية شفيق كانت واحدة من هؤلاء اللواتي اصطدمن بالجدار، لكنهنّ تركن عليه أثر الجسد والروح، ليراه من يأتي بعدهنّ ويدرك أن الطريق لم يُفتح بلا ثمن.

هكذا بقيت دُرية شفيق وجهًا لا يغيب، لا لأنها وصلت إلى الهدف، بل لأنها كشفت الطريق بكل ما فيه من أملٍ وانكسار، وعلّمتنا أن الحلم — حين يُدفع إلى أقصاه — يترك أثره.



وجوه لا تغيب ... قلبي اربع غرف



كان مكتبي وحزبي

في عمارةٍ جروبي سليمان باشا

تلك العمارة الاوربية الساحرة التي تُطلّ على تمثال وميدان طلعت حرب،

حيثُ تتأنّق القاهرة الخديويّة

بشوارعها المستقيمة، ونوافذها العالية،

ومقاهيها التي كانت تُنصتُ للفكر

قبل أن تُقدَّم فنجان القهوة.

غير أنّ قلبي— ودائرتي الانتخابيّة—

كانا هناك...في باب الشعريّة، والموسكي،
حيث القاهرة الفاطميّة
تتنفّس التاريخ في الأزقّة،
وتكتب يوميّاتها على الجدران
بلغة البسطاء.
عِشتُ بين قاهرتين،
كأنّني أنتمي إلى مدينتين تاريخيّتين،
لكلٍّ منهما ملامحها،
وسكّانها،
وشوارعها،
وحكاياتها التي لا تنتهي.
ولم أعرف—للآن—
أيّهما أقرب إلى قلبي.
يقول علم الطبّ
إنّ للقلب أربع غرف،
وأنا أصدّق ذلك...
لكنّي أظن:
أنّ القاهرة الفاطميّة
كانت الغرفة الأولى.
فهناك فقط أشعر بذاتي

واحدٌ من ناسها،
أمشي في دروبها،
احفظ عتبات بيوتها،
أتعلّم من صمتها واوجاعها
أكثر ممّا تعلّمت من ضجيج البرلمان.
في شوارعها
كنتُ أشعر
أنّي خرجتُ من صفحات
ثلاثية نجيب محفوظ،
من زقاق المدق
حيث البشر أبطالُ رواياتٍ
غير مكتوبة،
لكنّها منحوتة
في الذاكرة.
بشرٌ
يُحبّون بلا تنظير،
ويغضبون بلا تزييف،
ويحلمون
رغم كلّ ما يضغط عليهم.
أمّا الغرفة الثانية في قلبي،

فكانت القاهرة الخديويّة،
وسط البلد، بشوارعها
التي خُطّت على مقاس
الحلم الأوروبي،
وبمقاهيها التي صاغت الوعي،
وصحافتها التي كانت
ديوان الحياة المصريّة.
هناك تعلّمت
أنّ المدينة يمكن أن تكون
فكرةً سياسيّة،
وأنّ العمران
ليس حجارةً صامتة،
بل بيانًا ثقافيًّا
يقول من نحن
وإلى أين نريد أن نذهب.
في تلك القاهرة
أحببتُ المرحلة الملكيّة،
لا حنينًا إلى تاج،
بل عشقًا لتجربةٍ
تعدّدت فيها مراكز القوّة،

وتصارعت فيها الأفكار،
وارتفع فيها صوت الصحافة
محاسِبًا قبل أن يكون مُصفِّقًا.
أحببتُها
لأنّي أحببتُ الوفد،
وأحببتُ الوفد
لأنّي أحببتُ الليبراليّة،
وأحببتُ الليبراليّة
لأنّي أحببتُ الحريّة.
وتلك—باختصار—
كانت ولا تزال
حكايتي.
القاهرة الملكيّة
لم تكن امتدادًا آليًّا
للقاهرة الخديويّة،
بل كانت مرحلةً
أعطت المدينة
شكلها المعماريّ،
وثقافتها الحداثيّة،
وجعلت من الصحافة

عينًا ساهرة،
تحتفي بالإنجاز
وتفضح الخلل.
من كوبري الزمالك
الذي يطل عليه بيتي
إلى شارع شريف
حيث كان مكتبي للمحاماة
من بنك مصر،
لدار وميدان الاوبرا
إلى شارع فؤاد،
كانت قاهرتي
تُحدّث نفسها بنفسها،
وتُجرّب،
وتُخطئ،
وتُراجع.
ظلّت القاهرة
منقسمة بين واجهةٍ براقة
وقلبٍ مُتعب..
الغرفة الثالثة في قلبي
كانت الإسكندريّة،

المدينة التي وُلدتُ فيها
في مستشفى المترنيتيه،
بحي بابور المياه،
وعشتُ في بيت جدّي،
ثم في ستانلي،
حيث بيتي الشخصي
المطلّ على البحيرة
والكوبري الجميل
الذي لا يشيخ.
هناك تعلّمت
أنّ البحر
يمكن أن يكون معلّمًا،
وأنّ الأفق
يوسّع الصدر
حتى لا يضيق بالاختلاف.
أمّا الغرفة الأخيرة،
فكانت المنصورة،
بلدي ومنشئي،
التي غادرتُها جسدًا
في المرحلة الجامعيّة،

لكنّها لم تغادرني روحًا.

بيت أبي وأمّي

ما زال

مسرح أحلامي اليوميّة،

ومرجع قلقي

وطمأنينتي معًا.

هذه ليست سيرة مدينة،

بل سيرة قلب

توزّع على أربع غرف،

كلّ غرفة

تحمل وطنًا،

وكلّ وطن

يحمل حكاية.

عِشتُ في القاهرة

الخديويّة،

وكنتُ نائبًا

عن القاهرة الفاطميّة،

وبينهما

تشكّلت تجربتي،

وتكوّن وعيي،

وصغتُ—على مهل—

معنى أن تكون الحرية

أسلوب حياة

لا شعارًا.

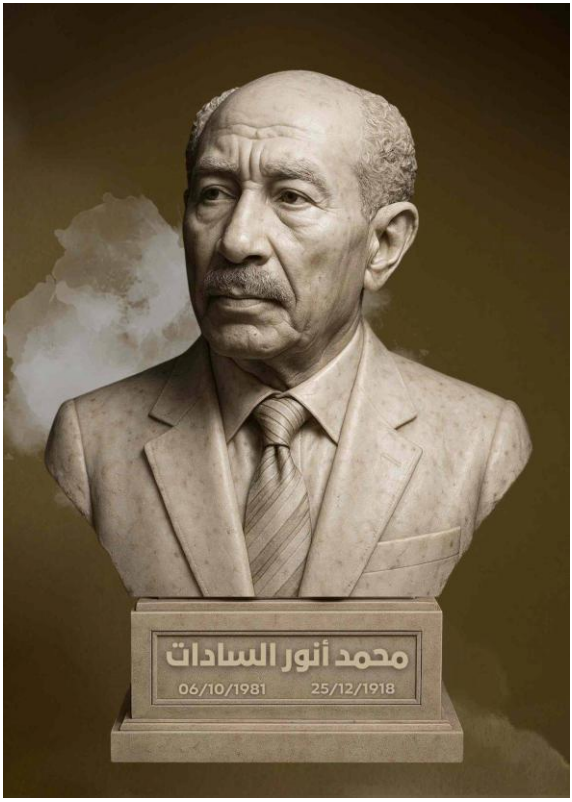
تلك رحلتي

في غرف قلبي الأربع...



وجوه لا تغيب ... السادات

الكلمة التي قتلته قبل المنصّة



كلمةٌ، خرجت من فم رئيسٍ جاء من قلب المؤسسة العسكرية:

»كفاية حكم عسكر.«

لم تكن زلّة لسان، بل توجّهًا سياسيًا مكتمل الدلالة، قاله أنور السادات في سياق صراعه مع ميراث الدولة الفردية، ورغبته المعلنة — والمترددة أحيانًا في نقل مصر من حكم الأشخاص إلى حكم المؤسسات بعد زمنه.

تاريخ العبارة لا يحمل توقيع ساعةٍ أو يومٍ بعينه، لكنها ترددت وشاعت في نهاية عام ١٩٨٠، في جلسات مغلقة وتصريحات منقولة، وفي مناخٍ سياسي كان السادات يحاول فيه فكّ الارتباط بنموذج جمال عبد الناصر، حيث الدولة ظلّ للرئيس، والرئيس ظلّ للمؤسسة العسكرية.

الكلمة كانت صادمة؛ ليس لمعارضي السادات، بل لأنصاره.

كيف لرئيسٍ عسكري أن يقول: كفاية حكم عسكر؟!

كأن السلطة تعترف، للمرة الأولى، بأن الخطر لا يكمن في غياب الدولة، بل في اختزالها في مؤسِّسها الوحيد.

لم يكن قصد الرجل نفي الدولة أو إضعافها، بل العكس.

فالدولة في تصور السادات لما هو بعده، لم تكن ثكنة، بل منظومة مؤسسات: تشريع، وقضاء، وإدارة، وحياة حزبية، وصحافة، ومسافة صحية بين الحاكم والقرار.

الكلمة كانت — في جوهرها — بيانًا مبكرًا عن الدولة المدنية، حتى لو لم تُستكمل شروطها الموضوعية، وحتى لو تراجع عنها صاحبها تحت ضغط الخوف والصدام.

المفارقة القاسية أن الكلمة نفسها، التي أراد بها السادات إنقاذ الدولة من عسكرة السياسة، كانت من بين الكلمات التي عزلته سياسيًا.

يسارٌ غاضب، إسلاميون ناقمون، نخبٌ مرتبكة، ومؤسسة لم تغفر لرئيسها أنه فكّر علنًا في تقليص دورها السياسي.

في بلدٍ لا يُسامح من يفتح أبواب الاحتمالات، تحوّلت الكلمة إلى شهادة إدانة أو شهادة وفاة قبل المنصّة بشهور.

ما لا يُقال كثيرًا، أن السادات لم يكن يخطط فقط لاستعادة الأرض، بل لاستعادة السياسة.

كانت نية الرجل — بعد اكتمال تحرير آخر شبر من سيناء — رفع القبضة عن المجال العام، وإعادة ترتيب السلطة على نحوٍ مختلف.

الخطة التي لم يُمهله القدر لتنفيذها، كانت تعيين منصور حسن، المدني الليبرالي الشاب آنذاك، نائبًا لرئيس الجمهورية إلى جوار حسني مبارك.

الصدام كان متوقعًا.

بعد تعيين منصور حسن، لوجود خلافٍ عميق في الرؤية بين (منصور) رجل الدولة المدني، و(مبارك) الضابط الصاعد الذي يرى السلطة من زاوية الاستقرار لا التحوّل.

الخيار البديل كان حاضرًا في ذهن السادات:

لو رفض مبارك الاستمرار كان هو كمال حسن علي، كنائب عسكري هادئ، وعقل إداري قادر على القبول بإدارة انتقال متوازن.

الواقعة لم يشكك فيها أحد، وربما كانت سببًا مباشرًا في التخلّص من السادات، كما كانت سببًا مباشرًا في فوبيا مبارك تجاه منصب «نائب الرئيس» التي حكمت مصر قرابة تسعةٍ وعشرين عامًا.

رفضٌ دائم للتشارك، خوفٌ من التعدد، وارتيابٌ من أي احتمال مدني داخل قمة السلطة، إلى أن جاءت اللحظة الاضطرارية الأخيرة، وتعيين عمر سليمان في الوقت الضائع... ربع ساعة قبل النهاية.

السؤال الذي لا يغيب ولا يزال معلّقًا:

هل نتعلّم من دروس التاريخ، أم نُعيد إنتاجها؟

هل نفهم أن الدولة القوية لا تُدار باليد الواحدة، ولا تُحمى بإقصاء السياسة، بل بتعدّدها؟

أم نظل — كالعادة — بلد الفرص الضائعة، وقرارات الربع ساعة الأخيرة؟



وجوه لا تغيب...

** الخديوي إسماعيل** (١)



◆ يومٌ يقفُ فيه التاريخُ على أطرافِ أصابعه، ليرفعُ الستارَ عن رجلٍ حلمَ أن يجعلَ من النيلِ مرآةً لباريس، ومن القاهرةِ شرفةً تُطلُّ على العالم، ومن مصرَ وعدًا أكبرَ من،

احتمالها، وأبعدَ من خرائطِ الواقع، لكنَّهُ — وهو يزرعُ الضوء — تركَ ظلالًا ثقيلة، وسقَى الحلمَ بماءٍ مالحٍ **اسمهُ الدَّين.**

◆ في مثلِ هذا اليوم، ١٨ يناير ١٨٦٣،

اعتلى الخديوي إسماعيل عرشَ مصر،

بعد أن أغمضَ سعيد باشا عينيه،

وانفتحَ أمام البلادِ فصلٌ جديد،

بين المجدِ والرهان،

بين البناءِ والارتهان،

بين نشوةِ الحداثة

وقلقِ الحساب.

◆ وُلدَ في ٣١ ديسمبر ١٨٣٠،

في قصرِ المسافرخانة بالجمالية،

حيثُ تختلطُ رائحةُ التاريخِ

بصوتِ الأزقةِ القديمة،

وكان الابنَ الثاني لإبراهيم باشا،

وحفيدَ محمد علي،

الذي زرعَ في سلالتهِ بذرةَ الدولةِ الحديثة،

وتركَ للأحفادِ شجرةً

تُثمرُ طموحًا

وتُسقطُ أحيانًا ثِقلَ الأحلام.

◆ لم يكن ميلادُهُ ميلادَ طفلٍ فقط،

بل ميلادَ فكرة،

فكرةِ الأميرِ الذي سيحملُ في عينيه

خرائطَ أوروبا،

وفي قلبهِ توقَ الشرق،

وفي خطواتهِ إيقاعَ عصرٍ

يركضُ نحو الحداثة،

ولو على أرضٍ

تتعثرُ تحت قدميه.

◆ نهضتِ البلادُ في عهدهِ

كما تنهضُ المدنُ من تحتِ الغبار،

شقَّ الطرق،

فتحَ المدارس،

وسَّعَ العمران،

وأضاءَ الميادين،

ورفعَ ستارَ العالمِ

عن أعظمِ مشهدٍ في تاريخِ مصر الحديث:

قناة السويس،

ذلك الشريانُ الأزرقُ

الذي صارَ جسرًا بين بحرين،

وسوقًا بين قارتين،

ومسرحًا لصراعِ الإمبراطوريات.

◆ غيرَ أنَّ المجدَ، حين لا يُحاسَب،

يتحوَّلُ إلى فاتورة،

والحلمَ، حين لا يُوازن،

يصيرُ دفترَ ديون،

فكانت مصرُ في عهدِهِ

تشتري الحداثةَ بالأجل،

وتوقِّعُ على المستقبلِ

بقلمٍ من ذهبٍ

وحبرٍ من رهونات.

◆ قصورٌ ترتفعُ كالأحلام،

وشوارعُ تتزيَّنُ بالحجرِ الأوروبي،

واحتفالاتٌ تُدارُ كالمسارح،

لكنَّ الخزانةَ كانت تنزفُ بصمت،

والأرقامُ تتكاثرُ في الظل،

حتى صارَ الدينُ شريكًا خفيًا

في الحكم،

لا يُرى في المواكب،

ولا يُسمَعُ في الخُطب،

لكنَّهُ حاضرٌ

في كلِّ توقيع.

◆ أغرقَ البلادَ في قروضٍ

لم تكن كلُّها ضرورة،

ولا كان زمنُها رحيمًا،

فاقترضَ ليُسرِع،

واستدانَ ليُبهِر،

واستبقَ العصرَ

قبل أن يستعدَّ المجتمع،

فصارَ الدينُ

ليس رقمًا في دفاترِ أوروبا،

بل قيدًا على القرار،

وحبلًا يلتفُّ

رويدًا

حول عنقِ السيادة.

◆ تضخَّمت الديونُ

حتى جاوزت قدرةَ الدولة،

وتحوَّلت الفوائدُ

إلى وحشٍ يلتهمُ الإيراد،

وباتت مصرُ

تعملُ لا لتبني،

بل لتسدِّد،

ولا لتُخطِّط،

بل لتُرضي الدائنين،

فغاب التوازن،

وتقدَّم الحسابُ

على السياسة،

وتسلَّل الأجنبيُّ

من باب المال

قبل أن يدخلَ

من بوابةِ الاحتلال.

◆ لم يكن السقوطُ فجأة،

بل انزلاقًا بطيئًا،

بدأَ بالاستدانة،

وانتهى بالمراقبة،

حين فُرضت الرقابةُ الثنائية،

وصارَ القرارُ المالي

مرهونًا

بخارجِ الحدود،

فانكشفت الدولةُ

أمام العالم،

وظهرَ أنَّ الحداثةَ
التي لم تُبنَ
على قاعدةٍ صلبة،
قد تتحوَّلُ
إلى سُلَّمٍ
يصعدُ عليه الآخرون.

- انتهى الحكمُ

كما تبدأُ المآسي الكبرى:
بعزلٍ صامت،
ورحيلٍ بلا موكب،
ونفيٍ يُشبهُ الاعترافَ المتأخر،
بعد أن تركَ وراءه
بلدًا أجملَ في المظهر،
وأثقلَ في الميزان،
وأقربَ إلى العالم،
لكن أبعدَ عن نفسه.

- لم يكن الخديوي إسماعيل

شرًّا خالصًا
ولا مجدًا كاملًا،
بل درسًا قاسيًا

في تاريخِ الأمم:

أن الطموحَ بلا حساب

قد يُبهِر العيون،

لكنهُ يُثقِلُ الأعناق،

وأن الدَّين،

حين يصبحُ سياسة،

لا يُغرقُ الخزائنَ وحدها،

بل يُغرقُ البلاد.

وجوه لا تغيب ...



✳وجوه لا تغيب — الخديوي إسماعيل✳ (٢)

عندما تسقطت الديون الحاكم



◆ وجوهٌ لا تغيب لأن لحظة سقوطها لا تخصّ صاحبها وحده، بل تكشف مصير دولةٍ كاملة. بالأمس، في ذكرى اعتلاء الخديوي إسماعيل العرش، بدا المشهد مهيبًا :

حاكمٌ يدخل التاريخ من بوابة الحلم.

واليوم، يعود الوجه نفسه من بوابة الحساب، حيث لا تكفي النوايا ولا تشفع الزينة، إذا صار القرار مرهونًا.

◆ بدأ الحكم في ١٨يناير عام ١٨٦٣، والدين العام لمصر يدور حول ثلاثة إلى ملايين جنيه إسترليني؛

عبءٌ... لكنه محتمل، ودولةٌ ما تزال تمسك بدفاترها. مضت السنوات الأولى سريعة الإيقاع: مشروعات كبرى، تحديث واسع، قصور، احتفالات، الإنفاق كان يجري أسرع من الإيراد، والاقتراض أسرع من التخطيط.

◆ في نهاية الستينيات، وبعد مرور٧ سنوات، تجاوز الدين عشرين مليون جنيه. لم يتوقف النزيف .

قروض جديدة تُسدد قديمة،

وفوائد مركّبة تتراكم،

وضمانات وبيع للأراضي .

◆ مع افتتاح قناة السويس وما صاحبها من نفقات باهظة، قفز الدين في مطلع السبعينيات إلى حدود خمسين مليون جنيه،

بينما لم يكن الدخل السنوي للدولة يتجاوز بضعة ملايين.

◆ الأرقام خرجت من نطاق السيطرة .

تراكم الدين إلى ما بين مئة ومئة وستة وعشرين مليون جنيه إسترليني

رقمٌ مذهل بمعايير القرن التاسع عشر، يساوي وقتها، أضعاف دخل مصر السنوي .

لم تعد الديون أرقامًا في الدفاتر، بل صارت إدارةً مفروضة، ورقابةً مباشرة، وصوتًا أعلى من صوت الدولة.

◆ حين تثقل الديون، يتغير رأس السلطة.

ففي ١٩ يونيو ١٨٧٩، جاء الإخطار غير المكتوب باليد المصرية :

التنازل مقابل النجاة، والرحيل مقابل الاستقرار. كانت الدولة قد فقدت حقها في الرفض منذ لحظة رهن القرار المالي.

◆ حاول إسماعيل كسب الوقت، وانتظر سندًا، وراهن على اختلاف المصالح .

غير أن الإجماع كان قد تشكّل فوق الأرقام. ليلة ٢٤ يونيو، بعد منتصف الليل، دخل القناصل القصر .

ارتجّ المكان، وخافت الأم(الوالدة باشا)على ابنها، ونزل الخديوي ليسمع الجملة التي تختصر ستة عشر عامًا

» لا بد من الاستقالة.«

◆ في صباح اليوم التالي، فكّر في القوة، فوجدها بلا سند .

الجيوش لا تنتصر حين يكون العزل قرارًا مكتوبًا في دفاتر الدين .

أدرك أن اللعبة انتهت، وأن الرحيل صار واقعا.

◆ لم تُسقط الديون إسماعيل وحده، بل أسقطت فكرة الاستقلال المالي، وفتحت الباب لتدخلٍ صار قاعدة. ما جرى لم يكن خطأ إنفاقٍ فقط،

بل غياب ميزانٍ يربط الحلم بالحساب.

◆ درسٌ مهم:

النهضة التي لا يحرسها استقلال مالي تُسلم مفاتيحها للغير، والدولة التي تقايض القرار بالقروض، تُبلَّغ بعزلها في منتصف الليل.
التاريخ لا ينسى الوجوه... ولا يغفر الديون حين تتحول إلى كابوس.



✳✳وجوه لا تغيب...

الخديوي إسماعيل (٣)

أُغرق السفينة في بحر الديون فابتلعته الامواج كالفأر الميت



◆ لحظةُ الخلعِ لم تكن قرارًا سياسيًا فقط،
كانت تخلِّيًا كاملًا،

تخلِّي الجميع عن رجلٍ
حين صار عبئًا،
وكأنَّ التاريخَ قرَّر أن يُلقيه في عرضِ البحر،
فارًا ميتًا،
لا يُسأل عنه،
ولا يُرثى،
ولا يُنتظر عودته.

◆ خرجَ إسماعيل من القاهرة
كما يخرجُ الظلُّ من الجسد،
بلا مقاومة،
ولا صخب،
ولا محاولة إنقاذ،
بعد أن صار الدينُ
التهمة الجاهزة،
والفاتورة المؤجلة،
والحبلَ الذي التفَّ حول العرش
حتى اختنق.

◆ ركبَ «المحروسة»
لا بوصفه خديويًا،
بل بوصفه عبئًا تمَّ التخلُّص منه،

وحين ابتلعَهُ البحرُ المتوسط
في طريقه إلى نابولي،
بدأ عصرٌ جديد
قبل أن تجفَّ أمواجُ الوداع،
عصرٌ وُلدَ مثقلاً
بديونٍ لم ترحل،
وبفاتورةٍ لم تُغلق،
وبنموذجٍ صار لاحقًا
درسًا قاسيًا
في الإنفاق غير الرشيد
والتوريط السياسي.

◆ لم يخرج الرجل وحده،
خرجت معه لحظةٌ كاملة من الوهم،
وأسلوبُ حكمٍ
اشترى الحداثةَ بالأجل،
واستدان ليُبهِر،
وأنفق ليُدهِش،
ثم اكتشف متأخرًا
أن الاستعراض
لا يصنع دولة،

وأن القصور
لا تحمي القرار،
وأن الدين
حين يتقدَّم
يتراجع الاستقلال.

◆ كان المشهدُ الإنساني
أقسى من السياسة،
أبٌ يُودِّعُ عرشًا
ويُسلِّمُ الابنَ
أرضًا مثقلة،
وحكمًا محاطًا بالشك،
ومستقبلًا
تقدَّم فيه الحساب
على الحلم،
والقيد
على الطموح.

◆ لم يكن الحزنُ حكرًا عليه،
لكنَّ الشماتةَ كانت أعلى صوتًا،
كأنَّ الجميع
أراد أن يُغلق الصفحة

بسرعة،

وأن يُحمِّله وحده

وزرَ ما حدث،

لينجو الآخرون

من مرآة السؤال.

◆ البحرُ لم يكن رحيمًا،

ولا الناس،

ولا حتى أقربُ المقرَّبين،

فالسلطةُ حين تسقط

تتبدَّل الوجوه،

وتصمت الأيدي،

ويصبح الماضي

شيئًا يُفضَّل نسيانه

لا مراجعته.

◆ عاشَ إسماعيل منفاه

بين عواصم لا تشبهه،

يحملُ في ذاكرته

قاهرةً لم تعد له،

وقصورًا لم يعد يملك مفاتيحها،

وحلمًا كبيرًا

انكسر على صخرة الأرقام،
وظلَّ حتى آخر أيامه
يُراهن على عودة
لم تأتِ.

◆ لم يكن سقوطُه سقوطَ فرد،
بل سقوطَ نموذج،
نموذجٍ خلطَ بين التحديث
والتبذير،
وبين الدولة
والمشهد،
وبين الأولويات
والزينة.

◆ تركَ وراءه بلدًا
أقربَ إلى العالم،
وأبعدَ عن ذاته،
وأثقلَ كاهلًا،
وأضعفَ قرارًا،
وكان الثمن
ديونًا
مهَّدت الطريق

لتدخلٍ
لم يخرج منه التاريخ
بسلام.

◆ لم يكن الخديوي إسماعيل
شيطانًا ولا قديسًا،
كان رجلًا
سبق عصره أحيانًا،
وتعثَّر به كثيرًا،
لكنَّ خطيئته الكبرى
أنَّهُ لم يُدرك
أن الدولة
لا تُبنى بالاستدانة،
ولا تُدار بالدهشة،
ولا تُحفظ
إذا ضاعت الأولويات.

◆ هكذا خرجَ من المشهد،
وهكذا دخلَ التاريخ،
وجهًا لا يغيب،
لا لأنَّهُ انتصر،
بل لأنَّ سقوطه

صار تحذيرًا،

كلما تكرَّر المشهد،

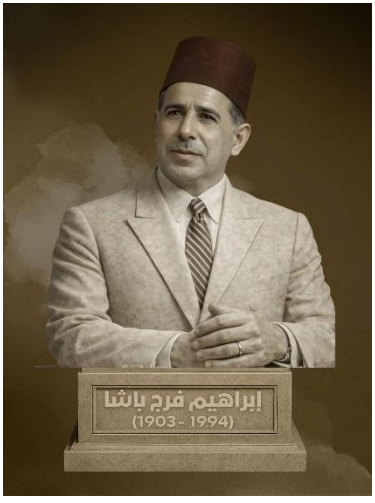
وتغيَّرت الأسماء،

وبقيت الديون.



كامل صدقي... الرجل الذي احترمه هتلر ولا يعرفه سكان الشارع الذي يحمل اسمه





◆ بدأتُ أعرف كامل صدقي باشا قبل أن أقرأ عنه، وقبل أن أرى اسمه محفوراً على لافتة شارع في الفجالة. عرفته حكايةً حيّة، لا سطرًا في كتاب. حكاية رواها لي أستاذي الحبيب إبراهيم باشا فرج، ونحن نجلس متجاورين في شرفة منزل فؤاد باشا سراج الدين بالإسكندرية، تلك الشرفة المطلة على أوسع زاوية لرؤية البحر المتوسط، حيث يمتد الأفق بلا حدود، كما كانت تمتد أفكار الرجال الكبار الذين مرّوا من هناك.

◆ لم تكن علاقتي بإبراهيم باشا فرج علاقة موقع تنظيمي عابر. لم يكن فقط السكرتير العام للوفد في الوقت الذي كنتُ فيه سكرتيرًا عامًا لوفد القاهرة، بل جمعتنا علاقة أقدم وأعمق. منذ عام ١٩٨٤،

حين أسستُ جريدة شباب الوفد، ذلك المشروع الصحفي الشبابي الطموح، كان إبراهيم باشا كريمًا إلى حدّ النُبل، حين قبل أن يكون رئيس مجلس إدارة الجريدة. تحت رعايته، تربّى جيل كامل صار لاحقًا من نجوم الصحافة والإعلام، من بينهم مؤمن رشاد وحنان البدري وغيرهما من الأسماء التي بزغ نجمها أولًا في شباب الوفد، قبل أن تنتقل إلى جريدة الوفد بعد تأسيسها.

◆ في تلك الجلسة بالإسكندرية، لم نكن وحدنا. كان معنا القبطان الوفدي الجميل مدحت الهرميل، رجلٌ جمع بين البحر والسياسة، وبين خفة الروح وعمق الانتماء. جلسنا ثلاثتنا، والبحر شاهد، والذاكرة مفتوحة.

◆ حين عرف إبراهيم باشا بنيّتي الترشح، في مطلع التسعينيات، لانتخابات البرلمان عن دائرة باب الشعرية – الموسكي – الفجالة، سألني بهدوئه المعتاد:

»هل شارع كامل صدقي باشا داخل الدائرة؟«

أجبته: نعم.

ابتسم وقال جملة لم أنسها:

»أنا الذي أطلقتُ اسم هذا الرجل على هذا الشارع... عندما كنتُ وزيرًا للشئون البلديه والقروية.«

◆ هنا تدخّل القبطان مدحت الهرميل، وسأل سؤالًا وصفه بنفسه قبل أن ينطق به بأنه «سؤال محرج»:

»لم تخشَ يا باشا أن يُقال إنك اخترت هذا الرجل لأنه، مثلك، قبطي مصري تولّى الوزارة؟«

◆ لم يتردد إبراهيم باشا لحظة. اعتدل في جلسته، ونظر إلينا نظرة حسم، ثم قال:

»اسمع يا مدحت... أنا اخترت كامل صدقي لأنه كامل صدقي. اخترته لأنه رجل دولة، ورجل قانون، ورجل استقلال. ولو كان اسمه أحمد أو محمد أو أي اسم آخر لفعلت الشيء نفسه. الوطنية لا تُقاس بالدين، والاستقلال لا يُمنَح بالأصل، بل يُكتسَب بالموقف.«

◆ ثم بدأ يروي لي سيرة الرجل كما عاشها جيله، لا كما كتبتها الكتب.

◆ وُلد كامل صدقي باشا عام ١٨٨٥، في زمنٍ كانت فيه مصر تتلمّس طريقها بين احتلالٍ جاثم ونخبة تبحث عن معنى الدولة. بدأ تعليمه في مدرسة التوفيقية، ثم التحق بكلية الطب في القصر العيني. هناك، قاده حسّه الوطني المبكر إلى صدام مباشر مع عميد فرنسي رفض أن يترك موقعه. قاد الطلبة في احتجاجٍ واضح، وحين فشل الضغط، قرر كامل ترك الطب، لا هروبًا، بل احتجاجًا صريحًا.

◆ انتقل إلى كلية الحقوق، وهناك وُلد المحامي الحقيقي. حصل على ليسانس الحقوق، وبدأ مسيرة مهنية لفتت الأنظار مبكرًا، لا بالصخب، بل بالدقة والشجاعة وحُسن المرافعة.

◆ في واحدة من أشهر قضاياه، ترافع عن رجال أعمال ألمان مقيمين في مصر في نزاع قانوني مع مواطنين يهود، وانتصر بالقانون وحده. بعدها، عرض عليه أدولف هتلر زيارة ألمانيا تكريمًا له، فاعتذر. لم يسافر، ولم يطلب مقابلًا. ومع ذلك، علّقت صورة كامل صدقي في المحكمة العليا بألمانيا اعترافًا بمكانته القانونية. مفارقة لافتة: رجل قانون مصري يُكرَّم في الخارج، بينما معاركه الحقيقية كانت مع النفوذ داخل وطنه.

◆ لم تكن المحاماة نهاية الطريق، بل بدايته. دخل الحياة النيابية، وعُيّن عضوًا في مجلس الشيوخ، ثم انضم عام ١٩٣٢ إلى حزب الوفد، ليصبح أحد أعمدته القانونية والسياسية.

◆ في عام ١٩٣٦، انتُخب نقيبًا للمحامين، وترك في النقابة أثرًا لا يُمحى. أسّس صندوق معاشات المحامين، وطرح مشروع قانون حصانة المحامي، دفاعًا عن كرامة المهنة واستقلالها، في زمن كان الدفاع فيه مخاطرة.

◆ في عهده، خاضت مصر معركة إلغاء الامتيازات الأجنبية، إحدى أخطر معارك السيادة القانونية في تاريخ مصر الحديث، وكان كامل صدقي في قلب هذه المعركة، لا على هامشها.

◆ عام ١٩٣٧، عُيّن نائبًا لرئيس البرلمان. ثم جاءت الحرب العالمية الثانية، ومعها وزارة مصطفى النحاس عام ١٩٤٢. بعد خروج مكرم عبيد من الحكومة، اختار النحاس كامل صدقي وزيرًا للمالية حفاظًا على التوازن الوطني. نال ثقة الدولة، ومنحه الملك فاروق رتبة الباشوية.

◆ لم تدم الهدنة طويلًا. مواقفه الصريحة ضد النفوذ الأجنبي أثارت غضب السفير البريطاني مايلز لامبسون، فتدخّل لإقالته. أُبعد عن المالية، ثم أُسندت إليه وزارة التجارة والصناعة، في محاولة لتخفيف الصدام دون كسر الرجل.

◆ في عام ١٩٤٣، عُيّن رئيسًا لديوان المحاسبة، الذي أصبح لاحقًا الجهاز المركزي للمحاسبات. حتى تقاعده في مارس ١٩٤٥، وضع أسس الرقابة المالية والنزاهة الإدارية في دولة كانت أحوج ما تكون لمن يراقب المال العام بلا خوف.

◆ رحل كامل صدقي باشا عن الدنيا عام ١٩٤٦، عن عمر ٦١ عامًا. لم يترك وراءه ثروة، بل ترك معيارًا.

◆ وبعد أربع سنوات، في ١٩٥٠، أصدر إبراهيم باشا فرج قراره بإطلاق اسم كامل صدقي باشا على شارع في باب الشعرية – الفجالة. لم يكن القرار إجراءً إداريًا باردًا، بل شهادة وفاء لرجل جمع بين القانون والوطنية والاستقلال، في زمنٍ لم يكن فيه الاستقلال إلا للرجال.

◆ حين انتهت الجلسة في تلك الشرفة المطلة على البحر، أدركت أن الشوارع ليست مجرد أسماء، وأن بعض اللافتات تُعلّق لتذكّرنا بمن كنا... وبمن ينبغي ألا ننساه.

◆ وجوه لا تغيب...

لأن الذاكرة، حين تُحسن الاختيار، تصبح شكلًا من أشكال العدالة.



وجوه نسائية لا تغيب..
صفية زغلول... قلب حمل وطن



كان البيت يبدو ساكنًا من الخارج، لكن داخله كان يموج بحكايات لا تنام. خطواتٌ تأتي وتذهب، رسائل تُطوى وتُفتح، وقلقٌ يعرف طريقه إلى الجدران. لم تكن صفية زغلول تبحث عن دورٍ عام، لكن الدور وجدها حين صار الوطن أثقل من أن يُحمَل وحده، وحين صار

البيت — بلا قرارٍ مُسبق — ساحة السياسة الأكثر أمانًا والأشد خطورة.

وُلدت صفية زغلول عام ١٨٧٦ في بيتٍ أرستقراطيٍّ يعرف التقاليد ويُجيد حساب الخطوات. كان الصمت المنضبط فضيلة، وكانت المرأة تُربّى على أن تكون خلف المشهد لا في قلبه. غير أن القدر كان يُعدّ لها مسارًا آخر، مسارًا لا يترك مساحة للصمت طويلًا، ولا يسمح بالاختباء حين تُطرق أبواب التاريخ.

حين تزوّجت من سعد زغلول، لم تكن تعلم أنها تتزوّج قضية قبل أن تتزوّج رجلًا. سعد لم يكن زوجًا تقليديًا، ولا حياة السياسة تعرف الاستقرار. منذ السنوات الأولى، تعلّمت صفية معنى الغياب، ومعنى أن يعود الرجل محمّلًا بهمّ الوطن أكثر مما يحمل همّ البيت. كانت الغيرة شعورًا إنسانيًا طبيعيًا، لكنها أخفته خلف واجبٍ أكبر، واجبٍ لا يسمح بالترف العاطفي.

جاءت لحظة النفي، فانكشفت الحدود بين الخاص والعام. خرج سعد إلى المنفى، وبقيت صفية وحدها أمام بيتٍ صار عنوانًا للمقاومة. في تلك اللحظة، لم يعد البيت مكانًا للراحة، بل وطنًا مصغّرًا تُدار فيه المعركة بهدوء، وتُحفظ فيه الذاكرة من التشتّت. فتحت الأبواب، لا طلبًا للظهور، بل لأن الغلق صار خيانة للناس الذين يبحثون عن ملاذ.

استقبلت الوفود، وسمعت الشكاوى، واحتملت الغضب والدموع، وأدارت الحوار بحكمة امرأة تعرف أن الكلمة غير المحسوبة قد تُشعل حريقًا. لم تكن خطيبة، لكنها كانت مُطمئنة. لم تكن تصرخ، لكنها كانت تُثبّت. كانت تعرف أن السياسة — حين تُدار من داخل البيت — تحتاج صبرًا أطول، وقلبًا أوسع.

عاشت صفية التناقض الأصعب: أن تحب رجلًا صار ملكًا للأمة، وأن تكون زوجةً لزعيمٍ لا يعود إليها كاملًا. الوحدة كانت ثقيلة، لكنها حوّلتها إلى عمل. كانت تعرف أن التاريخ لا ينتظر من ينهار، وأن الوطن — حين يطرق الباب — لا يقبل الأعذار.

حين عاد سعد من المنفى، عاد إلى بيتٍ تغيّر. لم يعد بيتًا خاصًا، بل بيتًا تعلّم السياسة، وتعلّمت صاحبته كيف تُدير الوطن من الداخل. لم تطلب صفية مقابلًا، ولم تُسجّل موقفًا، ولم تكتب مذكرات. تركت فعلها يتكلم عنها، كأنها تعرف أن الضجيج لا يليق بكل البطولات.

بعد رحيل سعد زغلول عام ١٩٢٧، لم تنتهِ الحكاية. بقي البيت مفتوحًا، وبقي الاسم حاضرًا، وبقيت صفية حارسة الذاكرة. لم تُحوّل الإرث إلى تجارة، ولم تسمح بأن يُختزل الرجل في صورة، ولا أن تُختزل هي في لقب. كانت ترى أن الوفاء الحقيقي ليس في التكرار، بل في الصيانة الهادئة للمعنى.

في حياتها الخاصة، دفعت صفية ثمن هذا الدور. لم تعش حياة زوجية مستقرة كما تعيشها النساء بعيدًا عن السياسة. كانت تعرف أن التضحية لا تُصفّق لها دائمًا، وأن المرأة التي تختار الواجب قد تخسر شيئًا من دفء الحياة. لكنها لم تُساوم، ولم تُحوّل الألم إلى شكوى.

أحبّها الناس بوصفها "أم المصريين"، لكنهم نسوا أحيانًا أنها امرأة لها قلبٌ يتعب. غير أن صفية لم تطلب اعترافًا شخصيًا. كانت تؤمن أن الوطن الذي تحمله بين جدران البيت يستحق أن يُقدَّم له القلب كاملًا، حتى وإن بقي الوجع بلا اسم.

رحلت صفية زغلول عام ١٩٤٦، بهدوءٍ يشبه طريقتها في الحياة. لم تترك وراءها خطبًا، لكنها تركت نموذجًا نادرًا لبطولة لا تُرى.

بطولة تُقاس بقدرة البيت على الصمود، وبقدرة المرأة على أن تكون سندًا حين يغيب السند.

ليست كل المعارك في الشارع، وليست كل البطولات على المنصّات. بعض النساء يصنعن التاريخ لأنهنّ عرفن كيف يحملن الوطن في القلب، وكيف يُبقينه حيًا حين تتكسّر الرايات في الخارج.

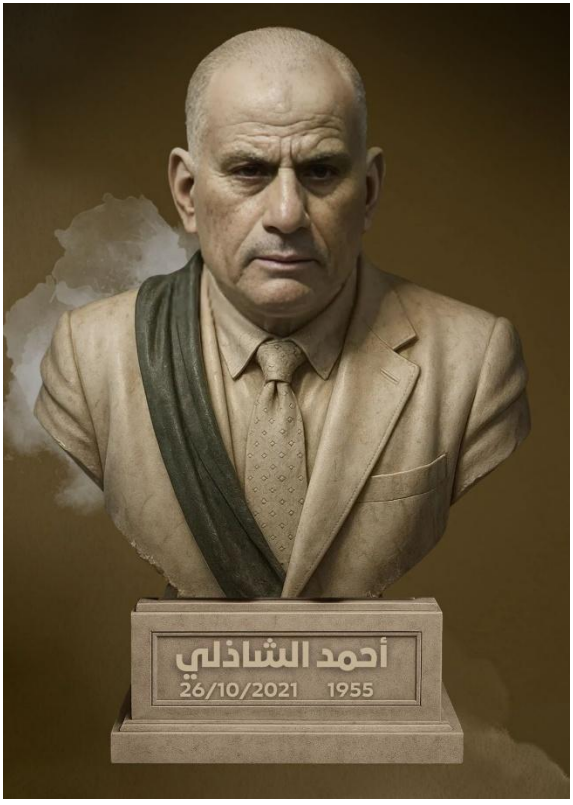
هكذا بقيت صفية زغلول وجهًا لا يغيب، لا لأنها هتفت، بل لأنها صبرت، وحملت، وحفظت المعنى من الانهيار، وتركت لنا درسًا بسيطًا وعميقًا: أن الوطن أحيانًا يحتاج قلبًا ثابتًا أكثر مما يحتاج هتافًا عاليًا.



وجوه لا تغيب...

رجال في بلاط استقلال القضاء(١)

من الجذور إلى الفكرة... حين صار العدل مشروع دولة



◆ ذاكرةُ الأمم لا تبدأ حين تشتدّ الأزمات، بل حين تُدرك أن ما يُنقذ الحاضر وُلد في الماضي. سؤالُ استقلال القضاء اليوم ليس وليد

لحظةٍ طارئة، بل امتدادٌ لسلسلة طويلة من رجالٍ آمنوا بأن العدل أساس الدولة، لا زينتها.

◆ ميلاد محمد صبري أبو علم يوم الاثنين ٢ يناير ١٨٩٣ بمحافظة المنوفية جاء في زمنٍ كانت فيه مصر تتلمّس طريقها بين الاحتلال والنهضة. القانون آنذاك لم يكن مهنةً باردة، بل ساحة صراع وطني لا تقلّ خطورة عن الشارع والسياسة.

◆ دراسةُ الحقوق عنده لم تكن باب رزق، بل بوابة مواجهة. نشاطه الوطني المبكر أدّى إلى فصله وتأخّر تخرّجه إلى عام ١٩١٦، واقعةٌ تُسجَّل كبداية وعيٍ ربط بين الحرية وسيادة القانون، لا بين النصوص والوظيفة.

◆ ثورةُ ١٩١٩ كشفت معدن الرجل. حضورٌ تنظيميّ وعملٌ هادئ بقدر ما كان الكلام صريحًا. قناعةٌ ترسّخت بأن الاستقلال السياسي بلا قضاء مستقل يظل منقوصًا وقابلًا للانكسار.

◆ دخولُ البرلمان عام ١٩٢٤ ضمن أول مجلس وفدي فتح صفحة جديدة. زمنُ الزعيم مصطفى النحاس لم يتعامل مع القضاء بوصفه جهازًا تابعًا، بل ركناً أصيلاً من أركان الدولة الحديثة.

◆ وزارةُ العدل في مسيرة صبري أبو علم لم تكن محطةً واحدة. ثلاث مرات حمل الحقيبة:

٢٧ ـــأبريل ١٩٣٧ (وزارة النحاس الرابعة)،

٤ ـــفبراير ١٩٤٢ (الوزارة الخامسة)،

ـــمن ٥ يوليو ١٩٤٢ حتى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ (الوزارة السادسة).

كل مرة كانت اختبارًا لإرادة الإصلاح لا وجاهة المنصب.

◆ تلك السنوات شهدت وضع كادرٍ خاص للقضاء، وإعداد مشروع قانون استقلاله، ونشأة نادي القضاة. مطالبُ اليوم تبدو جديدة في الخطاب، لكنها في الحقيقة ديونٌ مؤجَّلة منذ ذلك الزمن.

◆ فهمُ الرجل لطبيعة العدل تجاوز المنصة. رؤيةٌ أدركت أن استقلال القاضي يبدأ من أمان موقعه ومساره المهني. مقولته البرلمانية عام ١٩٤٣ ظلّت شاهدة: «القاضي الذي يخشى غدَه لا يستطيع أن يحكم بعدل اليوم».

◆ كلماتُ مصطفى النحاس في جلسات مجلس النواب عام ١٩٣٧ أكّدت المعنى ذاته: «استقلال القضاء صمام أمان الأمة». عبارةٌ تحوّلت سياسةً وتشريعًا، لا شعارًا للاستهلاك.

◆ هذا الأساس هو ما صنع السلسلة. أسماءٌ لاحقة لم تظهر من فراغ، بل وقفت على أرضٍ مهّدها صبري أبو علم ومن عاصروه. الفكرة سبقت الأشخاص، لكنها احتاجت رجالًا يحملونها عبر العقود.

◆ هنا يبرز قضاء مجلس الدولة بوصفه حارس المشروعية. دورٌ لم يكن نظريًا، بل ممارسة يومية واجهت القرار التنفيذي حين انحرف. أسماءٌ قليلة صنعت الفارق بالفعل لا بالضجيج.

◆ أحمد الشاذلي كان واحدًا من هؤلاء. قاضٍ شاب يوم افتتاح فرع مجلس الدولة بالمنصورة، وطالبُ حقوق في عامه الثاني يقف أمامه بطعنٍ أعدّه بنفسه ضد قرار أمني باستبعاده من انتخابات اتحاد طلاب كلية الحقوق، بعد أن كان رئيسًا للاتحاد في العام الأول.

◆ المشهدُ لم يكن عابرًا. القاضي صحّح شكل الدعوى، أعان التلميذ على الطريق القانوني، طلب توقيع أحد المحامين، ثم أصدر

في اليوم التالي حكمًا بإلغاء قرار الشطب والعودة إلى كشوف المرشحين. عدالةٌ تُمارَس لا تُحكى.

◆ التجربة لم تتوقف عند ذلك الحد. سنواتُ الاعتقال حملت فصولًا أخرى. صحفُ دعاوى كُتبت من داخل الزنزانة، قُدّمت أمام مجلس الدولة، وأحكامٌ صدرت تباعًا لصالح الحق. حريةُ الكتابة داخل السجن، الحقُّ في الصلاة بمسجد السجن، وحقوقٌ أخرى لم يُرفض فيها طلب واحد.

◆ هذا النوع من القضاء لا يصنع بطولة فردية، بل يرسّخ ثقةً عامة. قاضٍ لم يسأل عن الكلفة، ولم يساوم على المبدأ. هكذا تُفهم استقلالية القضاء حين تتحول إلى ممارسة يومية تحمي الأفراد لا العناوين.

◆ الرحيلُ عن الدنيا لا يُنهي الحضور. أثرُ أحمد الشاذلي ظل قائمًا في أحكامٍ صنعت الفارق وفي ذاكرة من لمسوا العدل بأيديهم قبل أن يقرأوه في الكتب. رحم الله الرجل رحمةً واسعة.

◆ هذه الحلقة الأولى لا تُغلق الباب، بل تفتحه. الجذور وُضعت، والفكرة تشكّلت، والسلسلة ممتدة. أسماءٌ أخرى ستأتي، ومواجهاتٌ أشد، وكلفةٌ أعلى.

◆ رجالُ بلاط استقلال القضاء لا يجتمعون في زمنٍ واحد، لكنهم يشتركون في معيارٍ واحد: العدل حين يُختبر لا يتراجع. تلك هي الحكاية التي تبدأ من هنا، وتستكمل فصولها في الحلقتين القادمتين.

وجوه لا تغيب...

رجال في بلاط استقلال القضاء(٢)

حين صار العدل مواجهة... من المنصة إلى الميدان



◆ لا تولد فكرة استقلال القضاء مكتملة، بل تُختبر حين تُحاصر. وفي اللحظات التي تضيق فيها المسافة بين القاضي

والسلطة، يظهر الفارق بين من يحفظ النص ومن يحمي المعنى. هنا تبدأ حكاية جيلٍ لم يكتفِ بالحديث عن الاستقلال، بل دفع ثمنه علنًا.

◆ في قلب هذه الحكاية يقف ممتاز نصار، رجلٌ جمع بين المنصة والبرلمان، وبين الهدوء المهني والاشتباك الوطني. وُلد في ٩ نوفمبر ١٩١٢ بالبداري في أسيوط، ومشى طريق القضاء حتى صار نائب رئيس محكمة النقض وعضو مجلس القضاء الأعلى، ثم رئيسًا لنادي القضاة بين ١٩٦٢ و١٩٦٩.

◆ تلك السنوات لم تكن عادية. السلطة أرادت قضاءً مُنضبط الإيقاع، بينما أراده نصار مستقيم الميزان. حين طُلب من القضاة الانضمام إلى الاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي، قال كلمته الواضحة: القضاء ملك الشعب كله، لا جناحًا في حزب ولا ملحقًا بسلطة.

◆ جاء عام ١٩٦٩ بما سُمّي لاحقًا «مذبحة القضاء». خرج نصار من المنصة، لكنه لم يخرج من المعركة. سُوّي معاشه على أساس رئيس محكمة النقض، المنصب الذي كان سيشغله بحكم الأقدمية، وكأن الدولة تعترف ضمنًا بما حاولت كسره علنًا.

◆ بعد الخروج القسري من القضاء، اختار طريقًا أشد وعورة: السياسة. ترشّح لعضوية مجلس الشعب عن دائرة البداري بأسيوط عام ١٩٧٦، ففاز من أول مواجهة، وبرز كأحد أنشط النواب في الاستجواب والرقابة.

◆ تحت القبة، واجه أنور السادات وسياساته، ووقف ضد توقيع اتفاقية كامب ديفيد. لم تكن المعارضة خطابًا، بل موقفًا أدّى إلى حل البرلمان عام ١٩٧٩، وكان اسم ممتاز نصار في صدارة الأسباب.

◆ عاد إلى الانتخابات بعد الحل، ورغم محاربة الدولة، خرج أهل دائرته يحرسون الصناديق بأجسادهم. فاز، ووصِف يومها بـ«النائب الذي انتصر على الرئيس». تجربةٌ أكدت أن القاضي حين ينزل السياسة لا يفقد وقاره، بل يمنحها معيارًا.

◆ في مطلع الثمانينيات، جمعني الوفد بالمستشار ممتاز نصار. في قاعات اجتماعات الحزب، كان الرجل قد أنهكه العمر ولم تُنهكه الفكرة. لم يكن يتحدث كثيرًا، لكن حضوره وحده كان درسًا في أن الاستقلال لا يُورّث بالكلمات بل بالسلوك.

◆ إلى جواره، وفي خطٍّ موازٍ لا يقل صلابة، يقف يحيى الرفاعي، الاسم الذي صار مرادفًا لمعركة استقلال القضاء في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي. قاضٍ لم يقبل أن تُدار العدالة من خارج قاعاتها.

◆ في مؤتمرات العدالة، وفي كلمات أُلقيت على مسامع السلطة مباشرة، قال الرفاعي ما لم يكن مألوفًا. بعض تلك الكلمات قيلت في حضور الرئيس حسني مبارك، وتحولت بعدها إلى أزمات مكتومة بين القضاء والسلطة التنفيذية.

◆ كان يؤمن أن القاضي إذا خاف، فقدَ المجتمع ملاذه الأخير. وأن استقلال القضاء لا يُحمى بالصمت، بل بالمواجهة المحسوبة. لذلك لم يكن غريبًا أن يُنظر إليه بوصفه صوتًا مزعجًا، لا لأنه يصرخ، بل لأنه يذكّر.

◆ هنا يتقاطع العام بالخاص. في أوائل الألفية، وأثناء الإعداد لبرنامج سياسي موسّع لحزب الغد، طرقتُ باب منزل المستشار يحيى الرفاعي في الزمالك، المنزل المواجه لكلية الفنون الجميلة، والجوار الذي سهّل اللقاء وعمّقه.

◆ جلستُ مع الرجل الكبير أعرض عليه البرنامج، خاصة الفصل المتعلق باستقلال القضاء. كان الفصل مطوّلًا، دقيقًا، ومشحونًا بتجارب مررنا بها. قرأ، وعلّق، وأبدى حماسًا صريحًا للفكرة قبل الصياغة.

◆ في لحظة صدق، عرضتُ عليه أن يكون رئيسًا شرفيًا للحزب. لم يرفض، بل طلب وقتًا للتفكير. وبعدها اعتذر بأدبٍ شديد، مبررًا ذلك بأسباب صحية بحتة، ومؤكدًا أن هذا الاعتذار لا يمنعه من إبداء الرأي والمشورة في كل ما يتصل باستقلال القضاء داخل البرنامج وأنشطة الحزب.

◆ ذلك الموقف، بقدر ما كان شخصيًا، كان كاشفًا لطبيعة الرجل. استقلالٌ لا يُقايض بالمواقع، وحضورٌ لا يحتاج إلى لافتة. هكذا تُصان الفكرة حين تُقدَّم على الذات.

◆ بين ممتاز نصار ويحيى الرفاعي خيطٌ واضح. الأول واجه من موقع القاضي ثم النائب، والثاني واجه من موقع القاضي الذي رفض الانسحاب إلى الصمت. كلاهما فهم أن العدالة حين تُحاصر، لا يكفي أن تُدافع عن نفسها داخل الملفات.

◆ هذا الجيل لم يورّثنا نصوصًا فقط، بل ورّثنا سؤالًا مفتوحًا: هل يمكن لقضاءٍ أن يكون مستقلًا في نظامٍ لا يحتمل الاستقلال؟ سؤالٌ ستجيب عنه الحلقة الثالثة، حين نصل إلى زمن الأحكام الفاصلة والكلفة الشخصية.

◆ إلى ذلك الحين، تبقى هذه الأسماء علاماتٍ لا تُمحى. لأن الوجوه التي وقفت حين كان الوقوف مكلفًا، لا تغيب، مهما تغيّرت الأزمنة.

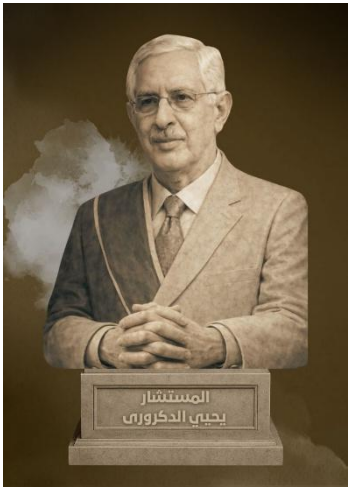
وجوه لا تغيب...

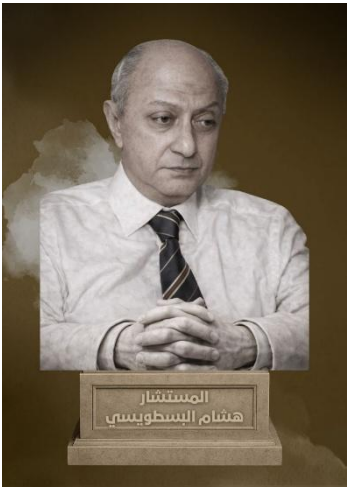
رجال في بلاط استقلال القضاء(٣)

من يحيى الرفاعي للدكروري ...

ومن هشام البسطويسي وجنينه

الاسف لصعود هشام بدوي





◆ لا يُختبر استقلال القضاء في لحظات الاستقرار، بل في الأزمنة التي تختلط فيها الحدود بين الدولة والسلطة، ويُطلب من القاضي أن يكون موظفًا مطيعًا لا ضميرًا يقظًا. في تلك اللحظات فقط، نعرف من بقي وفيًّا للعدل، ومن اختار السلامة.

◆ هذه الحلقة الختامية ليست تكميلًا عدديًا لسلسلة من ثلاث، بل لحظة كشف. كشف المعنى بعد تتبّع الجذور، ورصد المواجهات، والوقوف طويلًا أمام الأحكام التي صنعت الفارق، ثم الانتقال إلى سؤال الحاضر: لماذا نعود اليوم إلى استقلال القضاء؟ ولماذا الآن؟

◆ في قلب هذا المعنى يقف يحيى الدكروري، نائب رئيس مجلس الدولة، الذي أصدر يوم الثلاثاء ٢١ يونيو ٢٠١٦ حكمه التاريخي ببطلان اتفاقية ترسيم الحدود البحرية الخاصة بجزيرتي تيران وصنافير. حكمٌ لم يكن نزاعًا إداريًا عاديًا، بل لحظة سيادة مكتوبة بحبر القانون.

◆ الحكم استند إلى الدستور، وإلى تاريخ الدولة المصرية، وإلى قاعدة واضحة: السيادة لا تُفوَّض، ولا تُدار بقرارات تنفيذية. قال القضاء كلمته، فاهتزّ المشهد السياسي، وبقي الحكم شاهدًا على أن القاضي حين يستقل، يكتب تاريخًا لا سطرًا.

◆ من يعرف مسار يحيى الدكروري لا يُفاجأ بالحكم. استقلاله لم يبدأ في ٢٠١٦، بل تجلّى قبل ذلك بسنوات. ففي عام ٢٠٠٥، زمن أول انتخابات رئاسية تعددية في تاريخ مصر، كنت أحد المرشحين في مناخ أمني شديد الحساسية، وكان الدكروري يشغل موقع رئيس نادي الشمس بمصر الجديدة.

◆ بادر الرجل، من تلقاء نفسه، بدعوتي إلى لقاء وندوة مفتوحة مع أعضاء النادي وجمهوره الغفير. دعوة لم تكن محل ترحيب لدى الرئيس مبارك وأجهزته الأمنية، لكنها صدرت عن قاضٍ يعرف قيمة موقعه، ولا يخشى تبعات الموقف.

◆ الندوة انعقدت بالفعل، دون قيد أو شرط، ودون تدخل لإلغائها أو احتوائها. تقدير الدولة لمكانة يحيى الدكروري المهنية حال دون

العبث باللقاء. كانت رسالة صامتة لكنها عميقة: القاضي المستقل يصنع حوله مساحة حرية حتى في أضيق اللحظات.

◆ إلى جوار أحكام الدكروري، تظهر كلفة الاستقلال حين تتحول الحقيقة إلى عبء. هنا يستدعى اسم هشام جنينة، رئيس الجهاز المركزي للمحاسبات الأسبق، الذي أعلن في نهاية ٢٠١٥ أرقامًا صادمة عن حجم الفساد، فكانت الإقالة، ثم المحاكمة، ثم الإقصاء.

◆ لم يكن الخلاف حول الأرقام، بل حول حق القاضي في كشفها. وحين يُعاقَب القاضي لأنه مارس واجبه الرقابي، ندرك أن الاستقلال لا يُكافأ دائمًا، بل يُدفَع ثمنه.

◆ وقبل هشام جنينة، في الزمن، يبرز اسم هشام البسطويسي، أحد أنقى رموز تيار استقلال القضاء.

وُلد في مايو ١٩٥١ بالقاهرة، وتدرّج في السلك القضائي حتى صار نائبًا لرئيس محكمة النقض.

◆ البسطويسي لم يكتفِ بالتنظير. في انتخابات ٢٠٠٥ الرئاسية، ارتكب ما اعتبرته السلطة آنذاك «الخطيئة الكبرى»: كشف التزوير. أرسل صورة النتيجة الرسمية لمحافظة الإسكندرية، مختومة بختم النسر، عبر الفاكس إلى الصحفي ثروت شلبي بجريدة «الأهالي». ليسلمها لي بدأ بيد وكانت النتيجة الرسمية ٦٣٪، بينما أعلنتها لجنة الانتخابات ٣٦٪. صورة فاضحة للتلاعب، لا تقبل التأويل.

◆ منذ تلك اللحظة، دُفع الرجل ثمنًا باهظًا. حُوصِر، واستُهدِف، ثم شارك بعد ثورة يناير في العمل الوطني بلا تردد. خرج معنا في

وفد شعبي لزيارة دول حوض النيل، إيمانًا بأن القاضي لا ينفصل عن قضايا وطنه.

◆ ترشّح لانتخابات ٢٠١٢ بعد الثورة، ثم اضطر لاحقًا، تحت وطأة الضغوط، إلى مغادرة مصر والعمل في الكويت. ظلّ معطاءً حتى آخر أيامه، إلى أن فارق الحياة في ١٧ أبريل ٢٠٢١.

رحل جسدًا، وبقي نموذجًا لما يعنيه أن يكون القاضي شاهدًا لا شاهد زور.

◆ في السياق ذاته، لا يمكن تجاوز دور زكريا عبد العزيز، رئيس نادي القضاة الأسبق، وأحد أبرز وجوه حركة استقلال القضاء في ٢٠٠٥–٢٠٠٦، حين خرج القضاة من صمتهم دفاعًا عن مهنتهم، وعن حق المجتمع في قضاء مستقل.

◆ من صبري أبو علم، إلى ممتاز نصار، إلى يحيى الرفاعي، إلى البسطويسي والدكروري وجنينة، تتشكل سلسلة واحدة. اختلاف الأجيال لا يلغي وحدة المعنى. كلهم دفعوا كلفة الاستقلال بدرجات مختلفة، لكنهم اشتركوا في معيار واحد: أن القاضي لا يساوم.

◆ هنا نصل إلى السؤال الذي تعمّدت تأجيله حتى الخاتمة: لماذا نكتب الآن؟ ولماذا يُقلقنا اختيار هشام بدوي رئيسًا لمجلس النواب؟

◆ مراجعة المسار المهني لهشام بدوي تكشف نموذجًا نقيضًا لكل ما سبق. مسارٌ ارتبط طويلًا بأجهزة الاتهام والأمن، لا بفكرة الاستقلال، ومواقفٌ رسّخت تبعية القضاء للسلطة التنفيذية بدلًا من تحصينه منها.

◆ المقعد الذي جلس عليه سعد زغلول ومصطفى النحاس لم يكن يومًا موقع إدارة، بل رمزًا لدولة القانون. لذلك لا يكون الاعتراض على اختيار هشام بدوي انفعالًا سياسيًا، بل موقفًا مبدئيًا.

◆ من حق رجالٍ مرّوا في بلاط استقلال القضاء أن تتحول سيرتهم إلى مرآة نرى فيها الحاضر بوضوح. ومن حق الأجيال أن تفهم أن استقلال القضاء ليس ترفًا نخبويًا، بل شرط حرية المجتمع كله.

◆ لهذا كُتبت هذه السلسلة. لا للتمجيد، ولا للتشهير، بل للتمييز بين نموذجين: نموذجٍ يرى القضاء ضمير الدولة، ونموذجٍ يراه أداة في يدها.

◆ وجوه لا تغيب... لأن العدالة إن غابت، غابت الدولة، ولأن استدعاء الذاكرة أحيانًا هو آخر أشكال المقاومة الهادئة.



وجوه لا تغيب... ✳صبري أبو علم...
زعيم استقلال القضاء
الذي لم يجلس على منصاته✳



◆ لا يأتي استدعاء اسم محمد صبري أبو علم في شهر مولده من باب الحنين، بل من باب الحاجة. في زمنٍ يئن فيه القضاء

تحت أثقالٍ لا تخفى، نبحث عن معنى الاستقلال قبل أن نبحث عن نصوصه، وعن رجالٍ صنعوا الفكرة قبل أن تتحول إلى مواد قانونية جامدة.

◆ وُلد محمد صبري أبو علم يوم الاثنين ٢ يناير ١٨٩٣ بمحافظة المنوفية، في لحظةٍ تاريخية كانت مصر فيها تتلمّس طريقها بين الاحتلال والنهضة، وكان القانون أحد ميادين الصراع الوطني لا أقلّ أهمية من الشارع والسياسة.

◆ دخل مدرسة الحقوق، لا ليحترف مهنة، بل ليخوض معركة. ومنذ سنوات دراسته الأولى، انخرط في الحركة الوطنية، فدفع الثمن مبكرًا؛ فُصل بسبب نشاطه السياسي، وتأخر تخرجه إلى عام ١٩١٦، في واقعة تؤرخ لبدايات وعيٍ ربط بين الحرية والقانون.

◆ جاءت ثورة ١٩١٩، فكان أبو علم أحد عقولها التنظيمية الشابة، يعمل في الظل بقدر ما يتكلم في العلن، مؤمنًا بأن الثورة فعلٌ طويل النفس، لا هتافًا عابرًا. في تلك السنوات، تبلورت لديه قناعة أن الاستقلال السياسي بلا قضاء مستقل يظل ناقصًا ومهددًا.

◆ مع تأسيس الدولة الدستورية الحديثة، دخل البرلمان نائبًا في أول مجلس وفدي عام ١٩٢٤، ذلك الرجل الذي أدرك مبكرًا أن معركة الاستقلال لا تُحسم إلا بتحرير القضاء من أي وصاية.

◆ تولّى محمد صبري أبو علم وزارة العدل ثلاث مرات:

٢٧ ـــأبريل ١٩٣٧ في وزارة مصطفى النحاس الرابعة،

٤ ـــفبراير ١٩٤٢ في الوزارة الخامسة،

ـــثم من ٥ يوليو ١٩٤٢ حتى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ في الوزارة السادسة.

وفي كل مرة، لم يكن المنصب زينة سلطة، بل أداة إصلاح.

◆ في عهده، وُضع كادر خاص للقضاء، وأُعدّ مشروع قانون استقلال القضاء، وتأسس نادي القضاة، في خطواتٍ مؤرخة تمثل البنية الأولى لما نطالب به اليوم وكأنه مطلب مستحدث، بينما هو في الحقيقة دين مؤجل منذ عقود.

◆ لم يكن أبو علم قاضيًا يجلس على المنصة، لكنه كان رجل دولة فهم أن استقلال القاضي يبدأ من استقلال موقعه، وأمان معاشه، ووضوح مساره المهني. لذلك قال في إحدى مداخلاته البرلمانية عام ١٩٤٣ إن «القاضي الذي يخشى غدَه لا يستطيع أن يحكم بعدل اليوم».

◆ كان مصطفى النحاس يردد في جلسات مجلس النواب عام ١٩٣٧ أن «استقلال القضاء هو صمام أمان الأمة»، وهي عبارة لم تكن شعارًا بل سياسة حكومية تُرجمت إلى قوانين ومؤسسات، كان أبو علم أحد مهندسيها القانونيين.

◆ حين ننظر اليوم إلى أسماء عشنا في زمنها ودافعت عن استقلال القضاء، مثل المستشار يحيى الرفاعي، أو المستشار ممتاز نصار، فإننا لا نفعل ذلك لنقارن، بل لنفهم السلسلة. فهؤلاء لم يظهروا من فراغ، بل وقفوا على أرضٍ مهّدها رجال من طراز صبري أبو علم.

◆ في مجلس الشيوخ عام ١٩٤٥، عبّر أبو علم صراحة عن دعمه لتنظيم الملكية الزراعية، رابطًا بين العدالة الاجتماعية واستقلال القضاء، معتبرًا أن قضاءً يحمي امتيازات القلة لا يمكن أن يكون مستقلًا بحق.

◆ امتلك الصحافة كما امتلك القانون. كان صاحب امتياز صحيفة «صوت الأمة»، واستخدمها منبرًا للدفاع عن السيادة الوطنية، وشارك في إعداد مشروعات إلغاء الامتيازات الأجنبية، مؤكدًا أن العدالة لا تعترف بأنصاف السيادات.

◆ في واحدة من القضايا السياسية البارزة، سجّل عبد العزيز فهمي باشا في محضر جلسة بتاريخ ١٩٤٦ أن مذكرة محمد صبري أبو علم تمثل «نموذجًا راقيًا لأداء المحامي»، رغم الخلاف السياسي بينهما، في شهادة نادرة من خصم لا مجاملة فيه.

◆ لم يكن صبري أبو علم رجل صدام، بل رجل ميزان. يعرف متى يتقدم، ومتى ينسحب خطوة ليحفظ الفكرة. يزن كلماته كما يزن القاضي أحكامه، ويترك للصمت أحيانًا أن يكون أبلغ من البيان.

◆ جاء رحيله مبكرًا يوم الأحد ١٣ أبريل ١٩٤٧، عن عمر لم يتجاوز أربعة وخمسين عامًا. لكن الأعمار، كما التجارب، لا تُقاس بالسنوات بل بالأثر.

◆ في جنازته، تعانق مصطفى النحاس ومكرم عبيد، رغم ذروة الخصومة السياسية بينهما، في مشهد مؤرخ لذلك اليوم. لم يكن وداع رجل فقط، بل اعترافًا صامتًا بأن بعض الرجال أكبر من الانقسام.

◆ ونحن اليوم، في زمن تتجدد فيه الأسئلة حول القضاء، ونبحث فيه عن ضمانات حقيقية لا بيانات إنشائية، نحتاج أن نستدعي اسم محمد صبري أبو علم، لا لنبكي زمنًا مضى، بل لنفهم كيف بدأ الطريق، وأين انحرف، وكيف يمكن أن يعود.

◆ فاستقلال القضاء ليس فكرة مستوردة، ولا مطلبًا طارئًا، بل سطرًا أصيلًا في تاريخ هذا الوطن، كتبه رجال آمنوا أن العدل إذا اختلّ، اختلّ معه كل شيء.

◆ هكذا يبقى محمد صبري أبو علم وجهًا لا يغيب، لا لأننا عشنا في زمنه، بل لأن زمننا، أكثر من أي وقت مضى، يحتاج إلى ما مثّله اسمه... علمًا وعدلًا معًا.



وجوه نسائية لا تغيب...

منيرة ثابت... رجل أم امرأة؟



كانت الكلمات عندها تخرج كأنها تعرف طريقها إلى الخطر، تمشي بثبات فوق أرضٍ تعرف أنها ملغومة، ولا تلتفت. لم تكن ترفع صوتها طلبًا للفت الانتباه، بل لأن الصمت في تلك اللحظة كان خيانة، ولأن السكوت حين يُفرض يتحوّل إلى جريمة مكتملة الأركان. في نبرتها

شيء يقول إن الحقيقة لا تنتظر اكتمال الإجماع، وإن الشجاعة لا تحتاج إذنًا مسبقًا.

وُلدت منيرة ثابت في مطلع القرن العشرين، في زمنٍ كانت فيه مصر تتعلّم السياسة وهي تنظر خلف كتفها، وتتدرّب على الكلام بنصف جملة، وتؤجّل الأسئلة الثقيلة إلى أجل غير مسمّى. وسط صخب الاحتلال، ومساومات النخبة، وحيرة الشارع، ظلّ سؤال المرأة خارج الحساب، كأنه تفصيل يمكن تجاهله دون كلفة. هناك، في هذا الفراغ المقصود، تشكّل وعي منيرة المبكر.

لم تدخل عالم الصحافة من باب الصدفة، بل من باب القانون. درست الحقوق، فصار العقل عندها حادًّا كالنصل، لا يرضى بالزخرفة، ولا يطمئن للغة المواربة. كانت ترى أن الحقيقة إذا قيلت بنصف صوت فقدت معناها، وأن الجملة التي تُخفَّف لإرضاء الذوق العام تتحوّل إلى ديكور بلا روح.

في عشرينيات القرن الماضي، لم يكن مألوفًا أن تقف امرأة وتكتب عن الحكومة، وتسائل القصر، وتُسمّي الاحتلال باسمه. كان مسموحًا لها أن تكتب عن المشاعر، أو عن البيت، أو عن "قضايا المرأة" بالمعنى الضيّق، أما أن تكتب عن الدولة، وعن الحق السياسي، وعن المشاركة، فذلك خروجٌ عن الدور المرسوم. ومنيرة ثابت اختارت الخروج بلا تردّد.

طالبت بحق الانتخاب للنساء لا بوصفه منحة، بل بوصفه استحقاقًا. ربطت بين هذا الحق ومشاركة النساء في ثورة ١٩١٩، حين خرجن إلى الشارع، ووقفن في مواجهة الخطر ذاته، ودفعن من بيوتهنّ وأجسادهنّ ثمن الوطن. كان سؤالها بسيطًا ومربكًا: كيف

يُقصى من شارك؟ هذا السؤال وحده كان كافيًا ليصنع لها خصومًا أكثر مما يصنع لها أنصارًا.

واجهت منيرة الوسط الصحفي قبل أن تواجه السلطة. كانت تعرف أن الخوف لا يسكن القصور فقط، بل يسكن المكاتب أيضًا. كل محاولة حذف، وكل دعوة لتليين العبارة، كانت تراها اقتطاعًا من الحقيقة. لم تكن معنية بإرضاء أحد، لأنها كانت تعرف أن الحقيقة التي تُرضي الجميع ليست حقيقة.

حين أسست مجلتها «الأمل»، لم تكن تطلق مطبوعة جديدة، بل تفتح نافذة في جدارٍ سميك. كانت المجلة مساحة للقول الصريح، لا تعرف المراوغة، ولا تخشى العزلة. تعرّضت للمصادرة، وللملاحقة، لكنها بقيت شاهدة على أن الكلمة الحرة لا تُقاس بعمرها على الورق، بل بأثرها في الوعي.

في حياتها الخاصة، لم تكن منيرة أقل تعقيدًا من كتاباتها. دخل الحب حياتها، فوجدت نفسها أمام امتحانٍ قاسٍ: كيف تكون امرأة كاملة في مجتمع لا يحتمل إلا نصفها؟ حين خفَت الضوء، وطُلب منها أن تنسحب إلى الظل، عرفت أن المجتمع يصفّق للثائرة ما دامت بعيدة، لكنه يرتبك حين تصبح قريبة، وحين تطالب بأن تعيش كما تكتب.

عادت إلى الكتابة، وترشّحت للبرلمان، وسقطت. لم يكن السقوط هزيمة، بل مرآة لذاكرة عامة قصيرة، لا تحتفظ إلا بمن تُبقيهم السلطة في الضوء. الذاكرة، حين تُترك بلا عدالة، تنسى من سبقوا الزمن ودفعوا ثمن السبق وحدهم.

في سنواتها الأخيرة، عاشت المرض والوحدة، لا بوصفهما عقابًا، بل نتيجة طبيعية لمسارٍ لم يعرف المساومة. لم تتبرأ من أسئلتها، ولم

تطلب الصفح عنها. كانت تعرف أن السؤال، حتى لو أُهمل طويلًا، يظل حيًا، ينتظر لحظة الصدق القادمة.

لم تكن منيرة ثابت امرأةً من حجر، بل امرأة من لحمٍ وقلبٍ وارتباك. أخطأت وأصابت، ودفعت من عمرها ثمن كلمات قالتها قبل أن يصبح الزمن مستعدًا لها. لكنها تركت أثرًا لا يُقاس بعدد المناصب، بل بعدد العقول التي تجرّأت على الكلام بعدها.

بعض الوجوه لا تغيب لأنها انتصرت، بل لأنها رفضت أن تصمت. لأنها قالت الحقيقة وهي تعرف ثمنها، ومضت، تاركةً خلفها أثر خطواتٍ لا تمحوها السنوات، ولا يبتلعها النسيان. ومنيرة ثابت كانت واحدة من هؤلاء اللواتي سبقن الزمن، فدفعن فاتورة السبق كاملة، وبقين شاهدات على أن الكلمة حين تُقال في وقتها تصبح تاريخًا.

✳وجوه لا تغيب — أبو الخير نجيب

حين كان الوفد وطنًا لا حزبًا



◆ غيرُ واحدٍ سألني،

بدهشةٍ لا تخلو من حسن نية:

لماذا تُولي هذا الاهتمام بالشأن الوفدي،

وهو — في نظر البعض — شأنٌ يخص حزبًا آخر غادرته منذ ربع قرن؟

◆ لم أتوقف طويلًا عند مثل هذا السؤال، ولا شغلتني الإجابة عليه،

إلى أن عثرتُ، بالأمس فقط،

على عددٍ نادر من مجلةٍ

لا أظن أن كثيرين سمعوا بها من قبل،

اسمها: «مسامرات الحبيب».

◆ عددٌ رقيم، بالرقم (٩٠)،

وصدر في الثلاثين من مارس عام ١٩٤٧،

أي قبل ما يقرب من ثمانين عامًا،

يتصدره مقالٌ للصحفي المناضل

أبو الخير نجيب،

بعنوانٍ:

»الوفد يقرر الاكتتاب العام للقضية الفلسطينية

ويهدد بالانسحاب من مجلس الشيوخ.«

◆ دعوتُ من حولي إلى تكبير صورة المقال،

وقراءة ما تيسر منه،

خاصة فقرته الأولى،

التي قال فيها، منذ السطر الأول،

كلماتٍ لو كُتبت اليوم

لظنها البعض بيانًا مني أجيب به علي ذلك السؤال

فقط قال المقال-:

» الوفد المصري هو ابن الثورة،

فهو إذن ملكٌ للمصريين جميعًا،

وليس ملكًا لمصطفى النحاس،

أو صبري أبو علم،

أو نجيب الهلالي،

أو فؤاد سراج الدين.

فنحن حين نفزع من هول الخطر

الذي يحيق بالوفد،

فإنما نؤدي واجبًا وطنيًا

لا مهرب منه ولا محيص عنه.«

◆ أحسب أن هذه الفقرة،

وعمرها ثمانون عامًا،

تُجيب وحدها عن السؤال،

الذي يطرحه — غالبًا بحسن قصد—

من لا يعرفون كثيرًا عن الوفد،

وربما لا يعرفون

من هو أبو الخير نجيب.

◆ أبو الخير نجيب لم يأتِ إلى الصحافة زائرًا،

بل دخلها مقيمًا.

عرفها ساحة معركة،

لا منصة شهرة.

كتب وهو يعلم أن الكلمة

قد تُكلف صاحبها عمرًا،

فدفع عمره كاملًا

دون تردد.

◆ لم يسأل يومًا:

ماذا سأخسر؟

بل سأل السؤال الأخطر:

ماذا سيخسر الوطن إن صمتُّ؟

فاختار الضجيج النبيل للكلمة،

وجعل من القلم موقفًا.

◆ في السادس من يناير عام ١٩٤٨،

كتب مقاله الأسبوعي الشهير

»التيجان الهاوية«،

تعليقًا على خبرٍ نشرته الأهرام

عن تنازل ملك رومانيا عن العرش.

لم يكن المقال سبًّا ولا قذفًا،

بل مرآة.

والسلطة،
في كل العصور،
تخاف المرايا
أكثر مما تخاف السباب.

◆ وجّه أبو الخير نجيب رسالته
مباشرة إلى الملك فاروق،
وقال بوضوحٍ لا يعرف الالتواء:
إن الملك حين يهبط بنفسه
إلى معترك السياسة،
ويُقحم ذاته فيما ليس من اختصاصه،
يفقد الحصانة،
ويصبح رجلًا عاديًا
يُحاسَب كما يُحاسَب
رجل السياسة
ورجل الشارع سواءً بسواء.

◆ اهتزت الجهات المسؤولة،
وعلى رأسها القصر.
صودرت نسخ جريدة «النداء»،
واستُدعي الكاتب،
وعُرض على نيابة الصحافة،

وسُجن.

أفرج القضاء عنه،

لكن السلطة أبقته خلف القضبان،

حتى تدخل النقراشي باشا،

وهدد وزير العدل بالاستقالة،

فخرج أبو الخير...

ليعود فورًا إلى قلمه،

ويُصدر جريدة

»الجمهور المصري.«

◆ ثم جاءت يوليو ١٩٥٢،

فجاء الامتحان أقسى.

واصل هجومه على الفساد،

وطالب بحرية الصحافة

وسيادة القانون.

وحين انفجرت أزمة مارس

بين محمد نجيب

والضباط الأحرار،

كتب مقاله الأشهر

»النسور الهاوية«،

مطالبًا بعودة العسكريين

إلى ثكناتهم،

وترك الحكم للشعب.

◆ كانت الكلمة هذه المرة

أغلى من العمر.

قُدِّم إلى محكمة عسكرية،

واتُّهم بالخيانة.

صدر حكم بالإعدام،

ثم خُفف إلى الأشغال الشاقة المؤبدة،

والتجريد من شرف المواطنة.

تسعة عشر عامًا كاملة في السجن،

لا تُختصر في رقم،

بل تُقرأ كسيرة نضال

مكتوبة بالصبر.

لا يعرف معناها إلا من ذاق

مرارات السجون والمنافسة

◆ بين الجدران،

لم تتصالح روحه مع الصمت.

بقي القلم حاضرًا،

حتى وهو غائب.

وبقيت الفكرة

تمشي وحدها بين القطبان.

◆ بعد ١٩ عاما

خرج بإفراج صحي

بأمر من السادات،

منهك الجسد،

صافي اليقين.

لم يبدّل قناعاته،

ولم يخفف لغته.

كأن السجن

علّمه كيف يكتب

أشد...

وأعمق.

◆ لذا...جاءت النهاية صادمة.

حادث سيارة

أمام باب نقابة الصحفيين.

كأن القدر أراد

أن يضع الخاتمة

عند عتبة المهنة

التي عاش لها،

ومات في ظلّها،

ليظل دمه هناك
شاهدًا على الدور الحقيقي
للصحفي الحر.

◆ وهنا أعود إلى أصل الحكاية:
لماذا كتب أبو الخير نجيب
عن الوفد ما كتب؟

◆ لأن الوفد عنده
لم يكن حزبًا،
بل وطنًا.
معنىً عامًا،
وابن الثورة،
ولسان الناس،
وبيت التعدد.
لا الاقصاء

◆ لم يره «شأنًا داخليًا»،
بل فكرة.
والفكرة العامة
لا تُخصخص،
ولا تُدار بلوائح
ولا ببطاقات جمعية عمومية.

◆ حذّر من تمزيق الوفد إلى أسماء،
وقالها بوضوحٍ جارح:
حين ينكسر الوفد،
لا ينكسر تنظيم،
بل تختل كفة
الوطنية المدنية في مصر.

◆ دعا إلى الوحدة لا الصخب،
وإلى المجلس الجامع
لا المعارك الجانبية.
كان يعرف أن التشرذم
قوة زائفة،
وأن الخصم الحقيقي
ينتظر دائمًا
لحظة الغياب الأخلاقي.

◆ فلسطين عنده
لم تكن بندًا خارجيًا،
بل امتحان ضمير.
معيارًا صافيًا للموقف.
وكان يرى أن الوفد الأصيل
ينحاز بلا مواربة

لحقٍ واضح،
ورايةٍ لا تُطوى.

◆ لذلك بدا الغياب الأخير للوفد
في أحداث غزه موجعًا.
ليس غياب بيانات،
بل غياب صوتٍ أخلاقي
كان يجعل من الوفد
ضميرًا عامًا للأمة.

◆ كتب أبو الخير نجيب
ليقول — قبل ثمانين عامًا—
إن من يقبل الظلم بعيدًا
سيذوقه قريبًا،
ومن يساوم على الحق
يفقد حقه في الكلام.
جملٌ أهديها اليوم
لمن يتسابقون
على رئاسة الضمير.

◆ نعيد قراءة مقاله اليوم
لا حنينًا،
بل استعادة بوصلة.

نقرأه لنعرف

أن القلم قد يكون وطنًا،

وأن الوفد كان فكرة،

وأن فلسطين

كانت — وما زالت—

معيار الضمير.

◆ أبو الخير نجيب

وجهٌ لا يغيب.

لأن من عاش للكلمة،

ودفع عمره ثمنًا لها،

ومات عند باب النقابة،

لا يغادر الذاكرة...

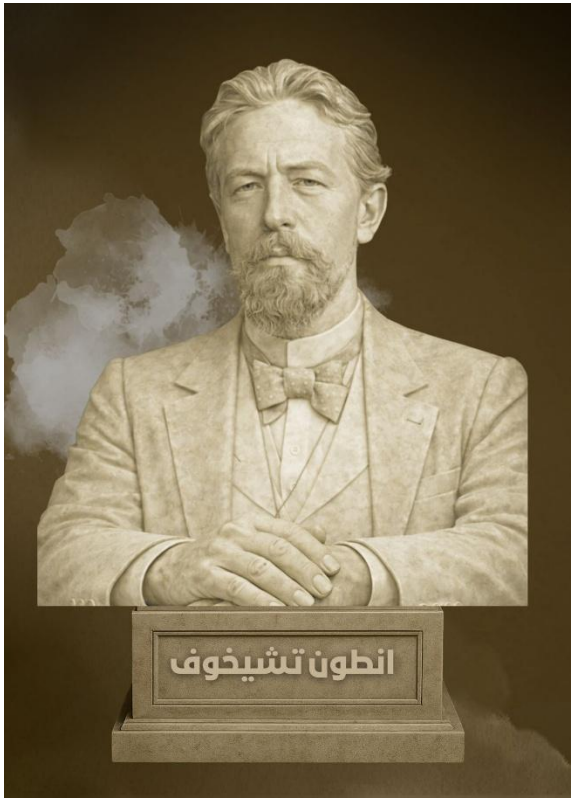
أبدًا.



وجوه لا تغيب...

المغفّلة

أنطون تشيخوف



- نقترب من عالم أنطون تشيخوف

حينها فقط، ندرك أن العبقرية الحقيقية لا ترفع صوتها بالصراخ بل بروعه الاستخلاص.

◆ تشيخوف لا يصرخ، ليُدين مباشرة، ولا يُلقي خطبًا أخلاقية.

يكتفي بأن يضع الإنسان أمام مرآته،

ويتركه وحيدًا مع صورته.

◆ قصة «المغفّلة» واحدة من أكثر نصوصه اختزالًا وفضحًا في آنٍ واحد.

حكايتها بسيطة إلى حد الخداع :

صاحب المنزل يستدعي مربيةً شابة تعمل في منزله ليحاسبها على أجرها،

ثم يبدأ، ببرودٍ محسوب، في خصم مبالغ متتالية بحجج واهية. مثلا-:

يومٌ غابت فيه،

كسرُ فنجان،

تأخيرٌ دقيقه عن الحضور .

◆ كل خصم يُسجَّل، وكل ظلمٍ يُمرَّر، والمربية تصمت، تتكمش، توافق، وتبكي في الداخل.

} ■ تشيخوف هنا لا يكتب عن المال، بل عن قابلية الإنسان للظلم حين يفقد شجاعة المطالبة بحقه{.

◆ المغفّلة ليست شخصية فردية،

بل حالة إنسانية متكررة :

خوفٌ يتخفّى في هيئة تهذيب،

وخضوعٌ يتزيّن بقناع الأدب.

◆ الصدمة الدرامية القاسية ليست

قسوة الرجل، في محاسبه المربية

بل النهاية. حين يكشف الرجل لعبته، ويعيد لها الراتب كاملًا، فيبدو نبيلًا كما قد يتوقع القارئ.

بل يتركنا تشيخوف أمام سؤال مُرّ:

لماذا قبلتِ الظلم من البداية؟

ولماذا احتاجتِ إلى رحمة ظالمٍ كي تستعيد حقها؟

◆ هنا تتجلّى عبقرية تشيخوف:

لا يُدين الرجل وحده، ولا يبرّئ الضحية بالكامل. يضعنا أمام معادلة أخلاقية معقّدة، حيث الضعف نفسه يصبح شريكًا صامتًا في الجريمة.

« 💢 المغفّلة» نصّ قصير، لكنه شديد الكثافة.

يصلح لكل الأزمنة،

لأن البشر لم يتغيّروا كثيرًا .

تتبدّل الوجوه والأنظمة،

ويبقى السؤال ذاته:

كم من حقٍّ ضاع لأن صاحبه خجل من المطالبة به؟

في قراءتي لهذه القصة، وأنا القادم من تجربة روسية عشتُها في زمن الانهيار والتحوّل، أدركتُ أن تشيخوف لم يكن يكتب عن القرن

التاسع عشر، بل عن كل لحظة يُختبر فيها الإنسان بين كرامته وخوفه.

وهنا، تحديدًا، يصبح الأدب فعلَ إنقاذ.

- تشيخوف، في «المغفّلة»، لا يمنحنا عزاءً.

يمنحنا وعيًا.

والوعي، كما تعلّمتُ متأخرًا، قد يأتي أحيانًا بعد سن ال٦٠...

لكنه حين يأتي، لا يرحل.



وجوه لا تغيب:

✳حكاية أم علي إبراهيم✳

◆ عام ١٨٧٩، تزوجت مبروكة خفاجي، فلاحة مصرية بسيطة من قرى كفر الشيخ، من إبراهيم عطا، الفلاح الأجير.

◆ بسبب ضيق الحال، طلقها زوجها وهي في شهور حملها الأخيرة. انتقلت مع والدتها وأخيها إلى الإسكندرية حيث أنجبت ابنها علي إبراهيم عطا.

◆ كان بإمكانها أن تستسلم.

لكنها اختارت أن تعمل بائعة جبن وتُدخل ابنها مدرسة رأس التين الأميرية.

◆ بعد حصوله على الابتدائية، حاول والده إعادته وتوظيفه. لكن مبروكة كان لديها حلم أكبر، فهربت به إلى القاهرة وأدخلته المدرسة الخديوية.

◆ تفوق علي ودخل مدرسة الطب في ١٨٩٧ وتخرّج عام ١٩٠١. بعد خمسة عشر عاماً، عالج السلطان حسين كامل، ثم مُنح البكاوية والباشاوية، وأصبح أول عميد مصري لكلية الطب، ثم رئيساً للجامعة، فوزيراً للصحة، فمؤسساً لنقابة الأطباء.

◆ والدته كانت فلاحة أمّية مطلقة. لكنها أثبتت أن صلاح المجتمعات يبدأ من أم عظيمة. تحية لكل أم هي مدرسة للحياة.

رسالة لوزير الثقافة

✳جائزة ٢٠٢٦ باسم مرقص حنا

الذي حمى مقبرة توت من التهريب✳



◆ أقترح على معالي وزير الثقافة الدكتور أحمد هنو، الذي نقدّر جهوده ، أن يُعلن عن جائزة باسم مرقص حنا لعام ٢٠٢٦

تكريماً بعد قرن من الزمان لوزيرٍ جعل الدفاع عن حضارة مصر لوحةً من ملامح تاريخه المنسي فما أهمله التاريخ.

◆ الجائزة نقترح ان تُمنح لأفضل الأبحاث في حماية الآثار، وجائزة أخري تشجيعية و شعبية لمن ساهموا في إيقاف تهريب الآثار خلال العام ٢٠٢٦

◆ وحين نتحدث عن مرقص حنا باشا (١٨٧٢-١٩٣٤)، فإننا نرسم لوحةً لرمزٍ وطنيٍّ لم يتبدد ضوؤه. وُلد في الرابع من سبتمبر عام ١٨٧٢، وتخرج في جامعة مونبلييه حاملاً درجة عليا في القانون. عاد إلى مصر ليبدأ مسيرةً حافلةً، من نيابة الإسكندرية إلى دمنهور وأسيوط، ثم استقال ليمارس المحاماة بحرية. افتتح مكتبه في حي الفجالة، (احد احياء دائرتي الانتخابية) وعمل معه وجوه وطنية مثل ويصا واصف وتوفيق دوس باشا.

◆ كان مرقص حنا في شبابه من مؤيدي الحزب الوطني، ثم التحق بركب سعد زغلول والنحاس باشا في الوفد. لم يُعرف عنه إلا الإخلاص لمصالح الشعب. كان عضواً مبكراً في الجامعة المصرية وأميناً لصندوقها، ومسهماً في تأسيس مدارس البنات وكلية البنات القبطية.

◆ تولّى الدفاع في قضايا وطنية هامة، وانتُخب نقيباً للمحامين عام ١٩١٩، وأعيد انتخابه خمس مرات. ترأس لجنة الوفد المركزية حين اعتُقل رئيسها، وكان أحد الزعماء الذين واجهوا حكماً بالإعدام في عام ١٩٢٢ بسبب بيان وطني.

◆ أما قصة توت عنخ آمون، فهي فصل البطولة. في حياته العامرة بالبطولات، فحين افتتحت المقبرة ،كان وزيراً للأشغال في حكومة الوفد و رأى مرقص حنا بعين الوزير الوطني تغطرس القائمين

عليها من الإنجليز. أصدر قراره بإغلاقها ومنع الزيارة غير العادلة، وأرسل الجنود المصريين لحمايتها. هاجمته "التايمز"، لكنه ظل صامداً، وأثبت أن كرامة مصر فوق كل هجوم.

◆ نأمل أن تبادر وزارة الثقافة ووزيرها المحترم بالإعلان عن هذه الجائزة، عام ٢٠٢٦ وبمناسبة مرور قرن علي موقفه

◆ ونؤكد أن جمعيه الشرق للثقافة والحضارة والفنون وكذلك المركز الثقافي المصري في إسطنبول التابع لها سيكونا دائماً سنداً لأي عمل يدعم حماية التراث الوطني والحضاري المصري، من منطلق إيماننا بأهمية العمل المشترك بين الدولة والمجتمع المدني لبناء جسرٍ قوي لحماية تاريخنا وآثارنا.

◆ ومن هنا، وفي أول أيام عام ٢٠٢٦، نعلن باسم جمعية الشرق للثقافة والحضارة والمركز الثقافي المصري في إسطنبول عن تبنّي حملة تحت عنوان

" الحضارة ليست للتجارة"

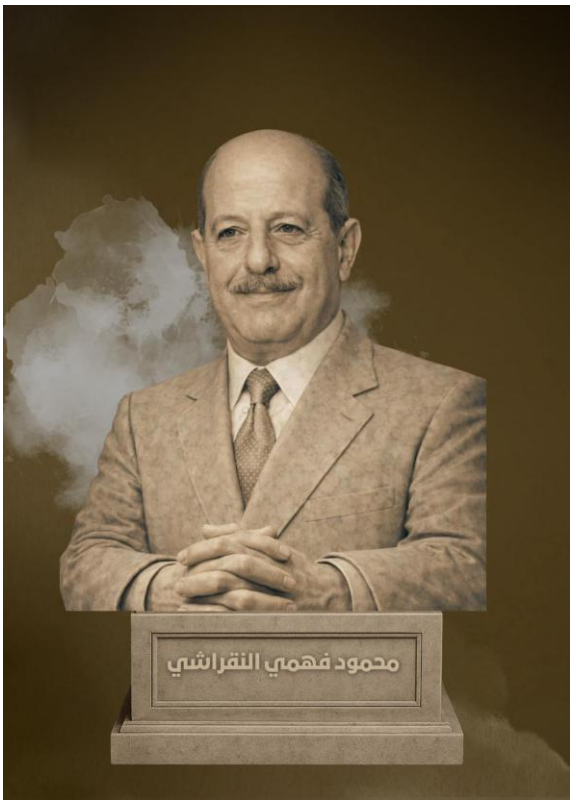
لمكافحة كافة أشكال تهريب الآثار والتوعية بمخاطرها على مصلحة الوطن والأجيال المقبلة، وكذلك المطالبة الشعبية باستعادة كافة الآثار المصرية في الخارج .

■ ومن جانبنا، نعلن اننا سنزيح الستار عن مجسم يحمل صورة مرقص حنا باشا في ذكرى يوم مولده. سبتمبر المقبل ٢٠٢٦

فمرقص حنا باشا وجهٌ لا يغيب، وجائزته وتكريمه دعوة لنقول للأجيال القادمة: "الحضارة ليست للتجارة".

وجوه لا تغيب...

٧٧ عامًا على رحيل النقراشي باشا



◆ سبعة وسبعون عامًا انقضت، وما زال وجهه حاضرًا في وجدان مصر، لا بوصفه ذكرى عابرة، بل علامةً فارقةً في تاريخٍ تعلّم بصعوبةٍ كيف تُدار السياسة، وكيف يُدفع ثمنها.

◆ محمود فهمي النقراشي لم يكن طيفًا في سجل الحكومات، بل رجلًا تشكّل وعيه في قلب الحركة الوطنية، وسار طويلًا بين القانون والسلطة، محاولًا أن يوازن بينهما في زمنٍ اختلّ فيه الميزان.

◆ خرج من مدرسة سعد زغلول، وتشرّب معنى الوطنية التي لا تُختصر في الهتاف، بل تُبنى بالتراكم والصبر، وتُختبر عند الشدائد.

◆ عرف بيت الأمة، ووقف قريبًا من صفية زغلول، حيث السياسة أخلاق قبل أن تكون أرقامًا ومقاعد، وحيث الرمز أحيانًا أقوى من القرار.

◆ جمعته بالوفد علاقةُ انتماءٍ ثم اختلاف، فكان قربه من مصطفى النحاس قربَ رفاق دربٍ قبل أن تفرّقهم الرؤى، لا الخصومات الشخصية.

◆ حين احتدمت الخلافات داخل الوفد، لم يكن الخروج تمرّدًا، بل انتقالًا من صيغةٍ إلى أخرى، بحثًا عن تصورٍ مختلف لإدارة الدولة في زمنٍ شديد الاضطراب.

◆ أسّس مع آخرين مسارًا سياسيًا مستقلًا، وظلّ يؤمن أن الدولة لا تقوم إلا على القانون، مهما بدا الطريق قاسيًا ومكلفًا.

◆ جاءت رئاسته للحكومة في لحظةٍ ملتهبة؛ حربٌ في الخارج، واحتقانٌ في الداخل، وساحةٌ سياسية مزدحمة بالتنظيمات والأفكار المتصارعة.

◆ اختار الجمع بين رئاسة الوزراء ووزارة الداخلية، فكان القرار ثقيلًا، لكنه عكس إيمانًا بأن المسؤولية لا تُجزّأ حين تتعرض الدولة للاهتزاز.

◆ في صباح الثامن والعشرين من ديسمبر ١٩٤٨، كانت القاهرة تمضي إلى يومٍ عادي في ظاهره، بينما كان التاريخ يتهيأ لصفحةٍ دامية.

◆ عند العاشرة إلا الثلث، دخل شابٌ يرتدي زيّ ضابط برتبة ملازم أول إلى صالة وزارة الداخلية بالطابق الأول، فتلقّى التحية العسكرية من الحراس، ومضى يتمهّل في السير، كأنه ينتظر إشارةً لا يراها سواه.

◆ بدا المشهد عاديًا، خطواتٌ بطيئة، نظراتٌ ثابتة، وصمتٌ يسبق العاصفة، فيما كان المصعد شاهدًا صامتًا على ما سيأتي.

◆ مع اقتراب العاشرة، تحرّك الشاب نحو المصعد، ووقف إلى جواره الأيمن، في انتظار وصول رئيس الحكومة.

◆ عند العاشرة وخمس دقائق، وصل النقراشي باشا، نزل من سيارته محاطًا بحرسه، واتجه نحو المصعد بخطواتٍ معتادة، لا تشي بشيءٍ غير انتظام اليوم.

◆ أدّى الشاب التحية العسكرية، فردّها النقراشي بابتسامةٍ عابرة، ابتسامة رجلٍ يثق في نظامٍ اعتاد أن يحميه.

◆ في اللحظة التي همّ فيها بالدخول إلى المصعد، ارتفع المسدس من خلفه، وانطلقت رصاصتان أصابتا ظهره، فسقط على أرض الوزارة غارقًا في دمه.

◆ ارتبك المكان، تداخلت الصرخات مع الأوامر، واندفع الحراس والجنود نحو مطلق النار، فانتزعوا السلاح من يده وسيطروا عليه في لحظات.

◆ نُقلت الجثة إلى غرفة وكيل إدارة الأمن العام صلاح الدين مرتجي، حيث أسلم النقراشي الروح بعد دقائق، وانتهت حياة رجلٍ في ذروة السلطة.

◆ أُعلن أن القاتل طالبٌ شاب بكلية الطب البيطري بجامعة فؤاد الأول، لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره، لتتحول الواقعة من حادث اغتيال إلى قضية رأي عام تهزّ المجتمع كله.

◆ سبقت الحادثةَ قراراتٌ سياسية جسيمة، من بينها حلّ جماعة الإخوان المسلمين في الثامن من ديسمبر ١٩٤٨، في سياقٍ متوترٍ شهد حوادث عنف متفرقة خلال سنواتٍ سابقة.

◆ جاءت تلك القرارات في مناخٍ متشابك، تداخلت فيه السياسة بالأمن، والاحتجاج بالرصاص، والخطاب العام بالخوف والشك.

◆ عقب الاغتيال، صدرت بيانات استنكار وتبرؤ، في محاولةٍ لاحتواء الصدمة، بينما ظلّ الشارع المصري مذهولًا أمام ما جرى.

◆ لم تمرّ شهور حتى اغتيل حسن البنا، لتدخل البلاد في دوامةٍ جديدة من الأسئلة الثقيلة حول العنف وحدود السياسة.

◆ علاقة النقراشي برجالات الوفد، ومنهم فؤاد باشا سراج الدين، تعكس صورة جيلٍ كاملٍ حاول أن يحافظ على الليبرالية في زمنٍ كانت الرياح فيه عاتية.

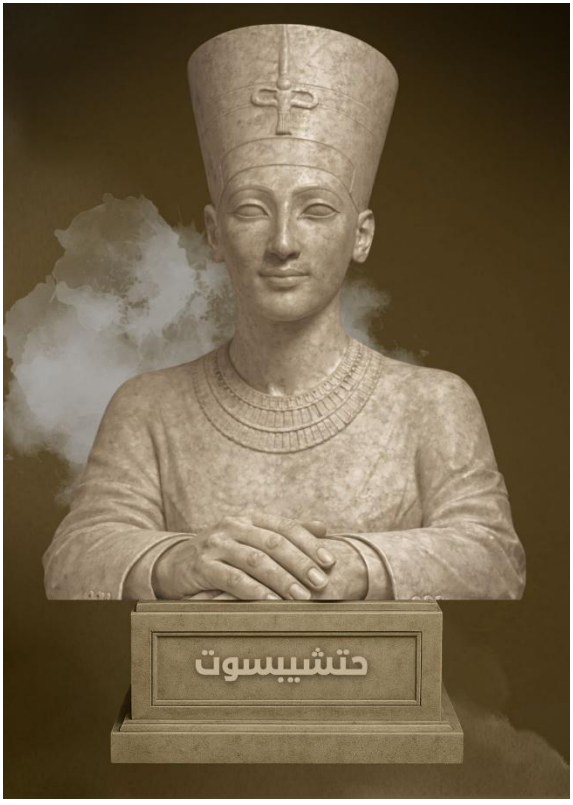
◆ لم يكن الاغتيال نهاية أزمة، بل بدا كأنه افتتاح فصلٍ أكثر قسوة، تعلّمت فيه الدولة أن الرصاص لا يحسم الأفكار، بل يضاعف جراحها.

◆ سبعة وسبعون عامًا مرّت، وبقيت الواقعة درسًا مفتوحًا في ذاكرة السياسة المصرية، يُقرأ كلما عاد العنف إلى الواجهة.

- الاسم ما زال حاضرًا، لا بوصفه ضحيةً فقط، بل شاهدًا على لحظةٍ التقت فيها السلطة بالقانون، وافترقا على درج وزارة.
- هكذا يظلّ النقراشي باشا جزءًا من سرد الدولة، صفحةً لا تُطوى، لأن ما كُتب فيها لم يكن دمًا فحسب، بل تحذيرًا متجددًا من أن السياسة حين تفقد عقلها، تدفع الأوطان ثمن ذلك طويلًا.



لماذا اختار هذه السيدة لحكم مصر؟



أنّ التاريخ يهمس في آذاننا من وراء الزمن، يحكي لنا عن سيدةٍ من طين هذه الأرض، نبتت من حضارة النيل لا لتكون مجرد حاكمة، بل لتكون قصيدةً منقوشة على جدران المجد.

وحين تسألني لماذا اخترتُ الملكة حتشبسوت لتكون التمثال الأكبر في متحف الحضارة المصرية في إسطنبول، حيث يتجاوز طول تمثالها ٦ أمتار، فأقول لك:

لو خُيّرتُ اليوم بين سيداتٍ لحكم مصر، فبالقطع لن أختار الدكتورة هالة السعيد أو الوزيرة النشار مع احترامي لهن، بل سأختار هذه السيدة القادمة من عمق الزمن، لأنها حاكمة أدركت قيمة الدولة قبل لذّة السلطة.

حتشبسوت لم تكن مجرد استثناءٍ نسوي، بل كانت استثناءً سياسياً فريداً؛

امرأةٌ جلست على العرش لا لتقصي وريثاً ولا لتغلق أبواب المستقبل، بل لتقيم ميزان العدل بين الشرعية والحكمة.

الاسم ذاته يحمل دلالة؛ «حتشبسوت» تعني «أشرفُ السيداتِ منزلة»،

وقد عاشت اسمها فعلاً لنحو واحدٍ وعشرين عاماً في القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

جاءت بعد والدها تحتمس الأول، وفي مرحلةٍ انتقالية أعقبت تحتمس الثاني،

أبقت الوريث الشرعي تحتمس الثالث حاضراً في القصر، لم تنفيه ولم تمح اسمه، بل جعلته شريكاً صامتاً يتعلّم، ويقود الجيش شاباً.

ازدهرت التجارة والعمارة في عهدها، وارتفعت معابد الدير البحري كأنها أبياتٌ من شعرٍ فرعوني؛

لم تكن استعراضاً للسلطة بل انسجاماً بين الروح والحجر.

وفي تمثالها تجلس جاثيةً، تمسك كرتين ترمزان للعدل والحرية،

كأنها تصلي لقيمة خالدة: أن الحكم الحقيقي لا يُكتب إلا بمنطق العدل وشرط الحرية.

المفارقة أن اسمها مُحي بعد رحيلها بسنوات، لا ثأراً شخصياً بل محاولةً لإعادة عقيدة "الملك الذكر."

ومع ذلك بقيت سيرتها أقوى من النسيان، لأن الحكم حين يُدار بأخلاقٍ خالدة يترك أثراً لا يُمحى.

مصر التي نحبّها لا تبحث عن معجزات، بل عن حكمٍ يُدار كما تُدار الصلاة: خشوعاً وعدلاً وحرية.

ومن بين ظلال التاريخ، تلوّح حتشبسوت لنا أن نختار الدولة التي تعرف كيف توازن بين القوة والإنسانية، ليكون الاختيار اختياراً للحضارة نفسها.

وجوه لا تغيب...

✳حزب محمد صبحي✳



- تكوَّن فجأة ما يشبه الحزب، بلا مقرّ، بلا تمويل، بلا تعليمات، بلا لجان او ذباب اليكتروني
- حزب خرج من القلب لا من الغرف المغلقة، تحرّكه غريزة الوفاء لا حسابات المصالح .

◆ ملايين المصريين انتفضوا كما لو أنّ يدًا امتدّت إلى أبٍ في البيت،

أو أستاذٍ في الفصل،

أو قيمةٍ في الذاكرة.

◆ الغضب الشعبي سبق غضب صاحب الشأن، وتحوّل الانزعاج الجمعي إلى صوت أعلى من أي ميكروفون.

◆ امتلأت الصفحات بنداء واحد غير مكتوب:

هذا الرجل منّا.

لم يكن الدفاع عن فنان

بل عن معنى .

احتشدت الكلمات لتقول إن من اختار أن يهب فنه لوطنه، دون صفقات أو وسطاء، او كفيل، يستحق أن تحمله القلوب لا السجّادات الحمراء. تكريمٌ خرج فهو من الناس إلى الناس،

بلا مهرجان وبلا لافتة، أو ازرع او رعاية

فكان أصدق من كل منصّاتهم.

◆ سيذكر الزمن أن أشرس محاولة لاغتيال فنان مصري لم تأتِ من عدوٍ معلن، ولا من قوةٍ خارجية طالما فضحها على المسرح، ولا من جماعات تخاصمه وتحترمه،

بل خرجت—على مرأى—من منصّات تتزيّن باسم "مصر"، وتخاصم روحها وتهين رموزها.

◆ الغريب أن الوعي الشعبي كان أسرع من قنواتهم وصحفهم والخدم في بلاطهم ، وأن البوصلة العامة لم تنخدع.

◆ مظاهرة حب غير مسبوقة تشكّلت، كسرت سهامًا صدئة، وفضحت دوافع مريبة تريد إطفاء آخر الشموع التي ترفض الظلام.

◆ زمن الرداءة لا يحتمل القامات. مشروعه بسيط ووحشي: إزاحة الشرفاء، تسويق العبث، تحويل السخرية إلى بديل للفن، معاقبة من يربط الإبداع بالقيم، والسخرية من الاستمرار في عالمٍ يطلب الاستسلام. هكذا تُدار الحملات حين تضيق الأرض بأصحاب المعنى.

◆ في مواجهة هذا المشهد، بدا السؤال أوضح: لماذا هذا الهجوم الآن؟ لأن وجود القامة يفضح خواء المرحلة، ولأن الصوت الذي لا يُشترى يُربك السوق، ولأن الفن حين يصرّ على الأخلاق يُفسد الصفقات.

◆ الجريمة—في عرفهم—أن الأمل لم يمت. أن صاحب المسرح لا يزال يحاول، ويعزف منفردًا، ويرفض أن يشبه زمنه. أن الحب للوطن لم يتحوّل إلى شعار، بل ظل ممارسة يومية، حتى حين يُغتال معنى الكرامة علنًا.

◆ هنا تحديدًا وُلد "حزب محمد صبحي": حزب بلا برنامج مكتوب، برنامجه الذاكرة. بلا قيادة، قائده الضمير. بلا دعاية، دعايته السيرة. حزب يؤمن أن الفن ليس ترفًا، وأن المسرح ليس رفاهية، وأن الكلمة حين تصدق تُربك أكثر مما تُسلي.

◆ هذا الحزب لا يرفع صورًا، بل يرفع قيمة. لا يطلب مكسبًا، بل يحمي معنى. لا يخاصم أحدًا، لكنه يفضح الرداءة أينما اختبأت. حزب يعرف أن الدفاع عن الفنان دفاع عن المجتمع، وأن حماية القامة حماية للذوق العام.

◆ سيبقى الاسم حاضرًا لأن الغياب لا يطال من سكن الوجدان. سيبقى لأن الناس قرّرت أن تتكفّل بالحراسة. سيبقى لأن الفن حين يكون ابنًا للناس، يصير الناس أباه.

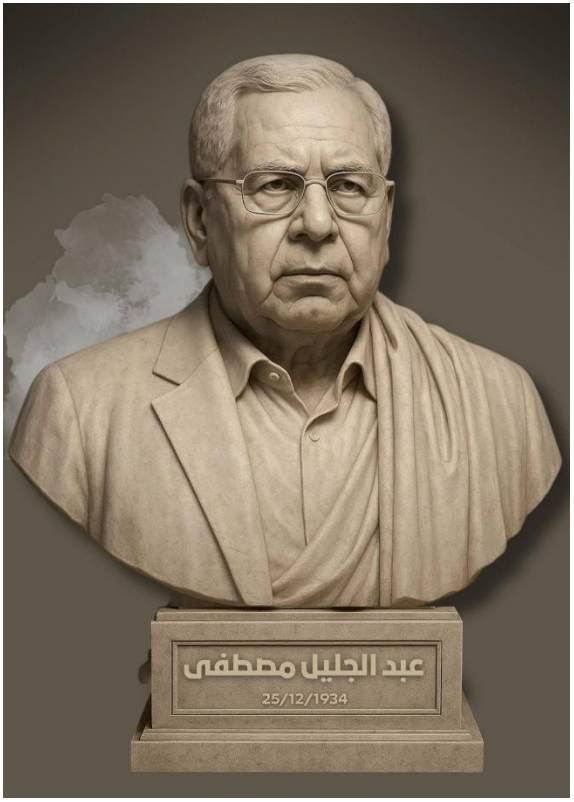
◆ هكذا تُكتب الحكاية: حين تحرّكت مشاعر المصريين، تحرّك التاريخ خطوةً إلى الأمام، ووقف إلى جوار محمد صبحي—لا بصفته فنانًا فقط—بل باعتباره علامةً على أن هذا البلد، مهما قُدِّمت له الرداءة، لا يزال يعرف قيمة الجمال.



وجوه لا تغيب...

✳️عبد الجليل مصطفى... شيخُ السياسيين المصريين في عامه الثاني والتسعين✳️..

بقلب 🫶 وقلم: د. أيمن نور



◆ لا يشيخ الوطن ما دام فيه رجلٌ يشبه الوصايا القديمة، ولا يهرم الحلم ما دام بيننا من يحمله كشمعةٍ في مهبّ الريح، تحترق لتضيء... ولا تنطفئ.

◆ نلتقي الليلة، في تمام الثامنة مساءً، في المركز الثقافي المصري بإسطنبول، وفي الصالون الثقافي الملحق بمتحف «وجوه لا تغيب»، لنحتفل بعيد ميلاد رجلٍ بدأ اليوم عامه الثاني والتسعين، وكأنه يبدأ الوطن من جديد.

◆ عبد الجليل مصطفى ليس اسمًا عابرًا في سجل السياسة، ولا توقيعًا على بيانٍ قديم، بل ضميرٌ يمشي على قدمين، وصوتٌ منخفض النبرة... عالي المعنى.

◆ يسألني شاب، بعينين لم تتلوثا بعد بخيبات الميدان — :

من هو؟

فأجيبه بلا تردد، وبلا خطابة:

هو شيخ شيوخ السياسيين المصريين،

ومعلّم الصبر الطويل،

وحارس الفكرة

حين ينام الجميع.

◆ عاش للناس طبيبًا، يداوي الجسد...

ولا ينسى الروح،

وعاش للوطن مناضلًا جسورًا،

لا يرفع قبضته إلا دفاعًا عن حق،

ولا يخفض صوته إلا احترامًا للحقيقة.

◆ بعض الرجال لا يملكون رفاهية التراجع،

ليس عنادًا ...

بل لأنهم يعرفون أن الفكرة إن تُركت وحدها بردت،

وأن الوطن إن غاب عنه شهوده الصادقون صار ساحةً بلا ذاكرة.

◆ عبد الجليل مصطفى

من هذا الصنف النادر، الذي لا يغيّر موقعه بتغيّر الطقس،

ولا يبدّل بوصلته لأن الطريق طال،

يمشي كما بدأ... هادئًا، مستقيمًا، كأن الزمن هو العابر وهو المقيم.

◆ تعلّمتُ منه أن السياسة ليست صخبًا،

ولا سباقَ لافتات،

بل صبرٌ طويل على فكرةٍ تعرف طريقها

ولو تعثّر الحالمون بها ألف مرة.

◆ كان حاضرًا كلما احتجنا صوتًا لا يزايد،

ورأيًا لا يساوم، وكتفًا لا يتأخر حين يثقل الحمل على من اختاروا الطريق الأصعب.

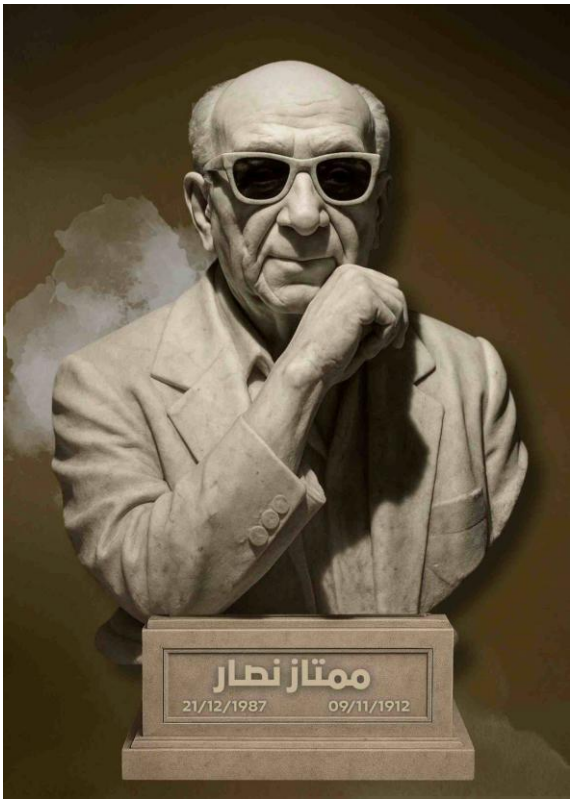
◆ متمنّين أن يبقى هذا الوجه الذي لا يغيب مثالاً للصمود والصبر،

وأن نحتفل دائماً أن شاء الله بوجود من يشبهون عبد الجليل مصطفى في حياة هذا الوطن.

▨وجوه لا تغيب▨...

✳في ذكراه السابعة والثلاثين:

عشتُ في زمن ممتاز نصار✳



◆ أن تعيش زمناً يضيء فيه قضاةٌ كبار مثل المستشار ممتاز نصار، فذلك شرفٌ لا تمحوه السنون. التقيته في بدايات طريقي، وأنا

أتلمّس خطواتي الأولى في الوفد، فوجدت في حضوره نبراساً ينير الطريق.

◆ كان نصار قاضياً لم يعرف الخضوع. في مذبحة القضاء عام ١٩٦٩، وقف كالجبل الراسخ في وجه العاصفة. رفض أن يكون للقضاء سيدٌ غير العدل، فصار اسمه مرادفاً للنزاهة.

◆ في البرلمان، حين تصدى لاتفاقية كامب ديفيد، لم يكن صوته مجرد معارضة، بل كان ضميراً حياً يتحدث باسم أمة. وعندما حُلّ البرلمان، عاد إلى مقعده بإرادة شعبية لا تعرف الخنوع.

◆ إن دفاعه عن هضبة الأهرام لم يكن مجرد قضية قانونية، بل كان قصيدةً وطنية تحفظ ذاكرة مصر. كل موقفٍ له كان لوحةً ترسمها القيم التي لا تُمحى.

◆ ومعه في تلك المرحلة، عاصرت قاماتٍ أخرى كالأستاذ عادل عيد والمهندس الدكتور محمود القاضي، وغيرهم من رموزٍ كانت علامات على طريق الوطن. عشتُ في زمنهم، وتعلّمت من نبل مواقفهم كيف يكون الثبات على المبدأ.

◆ واليوم، حين يقف تمثال ممتاز نصار في معرض "وجوه لا تغيب" بالمركز الثقافي المصري في إسطنبول، نشهد أن الذاكرة لم تخنه. سبعة وثلاثون عاماً لم تمحُ أثره، بل زادته حضوراً.

◆ إن القيم التي حملها نصار، من العدالة إلى الشجاعة، لم تكن مجرّد شعارات، بل كانت نبراساً يضيء الدرب لمن بعده. إنه وجهٌ لا يغيب عن ذاكرة من عرفوه.

◆ في كل فقرةٍ من حياته نقرأ دروساً من الإنسانية. لم يكن مجرد قاضٍ أو نائب، بل كان إنساناً يحمل هموم الناس، ويدافع عنهم بقلبٍ شاعرٍ وأديب.

◆ وهكذا، بين قامةٍ وقامة، كان ممتاز نصار واحداً من أولئك الذين نعتزّ بأننا عشنا في زمانهم. مع عادل عيد، مع محمود القاضي، ومع كل من حمل شعلة الحرية والعدل في تلك الأيام، كانت هذه القامات نجوماً في سماء مصر.

◆ سبعة وثلاثون عاماً تمرّ، لكن ذكراه تبقى كحكاية تُروى، كقصيدة تُتلى، وكقيمة نعتز بها. إنه الممتاز نصار، الذي علمنا أن بعض الوجوه لا تغيب مهما مرّ الزمن.



وجوه لا تغيب...

السيد البدوي٢ : حكيم الوفد وظلّ العائلة الوسطية



وجوهٌ في تاريخنا تشعّ كأنها نجوم أضاءت سماء الوفدية، ومن بين تلك النجوم يلمع اسم السيد البدوي، الرجل الذي عرفتُه وعرفته ذاكرتي، والذي ورثت محبة والدي له في قلبي كما يورّث الآباء أبناءهم أصدق المشاعر.

نصف عمري أمضيته في دروب الوفد، في ظل فؤاد باشا سراج الدين، أستاذي وأستاذ السيد البدوي، حيث تعلّمت أن الوفدية ليست مجرد انتماء، بل هي روحٌ تسري في العروق وتجمع تحت ظلّها كل من آمن بالوطن.

السيد البدوي لم يكن زعيماً عابراً، بل كان حكيم العائلة الوفدية الذي لم يُنتخب لهذا اللقب، بل اختاره الوفديون والوطنيون لأنه كان جسراً يربط الماضي بالحاضر، يجمع ولا يفرّق، ويجعل الحكمة نهجاً والاعتدال سبيلاً.

في مواقفه رأينا كيف يكون السياسي بالفطرة إنساناً قبل أن يكون قائداً.

هو من قال: "الوفد بيت الأمة، وحكمة الاعتدال هي مفتاحه".

وهكذا كان البدوي، ظلّاً ظليلاً يجمع المختلفين بحكمة الكبار ودفء العائلة.

وما زالت كلمات فؤاد باشا سراج الدين تتردد في ذاكرتي قائلاً: "رجلٌ واحد يمكن أن يجسّد روح الوفد، ويحفظ إرثه كأنّه يحفظ نبض القلب".

ورأيت في السيد البدوي ذلك النبض الذي ورثته عن أبي، محبةً موروثة ووفاءً يزداد مع الأيام.

وفي ختام هذه الحكاية، لا يسعني إلا أن أقول إن السيد البدوي سيبقى رمزاً لا يغيب في ذاكرة الوفد، وحكيماً يظلّل العائلة الوفدية بظلال الحكمة والمحبة المتوارثة.

إنه ذلك الوجه الذي يكتب تاريخاً من الوفاء والصور البلاغية، ويبقى في القلوب كحكاية لا تنتهي، ترويها الأجيال جيلاً بعد جيل.

وجوه لا تغيب...

أمين الرافعي... حين صار القلمُ وطنًا



يجيء أمين الرافعي في الذاكرة لا كاسمٍ في كتاب، بل كنبضٍ قديمٍ ما زال يطرق أبواب الحاضر. يولد اليوم من جديد، لا بتاريخ ميلاده، بل بما تركه من رجفةٍ في يد الطغيان، ومن يقينٍ في قلب الوطن بأن الكلمة إذا صدقت صارت سيفًا، وإذا خلصت غدت صلاة.

خرج أمين الرافعي إلى الدنيا في الزقازيق، زمنَ كانت مصر فيه تتعلّم كيف تقول "لا" بلغتها الخاصة. لم يكن الميلاد حدثًا عابرًا، بل بداية سيرة لقلمٍ قرر مبكرًا ألا يكون شاهد زور. تعلّم القانون في مدرسة الحقوق، لكنه آمن أن العدالة لا تسكن النصوص وحدها، بل تحتاج من يحملها في صدره ويواجه بها العالم.

اختار طريق مصطفى كامل، لا لأن الرجل زعيم، بل لأن الفكرة كانت وطنًا. انتمى إلى الحزب الوطني، وكتب في جريدة اللواء، فكانت المقالة بيانًا، وكان العنوان مظاهرة، وكانت الجملة الأولى دائمًا بداية اشتباك مع الاحتلال لا نهاية رأي.

تنقّل بين الصحف كما يتنقّل المقاتل بين الخنادق؛ العدل، العلم، الشعب، وكلها كانت أسماءً لمعركة واحدة. كتب ضد الاحتلال الإنجليزي، وصرخ في وجه الغزو الإيطالي لليبيا، ورأى العروبة قدرًا لا شعارًا، وكتبها بدم القلب لا بحبر المكاتب.

لم يغفر له الإنجليز صدقه، فكان الاعتقال نصيبه في الحرب العالمية الأولى. خرج من الزنزانة أكثر وضوحًا، كأن الحديد صقل المعنى لا الجسد. أنشأ جريدة الأخبار، فصارت منبرًا لا يُشترى، حتى حين أغضب الملك فؤاد ورفض حلّ مجلس النواب، فأُغلقت الجريدة وعادت أكثر شراسة، معلنة أن الوطنية ديننا والاستقلال حياتنا ليست عبارة بل عقيدة.

اقترب من حزب الوفد زمن الثورة، وعمل مع سعد زغلول، ثم افترق الطريقان. اختلفا، لا على حب الوطن، بل على كيف يُستردّ. رفض المناصب، وترك المواقع، واختار العزلة الشريفة، حيث لا سلطان فوق الكلمة، ولا وصاية على الضمير.

ظلّ أمين الرافعي يكتب وحده، مستقلاً كما ينبغي للكلمة الحرة أن تكون. صار القلم عنده مدفعًا، والفكرة حصنًا، والمقالة صلاة صباحية في محراب الحرية. ترك كتبًا تشبهه؛ صادقة، حادة، موجعة، كأنها كُتبت لتبقى لا لتُرضي.

رحل مبكرًا، في التاسع والعشرين من ديسمبر عام ألفٍ وتسعمائةٍ وسبعةٍ وعشرين، لكن مصر خرجت كلّها في وداعه. شيّعته كما تُشيّع الأوطان أبناءها الكبار، لأن الناس أدركوا، بالفطرة، أن هذا الرجل لم يكن صحفيًا فقط، بل كان معنى.

يبقى أمين الرافعي شاهدًا على زمنٍ كانت فيه الصحافة موقفًا، والكلمة قدرًا، والكاتب مشروع تضحية. لذلك لم يغب، ولن يغيب، لأنه من أولئك الذين إذا رحلوا جسدًا، بقوا ضميرًا... من وجوه لا تغيب.

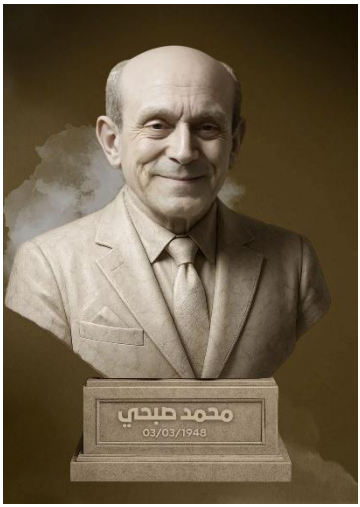


وجوه لا تغيب

أم كلثوم ومحمد صبحي وعبلة كامل:

رموز تحت مطرقة المحاكم الرقمية





ليست السوشيال ميديا ساحة نقاش، بل صارت . في كثير من لحظاتها . محاكم تفتيش رقمية،

تدخل بيوت الناس بلا استئذان، وتفتّش القلوب قبل الملفات، وتُصدر أحكامها أسرع من الضوء، وتنفّذها قبل أن يسأل أحد: من القاضي؟ ومن الشاهد؟ ومن صاحب المصلحة؟

الخطر الحقيقي لا يكمن في نقد فنان أو اختلاف مع سياسي،

بل حين تتحوّل حملات الهدم المنظّم إلى بديل عن العقل، وحين يُدار "الغضب العام" بأزرار، وتُصنَع "الترندات" داخل غرف مظلمة،

وتُقاد الجموع كما تُقاد القطعان، بين رأي عام ورأي موجّه تفصل بينهما لجان إلكترونية تعمل بالأجر... وتقتل بلا دم.

محمد صبحي قبل أي اتهام، هو تاريخ كامل من المسرح الجاد،

ومدرسة أخلاقية في زمن الانفلات. ما جرى معه نموذج مكرّر: قصّ واقعة من سياقها، وتحويل الزحام إلى جريمة، ثم إطلاق الكلاب الإلكترونية لتنهش السمعة.

عبلة كامل امرأة اختارت الصمت حين كان الصراخ أسهل،

وحين طالتها القسوة لم ترفع صوتها بالشكوى، بل بالرحمة: "رفقًا بالقلوب... وأنا مسامحاكم".

وبين أم كلثوم ومحمد صبحي وعبلة كامل، نرى رموزًا أخرى كشادية ونور الشريف وغيرهم،

ممن لحقهم ذات التشويه. الأرقام تقول إن أكثر من ٦٠٪ من الحملات المسيئة على السوشيال ميديا تقودها حسابات وهمية. السؤال ليس هل يخطئ الفنانون؟ بل: من يملك حق الذبح المعنوي؟

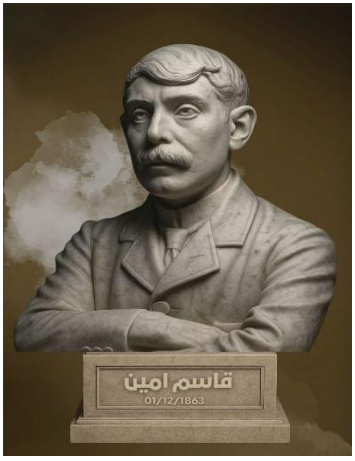
مصر لا تُهدم فقط بإسقاط التماثيل،

بل بهدم رموزها الحيّة في السياسة والفن والرياضة والذاكرة الجماعية.



وجوه لا تغيب...

حين يتقدّم العقل ويقاوم الحلم الانكسار





وجوهٌ لا تمرّ في الذاكرة مرور العابرين،

بل تستقرّ فيها كما تستقرّ الأسئلة الكبرى في ضمير الأمم. وجوهٌ لم تطلب التصفيق، ولم تُحسن المساومة، فاختارت أن تدفع ثمن الصدق كاملًا، دون تقسيط أو انتظار تعويض. من بين هذه الوجوه، يطلّ قاسم أمين وصلاح جاهين، لا بوصفهما شخصين من زمن مضى، بل بوصفهما حالتين إنسانيتين ما زالتا تمشيان بيننا.

قاسم أمين لم يدخل المعركة صاخبًا،

ولم يرفع راية التمرّد على طريقة الهواة، بل تقدّم بالعقل عاريًا إلا من الحجة، وقال لمجتمعٍ خائف من المرآة: إن المرأة إنسان كامل،

وإن انتقاصها انتقاص للوطن نفسه. لم يكن كلامه عن المرأة وحدها، بل عن الحرية حين تُحبس في نصف المجتمع، فتختنق في نصفه الآخر. هكذا وُلدت أفكاره يتيمة، لا سند لها سوى شجاعتها، ولا حماية لها سوى صدقها.

صلاح جاهين جاء من الطريق المعاكس.

لم يحمل كتابًا فلسفيًا، بل حمل ضحكةً واسعة، تخفي خلفها قلبًا هشًّا وأسئلةً موجعة. كتب بالعامية لأن الحقيقة، حين تُقال ببساطة، تصير أكثر فتكًا. ضحك كي لا يموت الناس من الحزن، وبكى في داخله لأن الحلم كان أكبر من قدرة الواقع على الاحتمال. وحين انكسرت الفكرة الكبرى، لم يملك إلا أن ينكسر معها، في صمتٍ لا يسمعه إلا من عرفوا أن الضحك أحيانًا شكلٌ آخر من أشكال المقاومة.

التقى الرجلان عند الحرية، وافترقا في الطريق إليها. واحدٌ قال: افهموا لتتحرروا. والآخر همس: أحبّوا لتحتملوا الحرية. العقل عند قاسم أمين كان أداة إنقاذ، والقلب عند صلاح جاهين كان ساحة اشتباك. كلاهما دفع ثمن السبق، لأن المجتمع لا يغفر لمن يراه قبل أن يراه هو.

الاتهام كان جاهزًا دائمًا. هذا اتُّهم بالكفر والتغريب لأنه فتح نافذة، وذاك اتُّهم بالسطحية لأنه خبّأ الفلسفة في نكتة. غير أن الزمن، حين هدأ غباره، فعل ما لم يفعله المعاصرون. ما كان جريمةً صار درسًا، وما كان سخريةً صار حكمة، وما كان صدمةً صار بداية وعي متأخر.

وجوه لا تغيب، لأنها لم تبحث عن خلاص فردي، بل عن معنى عام. لأنها آمنت أن الوطن لا يُبنى باليقين المريح، بل بالسؤال

المقلق. ولأنها أدركت، مبكرًا، أن الحرية لا تأتي دفعةً واحدة، بل تدخل متسللة: فكرةً عند مفكر، ودمعةً عند شاعر، ثم وجعًا طويلًا في قلب أمة تتعلّم المشي من جديد.

كلما تعثّرنا في سؤال التقدّم، عاد قاسم أمين ليذكّرنا أن العقل أول الطريق. وكلما ثقل القلب وخذلتنا الأحلام، عاد صلاح جاهين ليقول إن الإنسان، رغم كل شيء، ما زال قادرًا على أن يضحك... وأن يحلم.

تلك ليست حكاية رجلين، بل شهادة وطنٍ لم ينتهِ بعد من دفع ثمن تأخّره، ولم يفقد—بعد—حقّه في المحاولة.



وجوه لا تغيب...
✳رحيل فنارة الإسكندرية
ومنارة التنوير في القاهرة✳





◆ غيابان وقعا في الساعات الأخيرة، لا كخبرٍ يُتلى، بل كأثرٍ يتسلّل ببطء إلى القلب. لحظةٌ يتراجع فيها الصخب، ويتقدّم المعنى، كأن مصر اختارت الصمت لتقول ما لا يُقال.

◆ الدكتور محمد عبد اللاه

ابن الإسكندرية الذي حمل البحر في نبرته، والمدينة في مزاجه، والسياسة في أخلاقه قبل خطابها. لم تكن الدولة عنده موقعًا، بل سلوكًا؛ ولم تكن الدبلوماسية منصّة، بل ذوقًا إنسانيًا يُمارَس في

التفاصيل الصغيرة. عرفته إنسانًا يسبق اللقب، وصديقًا يسبق الموقع، ورجل دولة لا يرفع صوته لأنه واثق من حجته.

رحلات القطار بين بروكسل و**باريس** كشفت جوهره بعيدًا عن العدسات: تواضعٌ بلا ادّعاء، ووفاءٌ لا يتبدّل، ومحبةٌ صريحة لمدرسة الوفد ولقامة فؤاد باشا سراج الدين. عاش أكبر من لحظته، فحاصرته اللحظة؛ بقي واقفًا في المسافة التي تحفظ الكرامة، لا قريبًا بما يكفي ليُستدعى، ولا بعيدًا بما يكفي ليُقصى. غاب الجسد، وبقي الأثر؛ وفنارة الإسكندرية تعرف طريقها، حتى حين يخفت الضوء.

◆ محمد هاشم

قلبُ القاهرة الذي كان يخفق بالحبر لا بالهتاف. ناسكُ الكلمة، وحارسُ وسط البلد، وآخر المؤمنين بأن الثقافة صلاةٌ طويلة لا تُقاس بالعائد. دار ميريت لم تكن عنوانًا على لافتة، بل بيتًا للقلق الجميل، ومائدةً يجلس حولها المختلفون بلا شروط.

نشر لمن كتبوا بقلوبهم قبل أسمائهم، ووقف في الشارع حين اختار غيره الشرفات، وآمن بأن الثورة تبدأ جملةً صادقة قبل أن تصير هتافًا. لم يُحسن لعبة السوق لأنه اختار لعبة المعنى. لم يُراكم لأنه أنفق عمره بسخاء. لم يحسب الربح لأنه عرف أن المجد لا يُخزَّن.

قسا المشهد حين عوقبت الروح بمنطق الجباية، وحين حوسبت الثقافة بأرقامٍ لا تفهمها. غير أن ميريت—كما شرقيات—ليست دارًا تُغلق، بل فصلًا لا يُطوى. قد تختفي اللافتة، وقد يُمحى العنوان، لكن تاريخ الكتابة في هذه المدينة لا يُروى دون المرور من هناك.

◆ وجعٌ لأن القاهرة بدونه تُشبه مسرحًا أُطفئت أنواره وبقي الديكور. حزنٌ لأن قبائل الرداءة ضجّت في السماء ثم هبطت، وتركت المكان عاريًا من النبل.

سلامٌ على الجدع المصري الذي لم يساوم، ولم يبدّل جلده، ولم يعتذر عن انحيازه للكلمة.

وسلامٌ على رجلٍ علّمنا أن السياسة يمكن أن تكون أخلاقًا، وأن الثقافة يمكن أن تكون وطنًا.

◆ خسارةٌ لا تُقاس بالزمن، بل بالضوء. وفي الساعات الأخيرة، تراجع الضوء خطوة... وبقي علينا أن نحرس ما تبقّى.



✳تمثال حمدي قنديل يصفع المدّعين✳



◆ اليوم نكشف الستار، في ذكراه السابعة، عن تمثال الإعلامي الكبير حمدي قنديل في معرض الشخصيات بمتحف وجوه لا تغيب داخل المركز الثقافي المصري بالشرق.

نحتفل لا بحجرٍ صامت، بل بضميرٍ كان يمشي بيننا.

■ تمثالٌ من الصدق لا من البرونز، من النور لا من الضوء الصناعي، لرجلٍ لم يبدّل وجهه حين تبدّل الوجوه، ولم يُغيّر ملامحه حين تبدّل الملامح. مثل ما تتبدل الملابس والاطلاع والمصالح..

◆ يقف قنديل بيننا شامخًا كرمزٍ لزمنٍ كان فيه الإعلام ضميرًا حيًّا، لا مهنةً أو وسيلة للكسب الشهرة.

كأنه بقيمه وقيمته يوجه صفعة على وجوه لا تعرف الوجل ممن يلبسون ويخلعون القناع بلا خجل.

■ صفعة حمدي على قناديل الصدأ التي لم تُنر يومًا رغم كثرة الزيت، لأنها فقدت زيت الشرف، فخبت قبل أن تشتعل يوما.

◆ وجه حمدي قنديل في متحفنا يشبه الصدق حين يتجسّد، والنبل حين يتخذ ملامح إنسان.

إنه وجهٌ تعرفه مصر من ذاكرتها، قبل أن تتعرّف عليه في الحجر، لأن حضوره سابق على التمثال، وذكراه أسبق من النحت.

◆ حين تتأمل ملامحه، في صوره التمثال المرفقة تراها ترسم تاريخًا من الصدق والمواقف، فكل تجعيدةٍ على جبينه تحكي قصة صمود، وكل نظرةٍ من عينيه تقول:

"الإعلام ليس ضجيجًا، وادعاء بل ضميرٌ يهمس بالحقيقة".

◆ عرفته في مطلع التسعينات، قبل أن تجمعنا ميادين السياسة والنضال.

كان اللقاء الأول في برنامجه الشهير قلم رصاص، حيث كان يكتب بالضوء على جدار العتمة.

لم يكن صوته عاليًا، ولم يقل يومًا كلمةً نابية، لم يدعي بطوله لكنه كان صادقا كحدّ السيف.

قلمه لم يُطلق الرصاص، لكنه أصاب قلوب الزيف، وترك في الصدور أثرًا لا يُمحى.

◆ كان يكتب الحقيقة كما تُكتب الأشجار: جذورٌ في الأرض، وأغصانٌ في السماء.

لم يتلوّن، ولم يبع قلمه في سوق الضجيج والنخاسة.

كان حبره طاهرًا من شوائب الطمع، وكان يؤمن أن الإعلامي الحقيقي لا يسعني ان يُصفّق له أحد، بل يُضيء الطريق لمن يسيرون في الظلام.

◆ وحين جمعتنا الجمعية الوطنية للتغيير، رأيت فيه وجه الوطن لا مجرد وجه معروف.

كان صوته حين يتحدث عن مصر يشبه صوت النيل وهو يفيض، هادئًا في مظهره، جارفًا في مضمونه.

لم يكن يتلعثم حين يتحدث عن الحق، ولم يتراجع حين تُنصَب مشانق الكلام.

◆ في ميدان التحرير، رأيته كما عهدته دائمًا: هادئًا كنيلٍ قديم، وثائرًا كفجرٍ يُكسر صمت الليل.

لم يكن يبحث عن الكاميرا، والمال والشهرة بل عن الحقيقة.

■ لم يكن إعلاميًا يُريد التصفيق، بل شاهدًا يُريد أن يُنقذ وطن من ألسنة الزيف.

◆ لن أنسى وقوفه إلى جواري في فترات اعتقالي وفي انتخابات الرئاسة عام ٢٠٠٥، حين واجهتُ منظومةً ظالمة كانت ترى الوطن مزرعةً والمواطنين قطعانًا.

وقف حمدي إلى جواري متحديا بعض أصحاب الهوى والغرض

كان يقول ايمن نور دفع ويدفع الثمن من دمه وحياته وحريته وأنتم تقبضون ثمًنا لما لم تفعله

■ هكذا يقف الشريف مع من يشاركه الحلم، دون طموح في مكسبٍ أو خشيه من خسارة.

فكان يعلم أن الخسارة أمام الباطل شرفٌ لا يُقاس بالأرقام، وأن غياب الانصاف في لحظات الازمه تجاره رخيصة وخيانة للوطن والضمير.

◆ ويوم رحل أبي، حضر حمدي قنديل رغم المراقبة، رغم العيون التي تكتب الأسماء في دفاتر الخوف.

حضر لأنه لا يعرف نصف الوفاء، ولا يؤمن بنصف المواقف.

كان حضوره يومها عزاءً بحجم وطنٍ، ودرسًا في الوفاء والصدق لا يُنسى.

◆ لم يكن حمدي قنديل ممثلًا لدور الوطني، بل كان الوطن نفسه حين ينطق.

لم يلبس البطولة كوشاحٍ للظهور،

بل كانت البطولة تسكنه.

■ لم يركض وراء الضوء، والمال بل كان الضوء يركض إليه.

كان يعرف أن الحقيقة لا تُزيَّن بالادعاءات والافتراءات والمؤامرات الظنية بالمؤثرات، الدرامية، المكذوبة

بل تُقال من القلب، فيسمعها القلب.

◆ وُلد في زمنٍ كانت فيه الكلمة تُكتب بالمسؤولية لا بالرتوش.

بدأ رحلته من صفحات مجلة آخر ساعة، ثم انتقل إلى شاشة التلفزيون المصري، وبرامجه الأولى أقوال الصحف ورئيس التحرير.

صنع جيلًا يرى قبل أن يُصدّق، ويسمع قبل أن يصفّق، وأثبت أن الإعلام رسالة لا تجارة.

◆ علّم جمهوره أن الصحفي لا يبيع الخبر، بل يزرعه.

أن الإعلامي لا يُبيع الوهم، ولا يسوق لنفسه بل يُحاسبها ويقوم أمراضها أولا بأول.

■ كان حواره مع الملوك والرؤساء مثل حواره مع الطلبة، نظيفًا، متوازنًا، صادقًا.

لم يخشَ أحدًا، ولم يطلب عونًا ماليًا من أحد، لأن الكلمة عنده كانت وطنًا يُقيم فيه ويكفيه.

◆ رغم الشهرة والعواصم والضوء، بقي طبيعيا سويا قريبًا من الناس، بلهجته المصرية الصافية.

لم يتغيّر حين تغيّر المكان، ولم يتخلّ عن روحه حين تبدّلت الشاشات.

ظلّ مصريًا حتى العظم، عربيًا حتى آخر نبضة.

رفض أن يكون نجمًا، وأصرّ أن يكون إنسانًا.

◆ حين انخرط في الثورة، حمل القلم في يد، والحلم في الأخرى.

آمن أن الإعلام مرآةً للحدث، وليس صانعه.

كان صوته في الميدان مثل نشيدٍ يعرفه كل من أحبّ مصر، يهتف بلا ميكروفون:

"الحق أقوى من الطغيان".

◆ ذاق مرارة التضييق والغربة، ولم يتاجر بما تعرض له، في وقت غادر مصر كما يغادر طائرٌ جريحٌ عشه، لكنه ظلّ يحمل ترابها في جناحيه.

لم يبدّل ضميره،

كان يعرف أن الغربة لا تُقصي من الوطن من سكن الوطن في قلبه.

◆ زواجه من الفنانة الكبيرة نجلاء فتحي كان أجمل فصول حياته الإنسانية.

كانت رفيقة الدرب والضوء في العتمة، تمسح عن جبينه التعب وتبتسم له كما تبتسم الأنهار للمطر.

ظلّت إلى جواره في مرضه، في نضاله، تقول له بعينيها:

"كل تعبٍ معك جميل".

◆ كنت أتمنى أن أدعوها لحضور إزاحة الستار عن تمثال حبيبها، لكني أدرك حجم الحرج الذي يحيط بمثل هذه الدعوة.

ومع ذلك، فهي بيننا بقلبها، بفنها، برقتها، بأصولها الطيبة.

وجودها في الوجدان لا يحتاج إلى كرسي في الصف الأول، لأن مكانها محفوظ في ذاكرة الحب والوفاء.

◆ اليوم، ونحن نكشف الستار عن تمثاله، لا نضع أمامنا قطعة برونزٍ جامدة، بل مرآةً من ضميرٍ حيّ.

تمثالٌ لرجلٍ لم يُغيّر كلمته، ولم يُساوم أحد، ولم يترك الميكروفون إلا ليسلّمه للحقيقة.

◆ لو وُضع حمدي قنديل في كفّة، ووُضع كل يتشبهون به في كفّة أخرى، لمالت كفّته دون أن يتكلم، لأن الحقيقة أثقل من الذهب، ولأن الضمير لا يحتاج إلى إعلانٍ كي يضيء.

◆ أشتاق إلى حمدي قنديل، إلى كل "حمدي قنديل" لم يخن من كان معه أو ضده، ولم يبدّل صوته، ولم يخرس قلمه.

أشتاق إلى زمنٍ كان فيه الإعلام مرآةً للناس لا مرآةً للهوي.

◆ التمثال الذي يقف اليوم في متحف وجوه لا تغيب

ليس فنًا صامتًا، بل شهادة ناطقة.

شاهد وفاءٍ من الأوفياء للأوفياء، من الإعلام الحرّ للإعلام الشريف.

تمثالٌ لا يشبه الحجر، بل يشبه النور حين يتجسّد في وجه رجلٍ قال الحقيقة ولم يهرب لعالم الزيف.

◆ سيبقى حمدي قنديل تمثالًا في الذاكرة قبل أن يكون في المتحف.

■ سيبقى صوته في الأذن المصرية جرسًا يوقظ الضمير، وينبّه كل من يعتلي المنابر أن الكلمة ليست مهنة، بل عهد.

◆ وفي كل مرةٍ أنظر إلى صوره التي جمعتني به — في الميدان، وفي الثورة، وفي الأمل — أسمع صدى كلماته القديمة:

"لسنا خصومًا للوطن، بل شركاء في حلمه".

◆ رحم الله الأستاذ الكبير، الذي علّمنا أن الخلاف في الرأي لا يُفسد النبل، وأنه حين اختلف مع الكبير محمد البرادعي قبل الثورة،

ظلّ الخلاف شريفًا كصاحبهما، لأن كليهما كان يبحث عن وطنٍ لا عن مكسب شخصي.

◆ رحم الله حمدي قنديل، ورحمنا من زمنٍ امتلأ بالنسخ المقلَّدة المغشوشة.

◆ يا صديقي الذي لم تمت فيك الحقيقة، سلامٌ على حرفك الذي صار تمثالًا، وعلى صوتك الذي ما زال يدوّي في مسامعنا كلما خفتت الأصوات.

سلامٌ على وجهك الذي لا يزال يضيء الذاكرة كقمرٍ لم يُكمل دورته بعد.

◆ نم قرير العين يا حمدي قنديل، فصوتك لم يرحل، وضوءك لم يخفت، وتمثالك ليس حجرًا بل قصيدةً في هيئة إنسانٍ من نور.



◇ أم نجيب ساويرس ◇



◆ في لحظةٍ من الاعتزاز والثّناء، أعلنت الجامعة البريطانية في مصر منحها الدكتوراه الفخرية للسيدة الفاضلة يسريه لوزا ساويرس، والدة المهندسين الكرام نجيب، سميح، وناصف ساويرس، تقديرًا لدورها الرائد في مجال التنمية البشرية والعمل الاجتماعي الإنساني. / لم

يكن ذلك تكريمًا لسيدةٍ فحسب، بل إشادةً بمسيرةٍ ممتدةٍ من العطاء والنُبل، بل إن الجامعة هي التي تشرفت بها، لا العكس.

◆ تعرفتُ إلى السيدة يسريه لوزا عن قربٍ في برلمان عام ١٩٩٥، حيث جمعتنا زمالةٌ إنسانيةٌ ووطنيةٌ في قاعةٍ كانت تضجُّ بالحوار والاختلاف. / كانت من بين العشر شخصيات اللواتي عيَّنهن رئيس الجمهورية آنذاك، لكنها خالفت المألوف. / فبينما اكتفى كثيرون بالمقاعد، كانت هي تتحرك وتتكلم وتُؤثِّر. كانت صوتًا لا يُشترى، وضميرًا حيًّا في زمنٍ كان الصمت فيه أيسر من الكلام.

◆ في تلك الدورة، لمعت نجمة يسريه لوزا كواحدةٍ من أكثر النواب حضورًا وتأثيرًا، ليس فقط تحت قبة البرلمان المصري، بل في المحافل البرلمانية الدولية. / أذكر يوم ٧ يناير ١٩٩٦، حين انعقد مؤتمر البرلمان الدولي في بروكسل، وقد كانت تمثّل لجنة المرأة في البرلمان المصري. / صادف ذلك احتفالات عيد الميلاد المجيد، فاتصلت بي قائلة:

"لن أستطيع حضور اليوم الأول في اجتماعات لجنة المرأة، فهل يمكنك أن تحضر مكاني حتى ألحق بكم غدًا بعد العيد؟"

◆ لم أتردد لحظة. دخلتُ القاعة المخصصة لاجتماعات لجنة المرأة، فوجدتني وحيدًا بين ثلاثمائة سيدة من برلمانيات العالم. / كانت النظرات من حولي مزيجًا من الدهشة والابتسامة، حتى تدخلت السيدة نجمة، رئيسة البرلمان الهندي، ورحبت بي ودعتني للحديث فورًا لكسر جليد الموقف. / ومنذ تلك اللحظة أدركتُ أني لا أمثل نفسي فقط، بل أمثل مصر التي اختارت أن تُبعث فيها روح يسريه لوزا في غيابي المؤقت عنها.

◆ خلال خمس دوراتٍ برلمانيةٍ لاحقة، ازدادت معرفتي بهذه السيدة النبيلة. / ربما لم أكن أعرف وقتها أبناءها المهندسين الكبار، حتى دعتني إلى عشاءٍ في منزلها المطلّ على كورنيش النيل بجوار البنك الأهلي المصري. / هناك، في أجواءٍ تجمع بين الدفء الإنساني والرقي الاجتماعي، التقيت لأول مرة بعائلة ساويرس الكريمة، فعرفت أن الرقي ليس بالمال وحده، بل بما يُغرس في النفوس من قيمٍ وإنسانيةٍ واعتدال.

◆ لم تقتصر لقاءاتنا على البرلمان، بل امتدت إلى مساحاتٍ عامةٍ أخرى، خاصةً في محافظة القاهرة، حين كنا نصطدم –بما يشبه الشرف السياسي– مع المحافظ الراحل عبد الرحيم شحاتة. / كانت يسريه لوزا، الصعيدية الصلبة، لا تخشى مواجهة السلطة، ولا تخفض صوتها إذا تعلق الأمر بحق الناس وكرامتهم.

◆ كانت دائرتها الانتخابية في منشية ناصر تضم تجمعاتٍ كبيرة من جامعي القمامة والعمال البسطاء. / لم تعتبرهم مجرد ناخبين، بل أهلًا وناسًا وأمانة. / سعت لتطوير منطقتهم حضاريًا وإنسانيًا، مؤمنةً بأن العمل الاجتماعي ليس تبرعًا، بل واجبًا وطنيًا.

◆ على الصعيد الإنساني، كانت يسريه لوزا تذكّرني دائمًا بوجه أمي –رحمها الله–، أستاذة الأدب الفرنسي، في رقتها ولباقتها وليبراليتها الفكرية. / كانت نموذجًا للمرأة المصرية التي جمعت بين الأصالة والتمدن، بين العراقة والعقل، بين النقاء والشجاعة.

◆ أذكر لقاءً جمعنا بحضور سوزان مبارك والدكتور محمود عبد العزيز، رئيس البنك الأهلي المصري آنذاك، أثناء افتتاح أحد مشروعات تطوير منشية ناصر. / لفتني بشدة كيف تحدثت يسريه لوزا مع سوزان مبارك بندّيةٍ راقيةٍ واحترامٍ متبادل، دون تملقٍ أو

خضوع. / كانت امرأةً تعرف قيمة نفسها، وتُدرك أن الاحترام يُنتزع بالمواقف لا بالمناصب.

◆ كانت مصريةَ الهوى، صعيديةَ القلب، أوروبيةَ الملامح، ليبراليةَ الروح. / في كل موقفٍ كانت تُثبت أن الصدق قوة، وأن النقاء صلابة، وأن الحق لا يحتاج إلى صوتٍ مرتفع ليُسمع، بل إلى نيةٍ صافيةٍ تُصدّق القول بالفعل.

◆ اليوم، وأنا أرى اسمها مكرمًا على منبر الجامعة البريطانية، أشعر أن هذا التكريم لا يحتفي فقط بـ"أم نجيب وسميح"، بل يحتفي بـ"أم مصرية عظيمة" تنتمي إلى جيلٍ من الرائدات اللواتي تركن بصمتهن في وجدان الوطن.

◆ أطال الله في عمرها، وبارك في صحتها، وجزاها خيرًا عمّا قدّمت. / تبقى يسريه لوزا ساويرس صفحةً مضيئة في سجلّ المرأة المصرية، ووجهًا من وجوه مصر التي لا تغيب، ورمزًا للكرامة والعطاء والإنسانية في أنقى صورها.

◆ نعم، إن الجامعة البريطانية هي التي تشرفت بها، لا هي التي نالت شرف التكريم. / فالتكريم الحقيقي ليس شهادةً تُمنح، بل سيرةٌ تُروى، ومواقفٌ تُورث، وأثرٌ لا يُمحى.



✳وجوه لا تغيب... فتحي سرور
الرجل الذي وقّع على منحتي ومحنتي
ولم استطع يومًا ان اكرهه✳



◆ في سجلّ حياتي السياسية والفكرية، ثمة وجوه لا تغيب وإن اختلفت معها،

وجوهٌ تختبر فيك القدرة على الجمع بين النقد والإعجاب، بين الرفض والإكبار.

وفي مقدّمة هؤلاء، يقف الدكتور أحمد فتحي سرور،

الرجل الذي اختلفت معه حتى النخاع،

ومع ذلك لم أستطع، لا يومًا ولا ساعة، أن أكرهه.

- خمسة عشر عامًا جمعتني به تحت قبة البرلمان،

لا كصديقٍ ولا كخصمٍ فقط، بل كتلميذٍ يختبر أستاذه،

ومعارضٍ يناقش فقيهًا يزن كل كلمة بميزان الذهب.

كنت أرى فيه رجل الدولة في أبهى صوره،

وأسمع فيه صدى الفقيه الذي لا يُشق له غبار،

وأرى في عينيه احترامًا حقيقيًا لكل من يمتلك الحجة، حتى وإن كانت الحجة ضدّه.

- لقاؤنا الأول لم يكن في البرلمان،

بل قبلها بسنواتٍ طويلة، في خريف عام ١٩٨٩،

حين كان وزيرًا للتعليم والتعليم العالي،

وكنت أنا شابًا أحمل حلماً بالسفر لاستكمال دراساتي العليا.

كان توقيعه على منحتي الدراسية للدكتوراه أول إشعارٍ رسميٍّ لي بأن العدالة لا تزال ممكنة،

وأن الوزير، حين يكون عالمًا، لا يفرّق بين معارضٍ ومؤيدٍ في ميزان العلم.

حين وقّع على المنحة، قال لي وهو يبتسم بتواضعه المعروف:

"أُوقّع لك لأنك تستحق، لا لأنك توافق".

تلك العبارة بقيت ترنّ في أذني كدرسٍ مبكرٍ في معنى التمييز بين السياسة والعلم،

وفي أن الدولة لا تتوازن إلا حين يظل ميزانها العلمي منفصلًا عن نزواتها السياسية.

- ثم تكرّر التوقيع ذاته في لحظةٍ أخرى،

لكن هذه المرة على محنةٍ لا منحة،

بعد ستة عشر عامًا كاملة من تلك الابتسامة الأولى،

في ٢٠ يناير ٢٠٠٥،

حين استُدعي من مؤتمرٍ رسميّ في إيطاليا،

وعاد إلى القاهرة فجرًا ليوقّع بيده على قرار رفع الحصانة عني،

تمهيدًا لأول واقعة في التاريخ البرلماني المصري والعالمي،

يُعتقل فيها نائبٌ من داخل البرلمان، لا من خارجه.

- عاد الرجل فجرًا، وأيقن أن التوقيع المطلوب منه

ليس توقيعًا إداريًا عابرًا، بل توقيعٌ سياسيٌّ يحمل في طيّاته مرارة الظلم،

فكتب أسفل توقيعه بخطّه الجليل:

"وُقّع في منزلي فور عودتي من روما فجرًا".

عبارةٌ صغيرة في ظاهرها، لكنها كانت عندي أشبه ببيانٍ دستوريّ غير معلن،

إقرارٌ من رجل القانون أن ما جرى لم يكن دستوريًا،

واعترافٌ صامت بأن القرار جائرٌ في شكله قبل مضمونه.

◆ أدركت حينها أن هذا الفقيه الذي علّم أجيالًا معنى النصّ،

لا يستطيع أن يخون النصّ الذي درّسه،

فاحتجّ على طريقته، وترك لنا — وللتاريخ—

توقيعًا يحمل الشهادة والاعتراض معًا.

تلك الجملة التي خطّها بخطّه لم تُفسد الورقة فحسب،

بل أنقذت شيئًا من كرامة المؤسسة التي وُقّعت باسمها.

◆ ومع ذلك، لم أبدّل موقفي منه، ولم يُبدّل هو تقديره لي.

كان بيننا خلافٌ واضح، لكنه خلافٌ راقٍ بين فكرين، لا خصومةً بين شخصين.

كنت أعارضه في السياسات، وأقيم عليه الحجج من مؤلفاته،

فيلتفت نحوي مبتسمًا ويقول:

"ما ندمتُ على شيءٍ في حياتي أكثر من أني أهديتك كتبي".

ثم يُتبعها بمزاحٍ لا يخلو من الدفء:

"أنتَ تقرأ أكثر مما ينبغي، وتجادل أكثر مما يُحتمل".

◆ كنا نشتبك بالحجج القانونية كما يشتبك الشعراء بالمجاز،

نرفع سقف الحوار ولا نهدم الجسور.

كنت أُقيم عليه الدليل من فقهه،

وهو يُعلّق بعمق العالم:

"الفقه يا أيمن ليس جدارًا يُسدّ، بل بابًا يُفتح على أكثر من احتمال".

◆ وفي منزله بشارع دار الشفاء بجاردن سيتي،

كنّا نلتقي بعيدًا عن ضوضاء الجلسات،

يتحدث عن فلسفة التشريع أكثر مما يتحدث عن دهاليز السياسة،

ويقول لي بنبرة الأب الحكيم:

"العدل يا بني ليس قرارًا، بل سياقٌ من ضمير مجتمعي".

وحين كنا نغادر، كان يُرافقني إلى الباب وهو يقول:

"تذكّر أنك تجلس علي مقعد زعيم المعارضة تحت القبة فكنت ارد عليه قائلا:

وتذكر يا دكتور انك تجلس على مقعد سعد زغلول".

◆ كان رجلًا يعرف الفارق بين الموقف والتصعيد،

وبين المعارضة من أجل المبدأ والمعارضة من أجل الظهور.

وكان مؤمنًا بأن القانون، مهما بدا صارمًا،

يحتاج إلى رحمةٍ في التطبيق أكثر مما يحتاج إلى صرامةٍ في التفسير.

◆ وفي لحظة المواجهة، كان خصمًا قويًّا،

وفي لحظة الحوار، كان معلمًا كريمًا.

لم أرَ في حياتي رجلًا جمع بين الصرامة واللين، بين العلم والسياسة،

كما جمعهما أحمد فتحي سرور.

◆ كان اختلافنا مدرسةً في الديمقراطية،

وأدب خلافنا وثيقةً في الليبرالية،

واحترام كلٍّ منّا للآخر درسًا في الإنسانية.

اختلفنا في الموقع، لكنّنا اتفقنا على أن الفكرة أقدس من الموقع،

وأن مصر — التي نحلم بها — لا تحتمل الكراهية بين المختلفين،

بل تحتاج إلى أن يسمع بعضهم بعضًا حتى النهاية.

◆ حين رحل في أبريل ٢٠٢٤، شعرتُ أن ركنًا من معمار العقل القانوني في مصر قد تهدّم،

وأن أحد آخر فقهاء المدرسة المصرية قد أغمض عينيه بعد أن سلّم إلينا شعلة السؤال، لا يقين الإجابة.

رحل الرجل الذي وقّع على منحتي ومحنتي،

وترك لي درسًا واحدًا لا يُمحى:

أنَّ الفقيه الحقيقي، حين يُجبر على توقيعٍ ظالم،

يستطيع أن يجعل من الحاشية نصًّا جديدًا للضمير.

◆ رحم الله أحمد فتحي سرور،

الذي اختلفت معه بعقلي، ووددته بقلبي،

وما زلت أستحضره كلما وقفتُ أمام معضلةٍ بين القانون والإنسان،

لأقول لنفسي:

"تذكّر يا أيمن... أن النصّ بلا ضميرٍ يصبح سوطًا،

وأنّ سرور علّمك أن تُضيف إلى كل توقيعٍ سطرًا صغيرًا من وجدانك".

✶أحمد فتحي سرور — الرجل الذي لم أستطع أن أكرهه ،وفاءً لرجلٍ جمع بين العلم والضمير،

واختلفتُ معه دون أن أفقد الاحترام،

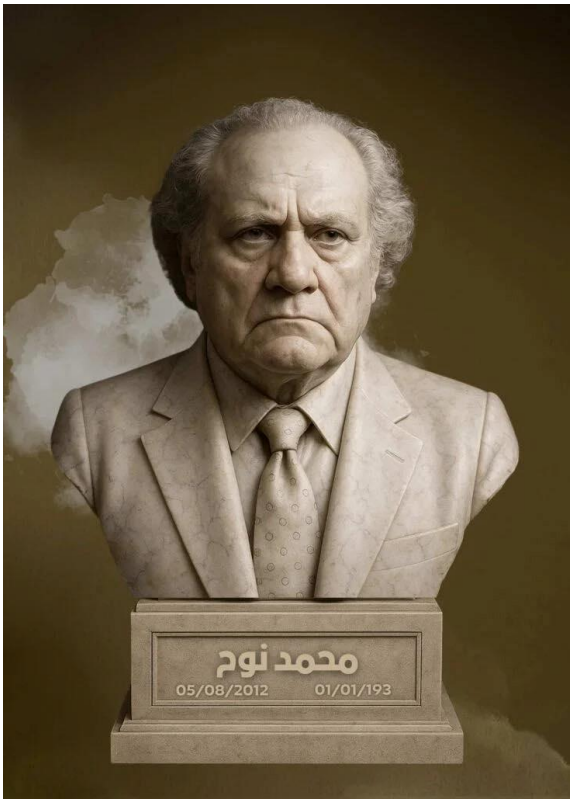
وخاصمته في السياسة دون أن أفقد الودّ،

وما زلت أراه الفقيهَ الذي علّمني أن الخلاف الشريف هو أسمى أشكال العدالة.



✴️في ذكري محمد نوح...

✴️حين يصبح الجلباب وطنًا ✴️



🔸 بعض الأرواح لا تودّعنا، حتى حين تغيب، بل تُقيم فينا، تسكن زوايا القلب، وتتمدد في الذاكرة كعطرٍ قديم لا يبهت ولا ينطفئ. تمرّ السنون، وتتعاقب المواسم، لكن ثمة وجوهًا تظل مشرقة على جدار الروح، لا تفصلنا عنها المسافات، ولا تطمرها طبقات الغياب.

وكنت كلما ذُكِر اسم محمد نوح، شعرت أنه لم يغب يومًا، ولم يسكن في الماضي كما يسكن الآخرون، بل ظلّ حيًّا في وجداني، يهمس لي بين حينٍ وآخر بلحنٍ، أو حكمة، أو ضحكة، أو جُلبابٍ لا يزال معلقًا في بيتي، وفي قلبي، منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا.

◆ كان أستاذي... وصديقي... وأبي الروحي. لم يكن مجرد فنانٍ يشدو، أو مفكّرٍ يحلّل، أو سياسيٍّ يُنظّر. كان حالةً إنسانية تمشي على الأرض، تفيض دفئًا وصدقًا ودهشة. لم يتعامل مع الفن كترفٍ، ولا مع النضال كمهنة، بل كان كائنًا يحمل رسالته على كتفه، وضميره في جيبه، وابتسامته في قلبه، لا يُراوغ، ولا يُساوم، ولا يُخاتل. كان أحد أركان حزب الغد، ثم غد الثورة، لا بصفته فحسب، بل بروحه التي منحت الحزب نكهةً ثقافيةً ووطنيةً وفنيةً نادرة.

◆ ما زلت أذكر تلك المؤتمرات التي كنا نمضي فيها معًا، ونتجوّل بين الناس في الأزهر، أو الأزبكية، أو الموسكي، فيتدافع علينا المحبّون بهتافٍ واحدٍ: "عاش أيمن نوح!". كنت أبتسم، لا لأجل الخطأ، بل لأجل الحقيقة الخفية خلفه: كنا نُشبه بعضنا أكثر من الأب وابنه، أكثر من الرفيق ورفيقه. كنت أراه جزءًا مني، وكان يراني امتدادًا له. هو الذي منحني من فكره، من عاطفته، ومن حنانه الهادئ الذي يشبه لحنًا ناعمًا يفيض من عودٍ قديم في ليلة صيفية هادئة.

◆ ترك لي جُلبابه في منزلي ذات يوم، ولم يسترده. وكأنه كان يعلم أنني سأحتاجه في ليالٍ لا تُحتمل، وأيامٍ يتراكم فيها الصمت والبرد والغربة. حملت هذا الجلباب معي من بلدٍ إلى بلد، كأنني أحمل جزءًا من روحه، من مصره، من ثورته، من حنانه. كنت ألمسه، فأسمعه. كنت أضمه، فأشعر وكأنني أعود طفلًا بين يديه.

◆ لم يكن محمد نوح صوتًا فنيًا فقط، بل كان صرخةً في وجه الظلم، ولحنًا للحرية، وأناشيد حبٍ لا تموت. كان صادقًا مع وطنه كما لم يكن غيره، غاضبًا على الجوع والفساد والانكسار، لكنه حنونٌ على الناس، يرى في الفقراء نبلًا، وفي البسطاء بطولة، وفي الأغاني رسالة لا تعرف المساومة.

◆ لقد علّمني أن النضال ليس خطابات، بل وجدان. أن الفن ليس استعراضًا، بل صدقٌ. أن السياسة ليست دهاءً، بل ضمير. وفي كل مرة كنت أضعف فيها، كنت أستدعيه — بصوته، بجُلبابه، بضحكته، بكلماته — فأتماسك، وأتذكّر أن هناك رجالًا لا يرحلون، لأنهم لم يأتوا إلى الحياة ليموتوا، بل جاؤوا ليبقوا فينا، وحولنا، وبيننا.

◆ في الذكرى السنوية لرحيله، لا أملك إلا أن أهمس لنفسي، ولمن أحبّه:

رحل نوح... لكنه لم يمت.

لا يموت من عزف لقلوبنا معنى الحياة.

لا يغيب من وضع على وجوهنا ضوءًا، وعلى أكتافنا جُلبابًا، وعلى قلوبنا وطنًا صغيرًا يؤوينا من وحشة هذا الزمن.

◆ رحمك الله يا محمد نوح...

ويا ليتك كنت هنا، نضحك كما كنا،

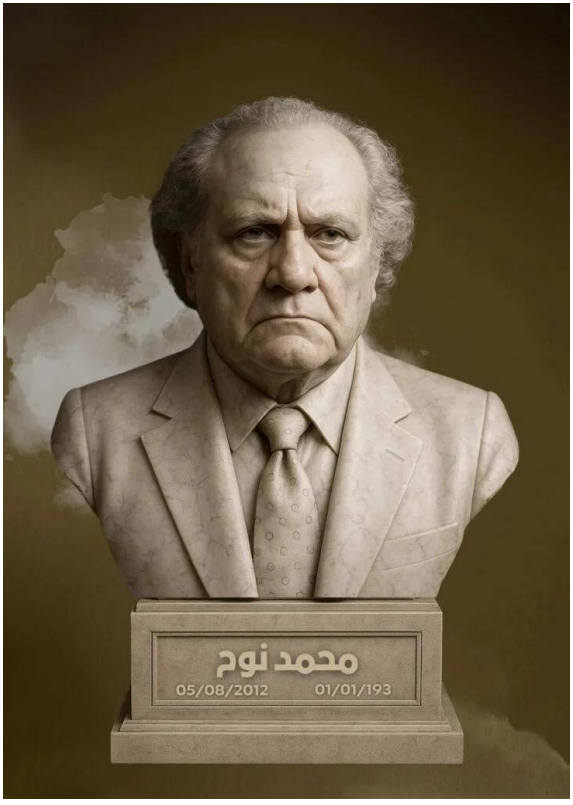
ونسير معًا... ليهتف الناس مرة أخرى:

"عاش أيمن نوح"!

ولعلهم كانوا على صواب...

فما زلتُ أنا... أيمن نوح.

وجوه لا تغيب – حكاية أيمن نوح



◆ثمة وجوهٌ لا تغيب، وأرواحٌ تسكن فينا، حتى وإن غاب أصحابها خلف ستائر الزمن. قد تفرقنا الأيام، لكن بعض الأسماء تظل محفورةً في القلب، لا تمحوها المسافات، ولا ينال منها النسيان. ومن بين هؤلاء، بل في القلب منهم، يقف محمد نوح، ليس كذكرى عابرة، ولا كصورة في أرشيف الأيام، بل كنبضٍ لا يزال حيًا في

وجداني، وكظلٍّ لا يفارق روحي، وكصوتٍ يردد في أعماقي أغنياته، وأفكاره، ووصاياه التي لم تبارحني يومًا.

◆ كان صديقي، وأستاذي، وأبي الروحي، كان أكثر من مجرد فنانٍ أو مفكرٍ أو سياسيٍّ مخضرم، كان روحًا تمشي على الأرض، يعزف على أوتار القلوب، ويخطُّ بألحانه وفكره ووجدانه تاريخًا من النضال والحب والحرية. لم يكن مجرد رئيس لجنة الثقافة في حزب الغد وحزب غد الثورة، بل كان ركنًا أصيلًا في تكوينه، وأحد مفكريه العظام، الذين لم يكتفوا بالتنظير، بل عاشوا مبادئهم وأحلامهم بحسٍّ صادق، ونبضٍ لا يعرف المساومة.

◆ كنتُ أضحك من أعماق قلبي حين كنا نسير معًا في المؤتمرات أو شوارع باب الشعرية والموسكي والأزبكية، فيندفع البعض من محبيني ومناصريّ ليهتفوا لنا معًا بعبارة واحدة:

"عاش أيمن نوح"!

◆ خطأ بسيط، ربما غير مقصود، لكنه كان يسعدني ويضحكني، ويعبر عن حقيقةٍ دفينة في داخلي: أنني كنت أراه جزءًا من روحي، وكان يراني امتدادًا له. كان في مقام الأب الذي منحني من روحه، ومن علمه، ومن فنّه، حتى باتت مشاعري تجاهه أعمق من أن توصف، وأقرب إلى صلة الدم التي لا يفرقها شيء.

◆ لم يغادرني يومًا، لم يغب صوته، ولا أفكاره، ولا ضحكته التي تحمل بين ثناياها حكمة السنين ومرارة التجارب. لا زلت أراه في زوايا الذاكرة، وأسمع صوته في لحظات الصمت، وأستعيد كلماته كلما اشتدت بي الأيام. وفي لحظات الحنين العميقة، ألجأ إلى جلبابه، ذاك الجلباب الذي تركه لي في منزلي منذ أكثر من ربع قرن، وكأنه كان

يعلم أنني سأحتاج إليه يومًا، لا لأرتديه فقط، بل لأحتضنه وكأنه جزءٌ منه ما زال حيًا.

◆ حملت هذا الجلباب معي من بيتٍ إلى بيت، ومن بلدٍ إلى بلد، كمن يحمل ذاكرة وطن، أو قطعةً من روحه لا يريد أن يفقدها. كلما لمسته، شعرت أن نوح لا يزال هنا، يبتسم لي بتلك النظرة التي كانت تحمل في أعماقها ألف رسالة، ألف معنى، وألف حكاية.

◆ لم يكن محمد نوح مجرد موسيقي، بل كان ثائرًا يعزف النضال، وفيلسوفًا يكتب الحرية بالنغم والكلمة. كانت أغانيه تتنفس بحب الوطن، كانت موسيقاه صرخةً ضد الظلم، وكانت كلماته نشيدًا لا يموت. لم يكن فنه وسيلةً للكسب، بل كان رسالةً مقدسة، يحملها كما يحمل المجاهد رايته، ويؤمن بها كما يؤمن العاشق بحبه. كان واحدًا من هؤلاء الذين يصنعون التاريخ بصوتهم، بألحانهم، بأفكارهم، وبروحهم التي لا تعرف الخنوع.

◆ لقد رحل محمد نوح، لكنه لم يمت.

إن من يزرع الحب والفكر والنضال لا يموت. من يترك أثرًا في القلوب لا يُنسى. من يعيش حكايةً يرويها الزمن، يظل خالدًا حتى وإن غاب جسده عن هذه الحياة. وأنا، أيمن نوح، كما أطلق عليَّ الناس يومًا، ما زلت أحمل ذكراه، وأردد أغنياته، وأحتضن جلبابه كأنه وطنٌ صغيرٌ يأويني حين تضيق بي الأيام.

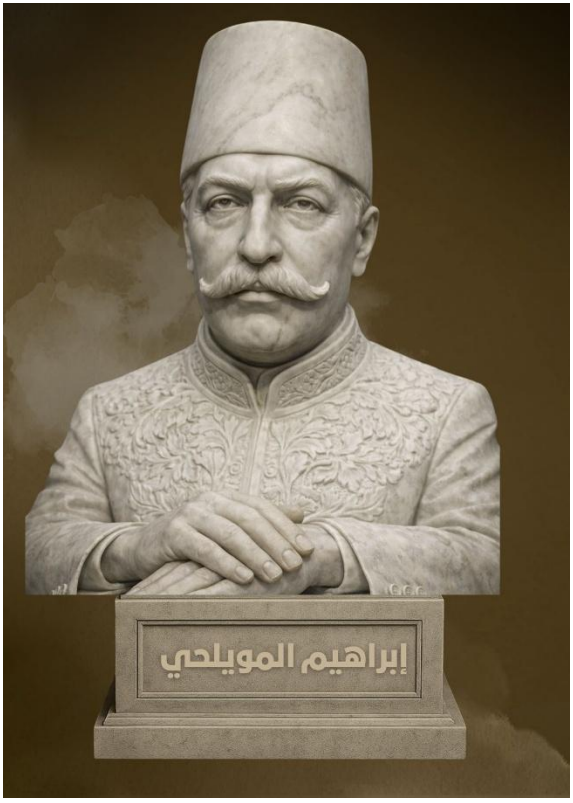
◆ رحمك الله يا نوح... كم أشتاق إليك، وكم أفتقدك!

محمد نوح أيمن نور حكايات الذاكرة فن نضال حرية حب أبوة روحية

وجوه لا تغيب... إبراهيم المويلحي

١٢٠ عامًا على وفاة مؤسس جريدة «منبر الشرق» المصرية في الآستانة

و١٢ عامًا على انطلاق تلفزيون «الشرق» من إسطنبول



◆ الأزمنة لا تتقاطع صدفة...

بل تتصافح كأنها مواعيد مؤجلة. وكذلك الأسماء لا تتشابه فقط في الحروف. أسابيع قليلة تفصلنا عن إكمال اثني عشر عامًا على انطلاق قناة الشرق من إسطنبول، وفي اللحظة نفسها نبلغ مئةً وعشرين عامًا على رحيل #إبراهيم_المويلحي. رقمٌ يُنادي رقمًا، واسمٌ وتاريخٌ يستدعيان توأمهما، وبينهما منبرٌ بالحبر ومنبرٌ بالصوت والصورة، وكلاهما يبحث عن عدلٍ لا يتحقق، وعن كلمةٍ لا تُصادر، وغربةٍ وصبرٍ يطول.

◆ نعلن عن قرار مجلس إدارة شبكة راديو وتلفزيون الشرق بأن يُطلق اسم #إبراهيم_المويلحي على الصالون الثقافي بالشرق وعلى معهد الدراسات الإعلامية التابع لجمعية الشرق للثقافة والإعلام،

هذا القرار لم يكن فقط لفتة وفاء عابرة، بل إعلان انتماء.

◆ انتماء إلى مدرسة ترى الصحافة والإعلام ضميرًا قبل أن تكون مهنة، وترى المنبر وطنًا متنقلًا، لا تحدّه الجغرافيا، بل تحدّه فقط حدود العقل والشجاعة.

◆ حكاية المويلحي لم تُكتب في سطرٍ واحد، بل امتدت بين مدينتين وصيغتين من الوعي: (القاهرة والآستانة)، الإصلاح والثورة، الكلمة والرقابة. لم يكن اسمًا يُستدعى في الهوامش، بل كان علامةً على زمنٍ كاملٍ كان يبحث عن تعريف نفسه، ويتلمّس طريقه بين الاستبداد والإصلاح.

◆ ميلاده كان في عام ١٨٤٤ لأسرة ثرية، وبيتٌ يعمل في التجارة وصناعة الحرير، حيث تتعلم الأيدي كيف تنسج الخيوط، ويتعلم العقل كيف يربط التفاصيل. وهناك وُلد الدرس الأول:

أن الخيط الرفيع قد يصنع ثوبًا،

وأن الكلمة العاقلة قد تصنع وطنًا.

◆ خمس عشرة سنة قضاها في المنفى والغربة.

الآستانة لم تكن إقامة، بل كانت إعادة تشكيل كاملة. مدينةٌ تمسك بخيوط الإمبراطورية، حيث الكلمة تُوزن قبل أن تُقال، وحيث الصمت أحيانًا أكثر بلاغة من الكلام. في تلك المساحة المشدودة بين القول والمنع، تشكّلت فلسفته:

إصلاحٌ بلا تهوّر، ونقدٌ بلا تردد.

◆ عودته إلى القاهرة بعد ١٥ عامًا في الغربة لم تكن رجوعًا، بل انتقالًا إلى مرحلة أعلى من الفهم.

عاد محمّلًا بخبرة مختلفة عن مفهوم الدولة من داخلها، لا من هامشها.

أدرك أن العلاقة بين السلطة والمجتمع ليست معادلة صدام دائم، بل مساحة شدّ وجذب تحتاج إلى عقلٍ بارد وضميرٍ يقظ.

◆ زمن السلطان #عبد_الحميد_الثاني لم يكن زمن استقرار، بل زمن توازنات دقيقة؛ إصلاحٌ محسوب، ورقابةٌ حاضرة، وهمسٌ دستوري يتسلل بين الجدران.

◆ وسط هذا المشهد خرجت «منبر الشرق» لا كجريدة مصرية مغتربة، بل كمساحة تنفّس لكل العرب، تكتب أحيانًا في المنطقة الرمادية بين الولاء والنقد، بين الشرعية والرقابة، وفي معظم الأحيان تفصح عمّا وراء الخطوط الحمراء.

◆ لم يختر المويلحي دائمًا طريق المواجهة الصاخبة، ولم يقبل طريق الصمت المريح.

اختار طريقًا ثالثًا نادرًا: أن يعارض دون أن يهدم، وأن ينتقد دون أن يُقصي، وأن يُذكّر بأن الدولة لا تستقيم بالقوة وحدها، بل بالعدل الذي يحميها من نفسها.

◆ كتاباته لم تكن مقالات، بل مرايا؛ تُظهر ملامح الخلل دون أن تصرخ، وتُشير إلى الطريق دون أن تدّعي امتلاكه.

كان يعرف أن الكلمة الهادئة، إذا صدقت، قد تكون أكثر تأثيرًا من صراخٍ مرتفعٍ بلا معنى.

◆ لم يكن مداهنًا، ولم يكن صداميًا؛ كان إصلاحيًا بمعناه النادر: يؤمن بأن الهدم ليس شجاعة، وأن البناء البطيء قد يكون أكثر ثورية من الصراخ السريع.

◆ في رؤيته، لم تكن الحرية السياسية رفاهية، بل ضرورة وجود.

العقل عنده ليس ترفًا، بل شرط بقاء. واسم #الشرق لم يكن خريطة، بل مشروعًا حضاريًا يتعلّم من الغربة دون أن يذوب، ويأخذ منها دون أن يفقد هويته ونفسه.

« ◆ منبر الشرق» لم تكن مجرد جريدة؛ أربع صفحات، أعمدة بلا صور، لكنها كانت أوسع من خرائط كثيرة. من إسطنبول إلى القاهرة وبيروت ودمشق، كانت الكلمة تسافر حيث لا تسافر الجيوش. الصفحة الرابعة، برسائلها، كانت أشبه بنبضٍ عربيٍّ مبكر، يتشكّل قبل أن يُسمّى.

◆ حولها تشكّلت شبكة من القرّاء؛ حوارٌ ممتد، جدلٌ حي، مراجعات مستمرة. لم تكن جريدة محلية، بل بداية وعي عربي مشترك داخل قلب عالم يتغيّر.

◆ بينما كانت الصحافة في مصر مقيّدة بالاحتلال البريطاني، اختار المويلحي زاوية مختلفة: إصلاحٌ من الداخل، لا قطيعة مع الواقع. رؤية تُدرك أن الدولة، مهما اختلّت، لا تُبنى من الصفر كل مرة.

◆ في هذا الاختيار تتجلّى ملامح ليبرالية مبكرة في فكره قوامها:

حرية القول،

مركزية العدل،

دولة قانون لا دولة أشخاص،

ومجتمع يُحاسب بالعقل لا بالغريزة.

رؤية تمتد جذورها إلى الشورى في الإسلام، وتفتح نوافذها على العالم الديمقراطي.

◆ التجربة لم تكن معزولة، بل جزء من حركة فكرية عربية واسعة، تتجادل مع أوروبا، وتنتقد ذاتها، وتبحث عن مكانٍ لائقٍ في عالمٍ يتغير بسرعة لا ترحم المتأخرين.

◆ الإصلاح الذي آمن به كان أشبه بزرعٍ خفي تحت المطر؛ لا يُرى سريعًا، لكنه يغيّر الأرض. «منبر الشرق» كانت من هذا الزرع الذي لا يُقاس بعمره، بل بما يتركه من أثر.

◆ رحيله في مارس ١٩٠٦ لم يكن نهاية، بل انتقالًا من حضورٍ مباشر إلى أثرٍ ممتد. الحبر الذي تركه لم يجف، لأنه لم يكن حبرًا عابرًا، بل فكرة قابلة لإعادة الاكتشاف حتى بعد مرور ١٢٠ عامًا من الغياب.

◆ ابنه، #محمد_المويلحي، لم يرث الجريدة فقط، بل ورث الرسالة. لكنه نقل النقد من افتتاحيات الأب إلى سخرية السرد في كتابه الشهير «حديث عيسى بن هشام».

ويظل بينهما جسر واضح: مسؤولية الكلمة، وهي ليست مجرد حرفة.

◆ تجربته في الآستانة لم تكن هروبًا من مصر، بل تدريبًا على رؤية الصورة من مركزها. فمن يقف في القلب يرى ما لا يراه من يقف على الحافة.

◆ اليوم أوجّه خالص التهنئة لزملائي في تلفزيون الشرق، وإلى جمهور الشرق الواسع في مصر وفي كل البلدان العربية.

فبعد اثني عشر عامًا من انطلاق قناة الشرق، وقرب بداية العام ١٣، يعود السؤال نفسه في أبريل من كل عام:

〰كيف نبني منبرًا حرًا في زمنٍ مزدحم بالضجيج؟ وكيف نحافظ على الاستقلال دون أن نسقط في عزلة؟

◆ قناة الشرق، في تجربتها، لم تختَر طريقًا سهلًا؛ لم تذب في الغربة، ولم تتاجر بالمظلومية أو بالقطيعة.

اختارت المساحة الأصعب:

حيث يكون النقد مسؤولية، لا استعراضًا للتهور.

◆ الإعلان اليوم ليس فقط عن إطلاق اسم #المويلحي على معهد الدراسات الإعلامية بالشرق،

بل نعلن، إن شاء الله، في أبريل ٢٦ عن عقد شراكة مع مؤسسة علمية وتعليمية بريطانية.

◆ شراكة لتأسيس معهد للإعلام بشهادة معتمدة من الجامعات التركية والبريطانية.

وإطلاق اسم المويلحي ليس تكريمًا لشخصه فقط، بل تأسيسًا لمدرسة تقول إن الصحافة المهاجرة يمكن أن تكون أكثر حرية من الصحافة المقيدة، وأكثر التزامًا من الصحافة المؤدلجة.

◆ في العام الثالث عشر، لا يعود الاسم كذكرى، بل كأداة قياس: هل ما زالت الكلمة قادرة على أن تكون ضميرًا؟ وهل ما زال المنبر قادرًا على أن يكون وطنًا؟

◆ السؤال الذي طرحه المويلحي قبل أكثر من قرن لا يزال حيًا: كيف نُصلح دون أن نُدمّر؟

◆ وكيف نُحدّث ونجدد مواقفنا دون أن نفقد أنفسنا؟

سؤالٌ لا يخص زمنًا، بل يخص فكرة.

◆ وجوهٌ كهذا الوجه لا تغيب؛

لأنها لم تُراهن على اللحظة،

بل على المعنى.

لم تبحث عن التصفيق،

بل عن الأثر العميق.

◆ بين القاهرة وإسطنبول/الآستانة، بين المطبعة والبث المباشر، يمتد خيط واحد لا ينقطع:

خيط الحرير الذي تعلّمه طفلٌ في بيت تجارة، ثم تحوّل إلى خيط وعيٍ يربط ١٩٠٦ بـ٢٠٢٦.

◆ بداية العام الثالث عشر ليست رقمًا جديدًا، بل اختبارًا جديدًا:

أن نكون امتدادًا لا تكرارًا،

وأن نحمل الفكرة

لا الاسم فقط.

- هكذا لا نُحيي ذكرى رجل مات منذ ١٢٠ عامًا...

بل نُعيد فتح ملف معنى:

معنى الكلمة، والمؤسسة، ومعنى المنبر،

ومعنى أن يكون للشرق صوتٌ لا يُشترى... ولا يُصادر.



✳️وجوه لا تغيب – سمير صبري

أشهر مظلوم صادفتُه في حياتي✳️



🔸 في حياة كل إنسان لحظات يختبر فيها صدق نظرته للناس، حين تتراكم حول بعضهم الحكايات، وتتشابك فوق أسمائهم الظنون، حتى يضيع الوجه الحقيقي خلف ضجيج الروايات. هناك، فقط، يصبح السؤال أخلاقيًا قبل أن يكون معرفيًا: هل نصدق ما يُقال... أم نبحث عما هو أعمق مما يُقال؟

◆ قليلون هم الذين عرفتهم عن قرب، ثم اكتشفت أن المسافة بين صورتهم في أذهان الناس وحقيقتهم في الواقع، ليست مجرد فرق... بل ظلم كامل. وكان من هؤلاء، بل في مقدمتهم، الفنان الراحل سمير صبري.

◆ لم تكن معرفتي به معرفة عابرة أو لقاءات مناسبات، بل بدأت في مكان له رمزيته في حياتي السياسية والشخصية: منزل فؤاد باشا سراج الدين. هناك، في ذلك البيت الذي كان شاهدًا على زمنٍ كامل من السياسة المصرية، التقيت سمير صبري للمرة الأولى، ولم أكن أدري أن هذه البداية ستفتح باب علاقة إنسانية ممتدة لسنوات طويلة.

◆ بعد ذلك اللقاء، توالت الزيارات، وتكررت الجلسات، حتى صار التواصل بيننا أمرًا طبيعيًا. كان بيتي قريبًا من بيته، وكان حضوره يحمل دائمًا نفس الملامح: البساطة، والود، ودفء إنساني لا يتصنع.

◆ كان هناك مشهد لا أنساه أبدًا.

أول ما يدخل سمير صبري بيتي... يطلب سجادة الصلاة.

◆ لم يكن ذلك سلوكًا عابرًا أو استعراضًا أمام أحد، بل كان جزءًا أصيلًا من شخصيته. رأيت فيه التزامًا روحيًا هادئًا، لا يرفع صوته ولا يطلب شهادة من أحد. كان يعرف طريقه إلى الله كما يعرف طريقه إلى الناس.

◆ على مدار تلك السنوات، لم أرَ فيه نقصًا في القيم، ولا خللًا في الفكر، ولا تناقضًا بين ما يقال عنه وما رأيته بعيني. على العكس تمامًا، كان موسوعة ثقافية تمشي على قدمين؛ ذاكرة مفتوحة للفن والسياسة والمجتمع، وقلبًا ممتلئًا بالإنسانية.

◆ عشنا سنوات طويلة نسمع الأقاويل والشائعات تتردد حوله. بعضها كان يُقال بخفة، وبعضها يُلقى بثقل الاتهام، حتى ظن البعض أنها حقائق لا تقبل الشك. لكن الحقيقة – كما تعلمنا – لا تصرخ، بل تبقى صامتة حتى يراها من يقترب.

◆ والاقتراب من سمير صبري كان كافيًا ليكشف الوجه الآخر الذي غاب عن كثيرين.

◆ كان رجلًا حريصًا على صلاته، يقطع المسافات لأداء صلاة الجمعة في جامع المنتزه، لا باعتبارها واجبًا اجتماعيًا، بل باعتبارها علاقة خاصة بينه وبين الله.

◆ كان أيضًا سفيرًا للخير في الخفاء. لم يكن يكتفي بالتبرع أو الدعم من بعيد، بل كان يذهب بنفسه إلى أسر متعففة في مناطق مثل بحري بالإسكندرية وغيرها، يحمل إليهم ما قسمه الله له، ويحرص على أن تصل الأمانة بيده. حتى في أصعب فترات مرضه، لم يتخلَّ عن هذا الدور.

◆ رأيته يجبر الخواطر قبل أن يُطلب منه ذلك.

كان حاضرًا مع زملائه الذين قست عليهم الأيام؛ من ليلى مراد وسامية جمال إلى تحية كاريوكا ويوسف داوود. لم ينتظر مؤسسة ولا مبادرة، بل كان يسبق الجميع بخطوة إنسانية قد تُحرج الآخرين أحيانًا، لكنها كانت تُرضي ضميره دائمًا.

◆ لم يكن مجرد فنان يؤدي أدوارًا، بل كان ذاكرة وطن. يعرف التفاصيل الصغيرة قبل الكبيرة، ويحتفظ في ذهنه بحكايات السياسة والفن والمجتمع، وكأن حياته كانت أرشيفًا حيًا لزمنٍ كامل.

◆ لذلك كنت أراه دائمًا أكبر من الصورة التي حاول البعض أن يحصره فيها.

◆ لم يكن ملاكًا، فليس في البشر ملائكة، لكنه كان إنسانًا صادقًا في إنسانيته، واضحًا في قيمه، نقيًا في علاقاته.

◆ وربما كانت مشكلته أنه لم يكن يدافع عن نفسه. ترك الناس يقولون ما يشاؤون، واكتفى بأن يعيش كما يرى هو نفسه.

◆ ومع رحيله، بقي السؤال الذي يتكرر في كل مرة نكتشف فيها الحقيقة بعد فوات الأوان:

لماذا نُحسن الظن بالشائعة... ونسيء الظن بالإنسان؟

◆ ربما لأن الحكم على الناس من بعيد أسهل من الاقتراب منهم. وربما لأن الحقيقة تحتاج جهدًا... بينما الشائعة لا تحتاج إلا أذنًا تسمع.

◆ لكن الدرس الذي تعلمته من سمير صبري، ومن غيره من الوجوه التي اقتربت منها، أن الجوهر لا يراه إلا من اقترب.

◆ وأن الناس، في النهاية، لا يُقاسون بما يُقال عنهم... بل بما تركوه في قلوب من عرفوهم.

◆ رحم الله سمير صبري...

رجلًا عرفته عن قرب، فوجدته أصدق بكثير مما قيل عنه.

◆ اللهم نور قبره، واغفر له، واجعل ما قدمه من خير في ميزان حسناته.

◆ لأن بعض الناس يرحلون...

لكن إنسانيتهم تبقى.

وهكذا يظل سمير صبري...

واحدًا من الوجوه التي لا تغيب.



✳وجوه لا تغيب – أنيس منصور✳

الأديب الذي كان يضحك من الدنيا... ويخافها

◆ ثمة رجالٌ لا يدخلون حياتنا ككتّاب، بل كحالاتٍ إنسانية كاملة.

نقرأهم أول الأمر، ثم نكتشف—بعد سنوات—أننا لم نكن نقرأ كتبهم، بل كنا نقرأ أنفسنا في مراياهم.

هكذا كان أنيس منصور...

ذلك الرجل الذي كتب بخفة طائر، وكان يحمل في قلبه أثقالَ جبل.

◆ عرفتُه مبكرًا... منذ كنتُ طالبًا في الجامعة، ثم صحفيًا يطارد الحبر والدهشة، ثم نائبًا اكتشف أن السياسة ليست بعيدة عن الأدب كما نظن، وأن بعض الكُتّاب أكثر فهمًا للسلطة من السياسيين أنفسهم.

كنت ألتقيه فأشعر دائمًا أنني أمام رجلٍ يعرف أشياء أكثر مما يقول، ويخفي أحزانًا أكبر مما يكتب.

◆ كان ابن بلدنا... ابن الدقهلية، ابن المنصورة التي تُخرج من طميها القلقَ والذكاء معًا.

ولد في قرية صغيرة شرق الدلتا، لكن روحه كانت أكبر من الجغرافيا.

حفظ القرآن طفلًا، وامتلأ مبكرًا بإيقاع اللغة، ثم راح يلتهم الشعر العربي والأجنبي كما يلتهم الجائع خبزه الأخير.

ولعل هذا ما صنع ذلك الأسلوب العجيب: السهل الممتنع.

كان يكتب كما يتحدث الناس، لكنه يُخفي داخل الجملة البسيطة فخاخًا فلسفية كاملة.

◆ قرأ الفلسفة لا ليصبح أستاذًا جامعيًا فقط، بل ليبحث عن تفسيرٍ لهذا العبث الكبير الذي اسمه الحياة.

تفوق في كلية الآداب بجامعة القاهرة، وعمل أستاذًا للفلسفة، لكن الفلسفة الأكاديمية لم تكفه.

كان يريد فلسفةً تمشي في الشارع، وتجلس في المقاهي، وتبكي في الليل.

◆ لهذا هرب إلى الصحافة... أو ربما هربت الصحافة إليه.

تنقل بين أخبار اليوم والأهرام وآخر ساعة والهلال، وتتلمذ على يد مصطفى أمين وعلي أمين، لكن روحه بقيت معلقة بالأدب، كأن الصحافة كانت مهنته، والكتابة قدره.

◆ كان قارئًا نهمًا بصورة تُخيف.

يقرأ في الطائرة، وفي السيارة، وفي الانتظار، وفي المرض.

وكان يخاف من الوقت كما يخاف الفقراء من الجوع.

لذلك كتب كل هذا العدد الهائل من الكتب، كأنه كان يشعر سرًا أن العمر أقصر من أفكاره.

◆ كتب عن الفلسفة، والسياسة، والمرأة، والدين، والماورائيات، والحب، والسفر، والوحدة.

لكن أكثر ما كان يكتبه—دون أن يقول— هو الاكتئاب.

نعم... كان رجلًا مكتئبًا في أغلب الوقت، حتى وهو يضحك.

وكانت سخريته اللامعة مجرد طريقة مهذبة لإخفاء الحزن.

◆ لمع نجمه بشدة في عهد أنور السادات،

الرئيس الذي أحب الثقافة، وأحب الكلمة، وكان يعرف قيمة الكاتب في صناعة السياسة.

اقترب أنيس من السادات حتى صار—في نظر كثيرين— صحفيه الأقرب، وكاتم أسراره، والعقل الأدبي لبعض خطاباته المهمة.

كان السادات يحب فيه هذه القدرة النادرة على تحويل الفكرة السياسية إلى لغة تصل إلى الناس.

◆ لكن الاقتراب من السلطة كان دائمًا لعبة خطيرة.

فالسلطة—كما كان يقول البعض— تشبه شمعة متوهجة؛ تضيء لك الطريق، لكن الاقتراب الزائد منها قد يحرق أصابعك.

عرف أنيس ذلك، لكنه بقي قريبًا، لا حبًا في السلطة فقط، بل افتتانًا بالتاريخ وهو يُصنع أمامه.

◆ عاصر الملكية، وشهد ثورة يوليو، وتأذى من قسوة جمال عبد الناصر في بعض المراحل، ثم عاش زمن السادات كأنه يعيش رواية سياسية مفتوحة، ولم يرحل إلا بعد أن رأى سقوط حسني مبارك وانهيار النظام الذي ظنه كثيرون أبديًا.

◆ أما أنا... فلا أستطيع أن أتذكره دون أن أتذكر ذلك الصباح البعيد في مطلع هذا القرن.

دعوة من الرئيس مبارك إلى لقاء المفكرين في افتتاح معرض القاهرة الدولي للكتاب.

كنت أجلس إلى جوار أنيس منصور، وكان إلى جواره كمال الشاذلي.

وخلال اللقاء، وجه الرئيس عباراتٍ نحوي لم أفهمها في لحظتها، لكنني شعرت بإهانتها، واشتعل داخلي غضبٌ عارم.

◆ بعد انتهاء اللقاء، حاول كمال الشاذلي أن يخفف الأمر، وقال لي: "ربما الكلام ليس مقصودًا به أنت".

لكن أنيس منصور—بهدوئه المعتاد— التفت إليه وقال: "لا... الكلام واضح".

ثم نظر إليّ بنظرة لا أنساها، كانت مزيجًا من التضامن والحزن ومعرفة قديمة بطبيعة السلطة. وأيّدني في ضرورة اتخاذ موقف.

◆ ذلك الموقف الصغير كشف لي شيئًا مهمًا فيه: أنه رغم قربه الطويل من الرؤساء، لم يفقد قدرته على رؤية الحقيقة.

ورغم نعومة أسلوبه، كان يعرف متى ينحاز إلى الكرامة.

◆ كان أنيس منصور يشبه مكتبته. واسعًا، متناقضًا، مليئًا بالأسرار، والكتب، والوحدة.

رجلًا يمكن أن يكتب عن الأشباح، ثم يكتب عن الله، ثم يكتب عن الحب، ثم يضحك فجأة كطفلٍ اكتشف للتو أن العالم لا يستحق كل هذا الحزن.

◆ كتب "مواقف" فصارت طقسًا يوميًا لملايين القراء. وكتب "حول العالم في ٢٠٠ يوم" فجعل السفر رحلة داخل النفس لا داخل الجغرافيا فقط.

وكتب "عاشوا في حياتي" فحوّل البشر إلى أدب خالد.

◆ كان يعرف اللغات، ويقرأ العالم بلغاته الأصلية، لكن لغته العربية بقيت وطنه الأجمل. لغة خفيفة، لكنها عميقة، ساخرة، لكنها دامعة من الداخل.

◆ وحين رحل في أكتوبر ٢٠١١، بدا كأن صفحة كاملة من مصر القديمة تُطوى بصمت.

رحل وهو يكتب مذكراته، كأن الرجل كان يحاول أن يسبق الموت بالكلمات. لكن بعض الكُتّاب لا يموتون فعلًا... لأنهم يتحولون— ببطء— إلى طريقة تفكير، وإلى نبرة، وإلى ظلٍّ طويل يمشي معنا كلما فتحنا كتابًا أو خفنا من العالم.



✳وجوه لا تغيب – بكري الجميل✳

الأصغر سنًا... الأكبر في أشياء لا تُشترى

◆ يمضي بعض الناس من الدنيا، لكنهم يتركون خلفهم ذلك الفراغ الموجع.

لا لأنهم كانوا الاكثر شهره، ولا لأنهم امتلكوا سلطةً وثروة، بل لأنهم كانوا، بشرًا حقيقيين.

هكذا كان صديقي العذب الرقيق الراحل محمود بكري.

◆ في ذكرى رحيله، أستعيد صورته أمام عيني أستعيد إنسانًا كان يعرف كيف يحافظ على قلبه وسط زمنٍ فقد فيه كثيرون قلوبهم.

◆ كان الأصغر سنًا...من شقيقه الأكبر مصطفى بكري لكنه بدا دائمًا الأكبر في أشياء لا تُقاس بالعمر: خلقًا، وتواضعًا، ووفاءً، واحترامًا لنفسه وللآخرين.

◆ عرفته عن قرب، عبر صداقتي بشقيقه ورأيت فيه تلك التركيبة النادرة التي تجمع بين الصلابة والوداعة.

كان حادًا في معاركه المبدئية والصحفية، لكنه نقيّ صادق في مواقفه.

يختلف معك سياسيًا، ثم يفتح لك قلبه دون حسابات. ويغضب بشدة، ثم يسامح بسرعة يشبه أبناء الصعيد الذين لم تفسدهم المدن.

◆ جاء من الجنوب المصري، من قرية المعنه في عمق الصعيد من الأرض التي تُخرج رجالًا يشبهون النخيل؛ قساة على العواصف، فياضين في العواطف

محمود..... حمل داخله دائمًا الانتماء العميق للمكان، وللناس العاديين، وللغة التي تصل مباشرة إلى القلب.

◆ دخل الصحافة من بوابة وصحيفة الشعب وفي داخله حلم قديم أن تكون الكلمة سلاحًا لمن لا يملكون سلاحًا.

ثم تنقل قلمه بين الصحف، وكتب بعفوية المحارب لا ببرود الموظف. وكان واضحًا...لا يعرف الخبث ولا الغدر.

◆ لم يكن من مدرسة "الحياد البارد"، بل من مدرسة الانحياز. ينحاز كما يشعر، ويكتب كما يؤمن، ويواجه كما يرى.

قد تتفق معه، وقد تختلف، لكنك لا تستطيع أن تتهمه بالغش ولا الزيف.

◆ امتلك حضورًا إنسانيا لم تصنعه الشاشات، بل صنعته قدرته على أن يبدو قريبًا من الناس.

كان يتحدث بلسانهم، ويغضب لغضبهم، ويفرح ببساطتهم، كأنه واحد منهم

◆ رغم الضجيج الذي أحاط بمن حوله، كان داخله شديد الهدوء والحساسية. التي يلمحها من اقترب منه.

كان يتألم بسرعة، ويفرح بسرعة، ويحزن من الجحود كما يحزن الأطفال.

◆ أذكر فيه دائمًا هذا الاحترام النادر للآخرين. يعرف قيمة الناس، ويحفظ الود، ولا يتعامل مع العلاقات كأوراق سياسية مؤقتة.

كان وفيًا... بطريقة قديمة لم تعد موجودة كثيرًا.

◆ وربما لهذا بقيت صورته الإنسانية أكبر من أي خلافات، وأعمق من أي معارك. فالسياسة تنتهي، لكن الأخلاق تبقى.

◆ حين جاءه المرض، واجهه بكل شجاعة. كان يعرف أن الجسد يتعب، لكن الروح التي اعتادت المواجهة لا تستسلم بسهولة.

حتى أيامه الأخيرة، ظل متعلقًا بالكلمة، وبالناس، وبالحياة نفسها.

◆ في رحيله، شعر كثيرون أن مصر فقدت واحدًا من أبناء الصحافة الذين يعيشون المهنة بقلوبهم لا بمصالحهم.

سلام على روحك الطاهرة يا محمود. سلام على قلبك النقي الذي بقي أنظف من كثيرٍ من المعارك التي خضتها.

◆ وشكرًا للزميل العزيز عماد ناصف الذي يثبت دائمًا أن الوفاء للرموز المحترمة شكلٌ آخر من أشكال النبل والشجاعة.

◆ بعض الرجال لا يرحلون تمامًا... يبقون في نبرة صوت، وفي ذكرى موقف، وفي دعوة صادقة تخرج من قلب صديق كلما مرّ الاسم أمامه.

وهكذا يبقى محمود بكري...

وجهًا لا يغيب.

✳ وجوه لا تغيب – أحمد حمدي
الرجل الذي عبر قبل أن تعبر الجيوش✳

لم يكن أحمد حمدي مجرد ضابطٍ لامع في سلاح المهندسين، ولا مجرد اسمٍ ارتبط بكوبري أو نفق أو صفحة مضيئة في كتاب أكتوبر. شيءٌ أعمق من ذلك بكثير كان يسكن هذا الرجل. روحٌ تعرف كيف تحوّل الحديد إلى طريق، والخوف إلى عبور، والهزيمة إلى مشروع انتصار مؤجل. لذلك لم يرحل حين استشهد، بل بقي واقفًا هناك... عند حافة القناة، يحمل على كتفيه مصر كلها وهي تبحث عن طريقها إلى الضفة الأخرى.

صباح العشرين من مايو عام ١٩٢٩، أبصرت المنصورة طفلًا هادئ الملامح، لم تكن المدينة تعرف أن الصبي الذي يكبر بين شوارعها القديمة سيصبح بعد سنوات أحد أكثر الرجال اقترابًا من فكرة البطولة الصامتة. بطولات لا تصنعها الخطب، بل تصنعها العقول الباردة تحت النار، والأيدي التي تعمل بينما الجميع يختبئون من الموت.

كلية الهندسة بجامعة القاهرة لم تمنحه فقط شهادة الميكانيكا عام ١٩٥١، بل منحته ما هو أخطر: الإيمان بأن العلم قد يكون سلاحًا لا يقل أهمية عن البندقية. وحين التحق بالقوات المسلحة، ثم انتقل إلى سلاح المهندسين، بدأ يدرك أن معارك المستقبل لن يحسمها الجنود وحدهم، بل سيحسمها أولئك الذين يعرفون كيف يبنون الطريق وسط الخراب.

سنوات مبكرة من عمره العسكري كشفت سريعًا عن معدن مختلف. تفوق أكاديمي لافت، ودورات عسكرية نادرة، وعقل هندسي شديد الانضباط، جعل قادته يدركون أنهم أمام ضابط لا يفكر بطريقة تقليدية. أكاديمية فرونز السوفيتية منحته تقدير امتياز، وأكاديمية ناصر العسكرية أضافت إلى شخصيته صلابة القائد الذي يجمع بين الحساب الدقيق وحدس الميدان.

زملاؤه لم ينسوا أبدًا ذلك اللقب الذي التصق به: «اليد النقية». لم يكن لقبًا عاطفيًا، بل توصيفًا حقيقيًا لرجل اقترب من الألغام كما يقترب الجراح من قلب مريضه. أكثر من ألفي لغم تعامل معها في صحارى مطروح، وكأنه يفاوض الموت بصبر العلماء وهدوء المؤمنين.

العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ كشف مبكرًا عن ذلك المعدن النادر. هناك، عند كوبري الفردان، لم يكن المطلوب مجرد قرار عسكري، بل شجاعة رجل يعرف أن تدمير الجسر قد ينقذ وطنًا بأكمله. نفذ المهمة دون تردد، وكأنه كان يتدرب مبكرًا على درس أكبر سيأتي بعد سنوات فوق مياه القناة.

هزيمة يونيو ١٩٦٧ مرت على كثيرين ككارثة، لكنها مرت على أحمد حمدي كجرح مفتوح لا بد أن يُشفى بالعمل لا بالبكاء. لم يكن من أولئك الذين اكتفوا بلعن الهزيمة. انشغل بإعادة البناء، وإعادة التفكير، وإعادة تجهيز الأرض لمعركة يعرف يقينًا أنها قادمة. شارك في نسف مستودعات ومرافق حتى لا تقع في يد العدو، وأعاد تنظيم الدفاعات غرب القناة، وكأن الرجل كان يزرع بذور العبور وسط ركام الانكسار.

سنوات الاستنزاف صنعت داخل هذا القائد يقينًا جديدًا: لا نصر بلا هندسة، ولا عبور بلا عقل يعرف كيف يسبق الزمن. لذلك حين كُلّف عام ١٩٧١ بإعداد لواء الكباري وتجهيز وحدات العبور، لم يتعامل مع المهمة كإجراء روتيني، بل كمشروع حياة. أعاد تطوير أساليب إنشاء الكباري والمعابر، ونجح في اختصار الزمن المستحيل، حتى أصبحت العمليات التي كانت تحتاج أيامًا تُنجز في ساعات قليلة.

حرب أكتوبر لم تبدأ عنده بطلقة المدفع الأولى، بل بدأت قبلها بسنوات من التفكير والتجريب والتدريب. لذلك، حين اندفعت القوات المصرية نحو القناة، كان رجال المهندسين أول من واجه النار والمياه والطين والساتر الترابي. بينما كانت الطائرات تقصف، والمدفعية تمطر الأرض جحيمًا، كان أحمد حمدي يتنقل بين المعابر والكباري كأن الرصاص لا يعنيه.

لم يكن قائدًا يجلس خلف الخرائط. شيء داخله كان يرفض فكرة القيادة البعيدة. لذلك بقي بين جنوده، يراقب المعديات، ويطمئن على الكباري، ويتابع فتح الممرات في أصعب قطاعات الجيش الثالث. كل جندي هناك كان يشعر أن قائده لا يطلب منهم ما لا يفعله بنفسه.

لحظات العبور الأولى كانت أقرب إلى معجزة هندسية وعسكرية وإنسانية. الساتر الترابي الذي قيل يومًا إنه مستحيل الاختراق، تحول تحت أيدي رجال المهندسين إلى ممرات للحياة. الكباري الثقيلة بدأت تحمل الدبابات، والمعديات راحت تشق المياه تحت القصف، بينما كان أحمد حمدي يتحرك من نقطة إلى أخرى بعينين لا تعرفان التعب.

الرابع عشر من أكتوبر ١٩٧٣ لم يكن يومًا عاديًا في حياة الرجل، ولا في ذاكرة مصر. كان القصف عنيفًا، والكوبري الذي يعمل عليه

تعرض لأضرار خطيرة، لكن القائد رفض الابتعاد. اقترب أكثر من رجاله، وأكثر من الخطر، وكأن روحه كانت تعرف أن النهاية اقتربت. شظايا قاتلة أصابته وهو يباشر إصلاح الكوبري بنفسه، ليسقط شهيدًا كما عاش دائمًا... في الصفوف الأولى.

استشهاد أحمد حمدي لم يكن مجرد فقدان قائد عسكري بارز، بل كان لحظة اكتشفت فيها مصر معنى القائد الحقيقي. رجلٌ لم يكتف بإصدار الأوامر، بل حمل الوطن فوق كتفيه، ومشى به وسط النار حتى عبر.

بعد الحرب، حاولت مصر أن ترد للرجل بعض جميله. أطلقت اسمه على النفق الذي يصل سيناء بالسويس، وعلى مدارس وشوارع ودفعات عسكرية، ومنحته نجمة سيناء من الطبقة الأولى. لكن الحقيقة أن كل هذه التكريمات، رغم قيمتها، تبدو أقل كثيرًا من سيرة رجل صار اسمه مرادفًا لفكرة العبور نفسها.

تبقى حكاية أحمد حمدي واحدة من أجمل ما أنجبته العسكرية المصرية: عقل مهندس، وقلب مقاتل، وروح شهيد. وحين يمر المصريون اليوم عبر النفق الذي يحمل اسمه، ربما لا ينتبه كثيرون إلى أن الرجل الذي يعبرون فوق ذكراه، كان يومًا أحد الذين صنعوا لمصر طريقها إلى الكرامة.

وجوه لا تغيب – سمير عبد الباقي

✳رحيل جيل✳ ...

◆ أخبار الرحيل لا تصلني أبدًا كخبر عابر. بعضها يأتي كأن أحدهم فتح فجأة نافذة قديمة في الذاكرة، فتندفع منها وجوه وأصوات وروائح وأماكن حسبنا أنها نامت إلى الأبد. وحين جاءني خبر رحيل الشاعر الكبير سمير عبد الباقي، شعرت أن مصر القديمة نفسها تنكمش قليلًا... وأن زمنًا كاملًا يغادر بهدوء موجع، لا يشبه الضجيج الذي نعيشه، بل يشبه انطفاء مصباح زيت في بيت ريفي قديم على ضفة النيل.

◆ سمير عبد الباقي، المولود في الخامس عشر من مارس عام ١٩٣٩ بميت سلسيل في محافظة الدقهلية، لم يكن مجرد شاعر عامية أو مثقف يساري عابر في تاريخ الحركة الثقافية المصرية. كان واحدًا من أبناء ذلك الجيل النادر الذي خرج من الريف المصري حاملًا قلبًا مملوءًا بالطين والقمح والحلم والمرارة معًا. جيل رأى في الكلمة موقفًا أخلاقيًا قبل أن تكون موهبة، ورأى في الشعر مسؤولية تجاه البشر لا وسيلة للزينة أو الشهرة.

◆ الدقهلية تجمعنا؛ هو من ميت سلسيل، وأنا من المنصورة. لذلك كنت دائمًا أشعر نحوه بقرب يتجاوز المعرفة الثقافية أو السياسية. أبناء هذه الأرض يحملون شيئًا متشابهًا؛ حساسية مفرطة تجاه الناس، وحنينًا دائمًا للأماكن الأولى، وعنادًا هادئًا يشبه مجرى النيل حين يبدو ساكنًا بينما يتحرك في العمق بلا توقف.

◆ والده، الشيخ عبد الباقي، كان مأذون ميت سلسيل، يعرف البيوت والعائلات والوجوه والحكايات الصغيرة. رجل بسيط يجلس إلى موائد الناس في أفراحهم، ويسجل بأصابعه بدايات الحكايات الإنسانية في دفاتر العقود القديمة. أظن أن سمير ورث عنه تلك القدرة النادرة على الاقتراب من البشر دون تكلف، وعلى الإصغاء العميق لوجع الناس وأفراحهم الهامسة. ابن المأذون الذي كان يسمع همسات العشاق في عقود الزواج، صار شاعرًا يسمع أنين الفقراء في قصائده.

◆ أتخيله طفلًا صغيرًا يسير في شوارع ميت سلسيل الترابية، يراقب الفلاحين العائدين من الحقول مع الغروب، ويصغي إلى حكايات النساء في السهرات الريفية الطويلة، ويتأمل والده وهو يكتب بخطه الهادئ أسماء العرسان والعروسات في دفاتر صفراء تشبه الزمن القديم نفسه. تلك التفاصيل الصغيرة صنعت داخله شاعرًا لم يتعال يومًا على الناس، ولم يتحول إلى مثقف معزول داخل برج زجاجي.

◆ حياته الحقيقية لم تبدأ في الجامعة، رغم تخرجه في كلية الزراعة بجامعة عين شمس قسم الاقتصاد الزراعي والتعاون عام ١٩٦٦، بل بدأت مبكرًا وسط الفلاحين والطلاب والحلقات السياسية السرية. انجذب مبكرًا إلى الفكر اليساري التروتسكي، لا باعتباره موضة فكرية أو رفاهية تنظيرية، بل باعتباره انحيازًا أخلاقيًا للعدالة الاجتماعية وكرامة الإنسان.

◆ كان يرى أن الشاعر لا ينبغي أن يقف محايدًا بينما الفقراء يسحقهم القهر، وأن القصيدة التي لا تشعر بوجع الناس مجرد زخرفة لغوية بلا روح. لذلك ارتبط بالحركة اليسارية المصرية، وشارك مبكرًا في إصدار صحيفة "صوت الفلاحين"، التي رفعت شعار "الأرض

والديمقراطية والاستقلال الوطني"، وهو الشعار الذي اختصر روحه كلها تقريبًا.

◆ الاعتقال الذي امتد من عام ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ لم يكن مجرد محطة سياسية في حياته، بل كان معملًا روحيًا وإنسانيًا أعاد تشكيله بالكامل. دخل السجن شابًا غاضبًا، وخرج منه شاعرًا يعرف هشاشة الإنسان وقوته في اللحظة نفسها. داخل الزنازين كتب وقرأ وأدار مجلات حائط وشارك في النشاط المسرحي والثقافي للمعتقلين، حتى تحولت الزنزانة عنده إلى مساحة مقاومة داخل العتمة.

◆ سنوات سجني الطويلة أعادتني إليه بشكل مختلف. ذات يوم، أرسل إليّ مع أحد المحامين نسخة من كتابه "زمن الزنازين". لم يكن كتابًا فقط، بل كان رفيقًا حقيقيًا في العزلة. قرأته لا ككاتب يقرأ تجربة معتقل آخر، بل كسجين يبحث عن نافذة ضوء داخل جدار مغلق. وجدت فيه ذلك الصوت الإنساني النادر الذي يعرف كيف يربّت على كتف المعذبين دون شعارات أو ضجيج.

◆ زمن الزنازين" لم يكن مجرد مذكرات سياسية، بل شهادة عميقة على جيل كامل عاش الحلم والانكسار معًا. لذلك بقي من أكثر كتب أدب السجون المصرية صدقًا وإنسانية. لم يكتب فيه عن البطولة بقدر ما كتب عن الإنسان حين يُختبر في وحدته وخوفه وأمله الصغير.

◆ لقاءاتنا المتكررة في شارع كريم الدولة لا تغيب عن ذاكرتي. ذلك الشارع القصير الذي كان يفصل بين مقر حزب الغد ومقر حزب التجمع بدا أحيانًا كأنه جسر خفي بين السياسة والشعر. هناك، وسط صخب القاهرة، كنت أراه قادمًا بابتسامته الهادئة وروحه الخجولة، يحمل ذلك الود الإنساني الذي يأسر القلب فورًا.

◆ لم يكن من أصحاب الحضور الصاخب أو الأصوات العالية. حضوره كان يشبه قصائده؛ بسيطًا، دافئًا، وعميقًا دون ادعاء. يجلس قليلًا، يتحدث قليلًا، لكنه يترك خلفه أثرًا طويلًا من الطمأنينة والمحبة. بعض البشر تشعر معهم أنك تعرفهم منذ زمن بعيد، حتى لو لم تلتقهم كثيرًا... وسمير كان من هؤلاء النادرين.

◆ شعره لم يكن قصائد ترفيهية تُقرأ في الأمسيات ثم تُنسى. قصيدته كانت تشبه منشورًا سياسيًا مكتوبًا بموسيقى شعبية، أو هتافًا جماعيًا خارجًا من قلب العمال والفلاحين والمهمشين. لذلك ظل قريبًا من الناس الحقيقيين؛ من المقاهي الشعبية والحارات القديمة ووجوه البسطاء.

◆ أكثر ما كان يدهشني فيه تلك القدرة النادرة على الجمع بين الحزن والسخرية. الأراجوز عنده لم يكن مهرجًا شعبيًا، بل حكيم شارع يرتدي قناع الضحك كي يستطيع أن يقول الحقيقة. "شمروخ الأراجوز" لم تكن مجرد تجربة ساخرة، بل محاولة لتحويل الضحك الشعبي إلى مقاومة ثقافية ضد الاستبداد والتبلد والقبح العام.

◆ كان يعرف أن السلطة قد تتحمل الخطب الطويلة، لكنها ترتبك أحيانًا من جملة ساخرة يرددها الناس في الشوارع. لذلك جاءت أراجيزه مثل وخزات صغيرة في جسد البيروقراطية الثقيلة. ومن أكثر مقاطعه التصاقًا بالذاكرة:

"سيادة الملازم رئيس المدينة سيادة العقيد المحافظ سيادة اللواء المغني وأنا... واكله قلبي مشاعر"

◆ خلف هذه السخرية البسيطة كانت توجد مصر كاملة؛ مصر الموظف المرهق، والفلاح المنسي، والمواطن الذي يرى السلطة بعيدة عنه كأنها عالم آخر لا يسمع أنينه.

◆ حتى قصائده الرومانسية لم تكن بعيدة عن الأرض. الحب عنده يشبه سنابل القمح، ورائحة المطر فوق الطين، وصوت الأذان الخارج من قرية نائمة على حافة ترعة قديمة. لذلك بقي شعره حيًا؛ لأنه خرج من الحياة نفسها، لا من المختبرات اللغوية الباردة.

◆ كتب عشرات الدواوين والمسرحيات وأعمال الأطفال والرباعيات والأراجيز، لكن قيمته الحقيقية لم تكن في عدد الكتب، بل في ذلك الصفاء الإنساني النادر الذي حافظ عليه حتى النهاية. لم يتحول إلى شاعر سلطة، ولم يبدل جلده، ولم يتاجر بتاريخ سجنه أو نضاله.

◆ جنازته التي خرجت من مسجد مصطفى محمود لم تكن مجرد وداع شاعر، بل وداع جزء من زمن كامل؛ زمن كان المثقف فيه يشعر بالخجل إذا ابتعد عن الناس، لا بالفخر. زمن كانت القصيدة فيه موقفًا أخلاقيًا قبل أن تكون لعبة لغوية.

◆ رحل سمير عبد الباقي... لكن بعض البشر لا يغادرون تمامًا. يبقون مثل ضوء قديم في بيت ريفي بعيد، أو مثل صوت شاعر يجلس في مقهى صغير يتحدث بهدوء بينما تواصل الدنيا صخبها حوله.

◆ وحدهم الطيبون يفعلون ذلك... يرحلون بأجسادهم، لكن أرواحهم تبقى تمشي طويلًا بين الناس.

✳وجوه لا تغيب

علاء الأسواني يستقبل السبعين (١-٣)✳

◆ بعد أيام قليلة، وتحديدًا في السادس والعشرين من مايو، يستقبل علاء الأسواني عامه السبعين. سبعون عامًا تبدو، في حياة بعض البشر، مجرد رقم يضاف إلى العمر، لكنها في حياة رجل مثل علاء الأسواني تبدو كأنها سبعون عامًا من الحكايات المصرية الثقيلة؛ سبعون عامًا من الكتابة، والأسئلة، والضجيج، والنجاح، والخصومات، والانتصارات الصغيرة التي لا تُرى في نشرات الأخبار، لكنها تبقى في وجدان الناس طويلًا.

◆ تبدأ بعض الحكايات من كتابٍ يختبئ أكثر مما يظهر. كتابٌ صغير الحجم، لكنه كان كافيًا ذات مساء شتوي من عام ٢٠٠٢ ليصنع واحدة من أغرب لحظات الدهشة تحت قبة البرلمان المصري. دخلتُ القاعة يومها كعادتي، لكن شيئًا ثقيلًا كان يسبقني إلى مقعدي. بدا كمال الشاذلي على غير طبيعته؛ يضع كتابًا أسفل منصة مقعده، يحاول إخفاءه عن العيون، ثم يعود بين لحظة وأخرى إلى تقليب صفحاته بعصبية واضحة، فيما تتبدل على وجهه علامات ضيق لم أعتدها منه حتى في أكثر الجلسات سخونة.

◆ وما إن جلستُ في مقعدي المواجه له في الصف الأول، حتى شعرت أن الرجل يرمقني بنظرات غاضبة تختلط فيها الريبة بالاتهام. وعلى منصة المجلس، كان الدكتور فتحي سرور يختلس النظر هو الآخر إلى الكتاب نفسه، ثم يرفع عينيه نحوي بابتسامة جانبية لا

تخلو من سخرية أو شماتة خفيفة، كأن الاثنين يشتركان في سرّ لا أعرفه بعد.

◆ لم أفهم شيئًا في البداية. حاولت متابعة جدول الأعمال، لكن الأجواء بدت مشحونة على نحو غريب. كان كمال الشاذلي يقلب الصفحات بسرعة، يتوقف عند مقاطع بعينها، يضع علامات بالقلم، ثم يرفع رأسه ناحيتي كأنه يريد أن يقول شيئًا ويؤجله.

◆ فجأة، التفت إليّ قائلًا بصوت خافت لكنه حاد: «شكرًا يا عم أيمن». ظننته يمزح، فسألته: «على ماذا يا معالي الوزير؟». رفع الكتاب أمامي للمرة الأولى، فإذا به رواية «عمارة يعقوبيان» لـ علاء الأسواني. قالها وهو يبتسم ابتسامة متعبة: «على الرواية دي.«

◆ كانت تلك أول مرة تقع عيناي فيها على الرواية التي كانت مصر كلها تتحدث عنها همسًا وصخبًا في الوقت نفسه. لم أكن قد قرأتها بعد، ولذلك لم أفهم سبب توتر الرجل، حتى باغتني بسؤال مباشر: «هو أنا الفولي؟». ارتبكتُ للحظة، لأنني بالفعل لم أكن أعرف شيئًا عن شخصيات الرواية ولا إسقاطاتها، فأجبته بصدق: «والله يا معالي الوزير ما قرأتهاش لسه.«

◆ لم يقتنع. ظل ينظر إليّ بنصف ابتسامة تحمل قدرًا من الشك، ثم قال: «كل الناس بتقول إنك أقرب واحد للمثقفين والكتاب وسط النواب... وإن أكيد لك علاقة بالرواية دي». حاولت أن أشرح له أن علاقتي بالمثقفين لا تعني أنني شريك سري في كتابة الروايات، لكنه بدا مستقرًا تمامًا في قناعته، وكأن العمل الأدبي تحوّل داخل عقله إلى ملف سياسي أو تقرير برلماني أو عملية تصفية حسابات ناعمة.

◆ المدهش أن الرواية لم تكن قد تحولت بعد إلى الظاهرة الكبرى التي عرفتها مصر لاحقًا، ومع ذلك كانت قد نجحت مبكرًا في التسلل إلى قلب السلطة. لم يكن غضب كمال الشاذلي من نص أدبي فقط، بل من مرآة شعر أنها اقتربت أكثر مما ينبغي من وجوه يعرفها جيدًا، ومن عالم ظل يظن طويلًا أنه مغلق بإحكام.

◆ أعود أحيانًا بذاكرتي إلى تلك اللحظة فأدرك أن علاء الأسواني لم يدخل المجال العام من بوابة السياسة التقليدية، بل دخل إليه عبر الأدب. رواية واحدة كانت كافية لكي تجعل مسؤولين كبارًا يفتشون داخل صفحاتها عن أنفسهم، أو عن وجوه تشبههم، أو عن أسرار يعرفونها جيدًا.

◆ لم يكن علاء الأسواني يشبه الأدباء التقليديين الذين يعيشون بعيدًا عن الناس. الرجل الذي ولد في السادس والعشرين من مايو ١٩٥٧، وسط بيتٍ مصري ممتلئ بالثقافة والسياسة والحكايات، حمل منذ بداياته ذلك التناقض الجميل؛ طبيب أسنان هادئ، وروائي يكتب كأن في داخله مظاهرة لا تهدأ.

◆ والده عباس الأسواني لم يكن اسمًا عابرًا في حياته، بل كان عالمًا كاملًا من الأدب والسياسة والانحياز للفقراء والبسطاء. ومنذ سنواته الأولى، بدا علاء كأنه يرث عن أبيه شيئًا أكبر من الموهبة؛ يرث الحساسية تجاه الظلم، والقدرة على التقاط التفاصيل الإنسانية التي لا يراها الآخرون.

◆ تعلّم في الليسيه الفرنسية، وذهب إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراسته، وتعلّم الإسبانية في مدريد، لكنه ظل يحمل مصر داخله أينما ذهب. حتى رواياته التي عبرت العالم بقيت شوارع القاهرة وروائحها وطبقتها الوسطى المهزومة حاضرة في كل صفحة منها.

◆ وحين صدرت «عمارة يعقوبيان»، لم ينجح الأسواني فقط في كتابة رواية عظيمة، بل نجح في إعادة ملايين القراء العرب إلى الرواية من جديد. فجأة، صار الناس يتحدثون عن الأدب في المقاهي والجامعات والتاكسيات والبرلمان نفسه.

◆ لم يكن نجاحه مجرد نجاح تجاري أو إعلامي. كان نجاحًا لرواية أعادت للمصريين شهيتهم لسماع أنفسهم. ولذلك بقي علاء الأسواني، بالنسبة لكثيرين، أكثر من روائي؛ بقي شاهدًا على زمن كامل.

◆ قالوا عنه-:

◆ قال عنه الروائي اللبناني الياس خوري: «نجح علاء الأسواني في كسر الحاجز بين الأدب والسياسة دون أن يفقد جمال الفن.«

◆ وقال الناقد المصري جابر عصفور: «يمتلك قدرة استثنائية على تحويل تفاصيل الطبقة الوسطى المصرية إلى عمل إنساني عالمي.«

◆ أما الروائي المصري بهاء طاهر فقال عنه: «علاء الأسواني يمتلك حسًا حكائيًا نادرًا يجعل القارئ يرى نفسه داخل النص.«

◆ غدًا نقترب أكثر من الوجه الآخر للرجل؛ علاء الأسواني الذي كانت القاهرة تصعد إليه كل خميس، والذي تحولت ندواته داخل مقر حزب الغد إلى مساحة نادرة اختلط فيها الأدب بالسياسة والحلم المصري المؤجل.

وجوه لا تغيب

علاء الأسواني (٢-٣)

✳مصر كانت تصعد إليه كل خميس✳

◆ القاهرة، في سنواتها المضطربة قبل يناير ٢٠١١، لم تكن مدينة سهلة الفهم أو الإصغاء لأحد .

كان الضجيج أعلى من الكلام، والخوف أوسع من الشوارع، والسياسة تُدار خلف الأبواب لا فوق المنصات المفتوحة.

◆ مع ذلك، كان هناك مساء مختلف يتكرر كل خميس في قلب ميدان طلعت حرب، داخل مقر البرلمان الشعبي بحزب الغد، فوق «جروبي.»

مساء تصعد فيه النخبة المصرية درجات السلم القديمة، لا بحثًا عن منصب ولا صفقة ولا صورة تذكارية، بل من أجل الاستماع إلى الدكتور علاء الأسواني.

◆ لم تكن الندوة نشاطًا تقليديًا، ولم يكن الدكتور علاء الأسواني مجرد ضيف عابر. علي منصة جلس عليها كل الساسة، فالرجل كان بطل المشهد كله.

كان اسمه وحده كافيًا لتمتلئ القاعة قبل الموعد بوقت طويل، حتى بدا المكان، في بعض الأمسيات، أشبه بمصر صغيرة؛ وجوه من اليمين واليسار، ليبراليون وقوميون وإسلاميون، فنانون وصحفيون

وأساتذة جامعات وشباب، لم يكن يجمعهم شيء بقدر ما كانت تجمعهم الرغبة في الإصغاء إلى هذا الرجل.

◆ أذكر أن بعض الحاضرين كانوا يأتون قبل الندوة بساعتين فقط ليضمنوا مقعدًا قريبًا. آخرون كانوا يقفون في الممرات أو عند الأبواب، بينما يتسلل دخان السجائر مختلطًا برائحة قهوة جروبي، وصخب النادي اليوناني الصاعد من أسفل.

◆ في الداخل، كان الدكتور علاء الأسواني يتحدث بصوته الرخيم بالطريقة نفسها التي يكتب بها.

بلا استعراض، بلا نبرة واعظ، وبلا لغة خشبية تقليدية.

كان يتكلم كأن رواية بديعة من رواياته خرجت من ضفتي كتاب لتجلس بين الناس.

◆ لم يكن الحضور يذهب ليستمع إلى تحليل سياسي تقليدي، بل إلى رجل استطاع أن يجعل الثقافة جزءًا من المجال العام، وأن يعيد للمثقف مكانته القديمة التي كادت تضيع وسط زحام المذيعين والخطباء ونجوم البرلمان.

◆ كثيرون لم يكونوا يقرأون الروايات أصلًا، لكنهم كانوا يأتون ليستمعوا إلى الراوي علاء الأسواني.

بعضهم جاءه من بوابة «عمارة يعقوبيان»، وبعضهم من مقالاته السياسية، وآخرون فقط لأنهم شعروا أن هذا الرجل يشبههم، ويتحدث بلغتهم، لكنه يقول ما يخافون قوله.

◆ تحت سقف واحد، كانت مصر تجلس لتتحاور مع نفسها.

صورة كانت جديرة بأن يسجلها الفنان المبدع صلاح عناني في لوحة تجمع شاعرًا يساريًا بجوار رجل أعمال ليبرالي، وصحفيًا قوميًّا

يناقش طالبًا إسلاميًا، بينما الجميع ينتظر وصول علاء الأسواني، وهو يدخل إلى القاعة خجولًا، مبتسمًا، متواضعًا، وسط نظرات الإعجاب.

◆ ندوات الدكتور علاء الأسواني، سواء في صالون الدكتور ممدوح حمزة، أو في مقر حزب الكرامة، أو في مقر حزب الغد، لم تكن مجرد نشاط ثقافي؛ بل كانت محاولة مبكرة لاستعادة المجال العام المصري الذي جرى تجريفه طويلًا.

كانت نبضًا يسري في جسد تصور البعض أنه بات جثة هامدة.

◆ في ندواته بالغد، كانت المناقشات تمتد أحيانًا إلى ما بعد منتصف الليل.

أحيانًا كان يخرج بعض الحضور إلى الشرفة الدائرية المطلة على ميدان طلعت حرب، بدعوى التدخين، لكنهم كانوا يتجادلون حول فكرة طرحها، أو رواية كتبها، أو واقعة أثارها، ثم يعودون مرة أخرى إلى الداخل كأنهم يخشون انتهاء الليلة سريعًا.

◆ أكثر ما كان يلفتني في الدكتور علاء الأسواني أنه لم يتعامل يومًا بغرور مع شهرته، باعتبارها سلطة فوق الناس.

كان يصغي باهتمام كما يتكلم، ويمنح الشباب اهتمامًا حقيقيًا لا مجاملة عابرة.

كثير من الوجوه التي حضرت تلك الندوات كانت تشعر – للمرة الأولى – أن صوتها مسموع، وأن المثقف يمكن أن يكون قريبًا من الناس لا متعاليًا عليهم.

◆ لم يكن حضوره قائمًا على البلاغة والثقافة وحدها، بل على الصدق.

كان الناس يشعرون أن الرجل يقول ما يؤمن به فعلًا، حتى حين يختلفون معه. وربما لهذا السبب تحديدًا بقيت ندواته مزدحمة حتى في أصعب اللحظات السياسية التي مرت بمصر قبل يناير ٢٠١١.

◆ حين جاءت ثورة يناير، لم أشعر أن علاء الأسواني غادر موقعه الطبيعي إلى الميدان، بل شعرت أن الميدان نفسه كان امتدادًا طبيعيًا لتلك الأمسيات الطويلة؛ الأسئلة ذاتها، والقلق ذاته، والغضب ذاته، والأمل نفسه الذي كان يملأ عيون الشباب وهم يصعدون كل خميس إلى مقر حزب الغد.

◆ لم يكن الأسواني سياسيًا محترفًا، وربما لهذا صدقه الناس. كانوا يرون فيه كاتبًا جاء إلى السياسة من باب الضمير لا من باب الطموح الشخصي.

كان الدكتور علاء ثورة قبل الثورة.

◆ حين واجه أحمد شفيق على الهواء بعد الثورة، على قناة أون تي في، شعر كثيرون أن الرجل الذي كانوا يستمعون إليه فوق «جروبي» صار يتحدث باسم المصريين.

◆ خمسة عشر عامًا مرت على تلك الأمسيات، لكن صورها ما تزال معلقة في الذاكرة؛ قاعة البرلمان الشعبي المكتظة، مقاعد المدرج المتصاعدة، أصوات النقاش، ووجه علاء الأسواني في القلب، وهو يتحدث بهدوء وسط بلد كان يغرق ببطء.

◆ قالوا عنه:

◆ قال عنه الروائي الجزائري واسيني الأعرج:

»أعاد الأسواني الاعتبار للرواية العربية الجماهيرية دون أن يتنازل عن قيمتها الفنية.«

◆ وقالت عنه صحيفة الغارديان:

»الروائي الذي منح الشارع المصري صوتًا أدبيًا جريئًا.«

◆ أما المفكر الأستاذ فهمي هويدي فقال:

»علاء الأسواني نموذج للمثقف الذي لم يفصل يومًا بين الكلمة والضمير.«

◆ وأقول عنه:

»رحم الله أباه الأديب الكبير، وأمه بنت الأصول العريقة، وأمد الله في عمره وعمله، ليظل صوتًا معتبرًا للعقل، وأميرًا للإصغاء الحنون.«

و غدًا، وفي يوم مولده، تأتي الحلقة الثالثة من ثلاثية «الأسواني يستقبل السبعين.«

يبقى الوجه الأخير... وجه الكاتب الذي خرج من الرواية إلى قلب الثورة، ثم ظل، رغم كل المواقف والعواصف، واحدًا من أكثر الأصوات المصرية حضورًا وتأثيرًا وإثارة لمخاوف المغيبين والمستبدين.

✳علاء الأسواني... يوم مولده✳

✳وجوه لا تغيب – علاء الأسواني (٣–٣)✳

سبعون عامًا..وما زالت مصر تمشي في صوته

◆ بعد ساعات قليلة، من اليوم

**)السادس والعشرين من مايو(**

، يستقبل علاء الأسواني عامه السبعين.

◆ سبعون عامًا، لم يعشها الرجل على هامش الحياة،

بل في قلبها تمامًا، بين الأدب والسياسة، وبين العيادة والميدان، وبين الرواية والناس، وبين مصر التي أحبها كما يحب الابن أمه رغم ما أورثته له من جينات التعب والحنين، والخيبات التي لا تنتهي.

◆ بعض الكتاب يشبهون العابرين في محطات القطارات، يمرّون سريعًا، يلوحون بأيديهم، ثم يختفون في ضباب الزمن .

بعضهم يبقى، لا لأن صوره معلقة في الصحف،

بل لأن صوته يظل عالقًا في ذاكرة المدن .

دكتور علاء الأسواني من هؤلاء الذين لا يغادرون المشهد بسهولة، كاتبا ترك على جدران القاهرة ظلالًا طويلة من الحكايات، حتى صار يصعب أحيانا التمييز بين مصر التي عاشها، ومصر التي كتبها.

◆ في ذكرى ميلاده،

لا يبدو الحديث عن دكتور علاء الأسواني مجرد احتفاء بروائي شهير، بل استعادة لصوت إنساني جعل القاهرة بطلة من لحم وناس ودم، مدينة تتنفس داخل رواياته، وتبكي وتغضب، وتحب، كما لو أنها امرأة مصرية مسنه تجلس في شرفة مطلة على النيل، تراقب أبناءها وهم يبتعدون واحدا بعد الآخر.

◆ لم تأتِ الثورة إلى الأسواني فجأة، ولم يذهب إليها بوصفها موضة سياسية ،أو فرصة للظهور .

الحقيقة أن يناير كانت تسكن كتاباته قبل أن تسكن الميادين .

الغضب الصامت للطبقة الوسطى، الإحساس العام بالإهانة، فساد السلطة، القهر الاجتماعي، الخوف الذي يختبئ داخل البيوت، كلها كانت تتسلل مبكرًا إلى رواياته ومقالاته، حتى بدا كأنه يلتقط ارتجافات المجتمع قبل أن يتحول الارتجاف إلى زلزال.

◆ وحين خرج المصريون إلى الشوارع، لم يكن علاء الأسواني يحتاج إلى إعادة تعريف نفسه.

الناس كانت تعرفه بالفعل ، بعضهم من «عمارة يعقوبيان»، وبعضهم من مقالاته، وبعضهم من مواجهته مع شفيق، وبعضهم من ندواته، حيث جلس لسنوات يناقش المصريين في السياسة والأدب والحلم.

◆ أتذكر أن كثيرًا من الشباب الذين حضروا تلك الندوات كانوا ينظرون إليه بوصفه نموذجا للمثقف الذي لم ينفصل عن الناس.

لم يكن يتحدث من فوق منصة متعالية، ولم يكن يقدّم نفسه باعتباره مالكًا للحقيقة المطلقة. كان يدخل في النقاشات بعقل الكاتب

لا بعقل المسؤول، وربما لهذا السبب أحبه جيل كامل كان يبحث عن صوت مختلف وسط ضجيج الشعارات.

◆ جاءت مواجهته الشهيرة مع أحمد شفيق على شاشة ON.TVبعد الثورة كأنها لحظة مكثفة لزمن كامل. ملايين المصريين كانوا يشاهدون للمرة الأولى مثقفًا يجلس وجهًا لوجه أمام رجل دولة، يسأله بلا خوف، ويعبر عن غضب الناس بلغة حادة.

لم يكن المشهد مجرد حوار تلفزيوني، بل كان صورة رمزية لتحول كبير عاشته مصر في تلك اللحظة

لحظة شعر فيها المواطن العادي أن الكلمة يمكن أن تجلس، للمرة الأولى منذ زمن طويل، على الكرسي المقابل للسلطة دون أن ترتجف.

◆ وربما لهذا السبب أيضًا أثار علاء الأسواني كل هذا الجدل. فالمجتمعات التي تعيش أزمات عميقة لا تحب دائمًا الأصوات الواضحة. بعض الناس (وأنا منهم)

أحبوه بشدة، وبعضهم ضاق به وبمواقفه وصراحته، لكن أحدًا تقريبًا لم يستطع التعامل معه كصوت هامشي عابر.

◆ شخصيًا، ربما اختلفت بصمت معه في بعض المواقف، واتفقت معه في الكثير ، لكنني ظللت أرى فيه دائما قيمة نادرة في المجال العام.

رجل يقول ما يؤمن به دون حسابات او لغة معقدة، ودون مهارة زائدة في المواربة أو تغيير الأقنعة.

ولهذا أقولها الآن بصدق كامل:

قد لا تحب علاء الأسواني... لكنك إن كنت منصفًا، فلا أقل من أن تحترمه.

◆ أنا شخصيًا أحبه واحترمه لأنه لم يتعامل مع الأدب باعتباره مهنة للزينة الاجتماعية، أو طريقًا سريعًا إلى الشهرة، بل باعتباره مسؤولية أخلاقية وإنسانية .

أحبه واحترمه لأنه، حتى في أكثر لحظات النجاح العالمي، لم يتخلَّ عن انشغاله بمصر وبالناس العاديين الذين خرجت منهم شخصياته في رواياته.

◆ الكتابة عند الدكتور علاء الأسواني لم تكن يومًا مجرد حرفة، يجيدها ويدرسها في جامعات كبرى، ودورات هامه ،بل كانت مرآة وجرس إنذار معًا؛ تضيء وتُقلق، تفتح الجراح ولا تدعي القدرة على شفائها، لكنها ترفض الاستسلام لفكرة أن هذا الخراب قدر أبدي. وربما لهذا بدا أدبه دائمًا منحازًا للحياة، حتى وهو يكتب عن الانكسارات؛ كمن يزرع وردة صغيرة في شق جدار يعرف جيدا أنه يتداعى.

◆ العالم عرف علاء الأسواني عبر ترجمات رواياته إلى عشرات اللغات، وعبر الجوائز التي حصدها من باريس وتورينو وبرلين وشيكاغو ومونتريال .

لكنني أظن أن أهم ما حققه الرجل لم يكن جائزة أدبية ولا تكريمًا دوليًا، بل تلك العلاقة الخاصة التي نشأت بينه وبين القارئ، علاقة مبنية على شعور نادر بالصدق.

◆ خلال السنوات الأخيرة، تكررت تساؤلات كثيرة في الأوساط الثقافية العربية والعالمية:

** هل يمكن أن يصل اسم علاء الأسواني يومًا إلى جائزة نوبل؟**

ولا أخفي أنني كنت، كلما سمعت هذا السؤال، أفكر بطريقة مختلفة قليلًا. بعض الجوائز تكبر بالأسماء التي تقترن بها، وبعض الأسماء

تصبح أكبر من أي جائزة. وجائزة نوبل للأدب، بكل رمزيتها ومكانتها، سوف تكتسب بلا شك مزيدًا من الوهج إن اقترن بها اسم علاء الأسواني، لكنني لا أظن أن اسم علاء الأسواني نفسه يحتاج كثيرًا إلى هذا الاقتران كي يكتمل حضوره أو قيمته.

◆ لا أذكر أن الأدب العظيم جاء يوما نتيجة مطاردة الجوائز أو السعي المحموم إليها. الجوائز الحقيقية تذهب غالبا، في لحظتها المناسبة، إلى أولئك الذين كانوا مشغولين بالكتابة أكثر من انشغالهم بالمنصات والجوائز والاحتفالات .

وربما لهذا السبب بالتحديد بقي اسم علاء الأسواني حاضرًا في النقاشات الثقافية الكبرى، بوصفه كاتبًا استطاع أن يمنح الرواية العربية مساحة أوسع في الوعي العالمي، لا باعتبارها أدبًا محليًا ضيقًا، بل باعتبارها شهادة إنسانية كاملة على عصر مضطرب.

◆ لم يكتب كمن يؤدي واجبًا ثقافيًا، بل كمن يحاول فهم البشر وإنقاذ ذاكرتهم من الضياع .

ولذلك شعر كثيرون أن شخصياته ليست شخصيات روائية فقط، بل وجوه حقيقية قابلوها في الشارع أو في البيت أو في المصعد أو في مقهى قديم من مقاهي القاهرة.

◆ بقيت مصر ،بطلة أعماله الكبرى حتى وهو بعيد عنها. شوارعها، بناياتها القديمة، لهجتها، أحزانها، طبقتها الوسطى التي تتآكل ببطء، موظفوها المنهكون، نساؤها القويات، وشبابها الذي يحاول النجاة من الإحباط،

كل ذلك ظل حاضرًا في كتاباته كأن مصر تمشي داخله أينما ذهب.

◆ وربما لهذا السبب تحديدًا نجح عالميًا .

فالعالم لا يحب النسخ المقلدة، بل يحب الأصوات التي تحمل رائحة أماكنها الحقيقية .

وعلاء الأسواني حمل مصر معه إلى العالم دون أن يحوّلها إلى بطاقة سياحية أو صورة فولكلورية باردة.

◆ حتى عيادته الصغيرة في جاردن سيتي ،بقيت جزءًا من صورته الإنسانية. طبيب أسنان يجلس نهارًا مع مرضاه، ثم يعود ليلًا ليكتب عن مجتمع كامل يتألم أكثر من أي عصب ملتهب .

كان يبدو أحيانًا كأن الطب والأدب عنده مهنة واحدة؛ محاولة لتخفيف الألم، بطريقته.

◆ لهذا السبب تحديدًا كتبت هذه "الثلاثية" عن علاء الأسواني.

لا لأنه روائي شهير، ولا لأنه أصبح اسما حاضرًا في المشهد الثقافي والسياسي ، بل لأن بعض البشر يتحولون، مع الزمن، إلى جزء من ذاكرة جيل كامل. يختلف الناس حولهم، يتجادلون بشأنهم، يغضبون منهم أحيانًا، لكنهم يبقون، رغم كل شيء، حاضرين في الوعي العام كعلامة على زمن كامل لا يمكن محوه بسهولة.

◆ كتبت عنه لأنني رأيت، عبر سنوات طويلة، كيف استطاع أن يجعل الأدب قريبًا من الناس،

وكيف تحولت الرواية عنده إلى مساحة لفهم مصر لا للهروب منها .

وكتبت عنه أيضًا لأنني أعرف، كما يعرف كثيرون، أن الذين دفعوا أثمانًا من أعمارهم وأرواحهم في سبيل الكلمة الحرة، يستحقون دائمًا أن يُروى شيء من حكايتهم بمحبة وإنصاف.

◆ من إسطنبول –التي أكتب منها الآن– إلى نيويورك التي أكتب إليها هذه الكلمات،

تبدو المسافات أحيانًا أقل قسوة من الغربة نفسها.

الغربة يا دكتور علاء

ليست فقط أن تبتعد عن وطنك، بل أن تحمل وطنك معك، أينما ذهبت؛ أشعر مثلك بمرارة الاشواق للوطن

في رائحة القهوة،

وفي لهجة الناس التي تفتقدها،

وفي شارع يشبه شارعًا قديمًا مررت به يومًا،

ثم تمضي بقية الليل تحاول الهروب من ذاكرة لا تريد أن تهدأ.

◆ أعرف، كما تعرف أنت، أن المنافي ليست فقط جغرافيا.

أحيانًا يعيش الإنسان غريبًا داخل وطنه، وأحيانًا يحمل وطنه فوق كتفيه من مطار إلى مطار،

وكأن البلاد تحولت إلى حقيبة يد، لا يجرؤ على تركها بعيدًا عنه.

وربما لهذا السبب تحديدًا ظلّت مصر حاضرة في كتاباتك بكل هذا الدفء والوجع؛ لأن البلاد التي نبتعد عنها قسرًا، لا تغادرنا أبدًا، بل تسكننا أكثر كلما ابتعدنا.

◆ أكتب إليك من إسطنبول، وأنت هناك في نيويورك، وأشعر أن ما بين المدينتين ليس بحرًا ولا طائرات ولا خرائط، بل شيء واحد فقط اسمه مصر.

تلك البلاد التي أتعبتنا، لكننا، رغم ذلك، لم ولن نتعلم كيف نتوقف عن حبها.

◆ سبعون عامًا يا دكتور علاء···

أتمنى لك سنوات قادمة هادئة تشبه ضوء القاهرة القديم قبل الزحام، وصحة لا تُهزم بسهولة، وقلبًا يبقى قادرًا على الدهشة، رغم كل ما رآه من انكسارات البشر وتقلبات السياسة.

أتمنى أن تظل قادرًا على الكتابة بنفس الشغف الأول؛ شغف ذلك الفتى الذي كان يرى في الحكاية محاولة لإنقاذ العالم، من قسوته.

أتمنى أن تبقى كلماتك قادرة على العبور من الكتب إلى القلوب، وأن يظل القراء يجدون في سطورك شيئًا يشبههم، ويشبه خوفهم، وأحلامهم الصغيرة التي يحاول هذا الزمن سحقها كل يوم.

أتمنى أن يمنحك العمر ما يكفي من الطمأنينة بعد كل هذا الصخب،

وما يكفي من المحبة بعد كل هذه المعارك، وما يكفي من السلام الداخلي لتجلس ذات مساء وتبتسم لأنك، ببساطة، لم تخن صوتك يومًا.

وأتمنى، فوق كل شيء، أن تبقى مصر حاضرة في قلبك كما بقيت حاضرًا في ذاكرتها؛ لأن المدن، مهما قست، لا تنسى الذين كتبوها بمحبة حقيقية.

◆ لذلك، بينما تستقبل عامك السبعين، لا يبدو الأمر مجرد احتفال بعيد ميلاد روائي كبير، بل احتفال بجيل كامل رأى فيك شيئًا من نفسه، وشيئًا من مصر التي أحبها رغم كل ما فعلته بأبنائها.

قالوا عنه:

◆ قال عنه الروائي السوداني الطيب صالح: «الرواية عند علاء الأسواني ليست ترفًا لغويًا، بل شهادة حية على زمن كامل.«

◆ وقالت صحيفة نيويورك تايمز: «نجح الأسواني في أن يجعل الرواية العربية جزءًا من المشهد الأدبي العالمي.»

◆ أما الروائية التركية إليف شافاق فقالت: «في كتابات علاء الأسواني دفء إنساني يجعل القارئ يشعر أن القاهرة مدينة يعرفها منذ زمن.»

🚦 وأقول عنه:

◆ يا دكتور علاء···

ثمة رجال يكتبون الروايات، وثمة رجال تتحول حياتهم نفسها إلى رواية طويلة تمشي بين الناس.

أظنك كنت من هؤلاء الذين حملوا القاهرة فوق أكتافهم، ثم ساروا بها في شوارع العالم دون أن تسقط منها رائحة الخبز القديم أو صوت الباعة أو دمعة الطبقة الوسطى المصرية.

قد تتعب المدن من سكانها، لكن القاهرة تبدو، كلما ذُكر اسمك، كأنها تستعيد شيئًا من شبابها القديم.

وحين يهدأ ضجيج هذا الزمن يومًا، سيبقى ما كتبته شاهدًا على أنك حاولت، بكل ما أوتيت من حبر ووجع ومحبة، أن تجعل الحياة أقل قسوة مما وجدتها عليه.

◆ بعض الوجوه تبهت مع الزمن، وبعضها يزداد وضوحًا كلما مرّت السنوات. وكان علاء الأسواني، وسيظل، واحدًا من تلك الوجوه التي لا تغيب.

وجوه لا تغيب

محمود أبو الفتح

☀ نام في محطة قطار لندن.. دفاعًا عن مصر... ورفض الرئيس دفنه فيها ☀

◆ بعض الأسماء لا نتعرف إليها من الصور القديمة، ولا من الوثائق المحفوظة في الأدراج، بل نتعرف إليها من الأقدار المشتركة.

◆ تجمعنا بها طرق لم نمشها معًا، وأوجاع لم نعشها في الزمن نفسه، لكنها تظل قادرة على أن تمد بين الأرواح جسورًا خفية لا يراها أحد.

◆ هكذا كان محمود أبو الفتح بالنسبة لي. لم أره. ولم أجلس إليه. ولم أتشرف بلقائه. لكنني شعرت طويلًا أن بيننا معرفة قديمة لم تحدث.

◆ فارق العمر بيننا كان أكبر من أن يسمح بلقاء مباشر، غير أن الحياة وجدت طريقًا آخر للتعارف.

عرفت شيئًا من ملامحه الإنسانية من خلال الأستاذ محمد أبو الفتح، ابن شقيقه، الذي عمل معنا في البدايات الأولى لجريدة الوفد مديرًا لإدارة الإعلانات.

كان رجلًا من ذلك الطراز المصري القديم الذي أصبح نادرًا. هادئًا. مهذبًا. وقورًا. يحمل احترامًا فطريًا للناس وللمهنة.

وكان كلما تحدث عن عمه أو استعاد ذكرى من ذكرياته، أشعر أنني لا أستمع إلى سيرة صحفي كبير فقط، بل إلى حكاية أسرة كاملة دفعت ثمن انحيازها للكلمة.

◆ شيئًا فشيئًا بدأت أتعرف إلى الرجل الذي لم أره. وكأن الزمن اختار أن يقدمه إليّ بعد رحيله بعقود. وكلما قرأت سيرته شعرت أن ما يجمعني به أكبر من الانتماء إلى الوفد. وأكبر من الصحافة. وأكبر من السياسة. يجمعنا شيء أكثر قسوة... الغربة.

◆ عاش محمود أبو الفتح سنواته الأخيرة بعيدًا عن مصر. وعشت أنا سنوات طويلة بعيدًا عنها أيضًا. اختلفت الأنظمة. واختلفت الأزمنة. واختلفت التفاصيل. لكن المنفى لا يغير لغته كثيرًا. يبقى هو المنفى ذاته.

ذلك الإحساس الثقيل الذي يجعلك تحمل وطنك في قلبك أكثر مما تحمله في حقيبتك. وتستيقظ كل صباح باحثًا عن شارع تعرفه فلا تجده. وعن وجه تحفظه فلا تراه. وعن وطن يسكنك أكثر مما تسكنه.

◆ ربما لهذا السبب شدني فصل خاص في حياته. لم يقبل محمود أبو الفتح أن يتحول إلى منفي صامت. فبعد أن صودرت جريدته، وأُغلقت أبواب مصر في وجهه، أسس من منفاه في سويسرا أول إذاعة مصرية معارضة تخاطب المصريين من وراء الحدود.

كان يؤمن أن الوطن لا يختزل في الجغرافيا. وأن الكلمة تستطيع أن تعبر الحدود أكثر مما تستطيع الجيوش.

◆ ولعل القدر شاء أن أعيش شيئًا قريبًا من هذه التجربة بعد عقود طويلة.

فكما حاول محمود أبو الفتح أن يحمل صوته إلى المصريين من سويسرا عبر الميكروفون، شاركت في تأسيس أول قناة تلفزيونية مصرية معارضة تبث من إسطنبول. اختلفت الوسائل. وتغير الزمن.

لكن السؤال بقي واحدًا:

كيف يبقى صوت الوطن حيًا حين يضيق الوطن ببعض أبنائه؟

◆ وُلد محمود أبو الفتح في الزقازيق عام ١٨٩٣.

وكانت مصر آنذاك تبحث عن طريقها إلى الحرية.

وكأن القدر أراد أن يولد معها رجل سيقضي عمره كله مطاردًا بالحلم نفسه. درس الحقوق. لكن القانون لم ينجح في سرقته من الصحافة. كانت الكلمة أقوى.

وكان الحبر أكثر إغراءً من أي مهنة أخرى.

◆ بدأ حياته في جريدة وادي النيل، ثم انتقل إلى الأهرام. وسرعان ما أثبت أنه ليس صحفيًا ينتظر الخبر في مكتبه.

بل صحفي يذهب إلى الخبر حيث يكون. ركب منطاد زيبلن الألماني في رحلته التاريخية الأولى. وكان واحدًا من ثلاثة صحفيين فقط سمح لهم بالمشاركة في تلك الرحلة التي تابعها العالم كله.

◆ فبراير ١٩١٩ كشف مبكرًا معدن الرجل. اقترح على سعد زغلول مشروعًا متكاملًا لرصد ما تنشره الصحافة الأجنبية عن مصر وترجمته والرد عليه باللغات الأجنبية. كانت الفكرة متقدمة على عصرها بعقود. وكانت تعبيرًا عن وعي مبكر بأن معارك الأمم لا تُحسم بالسلاح فقط، بل بالرواية أيضًا.

◆ سافر مع الوفد المصري إلى أوروبا. صحفيًا. ومستشارًا إعلاميًا. ومدافعًا عن قضية وطن. وهناك كتب واحدة من أكثر

صفحات حياته تأثيرًا. نفدت أمواله في لندن. ولم يعد يملك ثمن غرفة ينام فيها.

فاستأذن السلطات البريطانية أن يقضي ليلته داخل محطة للسكك الحديدية. نام على مقعد خشبي بعيدًا عن وطنه.

لكن قلبه كان أقرب إلى مصر من كثيرين كانوا يعيشون داخلها.

◆ نشرت صحيفة إنجليزية قصته. فقرأها والده في مصر. لم يرسل له رسالة مواساة. ولم يرسل له نصيحة. باع فدانًا من أرضه وأرسل له المال. كان الأب يدرك أن ابنه لا يبحث عن نفسه. بل يبحث عن وطن كامل.

◆ بعد وفاة داود بركات، بدا محمود أبو الفتح المرشح الطبيعي لرئاسة تحرير الأهرام. لكن الظروف سارت في اتجاه آخر. وكانت تلك الخسارة بداية حلم أكبر. حلم جريدة المصري.

◆ باع والده فدانين آخرين. ووضع الابن ثمنهما في مشروع الجريدة الجديدة. وشاركه محمد التابعي وكريم ثابت. وصدرت المصري عام ١٩٣٦. وسرعان ما أصبحت واحدة من أهم الصحف المصرية وأكثرها تأثيرًا.

◆ كان وفديًا في وجدانه. لكنه لم يحول جريدته إلى صحيفة حزبية. أيد الوفد حين اقتنع. وعارضه حين اختلف. كان يؤمن أن الصحافة التي تتحول إلى منشور حزبي تفقد روحها. ولهذا احتفظت المصري بمكانتها واحترامها.

◆ عام ١٩٤١ تحقق حلم الصحفيين المصريين. صدر قانون إنشاء النقابة. واشترطت الحكومة توفير مقر لها. فتح محمود أبو

الفتح شقته في عمارة الإيموبيليا لتصبح أول مقر لنقابة الصحفيين. وهكذا بدأ بيت الصحفيين من بيت نقيبهم الأول.

◆ لم يكن غريبًا بعد ذلك أن يجمع الصحفيون على انتخابه أول نقيب لهم. فقد رأوا فيه ما هو أكبر من صاحب جريدة ناجحة. رأوا رجلًا آمن بالمهنة حتى منحها بيته وعمره.

◆ ظل أيضًا أشهر عازب في الصحافة المصرية. وحين سألوه عن سر عدم زواجه قال عبارته الشهيرة: "نحن معشر الصحفيين لا نصلح للزواج". وكانت الجملة تبدو ساخرة. لكنها كانت تحمل شيئًا من الحقيقة. فالرجل كان متزوجًا بالفعل... من الصحافة.

◆ جاءت ثورة يوليو. وتغيرت مصر. وتغيرت معها حياة محمود أبو الفتح. أغلقت جريدة المصري. وصودرت ممتلكاته. وصدر ضده حكم غيابي بالسجن. وانتقل من موقع أحد كبار صناع الرأي في مصر إلى موقع المنفي السياسي.

◆ مفارقة موجعة أن الرجل الذي منح النقابة بيتًا انتهى بلا بيت. والرجل الذي دافع عن حرية الصحافة انتهى محرومًا من صحافته. والرجل الذي عاش يكتب لمصر انتهى بعيدًا عنها.

◆ رحل في جنيف عام ١٩٥٨. ولم يسمح الرئيس، أن يعود حتى جثمانًا. استقبل الرئيس الحبيب بورقيبة نعشه في تونس تقديرًا لدوره الوطني والقومي. ودُفن هناك. بعيدًا عن النيل. بعيدًا عن الزقازيق. بعيدًا عن النقابة التي أسسها. وبعيدًا عن الجريدة التي أحبها.

◆ بعد سنوات أعيد الاعتبار إلى اسمه. ومُنح وسام الجمهورية. وأعيدت بعض الحقوق إلى أسرته. لكن التكريم المتأخر لا يستطيع أن يعوض سنوات المنفى. ولا أن يمحو مرارة الغربة.

◆ كلما قرأت سيرته توقفت أمام صورتين لا تفارقان الذاكرة. شاب ينام في محطة قطارات لندن دفاعًا عن قضية وطنه. ورجل يُدفن خارج وطنه لأنه تمسك بحقه في رأيه. بين الصورتين تمتد حياة كاملة. حياة صحفي. ونقيب. ومعارض. ومنفِي. وحالم كبير.

◆ سلام على محمود أبو الفتح... أول النقباء. وصاحب المصري. وصاحب أول إذاعة مصرية معارضة في المنفى. والرجل الذي أثبت أن الوطن قد يبتعد أحيانًا عن أبنائه... لكن أبناءه الحقيقيين لا يبتعدون عنه أبدًا.

◆ لذلك بقي اسمه حاضرًا. وبقيت حكايته حية.

وبقي هو...

وجهًا لا يغيب.



✳وجوه لا تغيب... الحب والحكم✳
✳متصوّف فضّل امرأه على حكم مصر✳

» ◆ أيتها الحلم... ما أتعسني بعيدًا عنك. القصر الذي أعيش فيه أشدُّ وحشةً من كوخ صغير، والمجد الذي يحيط بي ذلٌّ وهوان من دونك. إنني أكره كل شيء حولي لأنني لا أحب سواك.«...

◆ كاتب هذه الكلمات لم يكن شاعرًا مجهولًا يبث أشواقه إلى معشوقته، ولم يكن روائيًا ينسج فصلًا من فصول الخيال. كان الذي يكتب رجلًا كان يمكن أن يصبح ملكًا على مصر. رجلًا عُرض عليه العرش فآثر عليه القلب. وأميرًا هزمه الحب... فلم يحاول أن ينتصر عليه.

◆ في تاريخ الملوك والأمراء حكايات لا تُحصى عن رجال ضحّوا بالحب في سبيل السلطة، وباعوا شيئًا من أرواحهم ليشتروا مزيدًا من المُلك.

أما الأمير كمال الدين حسين فقد سلك الدرب المعاكس.

ترك التاج ومضى خلف النداء الخفي الذي كان يسمعه في أعماقه. تخلّى عن الحكم ليحتفظ بحقه في أن يحب. وكأن القدر وضعه أمام السؤال الذي حيّر البشر منذ فجر التاريخ:

أيّهما أبقى... السلطان أم الوجدان؟

وأيهما أصدق... العرش أم القلب؟

فأجاب، لا بالكلمات بل بالحياة كلها: القلب.

◆ كان حفيد محمد علي، وابن السلطان حسين كامل، وأحد أقرب الرجال إلى عرش مصر والسودان. وُلد محاطًا بالألقاب والحاشية والقصور. لكن الأرواح لا تعترف دائمًا بما تعترف به السياسة. فثمة بشر يولدون وفي داخلهم حنين غامض إلى الحرية، ونفور خفي من القيود مهما كانت مطلية بالذهب. وكان كمال الدين واحدًا من هؤلاء.

◆ لم يكن رجل سلطة بالمعنى التقليدي. لم يُعرف عنه الاهتمام بالمناورات، ولا شغف بصراعات القصور.

كان أقرب إلى الرحّالة منه إلى الحاكم،

وأقرب إلى المتأمل منه إلى الأمير .

تستهويه الصحارى أكثر مما تستهويه المكاتب، ويجذبه الأفق المفتوح أكثر مما تجذبه الأسوار العالية. وكان يجد في الصمت ما لا يجده غيره في ضجيج المجالس والاحتفالات.

◆ أحب السفر كما يحب المتصوف الخلوة. قطع صحارى مصر وليبيا والسودان، وجاب آفاقًا بعيدة، وكأن روحه كانت تبحث عن شيء لا تعرف له اسمًا. كان يرى في الرمال كتابًا مفتوحًا، وفي السراب سؤالًا فلسفيًا، وفي الفراغ الممتد حكمةً لا تمنحها المدن المزدحمة. ولعل تلك الرحلات لم تكن مجرد انتقال في الجغرافيا، بل كانت ارتحالًا داخليًا في تضاريس النفس والروح.

◆ لذلك لم يكن غريبًا أن ينجذب إلى التصوف.

ففي سنواته الأخيرة بدا كأنه ينسحب بهدوء من عالم السياسة إلى عالم المعنى. اقترب من الطرق الصوفية، وجالس الدراويش وأهل الذكر، ومال إلى مجالس التأمل والخلوة. وكان قصره في بعض

الأوقات أقرب إلى زاوية للعارفين منه إلى مقر لأمير من الأسرة الحاكمة. وكأن الرجل كان يبحث عن مُلك آخر؛ ملك لا تمنحه الجيوش، ولا تصنعه الدساتير، ولا تحرسه البنادق، بل يسكن القلب إذا صفا، وتسكنه الروح إذا تحررت من شهوة السلطان.

◆ وربما لهذا السبب لم يفهم كثيرون قراره. كيف يمكن لرجل يقف على أعتاب العرش أن يدير ظهره له؟ كيف يرفض ما يحلم به آلاف الرجال؟ وكيف يترك سلطة بحجم وطن من أجل امرأة؟ بدت الأسئلة أكبر من الإجابات، وظل السر مدفونًا طويلًا في أدراج الرسائل والذكريات.

◆ ثم خرجت الرسائل إلى النور. رسائل حب كتبها الأمير إلى السيدة الفرنسية «فيال ديمنييه». وهنا بدأ الغموض يتبدد. لم يكن الرجل يعيش أزمة سياسية، بل كان يعيش تجربة عشق استثنائية. كان يكتب إليها كما يكتب المتصوف إلى محبوبه، وكما يكتب الغريب إلى وطنه البعيد، وكما يكتب القلب إلى القلب حين تضيق به الدنيا كلها.

◆ في إحدى رسائله يخبرها أن والده عرض عليه ولاية العهد، ثم يضيف في دهشة ساخرة: «أي سخافة هذه...». عبارة لا يمكن أن تصدر إلا عن رجل كانت موازينه مختلفة. رجل رأى أن ساعة قرب من محبوبته أغلى من سنوات حكم طويلة، وأن دفء المشاعر أسمى من برودة العروش.

◆ وتروي بعض الروايات أن تعلقه بها بلغ حد التهديد بالانتحار إذا فُرض عليه ما يباعد بينه وبينها. كما تشير روايات أخرى إلى أن رحلاته المتكررة إلى أوروبا لم تكن دائمًا رحلات أمير مترف، بل رحلات عاشق يطارد طيف امرأة استوطنت روحه. ومهما اختلفت

التفاصيل، تبقى الحقيقة الأهم أن الأمير دفع ثمن اختياره كاملًا. لم ينل الحب كاملًا، ولم ينل العرش كاملًا، لكنه بقي وفيًا لما اختاره. وذلك في ذاته نوع نادر من الشجاعة.

◆ الغريب أن التاريخ يتذكر غالبًا الملوك الذين جلسوا على العروش، أما الذين رفضوها طوعًا فيمر عليهم سريعًا، مع أن هؤلاء أكثر إثارة للتأمل. فالذي يقبل السلطة أمر مفهوم، أما الذي يتركها بإرادته فاستثناء نادر في تاريخ البشر.

◆ لم يكن كمال الدين حسين زاهدًا في الدنيا كلها، لكنه كان زاهدًا في السلطان. وهناك فرق كبير بين الأمرين. فالزهد الحقيقي ليس أن تترك ما لا تملك، بل أن تترك ما تستطيع امتلاكه. وهو كان قادرًا أن يصبح ملكًا، لكنه اختار أن يبقى إنسانًا.

◆ وحين اقتربت رحلته الأخيرة من نهايتها، لم يشأ أن يكون مثواه بين أصحاب الجاه والسلطان. أراد أن يُدفن بالقرب من الدراويش عند سفوح المقطم. وكأن الرجل الذي وُلد أميرًا أراد أن يغادر الدنيا فقيرًا إلى الله، متخففًا من الألقاب، متحررًا من الأثقال، عائدًا إلى التراب الذي يتساوى فوقه الملوك والفقراء.

◆ لم يترك وراءه مملكة، ولم يترك وريثًا يجلس على عرش، لكنه ترك سؤالًا لا يزال حيًا حتى اليوم: كم من البشر يحلمون بالسلطة؟ وكم منهم يملكون شجاعة التخلي عنها؟

◆ وربما لهذا لا أتذكر الأمير كمال الدين حسين باعتباره الرجل الذي ضاع منه العرش، بل باعتباره الرجل الذي انتصر على إغراء العرش. الرجل الذي اختار الوجد على المجد، والروح على السلطان، والحب على الحكم. وتلك... في بعض الأحيان... أعظم من المُلك نفسه.

وجوه لا تغيب... سيد جلال العربجي الذي جلستُ على مقعده بعد أن ألغى ✳ "بحيلة" البغاء في مصر

◆ قبل أن أصل إلى باب الشعرية نائبًا عن أهلها و بسنوات طويلة، كان رجل آخر قد سبقني إلى هذا المقعد وإلى قلوب الناس معًا. رجل خرج من الحارات نفسها، وتنفس هواء الأزقة نفسها، وعرف وجوه البسطاء الذين ما زالت ملامحهم تسكن شوارع القاهرة القديمة حتى اليوم. وحين كان الناس يذكرون اسمه، لم يكونوا يتحدثون عن نائب برلماني فقط، بل عن واحد من أبناء الحي الذين صاروا جزءًا من ذاكرته.

◆ كان اسمه سيد جلال. أحد أشهر نواب البرلمان المصري في القرن العشرين، وأحد أولئك الرجال الذين لم يصنعهم النفوذ، بل صنعتهم الشوارع التي خرجوا منها، والناس الذين حملوا أحلامهم فوق أكتافهم.

◆ لم يبدأ حياته باشا ولا ابن باشا. لم يأت إلى السياسة من أبواب القصور أو من صالونات الطبقة الأرستقراطية. بدأ حياته عربجيًا بسيطًا في باب الشعرية. يقود عربته بين الأسواق والحارات، ويشق طريقه وسط ضجيج القاهرة القديمة وغبارها وأصوات باعة الأرصفة ونداءات الحمالين.

◆ وحين تبدلت الأيام، وانتقل من مقعد العربة إلى مقعد البرلمان، لم يتنكر يومًا لتلك البداية. ظل محتفظًا بقطعة الحديد التي كان

يعلقها على كتفه أثناء عمله القديم، وكان يعتز بها اعتزازًا لافتًا. لم يرها ذكرى لفقر مضى، بل وسامًا يذكره دائمًا بالطريق الذي جاء منه. ويُروى أنه ظهر بها أكثر من مرة حتى بعد أن أصبح نائبًا معروفًا تحت القبة، وكأنه أراد أن يقول إن الإنسان لا يكبر حين ينسى بداياته، بل حين يبقى وفيًا لها.

◆ وربما لهذا السبب بالتحديد كان يرى ما لا يراه كثيرون. فالرجل الذي عرف القاهرة من أسفلها، لا من شرفاتها العالية، كان أكثر قدرة على رؤية وجع الناس الحقيقي. لم تكن مشكلات الأحياء الشعبية بالنسبة له أرقامًا في ملفات حكومية، بل مشاهد عاشها بنفسه وعرف تفاصيلها يومًا بيوم.

◆ كانت القاهرة في ذلك الزمن مدينة تسير بين وجهين؛ وجه يزداد حداثة وتعليمًا وعمرانًا، ووجه آخر ما زال يحمل بقايا عصور قديمة. وبين تلك البقايا كان نظام البغاء الرسمي الذي منحته الحكومات المتعاقبة غطاءً قانونيًا، حتى أصبح وجوده جزءًا من المشهد الذي اعتاده كثيرون وتوقفوا عن التساؤل حوله.

◆ وفي قلب دائرته كان شارع كلوت بك واحدًا من أشهر شوارع البغاء العلني في مصر كلها. هناك كانت تقف النساء على النواصي ومداخل البيوت، وتتكرر يوميًا مشاهد رآها سيد جلال إهانة لمدينة أحبها ولأناس عاش بينهم. وكان يشعر أن القاهرة تستحق صورة أجمل من تلك التي تفرضها عليها هذه الظاهرة.

◆ لم يكن الرجل متحمسًا للوعظ أو الخطابة، ولم يكن من هواة الشعارات الكبرى. كان عمليًا بطبيعته. ولذلك لم يكتف بالغضب أو الشكوى، بل قرر أن يخوض معركة طويلة لإلغاء البغاء المرخص من جذوره القانونية والإدارية.

◆ تقدم بالمذكرات والطلبات والأسئلة البرلمانية، وناقش الوزراء، وطرق الأبواب كلها تقريبًا. لكن الدولة كانت بطيئة الحركة، وكانت الملفات تتراكم فوق المكاتب أكثر مما تتحرك فوق أرض الواقع. وشيئًا فشيئًا أدرك أن الأوراق وحدها لن تكفي.

◆ كان يعلم أن المسؤول قد يقرأ عشرات التقارير عن المشكلة دون أن يراها حقيقة واحدة بعينيه. ومن هنا بدأت تتشكل في ذهنه واحدة من أشهر الحيل السياسية في التاريخ البرلماني المصري.

◆ ذهب إلى وزير الشؤون الاجتماعية آنذاك، جلال فهيم باشا، وأخبره بأنه يعتزم إقامة مشروع خيري كبير في باب الشعرية، يضم مدرسة ومرافق لخدمة الأهالي، وأن سكان الدائرة يتشرفون بزيارة الوزير لمعاينة الموقع وتشجيع المشروع .

لم يكن في الأمر ما يدعو إلى الشك، فوافق الوزير على الفور.

◆ جاء اليوم الموعود. وركب الوزير الحنطور الذي أعده سيد جلال لاستقباله وسط أهالي الدائرة. كان كل شيء يبدو طبيعيًا تمامًا. لكن الوزير لم يكن يعلم أن الرحلة لم تكن متجهة فقط إلى مشروع خيري، بل إلى حقيقة أراد سيد جلال أن يضعه في مواجهتها وجهًا لوجه.

◆ انعطف الحنطور نحو شارع كلوت بك. وسار ببطء متعمد. وما إن دخل الشارع حتى تغير المشهد كله. فقد ظنت النساء الواقفات هناك أن القادم شخصية ثرية أو زبون استثنائي، فتدافعن نحوه من كل اتجاه، وتحولت اللحظات القليلة إلى فوضى كاملة.

◆ سقط الطربوش، وتمزقت بعض الملابس، وارتفعت الأصوات، ووجد الوزير نفسه وسط مشهد لم يكن يتخيل حجمه ولا صورته

الحقيقية. وفي تلك الدقائق القصيرة رأى بعينيه ما عجزت عشرات المذكرات الحكومية عن نقله إليه.

◆ عاد الوزير غاضبًا إلى بيته. لكن الغضب نفسه كان بداية التغيير. فبعد أيام قليلة فقط صدر القرار التاريخي بإلغاء البغاء الرسمي في مصر وإغلاق بيوت الدعارة المرخصة، لتنتهي صفحة كاملة من تاريخ طويل كانت الدولة نفسها تمنحه الشرعية القانونية.

◆ قبل فترة وجيزة وقعت بين يدي وثيقة قديمة من ذلك الزمن. كانت رخصة رسمية لممارسة الدعارة تحمل الأختام والتوقيعات الحكومية.

تأملتها طويلًا. لم أر فيها مجرد ورقة صفراء من الماضي، بل رأيت حجم المعركة التي خاضها سيد جلال.

فالرجل لم يكن يواجه ظاهرة اجتماعية فقط، بل كان يواجه نظامًا كاملًا له لوائحه وأوراقه وأختامه وشرعيته القانونية.

◆ وربما لهذا السبب تزداد قيمة ما فعله مع مرور الزمن. فالأصعب من مقاومة الخطأ أن تنتزع عنه غطاء الشرعية. والأخطر من الانحراف نفسه أن يتحول إلى مؤسسة يعترف بها القانون.

◆ لكن المعركة لم تنته عند ذلك الحد. فبعد سنوات وقف أحد النواب مطالبًا بإعادة البغاء الرسمي من جديد، متذرعًا بحجج صحية واجتماعية وتنظيمية. وكان يمكن للفكرة أن تجد من يتعاطف معها أو يناقشها بجدية.

◆ يومها وقف سيد جلال مرة أخرى. استند إلى الدراسات والإحصاءات الطبية العالمية، ورد على الحجج المطروحة واحدة تلو الأخرى، ثم انتقل من لغة الأرقام إلى لغة الضمير .

تحدث عن العمل والزواج والأسرة والكرامة الإنسانية، وعن مسؤولية الدولة في فتح أبواب المستقبل أمام الشباب لا أبواب السقوط.

◆ وانتهت المواجهة بانتصار جديد للرجل الذي خاض المعركة الأولى. فسقط الاقتراح، وبقي القرار الذي شارك في صناعته قائمًا، لتطوى الصفحة مرة أخرى.

◆ ولعل ما يدفعني إلى استعادة هذه السيرة اليوم أن بعض الأصوات عادت لتطرح الأفكار نفسها بأسماء جديدة ومبررات حديثة.

وبينما ينشغل البعض بإحياء ما ظن المصريون أنهم تجاوزوه منذ أكثر من سبعين عامًا، لم أجد ردًا أبلغ من العودة إلى سيرة سيد جلال نفسه.

◆ فبعض الرجال تتحول حياتهم إلى حجة. وتصبح مواقفهم أقوى من المقالات والخطب والبيانات. وما دام التاريخ قد أنجب رجالًا خاضوا هذه المعركة وانتصروا فيها، فإن استدعاء سيرتهم يبقى أصدق من أي جدل جديد.

◆ غير أن سيد جلال لم يكن رجل معركة واحدة. ففي الوقت الذي كان يغلق فيه بابًا رآه إهانة للمجتمع، كان يفتح أبوابًا أخرى للحياة. ومن هنا ارتبط اسمه بمستشفى سيد جلال، التي أصبحت لاحقًا أحد أهم المستشفيات التابعة لجامعة الأزهر، وصارت مقصدًا للمرضى وطلاب الطب والعلم.

◆ وكأن القدر أراد أن يلخص حياته كلها في صورتين متجاورتين؛ رجل أغلق بابًا للانحدار، وفتح بابًا للشفاء. رجل قاوم ما اعتبره عارًا على المجتمع، وترك وراءه مؤسسة ما زالت تمنح الناس الأمل كل يوم.

- رحل سيد جلال منذ زمن طويل، لكن اسمه بقي في ذاكرة باب الشعرية، وعلى جدران المستشفى التي تحمل اسمه، وفي صفحات البرلمان المصري. وبقي أيضًا على ذلك المقعد الذي جلست عليه بعده بسنوات طويلة، كلما مر بخاطري تذكرت أن السياسة في أجمل صورها ليست صراعًا على المقاعد، بل مسؤولية تجاه ما نتركه فوقها بعد أن نغادرها.
- ولهذا لا يغيب سيد جلال.
- فبعض الرجال لا يورثون أبناءهم مالًا أو جاهًا أو نفوذًا...
- بل يورثون أوطانهم أثرًا...
- والأثر الصادق لا يموت.

✳وجوه لا تغيب.. الأزهري الليبرالي✳
▨سعد زغلول... في عامه الـ١٧٠
..قاد ثورة من المنفى▨

◆ ليست قيمة الرجال فيما يتركونه، فبعض الرجال يمضون، بينما تظل أوطانهم تبحث عن القيم التي ناضلوا من أجلها. فبعد أيام قليلة، يبدأ سعد زغلول عامه المئة والسبعين، لكن حضوره في الذاكرة المصرية يبدو أكثر شبابًا من كثير من الأحياء، لأن الأمم لا تقيس أعمار عظمائها بالسنوات، بل بما بقي من أثرهم في ضميرها.

◆ لم يكن سعد زغلول قائد ثورة فحسب، ولم يكن مجرد رئيس حكومة أو زعيم حزب. كان واحدًا من أولئك الذين يعبرون عصرهم ليصبحوا جزءًا من هوية وطن. وحين يذكر اسمه، تقفز إلى الأذهان ثورة ١٩١٩، لكن خلف تلك الصورة رجل أكثر عمقًا؛ أزهري مستنير، وليبرالي دستوري، ومصلح آمن بأن نهضة الأمم تبدأ بتحرير العقل قبل تحرير الأرض.

◆ ولد في قرية إبيانة بدلتا مصر، وعرف اليتم قبل أن يعرف السياسة. مات والده وهو طفل، فنشأ على قسوة الريف وصلابة الحياة، ثم حمل مصحفه إلى الأزهر، حيث لم يتلق علوم الفقه واللغة فحسب، بل عاش سنوات كانت مصر فيها تغلي بأسئلة الإصلاح والتجديد. وهناك اقترب من الإمام محمد عبده، فتشكل وعيه على فكرة بدت جريئة في زمانها: لا تناقض بين الإيمان والحرية، ولا بين الدين والدولة الدستورية، ولا بين الأصالة والانفتاح على العصر.

◆ قليلون يتذكرون أن سعد زغلول بدأ حياته صحفيًا في «الوقائع المصرية»، وأنه تعلم مبكرًا أن الكلمة قد تهز إمبراطورية إذا خرجت من عقل حر. ثم انتقل إلى النيابة، حتى أصبح من أبرز رجالها، قبل أن يدفع ثمن انخراطه في دوائر وطنية سرية تشكلت بعد هزيمة الثورة العرابية، فخرج من موقعه الرسمي، لكنه لم يخرج يومًا من صف الوطن.

◆ وعندما تولى وزارة المعارف، لم يتعامل مع التعليم بوصفه إدارة حكومية، بل بوصفه مشروع استقلال. وساهم في وضع حجر الأساس للجامعة المصرية، مؤمنًا بأن الجامعة الحرة أخطر على الاحتلال من الثكنة العسكرية، وأن الأمة التي تبني عقول أبنائها، تبني مستقبلها قبل أن تبني مؤسساتها.

◆ لم يكن انتماؤه إلى الفكر الليبرالي شعارًا مستوردًا، بل تجربة مصرية خالصة. فقد آمن بأن الأمة مصدر السلطات، وأن البرلمان ليس زينة دستورية، بل صوت الناس، وأن القانون يجب أن يكون سيد الجميع، حاكمًا ومحكومًا. لذلك ظل الدستور بالنسبة إليه قضية وجود، لا مجرد نصوص قانونية.

◆ وبعد الحرب العالمية الأولى، لم ينتظر أن تمنح بريطانيا مصر استقلالها، ولم يصدق أن القوى الكبرى توزع الحرية هدايا على الشعوب. فابتكر فكرة غير مسبوقة؛ جمع توكيلات شعبية تخول الوفد المصري تمثيل الأمة في مؤتمر الصلح بباريس. كانت تلك التوقيعات أول تعبير واسع عن الإرادة الشعبية المصرية، حتى خافت منها سلطات الاحتلال أكثر مما خافت من السلاح، لأنها أدركت أن الأمة التي تتكلم بصوت واحد يصعب إخضاعها.

◆ وفي الثامن من مارس ١٩١٩، ظنت بريطانيا أنها أنهت الحكاية حين اعتقلت سعد زغلول ورفاقه ونفتهم إلى جزيرة مالطة. لكنها كانت، من حيث لا تدري، تكتب الفصل الأول من أعظم ثورة شعبية في تاريخ مصر الحديث. فما إن غاب الرجل حتى خرج الوطن كله يبحث عنه. لم تكن ثورة نخبة، ولا انقلابًا سياسيًا، بل انتفاضة مجتمع بأكمله. خرج الطلاب من مدارسهم، والعمال من مصانعهم، والفلاحون من حقولهم، والمحامون من محاكمهم، وسارت النساء لأول مرة في مظاهرات تهتف للوطن، بينما وقف الهلال إلى جوار الصليب في صورة نادرة لوحدة المصريين.

◆ كانت تلك الثورة إعلانًا بأن مصر ليست مجرد أرض يحتلها جيش، بل شعب يرفض أن يُحتل وعيه. ولأول مرة، أدرك المصري البسيط أن صوته يمكن أن يصنع التاريخ، وأن الفلاح الذي يوقع على توكيل، أو العامل الذي يضرب عن العمل، أو الطالبة التي تخرج في مظاهرة، يشاركون جميعًا في معركة الاستقلال.

◆ عاد سعد زغلول من منفاه الأول، ثم عاد إليه مرة أخرى، وهذه المرة إلى جزر سيشل، على بعد آلاف الكيلومترات من القاهرة. لكن المنفى لم يكن بالنسبة إليه عزلة، بل منصة جديدة للمقاومة. كانت بريطانيا تنفي الجسد، بينما بقيت الفكرة تتجول بحرية في شوارع مصر، ولذلك صدق التاريخ عبارته غير المكتوبة: قد يُنفى الزعيم، لكن لا يمكن نفي الأمة.

◆ وحين عاد، لم يدعُ إلى الانتقام، بل إلى بناء الدولة. خاض معركة دستور ١٩٢٣، وقاد أول انتخابات حرة تقريبًا في تاريخ مصر الحديثة، وشكل أول حكومة جاءت بإرادة شعبية واضحة. لكنه لم يتشبث بالسلطة عندما حاول الاحتلال فرض شروطه بعد حادث

اغتيال السير لي ستاك، فاختار الاستقالة، مفضلًا أن يخسر المنصب على أن يدفع الوطن ثمن مواجهة غير محسوبة. كانت تلك لحظة أثبت فيها أن الزعامة ليست التشبث بالكرسي، بل القدرة على التضحية به.

◆ وإلى جواره وقفت صفية زغلول، التي لم تكن زوجة زعيم فحسب، بل شريكة نضال. تحول بيتهما إلى «بيت الأمة»، وتحولت هي إلى «أم المصريين»، حين حملت راية الحركة الوطنية أثناء غياب زوجها، وظل البيت عنوانًا لمرحلة كاملة من تاريخ مصر.

◆ وفي صيف عام ١٩٢٧، وبعد انتهاء الدورة البرلمانية الأخيرة التي ترأسها، غادر القاهرة ليستريح أيامًا بين بساتين بلبيس، ثم عاد إلى الريف الذي خرج منه طفلًا. وكأن الرجل كان يريد أن تبدأ النهاية من حيث بدأت الحكاية. وفي ليلة الثالث والعشرين من أغسطس، رحل سعد زغلول، بينما كان الملك فؤاد خارج البلاد. وفي صباح اليوم التالي، خرجت القاهرة عن بكرة أبيها تودعه. سار نعشه ملفوفًا بعلم مصر فوق عربة مدفع، فيما لم يكن المشيعون يودعون رجلًا فقط، بل يودعون عصرًا كاملًا.

◆ دُفن أولًا في مقبرة أسرته بالإمام الشافعي، وبقي هناك نحو تسعة أعوام، حتى اكتملت التبرعات الشعبية لبناء ضريح يليق بمن أحبته الأمة. ولم تمول الدولة ذلك الضريح، بل بناه المصريون باكتتاب عام، في مشهد نادر يؤكد أن الرجل ظل بعد رحيله زعيمًا للشعب، لا للسلطة. وفي يونيو ١٩٣٦، نُقل رفاته في موكب مهيب إلى ضريحه بجوار بيت الأمة، بعدما تأكد مصطفى النحاس ورفاقه بأنفسهم من سلامة الجثمان، في واقعة قلما تذكرها كتب التاريخ.

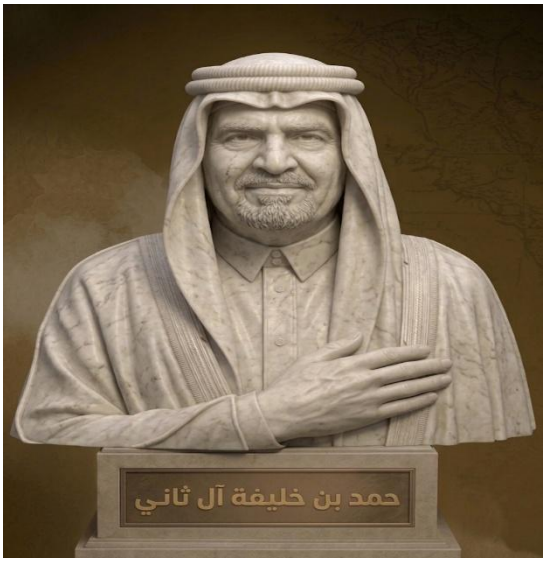
◆ واليوم، بينما تقترب ذكرى عامه المئة والسبعين، تقف مصر أمام السؤال ذاته الذي شغل سعد زغلول قبل أكثر من قرن: كيف تُبنى دولة تحترم الدستور، ويعلو فيها صوت الأمة على إرادة الحاكم، ويصبح القانون سيدًا على الجميع؟ ذلك هو الإرث الحقيقي للرجل. أما التماثيل والضريح، فليست سوى شواهد حجرية على قصة لا تزال فصولها تُكتب.

◆ لم يكن سعد زغلول قديسًا، ولم يكن معصومًا من الخطأ، لكنه كان من ذلك الطراز النادر من الرجال الذين جعلوا من السياسة رسالة، ومن الدستور عقيدة مدنية، ومن الحرية أسلوب حياة. ولهذا، وبعد مئة وسبعين عامًا على ميلاده، لا يزال حضوره أكبر من الغياب، ولا يزال اسمه، بحق، واحدًا من تلك الوجوه... التي لا تغيب.

وجوه لا تغيب ...

الأمير الراحل حمد بن خليفة آل ثاني

■ رجلٌ جعل من الرؤية وطنًا ■



■ لا يغيب بعض الرجال حين يبتعدون عن المشهد، لأنهم، ببساطة، يصبحون جزءًا من ذاكرة المكان. تمضي السنوات، وتتبدل الوجوه، وتتغير المواقع، لكن أثرهم يظل يسير بين الناس في شارع، أو جامعة، أو فكرة، أو حلم أصبح حقيقة. ومن هذا الطراز النادر كان حمد بن خليفة آل ثاني؛ رجلٌ لم يكن مجرد أمير يقود دولة، بل صاحب رؤية آمن بأن المستقبل لا يُنتظر... بل يُصنع.

■ أعرف أن التاريخ يُكتب عادةً بلغة الأرقام والقرارات، لكن الذاكرة الإنسانية تحتفظ دائمًا بشيء آخر؛ تحتفظ بنبرة الصوت، وهدوء الحديث، ولمعة العينين حين يتكلم صاحبها عن وطنه. ولهذا، كلما عاد بي الزمن إلى ذلك اللقاء الوحيد الذي جمعني بسموه في الدوحة، في ديسمبر عام ٢٠١٢، أشعر أنني لم ألتقِ مسؤولًا كبيرًا بقدر ما التقيت إنسانًا كبيرًا. كان اللقاء في قصره العامر، بحضور سمو عبدالله بن حمد آل ثاني، ومعالي حمد بن ثامر آل ثاني، لكنه تجاوز حدود البروتوكول إلى مساحة إنسانية صادقة، كان فيها حب مصر والمصريين حاضرًا في كل حديث، وكأن العلاقة بين الأوطان يمكن أن تبدأ بابتسامة صادقة قبل أن تكتبها الاتفاقيات.

■ خرجت من ذلك اللقاء وأنا أكثر يقينًا بأن النفوس الكبيرة لا تحتاج إلى مظاهر كي تعلن عن نفسها. وجدت أمامي رجلًا يصغي أكثر مما يتكلم، ويحاور بهدوء الواثق، لا بصوت المنتصر، ويمنح من يجلس أمامه شعورًا بأن الإنسان يسبق المنصب، وأن الاحترام لا تمنحه السلطة وحدها، بل تمنحه الأخلاق قبل كل شيء.

■ ربما كانت أعظم ما يميز تجربة حمد بن خليفة آل ثاني أنه لم ينظر إلى قطر باعتبارها حدودًا على الخريطة، بل باعتبارها مشروعًا مفتوحًا على المستقبل. أدرك مبكرًا أن الدول لا تكبر بمساحاتها، وإنما بما تملكه من رؤية، وما تبنيه من مؤسسات، وما تستثمره في الإنسان. ولذلك، لم تكن النهضة التي شهدتها قطر في عهده وليدة المصادفة، ولا ثمرة وفرة الموارد وحدها، بل نتيجة إرادة سياسية عرفت ماذا تريد، ومضت إليه بثقة وصبر.

■ ترك خلفه وطنًا يروي قصته بنفسه. جامعات تستقبل العقول، ومؤسسات تصنع المعرفة، وإعلامًا تجاوز حدوده الجغرافية، واقتصادًا

فرض احترامه، ودبلوماسية أصبحت رقمًا حاضرًا في كثير من ملفات العالم، وبنية عمرانية تحولت إلى شهادة حية على أن الأحلام الكبيرة لا تحتاج إلا إلى قيادة تؤمن بها.

■ كنت أراقب تلك التجربة دائمًا بإعجاب الباحث عن الدرس، لا بإعجاب المتفرج. فالتاريخ يعلمنا أن القادة الحقيقيين لا يورثون أوطانهم الإنجازات فقط، وإنما يورثونها الثقة في قدرتها على مواصلة الطريق بعدهم. وهذه، في تقديري، هي العلامة الفارقة بين من يحكم، ومن يبني.

■ بقي في الذاكرة أيضًا ذلك التوازن النادر بين وقار الدولة ودفء الإنسان. لم أشعر يومًا أن الهيبة كانت حاجزًا بينه وبين الآخرين، بل كانت امتدادًا طبيعيًا لتواضع لا يتصنع، وكرم لا ينتظر مناسبة، ووفاء لا تصنعه الحسابات السياسية. بعض الصفات لا تمنحها القصور، ولا تصنعها البروتوكولات، وإنما تولد مع أصحابها، وترافقهم حتى آخر الطريق.

■ ما أقسى أن تكتب عن رجل تعرف أنه انتقل إلى رحمة الله، وما أجمل، في الوقت نفسه، أن يكون لديك ما يستحق أن يُروى عنه. فهناك من يترك وراءه أخبارًا، وهناك من يترك أثرًا، والفارق بينهما هو الفارق بين حدث ينتهي بانتهاء يومه، وسيرة تبقى ما بقيت الذاكرة.

■ رحم الله حمد بن خليفة آل ثاني، وجعل ما قدمه لوطنه وأمته في ميزان حسناته، وألهم أسرته الكريمة والشعب القطري الشقيق جميل الصبر والسلوان. ستبقى سيرته شاهدًا على أن القيادة ليست سلطة تُمارس، بل مسؤولية تُحمل، وأن الأوطان العظيمة تبدأ دائمًا بفكرة يؤمن بها رجل، ثم تتحول، بإخلاصه وإرادته، إلى مستقبل يعيشه شعب بأكمله.

..وجوه لا تغيب...عبد الله النديم زعيم المنفيين ✳
✳! الاستاذ، مات قبل أن تصل أسرته

◆ صباح إسطنبول، كان يمشي على أطراف أصابعه، كأنه يخشى أن يوقظ أحدا من النائمين تحت ترابها. عبرت وحدي الطريق الصاعد إلى مقبرة "يحيى أفندي" في منطقة بشكتاش، كانت الأشجار العتيقة تنثر أوراقها الصفراء كعادتها في خريف اكتوبر، صعدت على ممر حجري في هدوء، فيما كان البوسفور ، البعيد بخطواتٍ قليلة، يلمع تحت شمس خجولة، كأنه يعرف أن في هذا المكان رجلًا لم يغادره الحنين إلى النيل يومًا.

◆ توقفت أمام شاهد قبر بسيط... بسيط إلى حد للأسف والدهشة. لا شيء فيه يوحي بأن تحته يرقد رجلٌ كانت كلماته، قبل أكثر من قرن، تهز الشوارع، وتوقظ الضمائر، وتربك دولا وممالك كاملة .

مددت يدي إلى الحجر البارد، ولم أشعر أنني ألمس رخامًا... بل شعرت أنني أصافح زمنًا كاملًا من الوجع.

◆ كانت تلك زيارتي الأولى إليه في يوم

١١ من اكتوبر، قبل عشرة أعوام، في الذكرى المئة والعشرين لرحيله.

التي احتفلت بها معه، وحدي، التقطت يومها صورةً إلى جوار قبره، ثم غادرت المكان، لكن شيئًا مني بقي هناك.

ومنذ ذلك اليوم، كلما مررت بالقرب من هذه المنطقة التي توجد بها المقبرة، يراودني إحساس غريب بأن هذا الرجل لم ينتهِ بعد، وأن بعض البشر لا تدفنهم الأرض، بل تحفظهم في انتظار من يعيد حقهم في الذاكرة.

◆ وبعد شهر ، سأعود إلى الموضع نفسه، لكن بعد ١٠ سنوات، في الذكرى المئة والثلاثين لرحيل عبد الله النديم، لكني لن اكون وحدي، بل ضمن فعاليات جمعية الشرق للثقافة والحضارة، و قناة الشرق. سنعود لا لنحيي ذكرى وفاة رجل، بل لنصافح روحًا مصرية، دفعت ثمن الكلمة، وعاشت للحرية، ثم رحلت بعيدًا عن كل من أحبت.

◆ وأنا أقف منذ عقد، أمام قبره، لم يخطر ببالي أولًا أنه كان خطيب الثورة العرابية، ولا أحد رواد الصحافة الوطنية، ولا الأديب الذي صنع مدرسةً كاملة في الكتابة الساخرة، ولا الرجل الذي كان الاحتلال يخشاه أكثر مما يخشى كثيرًا من حملة البنادق.

◆ الذي شغلني يومها كان سؤالًا واحدًا...

كيف أستطاع أن يحتمل كل هذا؟

كيف عاش سنواته الأخيرة، وهو يعلم أن اسرته بعيدة، وأصدقاءه بعيدون، لا يملكون شجاعة ذكر اسمه، وتلاميذه الذين ملأوا الساحات بصوته لم يعودوا قادرين حتى على السؤال عنه، او الإمساك بيده وهو يصارع المرض والموت؟

◆ أدركت، في تلك اللحظة، منذ ١٠ سنوات أن أقسى ما في الاقتلاع من الجذور ليس فراق المكان...

بل فراق الوجوه. فالوطن ليس ترابا وحدودا ونهرا وعلما.

الوطن هو من يعرف ملامح تعبك قبل أن تنطق بها.

وأخ أو أبن يطمئنك، بمجرد أن يطرق بابك او يجلس إلى جوارك ويحدثك.

وصديقٌ يزورك بلا موعد او يلتقيك صدفة. وتلاميذ وأنصار يؤمنون أن معلمهم سيظل واقفًا بينهم إلى الأبد.

◆ كل ذلك حرم منه عبد الله النديم، وهو يقترب من نهاية الرحلة المبكرة وهو في سن ٥٤ عاما.

لم يكن مرض السل وحده ينهش صدره...كان صمت الأحبة يفعل.

وكان الانتظار يفعل.

وكان الشوق الذي لا يجد طريقًا إلى أصحابه يفعل أكثر.

◆ هناك رجالٌ يموتون لأن أجسادهم تعبت...

وهناك رجالٌ تتعب أرواحهم قبل أجسادهم.

وأحسب أن عبد الله النديم كان من هؤلاء. فلم يكسره المرض بقدر ما كسرته الوحدة. ولم تهزمه الغربة لأنها أبعدته عن مصر فحسب، بل لأنها أبعدته عن أسرته، وعن كل الوجوه التي كان يرى فيها مصر.

◆ ولعل ما أبكاني، وأنا أقرأ سيرته، أنه لم يطلب في أيامه الأخيرة جاهًا ضائعا، ولا منصبا، ولا انتقامًا ممن ظلموه.

كل ما تمناه...

أن يرى أسرته.

أن يرى من أحبهم.

أن يطمئن قلبه، ولو للحظة، بأن شيئًا من وطنه قد وصل إليه.

◆ يا لها من أمنية متواضعة...

ويا لها من أمنية استعصت حتى على رجلٍ عاش عمره كله يمنح الناس الأمل.

◆ لم يكن النديم قديسًا، ولم يكن أسطورة من صنع الخيال الشعبي. كان إنسانًا.

ولهذا أحبه الناس.

ولهذا خافت منه السلطة.

ولهذا بقي، بعد مئةٍ وثلاثين عامًا، أقرب إلينا من كثيرين عاشوا بعده.

◆ وربما لهذا أيضًا، لم أشعر وأنا أقف أمام قبره أنني أقف أمام رجلٍ من القرن التاسع عشر. بل شعرت أنني أقف أمام صفحة من حكاية لم تنتهِ بعد...

حكاية كل من دفع ثمن رأيه.

وكل من اقتُلع من أرضه لأنه أحبها أكثر مما ينبغي.

وكل من حمل وطنه في قلبه، حتى أصبح القلب وطنه الأخير.

◆ لم يبدأ عبد الله النديم حياته بطلاً في كتب التاريخ، ولم يولد وفي يده قلم من ذهب، ولا على كتفيه نجوم أو نياشين . خرج من قلب الناس، فبقي واحدًا منهم حتى آخر يوم في حياته. وربما كانت هذه هي أولى عبقرياته... أنه لم يتعال على الشعب يوما، لأنه كان جزءا منه.

◆ كان يعرف الأسواق أكثر مما يعرف القصور، ويجيد الإنصات إلى أحاديث البسطاء أكثر مما يجيد مجاملة أصحاب النفوذ.

لذلك لم تكن كلماته تبدو وكأنها تُلقى على الناس، بل كانت تخرج من بينهم، تحمل لهجتهم، وتفهم أحلامهم، وتعرف مواطن وجعهم.

◆ وإذا كانت الأمم تُعرف أحيانًا بقادتها، فإن الأزمنة تُعرف بأصواتها. وكان عبد الله النديم، دون مبالغة، أحد أعظم الأصوات التي أنجبتها مصر في القرن التاسع عشر.

◆ قرأت بعضا من مقالاته وخطبه

كان خطيبا لا يقنعك فقط... بل يجعلك ترى الفكرة رأي العين. وكانت عباراته تمتلك حرارة الحياة نفسها ، صورا، وحكايات، وضحكات، ودموعا، حتى يخيل إلى السامع أنه لا يستمع إلى خطيب، بل يعيش معه ما يقول.

◆ أما قلمه، فقد سبق عصره. لم يكن يكتب للنخبة وحدها، بل كتب للمجتمع كله. جعل من الصحافة مدرسة للتنوير، ومن المقال قضية، ومن السخرية الراقية وسيلة لمقاومة الاستبداد، لا للتشهير بالناس .

وكانت مجلته «الأستاذ» صفحةً مشرعة على مستقبل الصحافة العربية، لا مجرد مطبوعةٍ تصدر ثم تُنسى.

◆ ولم يكن الاحتلال البريطاني يخشاه لأنه يحمل سلاحا، وإنما لأنه كان يحمل شعبا كاملًا في كلماته صوتا للامه المصرية في صوته.

فالسلطة تستطيع أن تصادر صحيفة، لكنها تعجز عن مصادرة فكرة إذا استقرت في قلوب الناس.

◆ ثم جاءت العاصفة...

وسقطت الثورة العرابية.

وتبدلت حياة الرجل كلها.

لم يعد الخطيب الذي تلتف حوله الجماهير...بل أصبح المطارد الذي يخشى أن يلتفت او يتعرف علي وجهه عابر سبيل.

◆ عاش سنواتٍ طويلة متنقلًا بين البيوت، والقري، يغير اسمه، ويبدل هيئته، ويختبئ ، حتى أصبح الاختباء أسلوب حياة. لم يكن يخاف على نفسه بقدر ما كان يخاف أن تنطفئ الكلمة التي عاش من أجلها او يضار بسببه من تستروا عليه. حتى تمت الوشاية به اثناء وجوده في قريه "ميت الغرقا" مركز طلخا (بلده توفيق عكاشه)

◆ ثم جاء القرار الذي يعرف المنفيون جميعًا طعمه المر...

أن يغادر خارج مصر.

وما أقسى أن يقال لإنسانٍ أحب وطنه حتى أفنى عمره في خدمته :

ليس لك مكان فيه!

◆ خرج عبد الله النديم من مصر، لكن مصر لم تخرج منه. كانت تسافر معه من الشام الي الاستانه كانت مصر في حقيبته. في أوراقه. في صلاته. في أحلامه.

وفي تلك اللحظات، كان يظن، بين النوم واليقظة، أنه ما زال يسمع ضجيج القاهرة، أو يشم رائحة النيل في البسفور، أو يرى وجوه البسطاء الذين أحبهم.

◆ ولهذا يمكن أن نقول، دون أن نجافي الحقيقة، إن عبد الله النديم أمضى نحو خمسة عشر عامًا من عمره الأخير بين الاختفاء والاقتلاع من وطنه. خمسة عشر عاما لم يعرف فيها الاستقرار ليله، وظل خلالها مطاردا أو مبعدًا، حتى انتهت رحلته بعيدا عن الأرض التي أحبها أكثر من نفسه.

◆ لم تكن تلك السنوات خمسة عشر رقما في سجل ..كانت خمسة عشر خريفًا مرّ على قلبه.

وخمسة عشر رمضان، افتقد فيه دفء أسرته وأمه ولمة الافطار.

وخمسة عشر عيدًا لم يسمع فيه ضحكة أخ، ولا دعاء أم، ولا مصافحة صديق قديم.

وكان كل عام يمضي، يزيد المسافة بينه وبين الوطن، ويزيد الوطن حضورا في قلبه.

◆ حين اشتد عليه المرض في إسطنبول، لم يكن الجسد وحده هو الذي أنهكه. كانت روحه قد تعبت من طول الانتظار. لم يطلب أن يُعاد إليه منصب، ولا أن يُرد إليه مجد.

طلب شيئًا واحدًا... أن تأتي أسرته. أن يرى أمه. أن يرى أخاه.

كان يريد أن يطمئن، قبل أن يغادر الدنيا، أن شيئًا من مصر قد وصل إليه.

◆ نعم...وافقت السلطات المصرية...

وانطلقت الأسرة في رحلتها الطويلة عبر البحر. لكن الزمن كان قد سبقها.

وصل الأحبة...متأخرين....

فصاحب الموعد، كان قد رحل.

وقادهم إلى قبره رجلٌ يعرف هو الاخر معنى المنفى. هو جمال الدين الأفغاني.

◆ أتوقف طويلًا أمام هذا المشهد.

لا أقرأه كسياسي...بل كإنسان.

وأتساءل:

كم من الأحلام ماتت قبل أصحابها؟

وكم من اللقاءات تأخرت دقائق... فصارت مستحيلة إلى الأبد؟

◆ ربما لهذا، حين أقف أمام قبر عبد الله النديم، لا أشعر أنني أزور رجلًا من الماضي.

أشعر أنني أزور ذاكرة حية، تذكرنا بأن الكلمة الصادقة قد تُطارد، وقد تُنفى، وقد يموت صاحبها بعيدا عن وطنه...

لكنها لا تموت معه.

◆ وبعد أيام، سأقف مرةً أخرى أمام قبره، في الذكرى المئة والثلاثين لرحيله.

وسأتذكر أن الزمن يمضي...

لكن الوفاء يبقي.

◆ وأتمنى أن تتحول هذه الذكرى إلى مناسبةٍ يستعيد فيها المصريون واحدًا من أنبل أبنائهم.

فمن لم يستطع أن يزور قبره في إسطنبول، فليزره بقلبه.

ليقرأ له صفحة.

أو يبحث عن أحد كتبه. أو يروي لأبنائه حكايته. أو يكتب عنه سطرًا. أو يترحم عليه.

فالأمم العظيمة لا تحفظ رجالها بالحجارة... بل تحفظهم في ضمير أجيالها.

◆ أما نحن...

فسنقف أمام قبره مرةً أخرى.

لا لنرثي رجلًا مات قبل أن تصل أسرته...

بل لنقول له، بعد مئةٍ وثلاثين عامًا:

لقد تأخرنا كثيرًا... لكننا لم ننساك.

سلامٌ عليك يا عبد الله النديم... وسلامٌ على كل من دفع ثمن حبه لوطنه.

وسلامٌ على كل من غادر الدنيا، قبل أن يكتمل اللقاء الذي انتظره طويلًا.

- لا أطلب من أحد نقل رفاته لمصر،

أو حتى زيارة رسمية لقبره،

بل أن نحييه ونشكره بطرقنا المختلفة : أن نقرأ تراثه،

او نبحث في سيرته، او نحدّث أبناءنا عنه،

(كما فعلت اليوم مع ابني) ،

ان نترحم عليه، ونكتب عنه ولو سطرًا .

- أما أنا، فحين أغادر المقبرة سألتفت كما فعلت قبل عشر سنوات، لأجدد وعدي :

أن يبقى اسمه حيًا ما دام في العمر بقية.

..وجوه لا تغيب .. إبراهيم شكري ...

ابن الباشا الشهيد الحي،

الذي شهد على زواجي

◆ بعض الرجال يولدون مرتين... مرة من أرحام أمهاتهم، ومرة من جراح أوطانهم. اما اما الاستاذ ابراهيم شكري فهو من طراز فريد، حيث لم يولد مرتين ولكن مات مرتين !

فلم يكن لقب "الشهيد الحي" الذي لازم المهندس إبراهيم شكري لقبًا صنعته الصحافة، ولا عبارةً أطلقها شاعر، ولا وسامًا منحته سلطة. لقد كتبه الدم. في إحدى المظاهرات الوطنية ضد الاحتلال البريطاني، سقط الشاب إبراهيم محمود شكري مضرجًا بدمائه. حمله زملاؤه إلى مستشفى قصر العيني، وقد ظنوا أن الرحلة انتهت، وأن رفيقهم أصبح شهيدًا. لكن الموت تراجع خطوة. فتح إبراهيم شكري عينيه، وتنفس من جديد، فقال أحد رفاقه: "لقد عاد الشهيد إلى الحياة." ومنذ ذلك اليوم، لم يعد يحمل اسمًا فقط، بل حمل لقبًا ظل أكبر من كل المناصب التي شغلها بعد ذلك: الشهيد الحي. ولم يكن يدري أن حياته كلها ستكون وفاءً لهذا اللقب.

◆ وبعد أكثر من أربعين عامًا من ذلك اليوم، وقف هذا "الشهيد الحي" شاهدًا على عقد زواجي. لم أكن يومها أرى فيه وزيرًا سابقًا، ولا رئيس حزب، بل رجلًا كريمًا جاء يشارك شابًا فرحته. لكن الزمن وحده هو الذي علمني أن الرجل لم يكن شاهدًا على بداية أسرة فحسب، بل كان شاهدًا على بداية رحلة كاملة من حياتي، بكل ما

حملته من آمال، وانتصارات، وانكسارات، وسجون، ومنافي، ويقين لم يتغير بأن السياسة يمكن أن تبقى شريفة، وأن الوطنية يمكن أن تظل نظيفة مهما اشتدت العواصف.

◆ أمامي الآن صورة قديمة تعود لعام ١٩٨٩. ربما ليست أجمل صورة في ألبوم زفافي... بل ربما أغلاها.

فيها أجلس إلى جوار عروسي، ويقف بجانبنا المهندس إبراهيم شكري، وإلى جواره الأستاذ مصطفى كامل مراد، رئيس حزب الأحرار الاشتراكيين. كلما تأملتها، لا أرى حفلاً، ولا مناسبة اجتماعية.

أرى وطنًا. أرى زمنًا كانت السياسة فيه تعرف كيف تختلف، دون أن تفسد المحبة، وكانت الأحزاب تتنافس، دون أن تفقد احترامها لبعضها، وكانت مصر تتسع للجميع.

◆ أكتب هذه السطور في ذكرى رحيل إبراهيم شكري، فبعد غدًا تعود ذكراه، لا لتوقظ الحزن، بل لتوقظ الضمير. فالرجال من طرازه لا يتحولون إلى تاريخ محفوظ في الكتب، بل إلى موازين نقيس بها أنفسنا كلما اختلطت علينا الطرق، وكلما ضاقت السياسة، اتسعت الذاكرة.

◆ لم يكن إبراهيم شكري بالنسبة لي وزيرًا سابقًا، ولا رئيس حزب فقط، ولا صاحب أول مشروع للإصلاح الزراعي في مصر. كان قيمة تمشي على الأرض. وكان مدرسة كاملة تعلمت منها أن الوطنية لا تُقاس بعدد الخطب، ولا بطول المواكب، ولا بعلو الأصوات، بل بقدرة الإنسان على أن يخسر كل شيء... إلا نفسه.

◆ ولد منذ ١١٠ سنه في عام ١٩١٦ في شربين، لأسرة من كبار الباشاوات. وكان أبوه محمود باشا شكري من كبار رجال الدولة،

وكانت الحياة قد مهدت له طريقًا واسعًا نحو الثراء والجاه. لكن الرجال الحقيقيين لا يقيسون حياتهم بما ورثوه، بل بما يضيفونه إلى ميراثهم. وكانت أول ثورة قام بها إبراهيم شكري، ثورة على طبقته. ابن الباشا الذي وقف في صف الفلاح، وابن كبار ملاك الأرض الذي كتب أول مشروع للإصلاح الزراعي قبل أن تعرفه ثورة يوليو بسنوات. ولذلك لم يكن مشروعه قانونًا فحسب، بل موقفًا أخلاقيًا، وانتصارًا نادرًا للعدل على المصلحة.

◆ كثيرًا ما سألت نفسي: كيف يستطيع إنسان أن يقف ضد الامتيازات التي وُلد فيها؟ ثم أدركت أن التربية قد تصنع أبناء الطبقات، أما الضمير فهو وحده الذي يصنع الرجال. وكان إبراهيم شكري واحدًا من هؤلاء. لم يكن يبحث عن شعبية، ولا عن تصفيق، بل عن عدالة. وكان يؤمن أن الأرض التي لا تصل إلى يد الفلاح، لن تعطي الوطن خيرها كله.

◆ تخرج في كلية الزراعة عام ١٩٣٩، لكن الزراعة عنده لم تكن علمًا فقط، بل فلسفة. وكان الفلاح، في نظره، ليس مجرد منتج، بل صاحب حق، وكانت الأرض وطنًا صغيرًا، إذا ضاع من صاحبه ضاع معه شيء من الوطن الكبير. ولهذا ظل مشروع الإصلاح الزراعي يسكن وجدانه سنوات طويلة، حتى صار عنوانًا من عناوين حياته.

◆ كلما اقتربت منه، ازددت يقينًا أن التواضع لا يُكتسب، بل يولد مع أصحابه. كان شديد الحياء، هادئ الصوت، قليل الكلام، بعيدًا عن استعراض البطولة. حتى إن كثيرين كانوا يخرجون من لقائه وهم يشعرون أنهم التقوا رجلًا صالحًا، أكثر مما التقوا سياسيًا. ولعل أعظم ما فيه أنه لم يسمح للسياسة أن تسرق منه الإنسان.

◆ لم يكن غريبًا، بعد ذلك، أن ينجح إبراهيم شكري في واحدة من أصعب التجارب الإدارية في تاريخ مصر الحديث. حين كُلِّف بالوادي الجديد، لم يذهب إليها بوصفها محافظة نائية على أطراف الدولة، بل ذهب إليها كما يذهب الفلاح إلى أرض بكر، يرى فيها ما لا يراه الآخرون. كانت الصحراء يومها صامتة، وكانت الطرق بالكاد تُرى، وكان اسم "الواحات" أقرب إلى ذاكرة المصريين من اسم "الوادي الجديد". لكن إبراهيم شكري لم يكن يرى الرمال... كان يرى مستقبلًا ينتظر من يؤمن به.

◆ لم ينتظر طريقًا ممهدًا، ولم يطلب سيارة فارهة، ولم يشترط مكتبًا مكيفًا. ركب سيارة نقل التموين، وجلس إلى جوار السائق، بينما جلس كبار المسؤولين في الصندوق الخلفي على مقاعد خشبية. لم يكن ذلك استعراضًا للتواضع، فالمتواضعون لا يعرفون الاستعراض. كان يريد أن يرى بعينيه ما يكتبه الناس في تقاريرهم، وأن يسمع من أهل المكان قبل أن يسمع من موظفيه. كان يؤمن أن المسؤول الذي لا يغبر حذاءه بتراب الأرض، لن يستطيع أن يبنيها.

◆ لم يكن يبني محافظة فقط، بل كان يبني ثقة. شُقت الطرق، وحُفرت الآبار، وامتدت القرى، وتحولت الصحراء شيئًا فشيئًا إلى وعد بالحياة. وحين أقنع الرئيس أنور السادات بزيارة الفرافرة، لم يكن يبحث عن مجد شخصي، بل كان يريد أن يلفت أنظار الدولة إلى جزء من جسدها ظل طويلًا بعيدًا عن الضوء. وهكذا دخل الوادي الجديد زمنًا جديدًا، لأن رجلًا آمن به قبل أن يؤمن به الآخرون.

◆ وحين انتقل إلى وزارة الزراعة، شعرت كلما قرأت تلك المرحلة أن الوزارة هي التي تشرفت به، لا العكس. كان يحمل إلى الوزارة مشروعًا قبل أن يحمل حقيبة. وكان يرى أن المنصب وسيلة لخدمة

الفكرة، لا الفكرة وسيلة للوصول إلى المنصب. ولهذا لم يتعلق بالكرسي يومًا، ولم يسمح للكرسي أن يتعلق به.

◆ ثم جاءت اللحظة التي تكشف معادن الرجال. ترك الوزارة بإرادته ليؤسس حزب العمل. وفي زمن كان كثيرون يغادرون أحزابهم بحثًا عن حقيبة وزارية، غادر إبراهيم شكري الوزارة بحثًا عن فكرة. كان ذلك واحدًا من أكثر المواقف التي علمتني أن السياسة ليست فن البقاء في السلطة، بل فن البقاء وفيًا للمبدأ.

◆ لم يكن حزب العمل بالنسبة إليه مجرد حزب جديد، بل محاولة لإحياء ضمير الحركة الوطنية. وحين اختار للحزب طريقه، لم يكن يفكر في عدد المقاعد، بل في عدد الضمائر التي يمكن أن يوقظها. ثم جاءت سنوات الصدام، وجاء قرار تجميد الحزب وإغلاق جريدة "الشعب"، فرأيت الرجل كما عرفته دائمًا؛ هادئًا، ثابتًا، لا يغضب لنفسه، بل يغضب لأن بابًا من أبواب الحرية أُغلق في وجه الوطن.

◆ تعلمت منه أن المعارضة ليست خصومة، بل مسؤولية. وأن الاختلاف مع السلطة لا يعني الاختلاف مع الدولة. وأن الوطن يتسع لأكثر من رأي، لكنه لا يحتمل أن يحتكر أحد الحقيقة وحده. وكان يؤمن أن السياسة إذا فقدت أخلاقها تحولت إلى تجارة، وإذا فقدت ضميرها تحولت إلى صراع على الغنائم، أما إذا بقيت وفية لمبادئها، فإنها تصبح رسالة يعيش الإنسان من أجلها، لا منها.

◆ أكثر ما كان يأسرني فيه تلك البساطة التي لم تغادره يومًا. كانت سيارته الفولفو الزرقاء جزءًا من شخصيته، يقودها بنفسه من مؤتمر إلى مؤتمر، ومن محافظة إلى أخرى، ومن قرية إلى قرية. لا موكب، ولا حراسة، ولا صفارات، ولا حواجز بينه وبين الناس. وكان هذا المشهد، في نظري، أبلغ من ألف خطبة عن التواضع.

◆ ومن المصادفات التي لم تغادر ذاكرتي، أن سيارة والدي كانت تحمل الرقم (٩٥)، وسيارة أبي الروحي فؤاد سراج الدين باشا كانت تحمل الرقم (٩٧)، أما سيارة إبراهيم شكري فكانت تحمل الرقم (٩٨). قد يراها غيري مجرد أرقام متجاورة، لكنني كلما تذكرتها، رأيت وجوهًا لا أرقامًا، ورأيت جيلًا كاملًا من الرجال الذين اختلفوا في الاجتهاد، واتفقوا على احترام أنفسهم واحترام وطنهم. وربما لهذا السبب بقيت تلك الأرقام في ذاكرتي، لأنها لم تكن أرقام سيارات... بل علامات طريق.

◆ كان يمكن لإبراهيم شكري أن يعيش حياة أكثر راحة. وكان يمكن أن يساوم. وكان يمكن أن يهادن. وكان يمكن أن يكتفي بما حققه من مكانة، ويجلس في آخر العمر يتأمل ما مضى. لكنه لم يُخلق لهذا الطريق. كان من أولئك الرجال الذين ينامون مطمئنين على وسادة الضمير، ولو دفعوا ثمن ذلك من أعمارهم وأحلامهم. ولهذا ظل، حتى آخر يوم في حياته، منحازًا إلى الفكرة... لا إلى المنصب، وإلى الوطن... لا إلى السلطة.

◆ لم يكن قديسًا يعيش خارج الزمن. كان إنسانًا كامل الإنسانية. يغضب. ويحزن. ويختلف. ويجتهد. لكنه لم يسمح يومًا أن تنتصر السياسة على الأخلاق. كان يرى أن المواقف قد تتغير، أما القيم فلا تتغير. وأن الإنسان قد يخسر معركة سياسية، لكنه إذا خسر احترامه لنفسه، فقد خسر كل شيء. ولهذا بقيت أخلاقه أكبر من مناصبه، وبقيت سيرته أنقى من كل معاركه.

◆ أكثر ما كان يأسرني فيه، تلك البساطة التي لا يستطيع أحد أن يتصنعها. كان يصافح الناس كما يصافح أصدقاءه القدامى، ويجلس إلى الفلاح كما يجلس إلى الوزير، ويستمع إلى البسطاء كما

يستمع إلى كبار المسؤولين. لم يكن يرى الناس من مواقعهم، بل من إنسانيتهم. وربما لهذا السبب لم أشعر يومًا أنني أجلس إلى وزير سابق أو رئيس حزب. كنت أشعر أنني أجلس إلى رجل عرف الله، فأحب الناس، وأحب مصر، وعاش حياته كلها وهو يحاول أن يرد إليها بعض ما أعطته له.

◆ تعلمت منه أن الوقار لا يُشترى، وأن الاحترام لا تمنحه المناصب، وأن الإنسان إذا امتلأ من الداخل، استغنى عن كل مظاهر العظمة الزائفة. ولعل أكثر ما بقي في ذاكرتي عنه، أنه لم يكن يتحدث عن نفسه. كان يتحدث عن الفلاح، وعن الأرض، وعن الوطن، كأن حياته الشخصية لا تستحق أن تُذكر إذا حضرت مصر. وتلك، في نظري، أعلى درجات الوطنية.

◆ كلما استعدت سنواته الأخيرة، شعرت أن لقب "الشهيد الحي" لم يكن يصف لحظة إصابته في شبابه وحدها، بل كان يصف عمرًا كاملًا. استشهد وهو يرى المشروع الوطني يتراجع. واستشهد وهو يرى السياسة النظيفة تضيق مساحتها. واستشهد يوم جُمِّد حزب العمل. واستشهد يوم أُغلقت جريدة "الشعب". واستشهد كلما شعر أن الوطن الذي أحبّه يبتعد عن الطريق الذي ناضل من أجله. كانت الطعنات تتوالى على قلبه، لكنه لم يعرف يومًا كيف يغيّر موقعه. ولهذا ظل شهيدًا... وهو حي.

◆ كثيرًا ما فكرت أن المعلمين الحقيقيين لا يشرحون الدروس، بل يعيشونها. وإبراهيم شكري لم يترك لنا كتابًا في الأخلاق السياسية، بل ترك لنا حياته. وكانت حياته أبلغ من كل الكتب. لم يعلمني بمحاضرة، ولا بخطبة، ولا بوصية. علمني بسيرته. وكانت سيرته تكفي.

◆ واليوم... كلما وقفت أمام تلك الصورة القديمة، لا أبحث عن وجهي. لقد أخذ الزمن من ملامحي كثيرًا، ولا أبحث عن سنوات الشباب التي مضت. أبحث عن الرجل الواقف خلفي. الرجل الذي جاء شاهدًا على عقد زواجي، ثم مضى، دون أن يدري، شاهدًا على رحلة عمري كلها. كلما تعبت فيها... عدت إليه. لا لأسأله، بل لأطمئن أن السياسة ما زالت تستطيع أن تكون شريفة، وأن المعارضة يمكن أن تبقى وطنية، وأن مصر... ما زالت قادرة على أن تنجب رجالًا يشبهونه.

◆ بعض الرجال يتركون لأولادهم مالًا. وترك إبراهيم شكري لتلاميذه ضميرًا. ومن حسن حظي أنني عرفت الرجل قبل أن أقرأ تاريخه، فعرفت أن التاريخ قد يبالغ أحيانًا في مدح الرجال... إلا حين يكتب عن إبراهيم شكري، فقد كان، في الحقيقة، أجمل مما ترويه الكتب.

◆ سلام عليك يا إبراهيم شكري... يا ابن شربين الذي خرج من بيت الباشاوات، فعاد أبًا للفلاحين. ويا الوزير الذي خرج من الوزارة كما دخلها. ويا الزعيم الذي ظل يقود سيارته بنفسه، بينما كان يقود ضمائر تلاميذه دون أن يشعر. ويا الشهيد الحي... الذي لم يمت يوم توقف قلبه، بل بقي حيًا في ذاكرة كل من عرفه، وفي وجدان كل من تعلم منه، وفي قلب كل من آمن أن السياسة يمكن أن تكون خلقًا... قبل أن تكون سلطة.

◆ أما أنا... فسيبقى يكفيني من هذه الدنيا أن صورة واحدة جمعتني بك. صورة ظننتها يومًا توثق بداية بيت، ثم اكتشفت، بعد العمر كله، أنها كانت توثق بداية درس. رحمك الله... وأبقى سيرتك نبراسًا لمن يأتي بعدنا.

◆ولذلك... لا أقول إن إبراهيم شكري كان رجلًا عظيمًا، فالعظمة وصف يمنحه الناس. أما هو... فكان شيئًا أبقى من الوصف. كان قيمة. والقيم لا تموت. ولهذا... يبقى إبراهيم شكري... وجهًا لا يغيب.



وجوه لا تغيب مصطفى كامل مراد...
رجل كانت عبقريته في بساطته

◆ هناك شهور تمر في حياتنا كما تمر أوراق التقويم، لا تترك في القلب إلا رقمًا جديدًا. وهناك شهور أخرى، كلما أقبلت، شعرت أن الذاكرة ترتدي السواد، وأن الأرواح القديمة تخرج من صورها لتجلس إلى جوارنا من جديد. وأغسطس، بالنسبة لي، لم يعد شهرًا من شهور العام، بل أصبح شهر وداع الكبار.

◆ في الرابع من أغسطس رحل مصطفى كامل مراد عام ١٩٩٨. وفي الخامس رحل إبراهيم شكري عام ٢٠٠٨. وفي التاسع رحل أبي الروحي فؤاد سراج الدين عام ٢٠٠٠. ثم يأتي الثالث والعشرون من أغسطس، فيستدعي سعد زغلول الذي رحل عام ١٩٢٧، ثم خليفته مصطفى النحاس الذي رحل في اليوم نفسه عام ١٩٦٥. خمسة رجال... خمسة أعمدة في تاريخ الوطنية المصرية... كأن أغسطس اختار أن يحتفظ بأسمائهم، وأن يذكرنا كل عام بأن الرجال يرحلون، لكن المبادئ لا ترحل.

◆ ومع ذلك، ظل مصطفى كامل مراد يحتل عندي مكانًا مختلفًا. ليس لأنه أول زعيم للمعارضة في التجربة الحزبية الحديثة، ولا لأنه أحد الضباط الأحرار، ولا لأنه أسس حزب الأحرار الاشتراكيين وأصدر أول صحيفة معارضة يومية في مصر. كل ذلك يكتبه المؤرخون. أما الذي بقي في قلبي، فهو شيء آخر. كانت عبقرية الرجل الحقيقية في بساطته.

◆ عرفت في حياتي رجالًا امتلكوا ذكاءً لافتًا، وآخرين امتلكوا قدرة استثنائية على الخطابة، وغيرهم عرفوا كيف يصنعون لأنفسهم حضورًا صاخبًا. أما مصطفى كامل مراد، فكان حضوره يبدأ من حيث ينتهي حضور الآخرين. كان يدخل المكان فلا يلفت الانتباه بصوته، بل بسكينته. ويغادره تاركًا أثرًا من الطمأنينة، كأن السياسة، على يديه، استعادت شيئًا من أخلاقها الأولى.

◆ لا أذكر أنني دعوته يومًا إلى لقاء أو مؤتمر أو مناسبة، فاعتذر أو تأخر. كان يأتي كما يأتي الأصدقاء. بلا تكلف. وبلا حسابات. ودودًا، عذبًا، خفيف الروح، حتى إنك تنسى، بعد دقائق من الجلوس إليه، أنك أمام رجل حمل رتبة عسكرية، ثم حمل حقيبة وزارة، ثم ترأس حزبًا، ثم أصبح زعيمًا للمعارضة. لم يكن يبقى أمامك إلا الإنسان. وهذه، في رأيي، أعلى درجات الزعامة.

◆ ولا تزال زيارة واحدة محفورة في ذاكرتي، كلما استعدتها شعرت أنني لا أستعيد موقفًا شخصيًا، بل أستعيد أخلاق جيل كامل. زارني في بيتي، وكان ضيفي في تلك الأمسية الرئيس السوداني الأسبق جعفر محمد نميري. وبعد حديث طويل، التفت إليّ مصطفى كامل مراد وقال، بابتسامته الهادئة: "يا أيمن... أريد أن أستعيرك من فؤاد باشا." ثم أردف: "أحلم أن تتحول جريدة الأحرار إلى صحيفة يومية، وأريدك أن تتولى رئاسة تحريرها".

◆ كانت تلك أول مرة في حياتي يُعرض عليّ فيها أن أتولى رئاسة تحرير صحيفة يومية. راقت لي الفكرة، لكنني قلت له: "لن أستطيع أن أجيب قبل أن أستأذن فؤاد باشا." ابتسم، وقال: "إذن سأذهب إليه بنفسي".

◆ وذهب فعلًا إلى منزل فؤاد سراج الدين في جاردن سيتي. وما إن عرض عليه الفكرة، حتى قاطعه فؤاد باشا، ضاحكًا، بتلك الدعابة التي لم تفارقه يومًا: "خذني أنا إعارة... ولا تفكر في أيمن".

◆ ضحك الرجلان، وضحكت حين حكى لي مصطفى كامل مراد ما جرى. لكن السنوات علمتني أن الموقف لم يكن مجرد طرفة. كان درسًا في أخلاق الرجال. في زمن كانت المنافسة السياسية لا تفسد الود، ولا تقتل الشهامة، ولا تحول الخصوم إلى أعداء.

◆ كلما تذكرت تلك الواقعة، لم أعد أتذكر من كان رئيس حزب، ومن كان رئيس وفد، ومن كان زعيم المعارضة. أتذكر فقط أن مصر كانت تنجب رجالًا يختلفون حتى آخر الطريق، ثم يجلسون بعد ذلك حول المائدة نفسها، يتبادلون الضحكات، ويحفظ كل واحد منهم للآخر مكانته وقدره. وأحسب أن هذه، قبل أي خسارة سياسية، هي الخسارة الكبرى التي أصابت حياتنا العامة.

◆ ولد مصطفى كامل مراد عام ١٩٢٧ في قرية شنشور بمحافظة المنوفية. التحق بالكلية الحربية، وشارك في حرب فلسطين عام ١٩٤٨، وأصيب إصابة بالغة، ونال ميدالية فلسطين الذهبية. ثم انضم إلى تنظيم الضباط الأحرار عام ١٩٤٩، وشارك في ثورة يوليو، لكنه لم يتوقف عند العسكرية. خلع البزة العسكرية، وارتدى ثوب السياسي، وظل يحمل الروح نفسها؛ روح المقاتل الذي يرى الوطن مهمة لا تنتهي.

◆ استقال من القوات المسلحة، ودرس العلوم السياسية، ثم دخل مجلس الأمة نائبًا عن مصر القديمة، وكان في تلك المرحلة زميلًا لوالدي، رحمه الله، الذي كان عضوًا في المجلس نفسه. وكثيرًا ما سمعت اسم مصطفى كامل مراد يتردد في بيتنا قبل أن أعرفه عن

قرب. وحين التقيته بعد سنوات، اكتشفت أن الواقع كان أجمل من كل ما سمعت. فبعض الرجال، إذا اقتربت منهم، ازدادوا قيمة، لا العكس.

◆ حين بدأت التجربة الحزبية الجديدة في عهد الرئيس أنور السادات، كان مصطفى كامل مراد أول من حمل راية المعارضة المنظمة. أسس حزب الأحرار الاشتراكيين، وأصدر جريدة «الأحرار»، وكتب فيها عشرين عامًا مقاله اليومي الشهير «رأي المعارضة». لم يكن عنوانًا صحفيًا فحسب، بل كان منهجًا في الحياة. كان يؤمن أن الدولة القوية لا تخاف الرأي الآخر، وأن الوطن لا يضعف بتعدد الأصوات، بل يضعف حين يُجبر الجميع على أن يتكلموا بالصوت نفسه.

◆ داخل البرلمان لم يكن من هواة الصخب، لكنه كان من عشاق الحقيقة. قدم استجوابات أصبحت جزءًا من ذاكرة الحياة النيابية المصرية. وحين ناقش أزمة الخبز، لم يكتف بالكلمات، بل حمل معه تحت قبة البرلمان أرغفة خبز سوداء يكسوها التراب والشوائب، ليقول إن الوثيقة الحية أبلغ من ألف خطاب. اعترض رئيس المجلس على المشهد، لكن المشهد بقي في ذاكرة الناس، بينما مضت الاعتراضات مع أصحابها.

◆ كان يؤيد الخصخصة حين رأى فيها مصلحة للاقتصاد، فاتهمه البعض بأنه انحاز إلى الرأسمالية. ثم طالب ببرامج اجتماعية واسعة لحماية الفقراء، فاتهمه آخرون بأنه عاد إلى الاشتراكية. وكان يبتسم. لأنه لم يكن أسير الشعارات، بل أسير مصلحة مصر. لم يكن يمينيًا بالمعنى التقليدي، ولا يساريًا بالمعنى الجامد، بل كان وطنيًا يرى السياسة بعين الوطن، لا بعين الأيديولوجيا.

◆ وحين عينه الرئيس حسني مبارك عضوًا في مجلس الشورى، ظن كثيرون أن الرجل سيهدأ، أو أن حرارة المعارضة ستخفت في صوته. لكن مصطفى كامل مراد بقي كما هو. وقف تحت القبة يهاجم الحكومة، ويعارض سياساتها الضريبية، ووصف وزير المالية يومها بأنه "شفاط لأموال المصريين"، وطالب الحكومة بالرحيل. لم يتغير لأنه انتقل من مقعد المعارضة إلى مقعد التعيين. كانت الكلمة عنده أكبر من المقعد، وكان الضمير لا يعرف التعيين ولا الإقالة.

◆ وربما لهذا السبب، أجمع خصومه قبل أصدقائه على احترامه. وصفه الدكتور مصطفى كمال حلمي بأنه "وطني صاحب مواقف صادقة". وقال عنه الدكتور صلاح قبضايا: "كان كبيرًا وسط الأقزام." أما أنا، فلم أكن أحتاج إلى شهادة أحد. كنت أعرف الرجل عن قرب. رأيته في بيتي، وفي المؤتمرات، وفي اللقاءات الخاصة، ورأيته يضحك كما يضحك الأطفال، ويتواضع كما يتواضع الصالحون. واكتشفت أن بساطته لم تكن أسلوبًا في التعامل، بل كانت أسلوبًا في الحياة.

◆ تعلمت منه أن الإنسان قد يكسب معركة سياسية ويخسر نفسه، وقد يخسر الانتخابات والمناصب، لكنه يربح احترام الناس إذا بقي وفيًا لما يؤمن به. وتعلمت منه أن البلاغة ليست في قوة الخطاب، بل في صدق صاحبه. وأن أكثر الرجال تأثيرًا ليسوا الذين يملؤون الدنيا ضجيجًا، بل الذين يملؤونها احترامًا.

◆ كلما جاء أغسطس، لا أتذكر يوم رحيله وحده. أتذكر جيلًا كاملًا كان يرى المنصب تكليفًا، والمعارضة واجبًا، والوطن بيتًا يتسع للجميع. وأتساءل: هل كانت عظمة هؤلاء الرجال في ذكائهم؟ أم في تاريخهم؟ أم في مناصبهم؟ ثم أعود إلى الجواب نفسه الذي لم يتغير منذ عرفته: كانت عبقرية مصطفى كامل مراد... في بساطته.

◆ أحيانًا يخدعنا التاريخ، فيجعلنا نظن أن الزعماء هم الذين جلسوا أطول على المقاعد. لكن الزمن لا يحفظ أسماء الذين أطالوا البقاء في السلطة، بقدر ما يحفظ أسماء الذين أطالوا البقاء في الضمير. وكان مصطفى كامل مراد واحدًا من هؤلاء. لم يكن أكثر السياسيين نفوذًا، ولا أكثرهم ثراءً، لكنه كان، بلا ضجيج، واحدًا من أكثرهم احترامًا، وكان الاحترام، في حياته، أكبر من النفوذ، وأبقى من السلطة.

◆ لم يكن يطارد الكاميرات، ولم يكن يكتب البطولة عن نفسه. كان يعرف أن التاريخ لا يكتبه أصحاب الضجيج، بل يكتبه أصحاب الأثر. ولهذا ظل أثره أكبر من حضوره الإعلامي، وظلت سيرته أنظف من كثير من السير التي ملأت الدنيا صخبًا ثم اختفت.

◆ واليوم، وأنا أكتب عنه في ذكرى رحيله، لا أشعر أنني أرثي رجلًا، بل أشعر أنني أستعيد جزءًا من نفسي، وجزءًا من زمن كنت أظنه لن يغيب. زمن كانت فيه الكلمة تسبق المصلحة، وكانت الصداقة أكبر من المنافسة، وكانت الوطنية لا تحتاج إلى شهادة حسن سيرة.

◆ أعود مرة أخرى إلى تلك الزيارة القديمة في بيتي، وإلى ذلك المساء الذي جلس فيه مصطفى كامل مراد إلى جوار الرئيس جعفر نميري، وأسمعه يقول لي: "أريد أن أستعيرك من فؤاد باشا." ثم أسمع ضحكة فؤاد سراج الدين وهو يجيبه: "خذني أنا إعارة... ولا تفكر في أيمن." كلما تذكرت هذه الواقعة، لا أبتسم فقط، بل أتحسر على زمن كانت المنافسة فيه شريفة، وكانت القلوب أنظف، وكانت النفوس أوسع.

◆ سلام عليك يا مصطفى كامل مراد... يا ابن شنشور الذي حمل البندقية دفاعًا عن وطنه، ثم حمل الكلمة دفاعًا عنه. يا أول زعيم للمعارضة في التجربة الحزبية الحديثة، ويا صاحب "رأي المعارضة" الذي ظل يكتب ضميرًا قبل أن يكتب مقالًا، ويا الرجل الذي دخل بيوت الناس بمحبتهم، وخرج من الدنيا تاركًا خلفه احترامًا لم تستطع السنوات أن تنتقص منه.

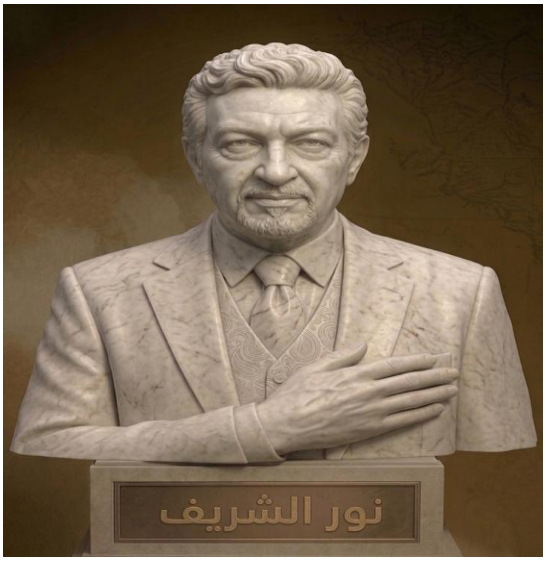
◆ أما أنا... فسيبقى يكفيني أنني عرفتك عن قرب، ورأيت فيك من البساطة ما جعلني أوقن أن التواضع ليس خلقًا إضافيًا عند الرجال الكبار، بل هو الدليل الأول على عظمتهم. رحمك الله... فقد كنت، كما عرفتك، رجلًا كبيرًا... لأنه لم يحاول يومًا أن يبدو كبيرًا.

◆ ولهذا... كلما جاء أغسطس، ازدادت الوجوه غيابًا عن الدنيا، وحضورًا في القلب. ويبقى مصطفى كامل مراد... وجهًا لا يغيب.



وجوه لا تغيب... نور الشريف ...

✳أسبوع وفاء، وتمثال لنور، في قلب إسطنبول✳



🔶 قبل أن يُزاح الستار عنه، كان التمثال يقف في صمت، داخل القاعة، كأنه يعرف صاحبه.

لم تكن قطعة من فن النحت تنتظر أن ترى النور، بل كانت ذاكرة مصرية كاملة تستعد لأن تستعيد واحدًا من أنبل وجوهها.

الضوء يتسلل من نافذة قاعة متحف الشرق فيلامس ملامحه الهادئة.

وفي تلك اللحظة، أدركت أن بعض التماثيل لا تُقام تكريمًا لأصحابها، وإنما اعتذارًا لأن الزمن مضى سريعًا، ولم نقل لهم، وهم بيننا، ما كانوا يستحقونه من امتنان.

بعد أيام قليلة، وفي الحادي عشر من أغسطس، سنزيح الستار عن تمثال الفنان الكبير نور الشريف، ليحتل مكانه المستحق في صدارة معرض «وجوه لا تغيب»، الذي تقيمه جمعية الشرق الثقافية في إسطنبول، إيذانًا ببدء «أسبوع وفاء لنور الشريف»، الذي يمتد من ١١ إلى ١٨ أغسطس ٢٠٢٦.

لن يكون الاحتفال معرضًا لتمثال، ولا أسبوعًا لعرض أفلام قديمة، بل محاولة متواضعة لرد بعض الجميل لرجل منحنا من عمره ما يكفي لأن يظل حيًا في وجداننا، حتى بعد أن غاب جسده عن الدنيا.

ولهذا، فإنني أدعو كل محبي نور الشريف، وكل من أحبوا الفن النظيف، والثقافة الراقية، والموقف الشريف، إلى أن يشاركوا معنا هذا الأسبوع، بالحضور إن استطاعوا، أو بكلمة، أو بصورة، أو ذكرى، أو اقتراح، أو حتى بقراءة الفاتحة على روحه الطاهرة. فالرجل الذي أسعد الملايين، يستحق أن تلتقي الملايين، ولو معنويًا، على الدعاء له.

◆ أحسب أن بعض الفنانين يمرون في حياتنا كما تمر الأسماء على شاشة النهاية في قاعة العرض، يصفق لهم الناس قليلًا، ثم يبتلعهم النسيان. لكن هناك قلة نادرة لا ترحل أبدًا، لأنها لم تكن تؤدي أدوارًا، بل كانت تؤدي رسالتها.

◆ نور الشريف واحدًا من هؤلاء.

لم يحتجز مكانته الخاصة لأنه امتلك موهبة استثنائية فحسب، ولا لأن أداءه الطبيعي جعل المشاهد ينسى أنه يمثل، بل لأنه نجح في أن يدخل البيوت العربية كلها دون استئذان، لا ضيفًا، بل فردًا من أفراد الأسرة.

كبرنا معه دون أن نشعر.

رأيناه يحلم، وينكسر، ويقاوم، ويغضب، ويحب، ويختلف، ويغفر.

وحين كان يبكي على الشاشة، كنا نشعر أن شيئًا في داخلنا يبكي معه.

وحين كان ينتصر، لم يكن ينتصر وحده، بل كانت تنتصر معه قيم آمن بها، ودافع عنها، وأبى أن يساوم عليها.

ولذلك، لم يكن ممثلًا يؤدي شخصية، بقدر ما كان إنسانًا يمنحها شيئًا من روحه.

◆ عرفت في حياتي سياسيين كثيرين، ومفكرين كبارًا، وأدباء تركوا بصماتهم في وجدان أجيال. وعرفت أيضًا فنانين كبارًا، لكن قليلين منهم كانوا يشبهون نور الشريف.

كان مثقفًا قبل أن يكون نجمًا.

وكان قارئًا قبل أن يكون ممثلًا.

وكان صاحب موقف، قبل أن يكون صاحب شهرة.

ولعل هذا هو السر الذي جعل أعماله تعيش أكثر مما عاش كثير من أصحابها.

لم يكن الفن عنده مهنة، ولا وسيلة للشهرة، ولا بابًا للثراء.

كان مشروعًا للحياة.

وكان يرى أن الممثل الحقيقي لا يكتفي بأن يحفظ الحوار، بل عليه أن يقرأ التاريخ، ويفهم المجتمع، ويصادق الكتب، حتى يستطيع أن يصدق الناس.

ولهذا، ظل طوال عمره يختار أدواره كما يختار الكاتب كلماته؛ بعناية، وبمسؤولية، وبإيمان أن ما يبقى في النهاية ليس عدد الأعمال، وإنما قيمة الأثر.

◆ أما أنا، فلم يكن نور الشريف بالنسبة إليَّ مجرد فنان عظيم، بل كان صديقًا كريمًا، حملته الأيام إلى دائرتي الانتخابية في باب الشعرية مرات كثيرة، حتى صار واحدًا من الوجوه التي ينتظرها الناس هناك بمحبة لا تقل عن محبتهم لأهل الحي.

◆ كنت أدعوه للمشاركة في الندوات الأسبوعية، فيأتي ببساطته المعهودة، يجلس بين الناس، يصافحهم واحدًا واحدًا، ويستمع أكثر مما يتكلم.

ولم أشعر يومًا أنه جاء باعتباره نجمًا يزور جمهورًا، بل ابنًا عاد إلى أهله بعد غياب.

وفي نهاية إحدى الندوات، شكرته على حضوره، وقلت له إنني أقدر كثيرًا أن يقتطع من وقته ليأتي إلى باب الشعرية.

ابتسم ابتسامته الهادئة التي لا تزال تسكن ذاكرتي، وقال لي:

"يا أيمن... كلما جئت إلى هنا أشعر أنني عدت إلى بيتي القديم في السيدة زينب... هنا الناس يشبهون أهلي... ورائحة الشوارع تشبه طفولتي".

ثم صمت قليلًا، وأخذ ينظر إلى الوجوه البسيطة التي كانت تحيط به.

يومها لم أشعر أن نور الشريف يتحدث عن حي قديم.

كان يتحدث عن وطن صغير، ظل يسكن قلبه حتى آخر العمر.

■ ■ ولعل تلك الكلمات كانت كافية لأن أفهم سر ذلك الصدق الذي كان يخرج من عينيه قبل أن يخرج من صوته.

◆ لم يكن نور الشريف يزور باب الشعرية من أجل ندوة تنتهي، أو صورة تُلتقط، أو خبر يُنشر في صحيفة. كان يأتي لأنه كان يؤمن بأن الفنان لا يعيش في الأبراج العالية، بل في الشوارع التي خرج منها، وبين الناس الذين منحوه محبتهم دون شروط.

ولذلك، لم يكن غريبًا أن يتحول حضوره إلى لقاء مفتوح، يختفي فيه الحاجز بين النجم وجمهوره.

كان يصغي إلى أسئلة الشباب باهتمام، ويجيب عنها ببساطة، وكأنه يحاور أبناءه، لا جمهورًا جاء ليستمع إلى فنان مشهور.

ولم تكن تلك البساطة صناعة، ولا تواضعًا متكلفًا، بل كانت جزءًا أصيلًا من تكوينه الإنساني.

ولذلك أيضًا، عندما كان يقدم عملًا جديدًا على أحد مسارح الدولة، وخصوصًا المسرح القريب من ميدان عابدين، كان يحرص على دعوتي لحضور ليلة الافتتاح.

وكنت، في الغالب، أعتذر عن الليلة الأولى، وأختار يومًا آخر.

ليس لأنني أقلل من قيمة الافتتاح، بل لأنني كنت أريد أن أحضر ومعي عشرات، وربما مئات، من شباب دائرتي في باب الشعرية.

كنت أرى أن المسرح ليس ترفًا، بل تربية.

وأن الثقافة ليست هواية، بل إحدى أدوات بناء الإنسان.

ولذلك كانت معظم مقاعد المسرح، في تلك الليالي، يمتلئ بها شباب الحي، يشاهدون أعمالًا لم تكن تقدم الضحك الرخيص، بل كانت تقدم فكرة، وتفتح بابًا للسؤال، وتضيف إلى الوعي شيئًا جديدًا.

وكان نور الشريف يسعد بذلك سعادة حقيقية.

فهو، مثلي، كان يؤمن بأن الفن الذي لا يصنع إنسانًا أفضل، يبقى مجرد تسلية تنتهي بانتهاء العرض.

◆ وربما لهذا السبب، لم أتعامل مع نور الشريف يومًا باعتباره ممثلًا ناجحًا فقط.

كنت أراه مشروعًا ثقافيًا كاملًا.

كان يقرأ كما يقرأ المفكرون، ويختلف كما يختلف المثقفون، ويقف أمام النص كما يقف الباحث أمام وثيقته.

لم يكن يقيس العمل بحجم أجره، ولا بعدد مشاهديه، بل بما يتركه في عقل الناس بعد أن تنطفئ شاشة العرض.

ولهذا لم يكن غريبًا أن يبدأ رحلته بـ«كمال» في ثلاثية نجيب محفوظ، ثم يمضي ليكتب، فيلمًا بعد فيلم، فصلًا جديدًا من العلاقة بين الفن والوعي.

في «الكرنك» لم يكن يؤدي دور شاب تعرض للاعتقال والتعذيب فحسب، بل كان يجسد جيلًا كاملًا حلم بوطن أكثر عدلًا، ثم اصطدم بجدران الخوف.

وفي «سواق الأتوبيس» لم يكن مجرد ابن يحاول إنقاذ ورشة أبيه، بل كان صورة الطبقة الوسطى المصرية وهي تقاوم الانكسار بكل ما بقي فيها من كرامة.

وفي «ناجي العلي» لم يكن يؤدي شخصية رسام فلسطيني، بل كان يدافع عن حق الفنان في أن يقول الحقيقة، ولو دفع ثمنها.

أما «عمر بن عبد العزيز»، فكان من أكثر الأعمال قربًا إلى قلبه، لأنه لم يكن يرى في الخليفة العادل صفحة من التاريخ، بل حلمًا إنسانيًا يتجدد كلما اشتاقت الشعوب إلى العدل.

وكان يحدثني، في أكثر من مناسبة، عن إعجابه بهذه الشخصية، وعن شعوره بأن تقديمها مسؤولية أخلاقية قبل أن تكون مسؤولية فنية.

ولذلك خرج المسلسل كما لو كان رسالة، لا مجرد عمل تاريخي.

◆ كان كثيرون ينظرون إلى نور الشريف باعتباره نجمًا كبيرًا.

أما أنا، فكنت أراه شاهدًا على زمن كانت فيه الثقافة شريكًا للفن.

زمن كان الممثل يقرأ قبل أن يمثل.

ويفكر قبل أن يوافق.

ويعتذر عن أعمال كثيرة، لأنه لم يجد فيها ما يليق بعقله أو بجمهوره.

ولذلك، لم يصنعه النجاح، بل صنعتْه اختياراته.

كان يستطيع أن يقدم عشرات الأعمال التجارية التي تحقق له أموالًا أكثر، لكنه كان يعرف أن العمر أقصر من أن يضيعه الفنان في أدوار لا تبقى.

وكان يقول ذلك بأفعاله أكثر مما يقوله بكلامه.

◆ وهناك ذكرى لا تغيب عن قلبي كلما تذكرت نور الشريف.

بعد اعتقالي في أعقاب الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٥، كنت أقضي أيامًا ثقيلة خلف قضبان السجن.

وكانت بعض الصحف المصرية، في ذلك الوقت، لا تزال تتنفس شيئًا من هواء الحرية.

وفي مطلع عام جديد، نشرت إحدى تلك الصحف استطلاعًا مع عدد من كبار الفنانين والمشاهير.

وصلت الصحيفة إلى زنزانتي.

وأخذت أقلب صفحاتها ببطء.

وفجأة توقفت عيناي عند كلمات الفنانتين الكبيرتين نورا و**بوسي.**

كانتا تتحدثان عني.

تعلنان تضامنهما معي.

وترفضان ما تعرضت له.

لا أنكر أن تلك الكلمات، في ذلك المكان، كان لها وقع لا يعرفه إلا من جرب السجن.

في الزنازين تصبح الكلمة الصادقة نافذة يدخل منها الضوء.

ويصبح موقف شجاع، لا يكلف صاحبه إلا ضميره، أكبر من آلاف الخطب.

ولم أستطع، وأنا أقرأ ذلك، إلا أن أتذكر نور الشريف.

تذكرت المدرسة التي ينتمي إليها.

المدرسة التي كانت تؤمن أن الفنان الحقيقي لا يخلع إنسانيته عندما يصعد إلى المسرح، ولا يخلع ضميره عندما تنطفئ الأضواء.

ولذلك، بقيت تلك الكلمات محفورة في قلبي، لا لأنها كانت تضامنًا معي، بل لأنها كانت انتصارًا للقيم التي آمن بها نور الشريف، وعاش مدافعًا عنها، بصمت النبلاء.

◆ لم يكن أكثر ما يلفتني في نور الشريف أنه ممثل عظيم، فقد امتلأت السينما المصرية بعظماء لا يزالون يملؤون الذاكرة. لكن ما كان يدهشني دائمًا أنه نجح في أن يبقى إنسانًا، رغم كل ما تمنحه النجومية لصاحبها من أسباب الابتعاد عن الناس.

كان يعرف أن الأضواء تخفت، وأن التصفيق ينتهي، وأن الستار لا بد أن يُسدل يومًا، ولذلك كان حريصًا على أن يبقى ما بعد الستار أجمل مما كان قبله.

ولهذا، لم يكن غريبًا أن يحبه الجمهور كما يحب قريبًا من العائلة، لا مجرد نجم يشاهده على الشاشة.

كانت هناك مسافة قصيرة جدًا بين نور الشريف الفنان، ونور الشريف الإنسان.

ولعل هذه هي المسافة الأصعب التي يعجز كثيرون عن عبورها.

◆ كلما تأملت أعماله، أدركت أنه لم يكن يختار شخصياته، بل كانت هي التي تختاره.

لم يبحث عن البطل الذي لا يُهزم، ولا عن الرجل الذي يصفق له الجميع.

كان يبحث عن الإنسان. عن ضعفه. وعن حيرته. وعن شجاعته عندما يخاف. وعن كرامته عندما تضيق به الدنيا.

ولهذا، بقيت شخصياته حية. لأنها لم تكن شخصيات ورقية، بل كانت تشبهنا. كان عبد الغفور البرعي، بكل بساطته، واحدًا منا.

وكان إسماعيل في "الكرنك" واحدًا من آلاف الشباب الذين حلموا بوطن أكثر رحمة.

وكان سائق الأتوبيس، وناجي العلي، وعمر بن عبد العزيز، وجوهًا متعددة لفكرة واحدة ظل نور الشريف يطاردها طوال حياته...

أن الإنسان هو القيمة الأعلى.

◆ وربما لهذا السبب، نفتقده اليوم أكثر من أي وقت مضى.

ليس لأن السينما فقدت ممثلًا كبيرًا فحسب.

بل لأن الحياة الثقافية العربية أصبحت أكثر احتياجًا إلى الفنان الذي يقرأ قبل أن يتكلم. ويفكر قبل أن يختار. ويقف إلى جوار الحقيقة، مهما كانت كلفتها. لقد تغيرت أشياء كثيرة. تغيرت صناعة الفن. وتغيرت أدواته. وتغيرت معايير النجومية.

لكن قيمة الفنان المثقف، صاحب الرسالة، لم تتغير. بل ازدادت أهمية. ومن هنا، فإن احتفاءنا بنور الشريف ليس احتفاءً بالماضي. إنه دفاع عن المستقبل.

◆ وأعترف أن أمنية ظلت تراودني طوال الشهور التي استعددنا فيها لهذا الأسبوع.

كنت أتمنى، من أعماق قلبي، لو أن الفنانة مي نور الشريف كانت بيننا في إسطنبول، لتشهد معنا هذه اللحظة.

ليس لأنها ابنة نور الشريف فحسب.

بل لأنها تحمل جزءًا من ذاكرته، ومن صوته، ومن ملامحه، ومن حضوره الذي لم يغب.

كنت أتمنى أن أوجه إليها الدعوة، وأن تقف معنا، ونحن نزيح الستار عن تمثال والدها، لترى بعينيها أن الوفاء لا يعرف حدود الجغرافيا.

وأن رجلًا أحبته القاهرة، يمكن أن يجد، بعد سنوات من رحيله، قلوبًا تنتظره في إسطنبول.

وأرجو أن تبلغها هذه الكلمات، إن وصلت إليها يومًا، أن هذا الاحتفاء لم يكن احتفاءً بفنان، بقدر ما كان احتفاءً بقيمة إنسانية كبيرة، وبمدرسة كاملة في الفن، والثقافة، والالتزام.

◆ وفي الحادي عشر من أغسطس، عندما يُزاح الستار عن تمثال نور الشريف، لن يكون البرونز هو الذي سيقف أمامنا.

الذي سيقف هو ذلك الشاب القادم من السيدة زينب، الذي ظل يحمل حارته في قلبه، أينما ذهب.

سيقف "كمال..."

وسيقف "عبد الغفور البرعي..."

وسيقف "ناجي العلي..."

وسيقف "عمر بن عبد العزيز..."

وستقف معهم ابتسامته الهادئة، التي كانت تقول، دون كلمات، إن الفن يمكن أن يكون أكثر نقاءً، وأكثر شرفًا، وأكثر قربًا من الإنسان.

◆ ومن هنا، أجدد دعوتي إلى كل محبي نور الشريف، وإلى كل من آمن يومًا بأن الفن رسالة، أن يشاركونا «أسبوع الوفاء لنور الشريف»، الذي تنظمه جمعية الشرق الثقافية في إسطنبول، خلال الفترة من ١١ إلى ١٨ أغسطس ٢٠٢٦.

تعالوا نحتفل به كما كان يستحق.

تعالوا نروي أبناءنا لماذا بقي هذا الرجل حيًا في وجداننا.

تعالوا نرسل إلينا صورًا لمقتنياتكم، أو ذكرياتكم معه، أو مقاطع أحببتموها من أعماله، أو أفكارًا تقترحونها لتكون جزءًا من هذا الأسبوع.

وتعالوا، قبل كل شيء، نقرأ جميعًا الفاتحة على روحه الطيبة.

فليس أجمل من الدعاء هديةً لمن عاش عمره يمنح الناس الجمال.

🔶 وأعود إلى ذلك التمثال...

ما زلت أراه واقفًا، قبل أن يُزاح عنه الستار.

صامتًا...

هادئًا...

مطمئنًا...

كأنه يعرف أن صاحبه لم يمت يومًا.

وكأن نور الشريف يبتسم لنا من وراء الزمن، ويقول، كما قال لي ذات يوم في باب الشعرية:

"يا أيمن... كلما جئت إلى هنا أشعر أنني عدت إلى بيتي القديم في السيدة زينب"...

واليوم...

أحسب أن نور الشريف يعود إلى بيته مرة أخرى.

ليس إلى بيت من حجر.

ولا إلى شارع من شوارع القاهرة.

بل إلى بيت أكبر...

إلى قلوب الذين أحبوه.

ولهذا...

لم يكن اختياره في معرض «وجوه لا تغيب» تكريمًا لفنان كبير...

بل كان اعترافًا بأن بعض الوجوه لا يغيب أصحابها أبدًا.

رحم الله الصديق العزيز...

ورحم الفنان الكبير...

ورحم الإنسان الذي جعل من الفن رسالة، ومن المحبة وطنًا، ومن البقاء في القلوب أجمل أوسمته.



..وجوه لا تغيب.. عزيز المصري...

✳أشك أنك تعرف أغرب رجل في تاريخ مصر✳

◆ هل تعرف عزيز المصري؟

إذا كانت إجابتك: نعم...

فاسمح لي أن أشك!

ربما ليس لأنك لم تقرأ عنه، بل لأنني كلما قرأت عن هذا الرجل، ازددت يقينًا أنه من أولئك الذين لا تكفيهم مقالة، ولا يستوعبهم كتاب، ولا يمكن أن يُختصروا في سيرة، أو يُحاصروا داخل لقب، أو يُعرّفوا بمنصب تولوه أو رفضوه.

◆ لعل أغرب ما في الفريق عبد العزيز زكريا علي، الذي عرف باسم عزيز المصري، أنك كلما اقتربت من سيرته، شعرت أنه يبتعد عن كل تعريف جاهز، وكأن حياته كُتبت لتبقى سؤالًا مفتوحًا ملغزا، أكثر منها إجابة مكتملة.

◆ أول مرة سمعت اسم هذا الرجل كانت على لسان الراحل فؤاد سراج الدين باشا.

ثم صادفته بعد سنوات بين سطور كتب ومقالات للأستاذ الراحل مصطفى أمين.

وظل الاسم يراودني طويلًا.

لكن كلما هممت بالكتابة عنه، شعرت أن الوقت لم يحن بعد.

لم يكن خوفي من الرجل... بل من ظلم الرجل.

فبعض الشخصيات إذا كتبت عنها قبل أن تنضج في داخلك، ظلمتها أكثر مما أنصفتها.

◆ واليوم، ومع مرور ستين عامًا على رحيله، اكتشفت أنني لا أحتاج إلى كتابة مقال عنه...

بل إلى رحلة أبحث فيها عنه. فهذا الرجل ما زال، بعد ستة عقود، يربك كل من يحاول أن يقرأه، فما بالك بمن يحاول أن يكتبه.

كلما ظننت أنك أمسكت بطرف الحكاية، اكتشفت أن الحكاية أكبر، وأن الرجل أكبر من كل ما رُوي عنه.

◆ كثيرًا ما تمنيت، وأنا أتنقل بين محطات حياته، لو أن الصديق العزيز الفنان الكبير محمد صبحي يجسد هذه الشخصية يومًا في عمل درامي كبير علي غرار مسلسل الثعلب.

فلا أعرف، في تقديري، ممثلًا مصريًا يستطيع أن يحمل هذا الكم المدهش من التحولات، والطبقات الإنسانية، والتناقضات الجميلة، مثلما يستطيع الفنان محمد صبحي.

لأن عزيز المصري ليس شخصية واحدة. بل عشرات الشخصيات التي اجتمعت، على نحو يكاد يكون مستحيلًا، في إنسان واحد.

◆ بعض الرجال يمكن أن تشرحهم في صفحة.

وبعضهم يحتاج إلى كتاب. أما عزيز المصري... فكلما اقتربت منه، ابتعدت أكثر عنه. وكلما ظننت أنك عرفته، اكتشفت أنك لم تبدأ بعد. ليس لأنه رجل كثير الأسرار. بل لأنه رجل متعدد الأدوار. وكأن القدر قرر أن يجمع في إنسان واحد ما يوزعه عادة على جيش من الرجال.

◆ كان عبقريًا في العسكرية... ثم وجدناه يدير كلية الشرطة، فينجح فيها كما نجح في قيادة الجيوش. وكان ثائرًا...

ثم رأيناه يهرب من الحكم، هروب الزاهد من الدنيا. وكان معلمًا ومربيًا للأمير الشاب ولي عهد الملك فؤاد فاروق في سنوات تكوينه الأولى... ثم أصبح الأب الروحي للضباط الذين أطاحوا بالملك نفسه.

وكان صانعًا للثورات... ثم رفض أن يقود الثورة التي صنع رجالها. وكان يستطيع أن يحكم... فاختار أن يصنع الذين حكموا. أي رجل هذا؟

وأي حياة تتسع لكل هذه المفارقات، ثم تظل متماسكة إلى هذا الحد؟

◆ وُلد عام ١٨٨٠، يتيم الأب، فعرف قسوة الحياة قبل أن يعرف مجدها. لكن اليتم لم يترك فيه انكسارًا. ترك فيه صلابة.

وحملته تلك الصلابة إلى إسطنبول، حيث التحق بالكلية الحربية، ثم بكلية أركان الحرب، ليصبح واحدًا من ألمع ضباط الدولة العثمانية. ولم يكن مجرد طالب عسكري متفوق.

كان، منذ شبابه، يصنع شبكة من العلاقات مع رجال سيغيرون وجه المنطقة فيما بعد، وفي مقدمتهم مصطفى كمال أتاتورك، ونوري السعيد، وجعفر العسكري. وكأن القدر كان يهيئه، منذ خطواته الأولى، ليكون حاضرًا في كل منعطف كبير من منعطفات الشرق.

◆ والغريب أن هذا الرجل لم يعرف يومًا حدودًا ضيقة للوطن. كان مصريًا حتى النخاع. لكنه كان يرى أن كرامة مصر تبدأ من كرامة الأمة كلها. ولهذا حمل سلاحه إلى الجبل الأسود. ثم إلى ليبيا،

يقاتل الاحتلال الإيطالي. ثم إلى الحجاز، ليشارك في بناء أول جيش عربي حديث، ويتولى رئاسة أركانه.

ثم إلى اليمن، حيث لم يحمل السيف فقط، بل حمل غصن الزيتون أيضًا. وحين استطاع أن يحسم الصراع بالقوة، اختار أن يحسمه بالحكمة. كان يؤمن أن القائد الذي ينتصر على شعبه... مهزوم. وأن أعظم الانتصارات هي تلك التي يعود بعدها الجميع إلى بيوتهم أحياء.

◆ وحين تتأمل سيرته، تشعر أنك أمام رجل لا يعيش في وطن واحد. بل في أوطان متعددة. يحارب هنا. ويبني هناك. ويؤسس جيشًا في مكان. ويصالح بين قبيلتين في مكان آخر. ثم يعود إلى مصر، وكأن شيئًا لم يكن. لا يسأل عن مكافأة. ولا ينتظر وسامًا. ولا يكتب مذكراته ليتباهى بما فعل. كان يؤدي ما يراه واجبًا... ويمضي.

◆ وربما لهذا السبب لم يفهمه كثيرون. فالناس اعتادت أن ترى العسكري عسكريًا فقط. والسياسي سياسيًا فقط. والمعلم معلمًا فقط. أما عزيز المصري، فقد كان كل ذلك معًا. كان يقاتل كجندي. ويفكر كفيلسوف. ويربي كمعلم. ويزهد كناسك. ويخطط كرجل دولة. ولهذا بدا، حتى لمعاصريه، رجلًا يستعصي على التصنيف.

◆ دفع أثمانًا باهظة لأنه كان يرفض ما يتمناه غيره. عُرض عليه أن يكون ملكًا على اليمن... فرفض. وعُرضت عليه أدوار كبرى في ليبيا... فرفض. وعُرض عليه أن يتولى شركات نفط العراق، براتب خيالي ومنزل فاخر في لندن... فرفض. وكان يمكن لكل واحد من هذه العروض أن يغير حياته كلها. لكنه كان يرى أن المنصب الذي يأتي على حساب الفكرة... فخ. وكان يرى أن السلطة التي تُمنح من أعلى... دين لا وطن.

◆ ولم يكن غريبًا بعد ذلك أن يُحكم عليه بالإعدام في إسطنبول عام ١٩١٤. فالرجال الذين يرفضون أن يُشتروا، لا بد أن يدفعوا الثمن. لكن حملة عربية واسعة أجبرت الدولة العثمانية على التراجع عن الحكم. وكأن التاريخ نفسه كان يقول: لم يحن موعد رحيل هذا الرجل بعد. فما زالت أمامه أدوار كثيرة... وما زال عليه أن يصنع رجالًا سيغيرون وجه مصر.

◆ لم يكن الاستعمار البريطاني، ولا الدولة العثمانية، ولا غيرهما، ينظر إلى عزيز المصري باعتباره خصمًا عاديًا. كانوا يرون فيه رجلًا يصعب شراؤه، ويستحيل توقعه. فهو يقبل أن يدفع حياته ثمنًا لفكرة، لكنه لا يقبل أن يقبض ثمنًا لموقف. ولهذا كان يربك الجميع؛ أصدقاءه قبل خصومه.

◆ عُرض عليه أن يكون ملكًا على اليمن... فرفض.

لم يكن الرفض موقفًا سياسيًا عابرًا، بل كان جزءًا من تكوينه. كان يرى أن اليمن ليست هدية تُمنح، ولا عرشًا يُوزع، وإنما وطن له أهله، وهم أحق به من أي قائد أو فاتح أو بطل. ثم جاءه عرض آخر، لا يقل إغراءً. أن يتولى إدارة شركات نفط العراق، براتب ضخم، ومنزل فاخر في لندن، ومكانة لا يحلم بها كثيرون. فرفض مرة أخرى. كان يدرك أن بعض العروض تبدو في ظاهرها مكافآت... لكنها، في حقيقتها، قيود من ذهب. وكان يهرب من القيود، مهما تلونت.

◆ وربما كانت هذه أول مرة أكتشف فيها أن الزهد ليس صفة المتصوفة وحدهم. قد يكون الزهد قرارًا سياسيًا أيضًا. أن ترى السلطة أمامك... ولا تمد يدك إليها. وأن ترى المال يقترب منك... فتبتعد عنه. وأن ترى المجد الشخصي يناديك... فتختار أن يبقى المجد للوطن.

ولهذا، كلما قرأت سيرته، شعرت أنني لا أقرأ سيرة ضابط. بل أقرأ سيرة ناسك يرتدي بدلة عسكرية.

◆ لم يكن عزيز المصري يفرّق بين مصر وغيرها من الأوطان العربية. كان يحمل في قلبه وطنًا أكبر من الحدود. ولذلك، قاتل في ليبيا كأنه يدافع عن القاهرة. وبنى جيش الحجاز كأنه يبني جيش مصر. وأوقف نزيف الدم في اليمن كأنه يوقفه في إحدى قرى الصعيد. ثم عاد إلى مصر، لا ليطلب جزاءً، بل ليبدأ معركة جديدة. وكأن حياته كلها كانت سلسلة من البدايات، لا تعرف النهاية.

◆ وحين عاد إلى وطنه، لم يعد مجرد ضابط كبير. أصبح أول مصري يتولى منصب المفتش العام للجيش. ثم أُسندت إليه إدارة كلية الشرطة. وقد تبدو هذه نقلة غريبة. لكن الغريب الحقيقي أن الرجل نجح في كل موقع كما لو أنه خُلق له. كان يرى أن المؤسسة لا يصنعها المبنى. بل الإنسان. ولهذا، سواء كان يقود جيشًا، أو يدير كلية، أو يربي ضباطًا، انت رسالته واحدة: اصنع الإنسان... وسيصنع هو كل شيء بعد ذلك.

◆ ومن أكثر مفارقات حياته إدهاشًا، أنه كان معلمًا للأمير الشاب الملك فاروق في سنوات تكوينه الأولى. علّمه الانضباط. والشرف العسكري. ومعنى المسؤولية. ثم شاء القدر أن يصبح، بعد سنوات، الأب الروحي لأولئك الضباط الذين أنهوا حكم فاروق نفسه. أي مفارقة هذه؟ رجل يربي الملك... ثم يربي الثورة. ويقف، في الحالتين، في المكان نفسه. مكان المعلم. لا مكان الحاكم.

◆ وحين بدأت النواة الأولى لتنظيم الضباط الأحرار تتشكل، لم يكن عزيز المصري عضوًا فيها. كان أكبر منها جميعًا.

كان المرجعية التي يعودون إليها. وكان البيت الذي يدخلونه طلبًا للنصيحة، لا طلبًا للأوامر. كان أنور السادات حلقة الوصل بينهم وبينه. وكان جمال عبد الناصر ينظر إليه بعين التلميذ، لا بعين المنافس. وكان الجميع يرون فيه الرجل الذي يستطيع أن يقود الثورة. لكنه هو... رفض.

◆ ربما تكون هذه هي أغرب مفارقة في حياة عزيز المصري كلها. الرجل الذي صنع رجال الثورة... رفض أن يقود الثورة. والرجل الذي كان يستطيع أن يصبح رئيسًا... اختار أن يبقى معلمًا. كان يرى أن صناعة الرجال أهم من حكم الرجال. وأن القائد الحقيقي هو الذي يستطيع أن يختفي، بعد أن يطمئن إلى أن تلاميذه أصبحوا قادرين على السير وحدهم. ولهذا اعتذر عن قيادة الحركة، ورأى أن يتقدم اللواء محمد نجيب الصفوف. أما هو... فاختار المكان الذي أحبه طوال حياته. خلف الستار. يصنع الرجال... ولا يصنع المجد لنفسه.

◆ وبعد نجاح الثورة، لم يطلب منصبًا. ولم يطالب بمكافأة. ولم يذكّر أحدًا بأنه كان الأب الروحي لكثير من رجالها. ل أوصى بألا يُحاكم الملك فاروق، وأن يكتفى بتنازله عن العرش.

كان يرى أن الدولة تُبنى بالعدل، لا بالانتقام. وأن الثورة التي تبدأ بالثأر... قد تنتهي إلى ثأر جديد. ولهذا ظل، حتى وهو يختلف مع بعض مسارات الثورة لاحقًا، يحتفظ بمكانته في ضمير الذين عرفوه. لأنه لم يكن رجل سلطة... بل رجل مبدأ

◆ كلما أوغلت في قراءة سيرة عزيز المصري، ازددت اقتناعًا بأن التاريخ أخطأ حين قدمه لنا بوصفه قائدًا عسكريًا فقط. كان أكبر من ذلك. وأوسع من ذلك. وأغرب من ذلك. كان رجلًا يربك كل

محاولة لوضعه داخل إطار واحد. فهو لا يشبه الضباط وحدهم. ولا يشبه السياسيين. ولا يشبه الملوك. ولا يشبه الثوار. بل يشبه نفسه فقط. ولهذا ظل استثناءً حتى في ذاكرة الذين عاشوا معه.

◆ أحيانًا يخدعنا التاريخ. فيجعلنا نظن أن أعظم الرجال هم الذين جلسوا على العروش. لكن عزيز المصري لم يجلس على عرش، رغم أنه عُرض عليه أكثر من عرش. ولم يحكم دولة، رغم أنه كان قادرًا على حكم أكثر من دولة. ولم يترك وراءه حزبًا يحمل اسمه. ولا تيارًا يقدس شخصه. ترك شيئًا أبقى من ذلك كله... ترك رجالًا. حين ينجح الإنسان في صناعة الرجال، يصبح أكبر من كل المناصب التي رفضها.

◆ كان يستطيع أن يختار الحياة الأسهل. لكنه ظل يختار الطريق الأصعب. وكان يستطيع أن يورث أبناءه ثروة. لكنه آثر أن يورث وطنه نخبة من الرجال. ولعل هذه هي العبقرية التي لم ينتبه إليها كثيرون. لقد كان عزيز المصري يزرع البشر، لا المشاريع. ويصنع الضمائر، لا المؤسسات. وكان يؤمن أن المؤسسة قد تنهار، إذا غاب الإنسان. أما الإنسان الصالح... فهو قادر دائمًا على أن يبني مؤسسة جديدة.

◆ لم يكن معلمًا للملك فاروق وحده. ولا للضباط الأحرار وحدهم. كان معلمًا لجيل كامل. علمهم أن العسكرية شرف.

وأن الوطنية لا تعرف حدودًا مرسومة على الخرائط. وأن القائد الحقيقي لا يقاس بعدد الأوسمة التي يحملها على صدره، بل بعدد الرجال الذين يحملون شيئًا من روحه بعد رحيله. وربما لهذا السبب، خرج من مدرسته ملك... وخرج منها ثوار على نفس الملك...!

واختلف الجميع بعد ذلك، وبقي هو وحده خارج الخصومة. لأنه كان الأب... والآباء لا ينافسون أبناءهم.

◆ كلما تأملت حياته، أدركت أن أغرب ما فيها ليس كثرة ما فعل. بل كثرة ما رفض. رفض الحكم. ورفض المال. ورفض المجد الشخصي. ورفض أن يتحول إلى صنم سياسي. ورفض أن يساوم على ما آمن به. وفي كل مرة كان يرفض، كان يدفع الثمن راضيًا. وكأن الرجل كان يعرف، منذ شبابه، أن بعض الأثمان لا يدفعها إلا الكبار.

◆ عاش طويلًا. ورأى الإمبراطورية العثمانية تسقط. ورأى الاحتلال. ورأى الملوك.ى ورأى الثورات. ورأى جمهوريات تولد. ورأى رجالًا كان هو معلمهم يتقدمون الصفوف. لكنه بقي، حتى آخر يوم من حياته، وفيًا للرجل الذي بدأ رحلته قبل عشرات السنين. لم يتبدل. ولم يتلون. ولم يبدل جلده كما يفعل كثير من السياسيين كان ثابتًا... حتى بدا الثبات نفسه أحد أسمائه.

◆ وحين رحل في الخامس عشر من يونيو عام ١٩٦٥، لم ترحل معه رتبة عسكرية. ولا صفحة من صفحات الجيش.

بل رحلت مدرسة كاملة في الوطنية. ورجل آمن أن الحرية لا تُورث. بل تُعلَّم. وأن الأوطان لا تبنيها الخطب. بل الرجال.

◆ واليوم... وبعد ستين عامًا على رحيله... أسأل نفسي السؤال نفسه الذي بدأت به هذا المقال: هل نعرف حقًا عزيز المصري؟

وأخشى أن تكون الإجابة... لا.

لأن الرجل أكبر من أن يعرف في سطر. وأكبر من أن يختصر في كتاب. وأكبر من أن يحتمله لقب. لقد كان أغرب رجل في تاريخ

مصر الحديث. ليس لأنه عاش حياة غريبة... بل لأنه عاش عشرات الحيوات في عمر واحد.

◆ رحمه الله عليك يا عزيز المصري... يا رجلًا لم يفرق يومًا بين مصر والعرب. ويا قائدًا انتصر بالحكمة كما انتصر بالسلاح. ويا معلمًا خرج من تحت يديه ملك، ثم خرج من تحت يديه ثوار. ويا ناسكًا مر من جوار السلطة مرات كثيرة...

ولم تغره. ويا رجلًا أثبت أن أعظم القادة ليسوا أولئك الذين يحكمون الناس... بل أولئك الذين يعلمون الناس كيف يحكمون أنفسهم.

◆ أما أنا... فكلما قرأت سيرة هذا الرجل، ازددت اقتناعًا بأن التاريخ لا يظلم أحدًا كما يظلم الذين يسبقون عصرهم.

ولعل عزيز المصري كان واحدًا من هؤلاء. سبق عصره...

فبقي، بعد ستين عامًا من رحيله، أكثر حداثة من كثيرين ما زالوا بيننا.

◆ ولهذا...

لا أراه مجرد قائد عسكري. ولا مجرد ثائر. ولا مجرد معلم. بل أراه... الاستثناء الذي يؤكد أن الرجال العظام لا تصنعهم السلطة... وإنما تصنعهم المبادئ.

ولهذا... يبقى الفريق عزيز المصري...

وجهًا لا يغيب.



...وجوه لا تغيب.. مصطفى كامل...

✳ الرجل الذي حمل مصر في حقيبة سفر ✳

◆ اليوم، الرابع عشر من أغسطس، تمر الذكرى الثانية والخمسون بعد المائة لميلاد رجل تبدو سيرته، كلما عدت إليها، وكأنها احتجاج على أعمارنا الطويلة قليلة الأثر. ولد مصطفى كامل في مثل هذا اليوم عام ١٨٧٤، ولم تمنحه الحياة حتى أربعة وثلاثين عاما كاملة، لكنه حشر في سنواته الثلاث والثلاثين ما يكفي أعمار رجال كثيرين. درس، وكتب، وخطب، وسافر، وحشد، وأسس صحفا وحزبا، ودافع عن التعليم والصناعة والاستقلال، وحمل قضية مصر إلى أوروبا، ثم رحل بينما كان الوطن الذي أحب لا يزال محتلا، وكأنه أشعل المصباح ومضى، وترك للأجيال أن تكمل الطريق.

◆ وبالأمس، في مركز الشرق الثقافي في إسطنبول، احتفلنا بذكرى ميلاده الثانية والخمسين بعد المائة. وكانت أمامنا هذه الصور التي أرفقها مع هذه السطور، وإلى جواري تمثال مصطفى كامل، وحولنا وجوه مصر التي لم تغب، رغم أن أصحابها غابوا منذ عشرات السنين. للحظة شعرت أن الصورة ليست لرجل يقف إلى جوار تمثال، بل لغريب يقف إلى جوار غريب قديم، وبينهما وطن واحد لم يستطع البعد أن ينتزعه من أي منهما.

◆ فلإسطنبول مكان خاص في حكاية مصطفى كامل، وليست مجرد مدينة عابرة في سيرته. كان الرجل ابن زمن كانت فيه مصر تحت الاحتلال البريطاني، بينما بقيت علاقتها بالدولة العثمانية جزءا

من معادلة سياسية شديدة التعقيد. وكان مصطفى كامل يرى في إسطنبول إحدى ساحات الحركة من أجل القضية المصرية، ويقيم الصلات مع دوائرها السياسية، ويبحث فيها، كما بحث في باريس ولندن، عن كل نافذة يستطيع أن يطل منها صوت مصر على العالم.

◆ وربما لهذا كان للوقوف بالأمس إلى جوار تمثاله في إسطنبول مذاق آخر. ثمة شيء شديد الخصوصية في أن تستعيد، وأنت بعيد عن مصر، رجلا عرف قبلك بأكثر من قرن أن خدمة الوطن لا تتوقف عند حدوده. لم تكن غربته كغربتنا، ولا ظروف عصره كظروف عصرنا، ومن الظلم أن نحمل التاريخ ما لا يحتمل من المقارنات. لكن ثمة خيطا إنسانيا لا أستطيع تجاهله: أن يبتعد الجسد عن مصر، بينما تقترب مصر أكثر من الروح.

◆ أعرف من سنوات الغربة أن المسافة بين الإنسان ووطنه لا تقاس بالكيلومترات. أحيانا تبتعد عنه فتراه أوضح. تغادر شوارعه فتسكنك تفاصيلها أكثر. تحرم من ترابه، فيتحول التراب من مكان إلى معنى. وربما كان مصطفى كامل واحدا من أوائل رموز الوطنية المصرية الحديثة الذين جعلوا الخارج امتدادا لمعركة الداخل، لا بديلا عنه، وحملوا قضية مصر معهم أينما ذهبوا.

◆ كان مصطفى كامل، بهذا المعنى، رجل وطن يحمل وطنه في حقيبة سفر. ذهب إلى باريس، وخاطب صحافتها ونخبها. وذهب إلى لندن، وحاول أن ينقل قضية مصر إلى قلب الدولة التي تحتلها. وكانت إسطنبول حاضرة في حساباته وصلاته وتحركاته. لم يكن مسافرا يبحث عن حياة أكثر راحة، بل كان يبدل المدن ولا يبدل القضية، ويغير عنوان إقامته دون أن يتغير عنوان قلبه.

◆ وهذه الصور التي التقطناها بالأمس أمام تمثاله في مركز الشرق الثقافي ليست عندي صور مناسبة عابرة. خلفنا وحولنا عشرات الوجوه من تاريخ مصر، وأمامنا شاب مات منذ أكثر من قرن ولم يبلغ الرابعة والثلاثين. وبين زمنه وزمننا تبدلت الدول، وسقطت إمبراطوريات، وتغيرت الخرائط، لكن السؤال الذي حمله معه إلى الخارج ما زال مطروحا: كيف يستطيع المصري، حين تضيق به بلاده أو يبتعد عنها، أن يجعل المسافة طاقة للعمل، لا مبررا للقطيعة؟

◆ كلما قرأت عن مصطفى كامل، لا يدهشني أنه مات شابا بقدر ما يدهشني أنه استطاع أن يعيش كل هذه الحيوات في عمر واحد. نحن نقيس العمر بالسنوات، بينما التاريخ له حساب آخر. هناك من يعيش ثمانين عاما ولا يترك وراءه إلا شهادة وفاة، وهناك من يعبر الدنيا كالشهاب، سريعا ومضيئا، فإذا غاب بقي الضوء بعده طويلا. وكان مصطفى كامل من هؤلاء.

◆ ولد في بيت مصري كان الأب فيه ضابطا بالجيش، وتعلم في المدرسة الخديوية، ومنذ صباه ظهرت فيه الموهبة التي ستصبح سلاحه الأخطر: الكلمة. لم يكن يتعامل مع الخطابة باعتبارها زينة للسياسة، بل باعتبارها فعل مقاومة. كان يعرف أن الاحتلال يبدأ حين يقبل العقل وجوده، ولذلك كانت معركته الأولى تحرير العقل المصري من فكرة أن الإنجليز قدر لا يمكن تغييره.

◆ دخل مدرسة الحقوق، وتعلم الفرنسية، وانفتح على أوروبا، وسافر إلى فرنسا، وحصل على شهادة الحقوق من جامعة تولوز عام ١٨٩٤. لكنه عاد ليكتشف أن قضيته الحقيقية ليست في ساحات المحاكم، بل في محاكمة الاحتلال نفسه أمام ضمير العالم. لذلك لم تطل علاقته بالمحاماة. كان هناك موكل واحد استولى عليه كله اسمه

مصر، وقضية واحدة قرر أن يتفرغ لها اسمها الاستقلال، ومحكمة أوسع من كل المحاكم اسمها الرأي العام.

◆ فهم مصطفى كامل مبكرا أن الاستقلال السياسي دون استقلال اقتصادي يظل استقلالا منقوصا. دعا إلى الإنتاج والصناعة الوطنية والاعتماد على النفس، كما جعل التعليم وجها آخر للتحرر، وشارك في الدعوة والاكتتاب لإنشاء جامعة مصرية. كان يدرك أن الاحتلال لا يقاوم بالهتاف وحده، وأن الجامعة قد تكون في معركة الاستقلال أخطر من الثكنة، فالجيش يحمي حدود الوطن، لكن الجامعة تحمي عقله.

◆ ثم أسس جريدة «اللواء» عام ١٩٠٠، ليحول الصحافة من ناقل للأخبار إلى مصنع للوعي. كان يعرف أن الاستعمار لا يحتل الأرض فقط، بل يحاول احتلال الرواية أيضا. ومن يملك رواية الحدث، يستطيع أحيانا أن يملك ذاكرة الناس عنه. لذلك قاتل مصطفى كامل من أجل مصر بالحرف، كما قاتل آخرون بالسلاح.

◆ وفي عام ١٨٩٨ أصدر كتابه «المسألة الشرقية». وكانت نظرته إلى الدولة العثمانية ابنة عصرها وموازين القوى فيه. يجوز لنا اليوم أن نختلف مع بعض اجتهاداته، لكن من الظلم أن نحاكم رجال القرن التاسع عشر بخرائط القرن الحادي والعشرين. كان يبحث، وسط إمبراطوريات تتصارع فوق جسد المنطقة، عن مساحة تحمي استقلال مصر وتدعم مقاومتها للاحتلال البريطاني.

◆ ثم جاءت دنشواي عام ١٩٠٦، فجاء معها الامتحان الأكبر. كان مريضا في أوروبا، لكن مرضه الشخصي بدا صغيرا أمام جرح مصر. تحرك بين باريس ولندن، وكتب وخطب واتصل بالصحافة والسياسيين، حتى تجاوز صوت القرية المصرية الصغيرة حدودها،

ووصل إلى العواصم الأوروبية. لم يكتف بأن يقول للمصريين إنهم مظلومون، بل أراد أن يجعل العالم يرى الظلم.

◆ وهنا تبدو إحدى أهم ملامح عبقريته السياسية. نقل المعركة من أرض القوة التي يمتلكها المحتل إلى أرض الأخلاق التي يخسر عليها. لم يسقط اللورد كرومر بمقال واحد، كما تبسط بعض الروايات الحكاية، لكن الحملة التي فجرتها دنشواي وما صاحبها من ضغط وانتقاد أسهما في المناخ الذي انتهى برحيله عن مصر في العام التالي.

◆ وربما هنا أفهم مصطفى كامل أكثر من أي محطة أخرى. فالعمل من الخارج ليس وطنية أعلى من الداخل، ولا أقل منها بالضرورة. قيمته فيما يضيفه إلى قضية الوطن. ومصطفى كامل لم يستخدم الخارج ليبتعد عن مصر، بل استخدم المسافة كي يقرب قضية مصر من العالم. وهذه، بالنسبة لمن ذاق الغربة، ليست مجرد معلومة في كتاب تاريخ... بل معنى يلمس القلب.

وفي عام ١٩٠٧، بينما كان المرض يأكل جسده، أسس الحزب الوطني، ووضع في برنامجه الاستقلال والدستور والرقابة البرلمانية والاهتمام بالتعليم والزراعة والصناعة والتجارة. لم يكن يريد فقط أن يخرج الإنجليز من مصر، بل كان يسأل السؤال الأصعب: أي مصر نريد بعد خروجهم؟

◆ وهذه، في تقديري، إحدى أهم وصاياه السياسية. فأسهل أنواع الوطنية أن تكره المحتل، وأصعبها أن تعرف ماذا ستفعل بالوطن بعد رحيله. لم يكن مصطفى كامل يرى الاستقلال بابا للخروج فقط، بل بابا للدخول إلى دولة حديثة، دستورية، متعلمة، منتجة، تعرف أن

الحرية السياسية والاستقلال الاقتصادي والتعليم أجزاء من مشروع واحد.

◆ كانت علاقته بالخديو عباس حلمي الثاني تمر بمراحل من التقارب والافتراق، كما يحدث في العلاقات السياسية التي تفرضها ظروف شديدة التعقيد. كان يتحرك بين خديو يريد توسيع هامش استقلاله، واحتلال يريد تثبيت هيمنته، ودولة عثمانية تتراجع، وأوروبا لا تسمع أصوات الشعوب الضعيفة إلا إذا أجاد أصحابها طرق أبوابها.

◆ وربما لهذا ظل مصطفى كامل مسافرا بقضية مصر. لم يكن السفر عنده خروجا من الوطن، بل طريقة أخرى للعودة إليه. يتحدث عن مصر في الصالونات، ويكتب عنها في الصحف، ويخاطب السياسيين، ويشرح قضية بلد كامل بلغة يفهمها العالم. كان من أوائل من أدركوا أن الوطني قد يخدم بلاده من خارج حدودها، وأن الغربة لا تصبح نفيا إلا حين تنجح المسافة في إخراج الوطن من القلب.

◆ ارتبط اسمه بعبارات بقيت بعده، وفي مقدمتها «لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس»، وبذلك الاعتزاز النادر بالمصرية الذي اختصرته العبارة المنسوبة إليه: «لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا». ومهما اختلف الباحثون حول دقة بعض العبارات المنقولة عنه، فإن معناها ظل متسقا مع الرجل الذي عاش حياته كلها وكأنه لا يعرف لنفسه هوية أسبق من مصر.

◆ والغريب أن هذا الشاب الذي كان يتحدث كأن أمامه مئة سنة ليغير العالم، كان جسده يعرف أن الوقت قصير. اشتد عليه المرض، لكنه ظل يخطب ويكتب ويؤسس ويقاوم، كأن بينه وبين الموت سباقا،

وكأنه يريد أن يضع أكبر عدد ممكن من الأحجار في أساس البيت قبل أن تسقط المطرقة من يده.

◆ وفي العاشر من فبراير عام ١٩٠٨ انتهى السباق. رحل مصطفى كامل ولم يكمل عامه الرابع والثلاثين، وحمل محمد فريد الراية من بعده. وهكذا تفعل الأفكار الحقيقية: يموت صاحبها، فتبحث لنفسها عن جسد جديد كي تواصل السير.

◆ لم ير مصطفى كامل مصر مستقلة. ولم يشهد ثورة ١٩١٩. ولم يسمع الملايين تهتف بعده للوطن. لكنه ساهم في إعداد التربة التي نبتت فيها الحركة الوطنية التالية. مات قبل أن يرى معظم ما حلم به، لكنه عاش طويلا بما يكفي ليجعل الآخرين يحلمون به أيضا. وهذه وظيفة الزعماء الحقيقيين؛ ليس مطلوبا منهم دائما أن يصلوا إلى نهاية الطريق، بل أن يجعلوا الطريق مرئيا لمن يأتي بعدهم.

◆ واليوم، بعد احتفال الأمس في إسطنبول، أعود إلى الصور مرة أخرى. أقف إلى جوار تمثاله، وأضع يدي على كتفه، وأتساءل: من منا كان أبعد عن مصر؟ هو حين كان يحمل قضيتها بين إسطنبول وباريس ولندن قبل أكثر من قرن، أم نحن الذين حملتنا الأيام إلى خارجها وبقيت هي أقرب الأشياء إلينا؟

◆ لا أعرف الإجابة. لكنني أعرف أن الوطن ليس فقط المكان الذي نقيم فيه، بل المكان الذي يقيم فينا. وأن الغربة قد تأخذ منك البيت والشارع ورائحة المدينة، لكنها لا تستطيع، إلا بإرادتك، أن تأخذ منك القضية.

◆ واليوم، في ذكرى ميلاده، لا أريد أن أضع الزهور على تمثال مصطفى كامل، ولا أن أحوله إلى صورة صفراء في كتاب التاريخ. أريد أن أسأله، وأسأل نفسي معه: ماذا بقي من مشروع الاستقلال

الذي كان يحلم به؟ هل يكفي أن يخرج الجندي الأجنبي من أرضك إذا بقي اقتصادك مرهونا بغيرك؟ وهل تكون الدولة مستقلة إذا كان قرارها أضعف من ديونها؟ وهل يكون المواطن حرا إذا كان الخوف أقوى من صوته؟

◆ سلام على مصطفى كامل في ذكرى ميلاده. سلام على شاب لم يمهله العمر حتى يشيب، فشابت من بعده أجيال وهي تردد كلماته. وسلام على واحد من أوائل رجال الوطنية المصرية الذين حملوا قضية بلادهم إلى الخارج، فعلمونا أن البعد عن الوطن قد يكون أحيانا طريقا آخر لخدمته، وأن المنفى الحقيقي ليس أن تعيش خارج بلادك... بل أن تعيش خارج قضيتها.

◆ بعض الناس يعيشون طويلا ثم يرحلون. وبعضهم يرحلون مبكرا، ثم يبدأ عمرهم الحقيقي بعد الرحيل. ومصطفى كامل من هؤلاء. مات جسده عام ١٩٠٨، لكن السؤال الذي عاش من أجله بقي حيا: متى تصبح مصر حرة بإرادتها، قوية بعلمها، مستقلة بقرارها، تأكل مما تزرع وتصنع ما تحتاج إليه؟

◆ ولهذا، بعد مائة واثنين وخمسين عاما على ميلاده، لا أراه شابا مات في الثالثة والثلاثين. أراه فكرة رفضت أن تغيب، وصوتا كلما ابتعد زمنه اقترب.

ولهذا...

يبقى مصطفى كامل...

وجهًا لا يغيب.

[خاتمة]

ربما لا تُنقذ الكتب الأوطان،
لكنها تمنعها من النسيان.
كل وجه في هذا الكتاب
هو سؤال لم يُجَب عنه بعد.
وكل حكاية
هي اختبار أخلاقي لتاريخنا.
حين ننتهي من هذه الصفحات
لن نكون قد عرفنا كل شيء،
لكننا سنعرف ما يكفي
لنفهم لماذا تتكرر المأساة،
ولماذا يُقصى الأفضلون،
ولماذا يُكافأ الصمت أكثر من الصدق.
هذا الكتاب لا يُغلق حكاية،
بل يفتح نافذة.
ولا يكتب سطرًا أخيرًا،
بل يترك فراغًا
ليملأه القادمون.
وإذا كان في هذه الصفحات

شيء واحد أتمنى أن يبقى،

فهو هذا اليقين البسيط:

أن الوجوه التي لا تغيب

هي التي دفعت الثمن...

لا التي قبضته.



الفهرس

(المقدمة) ٥

✵ وجوه لا تغيب – أحمد الطيب.. حارس الاعتدال والامام الـ ٥٠ للأزهر ✵ ٧

✵ وجوه لا تغيب– عبد الرحمن بك فهمي ✵ ١٢

وجوه لا تغيب – البابا شنودة الثالث..... ١٨

✵ وجوه لا تغيب – أحمد رشدي ٢٤

وجوه لا تغيب.. – علوي حافظ..... ٣٠

وجوه نسائية لا تغيب – سميرة موسى ٣٥

وجوه "قانونية" لا تغيب – أحمد كمال أبو المجد..... ٣٨

وجوه لا تغيب – زكي بدر ٤٥

✵ وجوه لا تغيب – فهمي عمر ✵ ٥١

وجوه لا تغيب – نجمة إبراهيم ٥٤

✵ وجوه نسائية لا تغيب: يسرية لوزة ✵ ٥٧

وجوه لا تغيب – الملك سعود ٦٤

وجوه لا تغيب: التوأمان. ١١٢ عامًا على ميلاد العملاقين..... ٦٩

وجوه لا تغيب – إبراهيم شكري ٧٦

وجوه لا تغيب – سرّ خليل أغا ٨٠

وجوه لا تغيب – فؤاد محيي الدين..... ٨٦

وجوه لا تغيب – مصطفى كامل ١..... ٨٩
وجوه لا تغيب – سعد الدين الشاذلي ٩٥
وجوه لا تغيب – ناجي الغطريفي..... ١٠٠
وجوه لا تغيب . يحيى باشا إبراهيم. سقطت الحكومة. ورئيسها. ونجح الصندوق..... ١٠٥
وجوه لا تغيب – أحمد حسنين باشا ١١١
☀ وجوه لا تغيب – يحيى حسين عبد الهادي ☀ ١١٤
وجوه لا تغيب عبد الحليم محمود الإمام الذي لم أره وهو يزورني يوميًا ١١٧
وجوه لا تغيب الأستاذ عادل عيد في ذكراه العشرين... زميل مدرسة الأخلاق..... ١٢١
وجوه لا تغيب في الذكرى٩٧ لمولده ... من قتل جمال حمدان ؟.... ١٢٦
وجوه نسائية لا تغيب فاطمة أحمد إبراهيم... العدل يُمتحن..... ١٣٣
وجوه مرّوا ولم يمرّوا.. عنتر "الشاويش" الذي قتلته..... ١٣٧
وجوه لا تغيب – زكي نجيب محمود العقل الذي أنزل الفلسفة إلى الشارع ١٤٠
وجوه لا تغيب . سيف الإسلام القذافي. رجل عاش بوجهين ١٤٤
☀ وجوه لا تغيب–منى مكرم عبيد ☀ ١٤٨
وجوه لا تغيب ... عمار الشريعي ١٥٦
وجوه لا تغيب ... الدكتور الشافعي بشير ١٦٢

وجوه نسائية لا تغيب ... جميلة بوحيرد... الجسد وطنًا..... ١٦٦
✸ وجوه لا تغيب: عباس الطرابيلي.. كنتُ مساعدًا له وأدخلته قفص المحكمة ✸ ١٧٠
وجوه نسائية لا تغيب. لطيفة الزيات... الأدب والمقاومة..... ١٧٥
وجوه لا تغيب ... الحب الأول – حب الطفولة والمراهقة ١٧٩
وجوه لا تغيب... يوسف شاهين: ١٠٠ سنة..... ١٨٤
وجوه لا تغيب ... يحيى غانم ١٨٩
وجوه لا تغيب ... ملك حفني ناصف... الحكمة والبادية..... ١٩٤
وجوه لا تغيب ... السيد البدوي ١. ✸ السياسة على مهلٍ... لا تفقد إنسانيتها ✸ ١٩٨
وجوه لا تغيب ... فؤاد سراج الدين ٢٠٤
وجوه لا تغيب ... محمد فريد ٢٠٩
وجوه لا تغيب .. مصطفى كامل٢ ..... ٢١٣
وجوه لا تغيب – سعد زغلول ٢١٨
✸ وجوه نسائية لا تغيب... روز اليوسف... قرن من الإزعاج ✸ ٢٢٢
✸ وجوه لا تغيب – لاظوغلي... أول رئيس مخابرات في مصر ✸ ٢٢٦
✸ وجوه لا تغيب... يوسف الجندي... رئيسُ جمهوريةٍ في زمنِ الملكيّة ✸ ٢٣١
✸ وجوه لا تغيب... هل كان آخر الفراعنة اسمه محمد علي؟ ✸ ٢٣٥

وجوه لا تغيب... دُرية شفيق... حين اصطدم الحلم بالجدار ٢٤٠
وجوه لا تغيب ... قلبي اربع غرف ٢٤٤
وجوه لا تغيب ... السادات الكلمة التي قتلته قبل المنصّة ٢٥٣
وجوه لا تغيب... ** الخديوي إسماعيل** (١) ٢٥٧
✳ وجوه لا تغيب — الخديوي إسماعيل ✳ (2) ٢٦٥
✳ ✳ وجوه لا تغيب... الخديوي إسماعيل (٣) ٢٦٩
كامل صدقي... الرجل الذي احترمه هتلر ولا يعرفه سكان الشارع الذي
يحمل اسمه ✳ ٢٧٧
وجوه نسائية لا تغيب.. صفية زغلول... قلب حمل وطن ٢٨٢
وجوه لا تغيب... رجال في بلاط استقلال القضاء (1) ٢٨٦
وجوه لا تغيب... رجال في بلاط استقلال القضاء (2) ٢٩٠
وجوه لا تغيب... رجال في بلاط استقلال القضاء (3) ٢٩٤
وجوه لا تغيب... ✳ صبري أبو علم... زعيم استقلال القضاء الذي لم
يجلس على منصاته ✳ ٢٩٩
وجوه نسائية لا تغيب... منيرة ثابت... رجل أم امرأة؟ ٣٠٤
✳ وجوه لا تغيب — أبو الخير نجيب ٣٠٨
وجوه لا تغيب... ✳ المغفّلة ✳ أنطون تشيخوف ٣٢٠
وجوه لا تغيب: ✳ حكاية أم علي إبراهيم ✳ ٣٢٤
رسالة لوزير الثقافة ✳ جائزة ٢٠٢٦ باسم مرقص حنا الذي حمى مقبرة
توت من التهريب ✳ ٣٢٥

وجوه لا تغيب... 77 ✵ عامًا على رحيل النقراشي باشا ✵ ٣٢٨
لماذا اختار هذه السيدة لحكم مصر؟ ٣٣٣
وجوه لا تغيب... ✵ حزب محمد صبحي ✵ ٣٣٦
وجوه لا تغيب... ✵ عبد الجليل مصطفى... شيخُ السياسيين المصريين
في عامه الثاني والتسعين ✵ ٣٤٠
■ وجوه لا تغيب ■ ... ✵ في ذكراه السابعة والثلاثين: عشتُ في
زمن ممتاز نصار ✵ ٣٤٣
وجوه لا تغيب... السيد البدوي٢: حكيم الوفد وظلّ العائلة الوسطية.٣٤٦
وجوه لا تغيب... أمين الرافعي... حين صار القلمُ وطنًا ٣٤٨
وجوه لا تغيب أم كلثوم ومحمد صبحي وعبلة كامل: رموز تحت مطرقة
المحاكم الرقمية ٣٥١
وجوه لا تغيب... حين يتقدّم العقل ويقاوم الحلم الانكسار ٣٥٣
وجوه لا تغيب...رحيل فنارة الإسكندرية ومنارة التنوير في القاهرة ..٣٥٦
✵ تمثال حمدي قنديل يصفع المدّعين ✵ ٣٥٩
◆ أم نجيب ساويرس ◆ ٣٦٧
✶وجوه لا تغيب... فتحي سرور الرجل الذي وقّع على منحتي ومحنتي
ولم استطع يومًا ان اكرهه✶ ٣٧١
✵ في ذكري محمد نوح... .....٣٧٨
وجوه لا تغيب – حكاية أيمن نوح ٣٨١

وجوه لا تغيب... إبراهيم المويلحي 120 عامًا على وفاة مؤسس جريدة «منبر الشرق» المصرية في الآستانة و١٢ عامًا على انطلاق تلفزيون «الشرق» من إسطنبول ٣٨٤

وجوه لا تغيب – سمير صبري أشهر مظلوم صادفتُه في حياتي ٣٩٢

وجوه لا تغيب – أنيس منصور الأديب الذي كان يضحك من الدنيا... ويخافها ٣٩٧

وجوه لا تغيب – بكري الجميل الأصغر سنًا... الأكبر في أشياء لا تُشترى ٤٠٢

وجوه لا تغيب – أحمد حمدي الرجل الذي عبر قبل أن تعبر الجيوش ٤٠٥

وجوه لا تغيب – سمير عبد الباقي رحيل جيل ٤٠٩

وجوه لا تغيب علاء الأسواني يستقبل السبعين (١–٣) ... ٤١٤

وجوه لا تغيب علاء الأسواني (٢–٣) مصر كانت تصعد إليه كل خميس ٤١٨

علاء الأسواني... يوم مولده وجوه لا تغيب – علاء الأسواني (٣–٣) سبعون عامًا...وما زالت مصر تمشي في صوته. ٤٢٣

وجوه لا تغيب محمود أبو الفتح ٤٣٢

وجوه لا تغيب... الحب والحكم متصوّف فضّل امرأه على حكم مصر ٤٣٨

وجوه لا تغيب... سيد جلال ✸العربجي الذي جلستُ على مقعده بعد أن ألغى "بحيلة" البغاء في مصر ٤٤٢

✸وجوه لا تغيب.. الأزهري الليبرالي ✸ ■سعد زغلول... في عامه الـ١٧٠ ..قاد ثورة من المنفى ■ ٤٤٨

وجوه لا تغيب ... الأمير الراحل حمد بن خليفة آل ثاني ■رجلٌ جعل من الرؤية وطنًا ■ ٤٥٣

✸وجوه لا تغيب...عبد الله النديم زعيم المنفيين .. الاستاذ، مات قبل أن تصل أسرته ✸ ! ٤٥٦

..وجوه لا تغيب .. إبراهيم شكري ... ✸ابن الباشا الشهيد الحي، الذي شهد على زواجي ✸ ٤٦٥

وجوه لا تغيب مصطفى كامل مراد رجل كانت عبقريته في بساطته. ٤٧٤

وجوه لا تغيب... نور الشريف ... ✸أسبوع وفاء، وتمثال لنور، في قلب إسطنبول ✸ ٤٨١

..وجوه لا تغيب.. عزيز المصري... ✸أشك أنك تعرف أغرب رجل في تاريخ مصر ✸ ٤٩٤

...وجوه لا تغيب.. مصطفى كامل ... ✸الرجل الذي حمل مصر في حقيبة سفر ✸ ٥٠٤

[خاتمة] ٥١٢

الفهرس ٥١٥



د. أيمن نور

يصدر مع خريف 2026، الجزء الثاني من كتاب "وجوه لا تغيب" بينما نضيء شمعة الذكرى الـ130 لرحيل عبد الله النديم، فغربته توجعنا، كأن المنفى لم ينته.و في ذات الخريف نحتفي بتسعين عاما يبلغها عمرو موسى، في رحاب الدبلوماسية والسياسة

في صفحات هذا الكتاب الخمسمائة، أشعل مئتي شمعه لشخصيات ؛ عايشت بعضها، واقتربت من بعضها، ففتحت لي نوافذ الذاكرة، وأطلت منها وجوه ظن الزمن أنه أسدل عليها ستائره، فإذا بها أشد حضورا من الغياب

وأنا أقترب من الـ 63 خريفا ،اعترف اني كنت محظوظا لأني عشت سنوات في كنف فؤاد سراج الدين، و تقاطعت خطاي مع قامات مصرية كخالد محيي الدين، وإبراهيم شكري، وعادل عيد، وممتاز نصار، وعوض المر، و المنصف المرزوقي، و وجوه كثيرة تلاقت واختلفت، واقتربت وابتعدت.مفكرون وفنانون وصحفيون ومبدعون وسياسيون،عمالقة اختبأ بعضهم في أجساد أقزام لم يكونوا وجوها عبرت حياتي، بل مصابيح تركها القدر على جانبي الطريق